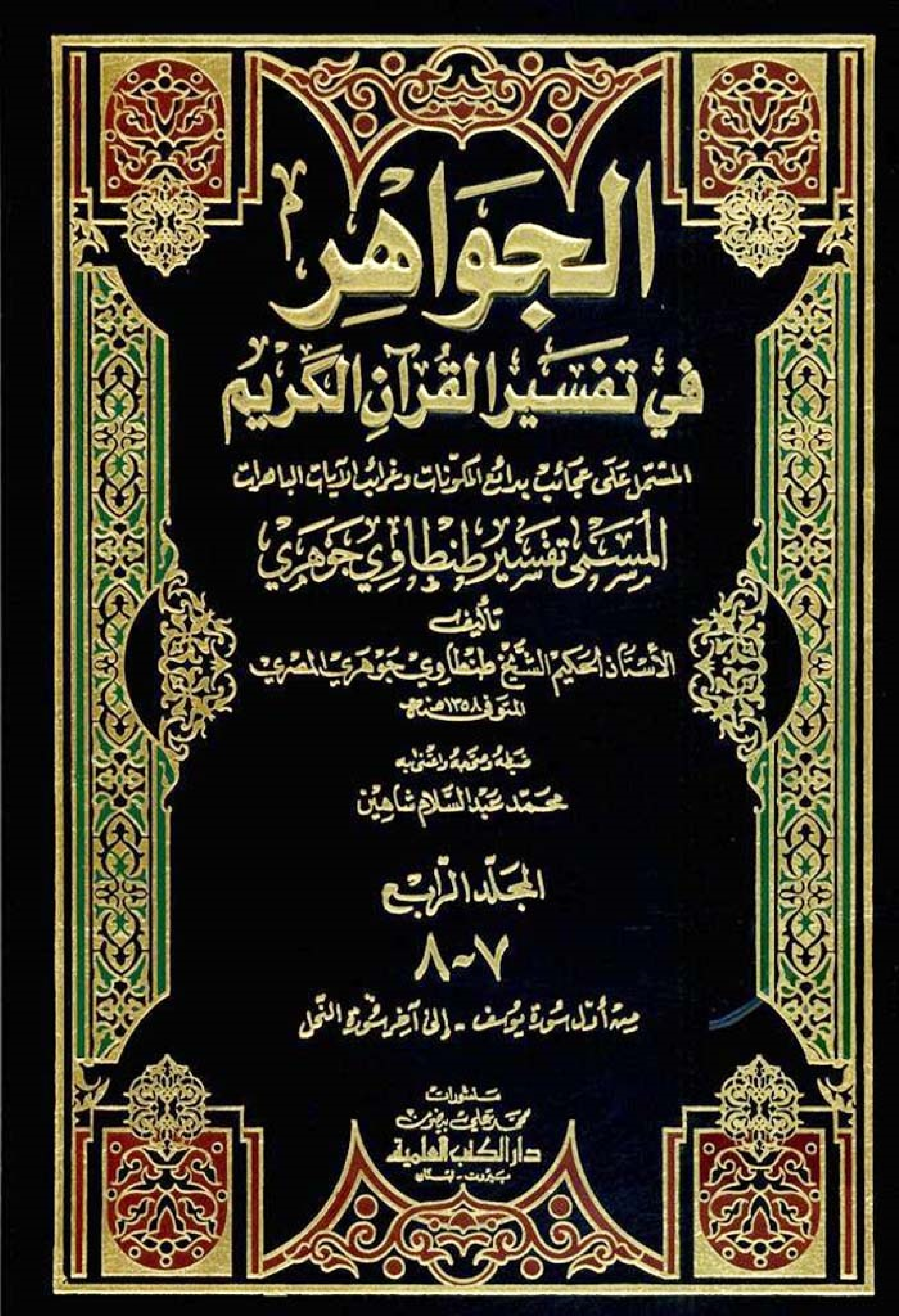

الجواهر
في تفسير القرآن الكريم
المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات
المسمى تفسير طنطاوي جوهري
تأليف
الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري
المتوفى ١٣٥٨هـ
ضبطه وصححه واعتنى به
محمد عبد السلام شاهين
المجلد الرابع
٧-٨
من أول سورة يوسف - إلى آخر سورة النحل
منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان



المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري

المتوفى ١٣٥٨هـ

ضبطه وصححه واعتنى به

محمد عبد السلام شاهين

٧-٨

المحتوى:

من أول سورة يوسف - إلى آخر سورة النحل

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ ﴾[ق: ٣٧]

سورة يوسف

هي مكية بالإجماع، وهي مائة وإحدى عشرة آية

وقبل الشروع في تفسيرها أقول:

إني أحمد الله عزَّ وجلَّ أن حقق رجائي وأبقاني في هذه الدنيا حتى وصلت إلى هذه السورة، فلقد كتبت في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴾[البقرة: ٩٢] ما نصه:

اعلم أني كنت كتبت هذا التفسير كما قدمت في أول الكتاب وأنا مدرس بدار العلوم في نحو سنة ١٩١١م. ومن عجيب صنع الله عزَّ وجلَّ أني في تلك السنوات كتبت في مجلة الملاجئ العباسية التي كانت تنشر هذا التفسير مقالاً مطولاً في إجمال تفسير سورة يوسف، قلت فيها: إن الفراعنة كانوا أغزر علماً من المصريين الحاليين وحكامهم، ومن علماء أوروبا الذين يحكم رجالهم بلادنا، فشرحت من رؤيا الملك مسألة سبع البقرات السمان وسبع السنبلات واهتمامه بالزراعة، وعطفت على مسألة الطيور، ونبهت الحكومة والأمة، فصدر الأمر عقبها سنة ١٩١٢ميلادية بمنع صيد الطيور النافعة، ومن أهمها «أبو قردان»، وهاأنا ذا أكتب تمام التفسير الآن سنة ١٩٢٢ للطبع، وقد رأيت بعيني رأسي أن الحكومة قد ربت «أبا قردان» وانتشر في البلاد المصرية انتشاراً كما كان سابقاً، فأحمد الله عزَّ وجلَّ على هذه النعمة، وعلى حفظ الطيور ببركة الآيات القرآنية وآثارها في النفوس، وحرام على من عنده نصيحة أن يمسكها جبناً عن الجمهور، فإنها لا بد نافعة عاجلاً أو آجلاً، وإن شاء الله إذا طال الأجل ووصلت إلى سورة يوسف أثبت تلك المقالات. اهـ.

أقول وهاأنا ذا الآن في يوم الاثنين الثالث عشر من شهر أكتوبر سنة ١٩٢٤، وأحمد الله إذ وصلت إلى هذه السورة، وأن خير سعادة لي في هذه الحياة إتمام هذا التفسير، فإذا تم على المنوال الذي أريده كان هذا خير ما أتمناه في هذه الحياة، والآن أبتدئ بذكر ذلك الملخص لنطلع عليه، ثم أتبعه بما كتبته الحكومة المصرية لمنع الفلاحين من صيد «أبي قردان»، ثم أتبعه بتفسير السورة تفسيراً تفصيلياً بعد الإجمال في هذا المقال.

كيف تخدم مصر إذا فهمت هذه السورة

هذا الوجود أسباب ومسببات ونتائج ومقدمات، سواء في ذلك العناصر والمركبات والعلوم والديانات، ومنها القرآن فلقد أنزل للاعتبار وقرئ للادّكار، وأكثر المسلمين لا يقرؤونه إلاّ وهم غافلون، ولا يسمعونه إلاّ وهم لاهون لا يعلمون إلاّ ظاهراً من الأمر والنهي والوعد والوعيد والعظة والمثل، وهم عن عجائب القصص معرضون.

في القرآن قصص تسرد وقائع الأنبياء وفضائل الأولياء وعجائب أعمالهم وغرائب أحوالهم، لنقيس المشاهد المنظور على الغائب المستور، والحاضر الظاهر على الغائب الفائت.

غفل الناس عن ذلك كله أيّما غفلة، وناموا على وساد الراحة ومهاد الغفلة، حتى أصبح المسلمون في أنحاء المعمورة يمتازون بأنهم مسوقون في المدنية والعمران، جاهلون بالمنافع المادية والمعنوية، خاضعون للظالمين، مقلدون، والمقلد جاهل والجاهل غافل والغافلون هم الهالكون.

ما عذب المسلمين ولا أزاحهم عن مكانهم السامي الذي خوّله الله لهم من الشرف العميم والفضل العظيم، إلاّ القصاصون المخرّفون وأدعياء العلم، وما أكثرهم وهم ضالون مضلون بما يفترونه على الله عزّ وجلّ باسم الدين، والدين بريء مما يقولون، فعلى قادة الأمة الإسلامية أن يدخلوا البيت من بابه، ويدعوا المسلمين للعلم بطريق الدين، كما أخرجوا منه بطريق الدين، فبالدين «ادعاء» أخرجوا، وبالدين «تحقيقاً» يدخلون.

ولما كان القصص مهجور المعاني عند الناس، وكان أحسنها قصة سيدنا يوسف عليه السلام، أردت أن أذكر نبذة صالحة هنا فوق ما أوضحته في كتاب «النظام والإسلام»، وما أودعته فيه من عجائب التنزيل وبدائع القرآن، فأقول:

إن لهذه السورة لمزية خاصة بالمصريين، فلذلك يقرؤونها في مآتمهم وأفراحهم، ولن تجلس مجلس قرآن إلاّ وتسمع القارئ يترنّم بآياتها ويترنح بكلماتها، والناس له سامعون وبصوته طربون إن كان من المحسنين، ألا إنّما يطرب الإنسان لما يهواه ويفرح بما يوافق هواه.

فيا عجباً! كيف يفرحون بها ويطربون لها، ألكلماتها البديعة أم لمعانيها العجيبة؟ إن فيها لحكماً وعبراً وعلوماً، لو كشف عنها الغطاء وأدرك المصريون سرّها، لكانوا أرقى العالمين في الدنيا والدين، إن فيها لسياسة المنزل وسياسة الشخص وسياسة المدينة، سياسات ثلاث انتظمتها سورة «يوسف»؛ ففيها نصف علم الحكمة، وهي الحكمة العملية الداعية لسعادة الأشخاص ولسعادة المنازل ولسعادة المدن، فهل لهذا طرب السامعون؟ كلا، وإنّما يطربون لجواهر الألفاظ ولبصيص من المعاني العالية، ولو أنهم أدركوا ما سنوضحه من العجائب اليوسفية، ما أغمضوا الجفن، ولنأت جنوبهم عن مضاجع الكسل، ولربئوا بأنفسهم أن ترعى مع الهمل، وما استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، لسوف يعلمون المعنى فيما نقول، ولينظرنّ الله ماذا يفعلون.

ألا إنّما مثلهم اليوم في ترنمهم بها وإقبالهم عليها وغرامهم بها كمثل أولئك الذين يدعون أنهم يعلمون الغيب بالخط في الرمل، وما لهم بالغيب من علم، وإنّما هي الفطرة الإنسانية والحكمة الربانية أكبتهم عليه وإن كانوا لا يشعرون. كأن الحكمة الإلهية تقول لأولئك الجاهلين: يا أيها الناس، إن في

الرمل لعلوماً ستدركونها وأسراراً ستعلمونها، ثم صنع منه المنظار المعظم والمقرّب فكشف أدقّ الدقائق في الحيوان والنبات، وظهرت للعين بعض النجوم الثوابت وسائر السيارات. فهكذا في سورة «يوسف» الإشارة لعلوم الأخلاق ولنظام المدن، فأغرم الناس بها وأكثرهم لا يعلمون من مقاصدها إلاّ ما يعلم الدجالون من عجائب الرمل.

ومثل الناس أيضاً في غرامهم بها كمثل ذلك الذي يدّعي أنه يعلم علم جابر، ويستخرج الذهب والفضة بالكيمياء، وما له بذلك من علم إن يتبع إلاّ الظن، ولكن الله أودع ذلك في قلوب طائفة من عباده توارثوه أجيالاً حتى أتاح الله للناس من فهم الرمز وقام بالأمر، وشرحوا علم الكيمياء ونقلوه من الظلمة إلى النور، ورفع المدنية ورقى الزراعة والصناعة والتجارة، ودخل في سائر أبواب الحياة، فأصبحت الأرض كلها تنبت ما هو أنفع من الذهب وسائر المعادن، كل هذا بالكيمياء، فهكذا فلتكن هذه القصة الشريفة التي يسمعها الناس وأكثرهم لا يعلمون إلاّ حديث الحب والود، فأشبهوا ذلك الرمّال ومدّعي الكيمياء وهما لا يعلمان، كما أنهما لغيرهما مقدمتان.

لعلك تقول: ما لنا نراك تضرب الأمثال بالكيميائي والرمّال والمغربي الدجال، فاشرع الآن في المعنى المقصود وأرنا ذلك السر المصون حتى نقف على تلك العجائب، ونفهم سر تلك الغرائب. أقول: خذ مني القول سؤالاً وجواباً على ما ألفته فيما أسمعناك، وأصغ لما أقول سمعاً. سألني سائل يقول:

س ـ ما بالك تعاود التذكير بسورة «يوسف» وقد سبق القول والتفسير منك لها في كتاب «النظام والإسلام»، وما هذا التكرار والدور في نفس المدار؟.

ج ـ لكل مقام مقال، فهناك تعميم وهنا تخصيص، وذلك مبادئ وهذه نهايات، وتلك إشارات وهذه عبارات، وتلك مقدمات وهذه نتائج، ولا خير في علم بلا نتائج، ولا في شجر بلا ثمر، ولا في قراءة بلا فكرة، ولا في فكرة بلا عبرة، ولا في عبرة بلا عمل، ولا في عمل بلا إخلاص.

س ـ ما أنواع العبرة في هذه السورة، وما علاقتها بالصبغة الوطنية المصرية، وما فائدتها للمجتمع الإسلامي عموماً والمصري خصوصاً؟.

ج ـ في هذه السورة خمس عبر:

(١) رؤيا سيدنا يوسف عليه السلام.

(٢) وأذى إخوته.

(٣) قصته في بيت العزيز.

(٤) قضيته في السجن.

(٥) تنظيمه للخزائن المصرية.

الفصل الأول: الرؤيا

إذا كان الحب والنوى ينبتان نجماً وشجراً فالنتيجة حبّ ونوى، وما كان فكراً أولاً فهو عمل آخراً. هكذا كان أول حياته عليه السلام أن رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين، وعليها أقيمت حياته وتنوّعت أطوارها، وبالسجود له والإعظام ختم تاريخ حياته ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّاۖ﴾[يوسف: ١٠٠]، فأول الفكر آخر العمل.

إن للنفوس الإنسانية خصائص تبدو علاماتها لذوي الفراسة، ويختلج فيها من إبان الصبا ما خصص له استعدادها، ويبرز في أفعالها وأقوالها وتمثيلها وتقليدها وأحلامها، وإن امتاز عليه السلام بالنبوة والرسالة والفضيلة، وصوّرت له الأجسام الأرضية بصورة الأجرام السماوية والمركبات العنصرية المظلمة ذوات الأنفس الشريفة بالكواكب المضيئة، صوراً بديعة وآيات عجيبة، إلاّ أن لكل رؤيا تناسبه، وأحلاماً توافقه، وطالما دلت الرؤيا ذوي الفراسة على أخلاق الرائين، وأفادت السامعين أنباء عقول القائلين، فلكل امرئ مناهج يسلكها ومطالب يرصدها ومقاصد يؤمها، لذلك رأى النبي النجوم وجمالها والسجود والخضوع، ورأى الملك المصري سبع بقرات سمان تأكلهن سبع بقرات مهزولات ضعيفات، وسبع سنبلات خضراً التفت عليهن سبع سنبلات يابسات، فامتصت ماءهن وتركتهنّ يابسات، ولم يبد على البقرات الآكلات سمات السمان، ولا على السنبلات اليابسات آيات النضرة ومظاهر الحياة، رؤيا النبي جمال النجوم وسجود الساجدين، ورؤيا الملك سنبلات وبقرات، ذلك عجب عجاب.

بعث الأنبياء للعبادة والتفكير في الجمال، وخلق الملوك لنظام الممالك وحفظ البلاد والعباد من الخراب والدمار، فالسجود من جنس العبادة وإن لم يكن في هذا من عبادة، ولكنه تكريم، والنجوم جمال، والجمال السماوي والبهاء الكوني مصدر التفكير والتعليم، إلاّ أن إشراق الكواكب والشمس والقمر في نفس سيدنا الصدّيق في صباه لعجباً عجيباً، ودلالة على عفته عند الحرمات، وتعليماً لطبقات المصريين وحفظ المال أن يضيع، والناس أن يموتوا، كل ذلك مقتضى النفوس الجميلة التي ذرأها الله سحاباً ماطراً وشمساً تضيء وقمراً ذا سناء.

ألا إن الشمس لتشرق والناس لا يشكرونها، والقمر ليطلع وإن كفر به الناس، والله خالق ورازق وإن كفر نعمته العالمون، هكذا الصديق النبي تجلى للناس وتجلت له تلك الصور الجميلة، فبرز بعد ذلك منه للناس آثار واضحة من العفة والصبر والعطف على المصريين وتعليمهم وتنظيم ثروتهم وثمرات نيلهم، ولأهله وعشيرته صفح جميل وبر وصلة وإن كانوا له حاسدين، فكان الإحسان لنفسه سجية والجميل بقلبه طريقة، فأحسن للمسيئين من أهله وللمصريين، فكلاهما آذاه وكلاهما نال الخير منه بعد أذاه، فهذا أوله وهذا منتهاه.

فأما الملوك فما أحراهم أن يعكفوا على نظام الجمهور وحفظ الثغور والسهر على المصالح العامة، وأهم المطالب الاجتماعية في الأمم المتمدينة أربع: الإمارة، والزراعة، والتجارة، والصناعة.

ولما كانت الزراعة من أهمها وضعاً وأعمها نفعاً وأشرفها صنعاً لا سيما عند المصريين الذين هم بها مغرمون، وعلى ترتيبها ونظامها يحرصون، روّع قلب الملك المصري بيابس سنبلاتها وعجاف بقراتها، مما دل على اهتمام الملك بالرعية وحبه للأمة المصرية، وليست تتصور النفس في المنام إلاّ ما اهتمت به في الغالب أجلّ اهتمام.

تصوّر الحقول المصرية وتأمّل وتعجّب

يظن الفلاح أنه زرع وحصد، ولا يعلم أن هناك له شركاء في الزرع، هي أجلّ منه نفعاً وأحسن صنعاً.

س ـ ما شركاء الإنسان في زرع الأرض المصرية؟.

ج ـ شركاؤه الطيور الليلية والطيور النهارية؛ كالبوم والغربان وأبي قردان وبعض العصافير والخطاطيف.

يزرع الإنسان الأرض ويحرثها بالأنعام من البقر والجاموس، ويعينه غيرهما من الماشية ويدرأ الأذى عن الحب والفاكهة الطيور من الغربان والبوم وأبي قردان وغيرها.

الإنسان والدواب زارعان، والطيور دافعات للأذى طاردات للأعداء آكلات الدود مبيدات الفيران. الإنسان والأنعام تتعاون على الحرث والسقي وتبذر وتسمد الأرض بأبوالها وأرواثها وغائطها وأجسامها، فهي مصانع للسماد حارثات للحقول آكلات الحشائش والحبوب، والطيور مبيدات المهلكات قاتلات الحشرات، فجلّ الله، جلَّ الله، خلق فسوّى وقدّر فهدى، نظم الحقول كما نظم الممالك، وأنزل الإنسان والأنعام للزرع منزلة علماء الطبيعيات والرياضيات في الأمم البالية، وأنزل الطيور ـ من أبي قردان والغراب والبوم ـ منزلة الشرطة في المدن والقرى والقضاة الدارئين للحوادث الداخلية وأعوانهم المحامين ورجال الحرب الدافعين عن البلاد والضاربين بالقنا والسيف والمدفع والبارود.

لا ريب أن القضاة والشرطة وقوّاد الجنود مدافعون، وعلماء الطبيعيات وغيرهما للخير جالبون وما المدافع إلاَّ لحفظ المنافع، فالمقصود على الحقيقة هم العلماء الجالبون للمنافع، وما عداهم فإنَّما هم حصون لهم، إليها يلجؤون، وفي أكنافها يمرحون، فثبت أن الأنعام والإنسان أهم للزرع من البوم والغربان وأبي قردان، وإن كان الفلاح لا يفلح بغير ما يصفّ أو يرفّ بالجناح، ولا فلاح لأمته بلا جنود ولا قوّاد، ولا حياة لها إلاَّ بالعلوم الطبيعية، كما لا حقل في البلاد المصرية إلاَّ بالطيور الدورية وغير الدورية والفلاح الزارع والدواب الحارثة الساقية.

ومن العجب أن ترى الأمة المصرية اليوم تجهل فوائد الطيور وتعقل منفعة القضاء والمحاماة، مع أنهما صنوان وأخوان يتساوقان وخلان لا يفترقان، ترك المصري العلوم الطبيعية وعقلها الفلاح وهو يعمل بما ورث عن أبويه، جهل المصري فوائد الطير وهو المدافع عن الزرع، وعقل المحاماة والقضاء.

جهل عظيم وموت تام وطامة كبرى، جهل المصري العصري عظيم، عقل التحلية في المزارع وجعل تخليتها، وأدرك التخلية في نظام المدينة وجهل التحلية.

ماذا فعل قدماء المصريين، بماذا أفادوا البلاد في هذا المقام؟

أوصى علماؤهم الفلاحين أن اعبدوا العجول ولا تهينوها، فإنَّما هي حارثة لأرضكم ذات نفع عظيم، ثم أمروهم أن اعبدوا الهرة، وقدّسوا أبا قردان، ولم يذكروا لهم الأسباب، وإنَّما قالوا هذا سرّ من ربّ الأرباب، لأن الجاهل لا يعقل ما يعرفه المتعلمون، وما يعقلها إلاَّ العالمون. هذا منشأ عبادة البقر وبعض الطيور، حيلة دبرها الرؤساء ولكن أكثر الناس ما كانوا يعلمون، لذلك كثر ذكر العجول في قصص بني إسرائيل، فترى السامري ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾[طه: ٨٨]، وترى بني إسرائيل لما أرادوا إظهار القتيل أمروا بذبح بقرة، ومما هنا أيضاً كون الأرض على قرن الثور إلاَّ لتعجب من هذا، كيف كانت رؤيا الملك في سبع بقرات، وكيف كانت رؤياه تجمع المقصود وهو الزرع وجالب

النفع وأهمه البقر، ولم يرد في الرؤيا الطيور، فإنهن كالمحامين والقضاة، والأمم إذا خلت من الأخلاق الشاذة والنفوس الناقصة لم تحتج إلى القضاء، كما أن الحقل إذا خلا فرضاً من الحشرات لم يحتج إلى الطير الصافات ولا غير الصافات.

الإنسان والأنعام والطيور جمهورية منظمة على كل قسطه من العمل، ولكل حظه من ثمرات الأرض ومنافع الحرث.

لقد فقدت الأمة المصرية أول قائد لجنودها وأكبر عامل لنصرها، وركناً من أساطين حربها، ذلك هو «أبو قردان» فلقد اتصل نسله منذ آلاف من السنين وهو يحمي الذمار ويقود الجند المسلحة الهوائية، فيهجم على الهوام والدود فيبيدها، فيسلم الحرث والنسل، عرف المصري القديم جميله فآواه وأيده بل عبده، وجهل المصري الجديد فضله فقتله وأباده. هل هذا ثمرة التعليم والمدنية؟ هل هذا هو الذي إليه وصلنا من الحكمة؟ أيجمل في شرع المدنية وناموس العمران أن يعيش «أبو قردان» أكثر من عشرة آلاف سنة، ثم لا يبيد إلاّ في أوائل القرن المتمم عشرين، لتندب مصر حظها لتبك علومها، ولأبك على بلادي، هل نقبت حكومة البلاد وبحثت عن سبب ضياع هذه النعمة وزوال هذه الجنود المجندة، أيحسن يا أبناء البلاد أن نجهل موارد رزقنا وعناصر حياتنا، تباً للجهل وبعداً لنا إذا عشنا غافلين، ويا ليت شعري، أأنا في يقظة أم في منام؟ ولعل ما أقول اليوم أضغاث أحلام، وربما أجبت بقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ [يوسف: ٤٤].

حكاية وأمنية

انطلقت إلى شاطئ النيل الغربي لأتفرّج على الأشجار والأزهار، فصادفت مسجداً يسمى «مسجد الجزيرة» شمال قنطرة قصر النيل، فدخلت للصلاة، ورأيت النمل تغدو وتروح فوق الحصيرات المنسوجات، وهي طالعات هابطات فوق الأعواد وبينهن، لا ينثنين لذعر ولا يخفن من غدر، وكأنّما أرجل المصلين فوق الأعواد جبال، وكأن الأعواد تلال والفجوات المتخللات أغوار ووهاد بالنسبة للنملات، فأطلت النظر إليها والتأمل في حركاتها وسكناتها، والتعجب من شجاعتها وإقدامها، حتى إن راحة يدي والذراع والأنامل اللاتي تخيل لها جبالاً شامخات وشعاباً واسعات لم تثبط عزيمتها ولم تكسر من همتها ولم تهلع لها قلوبها. ولو أنا تصورنا جبلاً يمشي على الأرض وكاد يصادم الإنسان ليطحنه لهلع إذا رآه، ومات قبل أن يراه. فشاهدني إذ ذاك فلاح معمم بعمامة سوداء فكنت موضع تعجبه واستغرابه، وكان النمل موضع نظري ومسرح فكري، فكان النمل لي عجباً، وكنت عند الفلاح لهواً ولعباً، فرفعت طرفي إليه وقلت: يا أيها الإنسان، أتدري لم نظرت في النملات؟ قال: لا. قلت: إنهن لأشجع من أكثر الناس قلباً، لا يثنيهن الرهبوت عن مطلب الرغبوت، ولا تهولهن الحوادث المزعجات والكوارث الداهمات، إنهنّ لأربط منك جأشاً، وأشجع من الفلاح والشيخ والباشا، لا تنثني عن الرغبات ولا تنتهي إلاّ إلى الغايات، ولسان حالها يقول: إما هلك وإما ملك. قال الفلاح: لقد قلت حقاً، ونطقت صدقاً، فما أيقظني إلاّ لسع نملة في جيدي، فهي التي أقامتني للصلاة الآن، فكان ذلك الاتفاق من عجائب الزمان، كيف كنت منها في عجب، والفلاح منها في هرب. فقلت: إنها رأتك غاصباً لمكانها حالاً في دارها، فلم تهن لضعفها وقوتك، ولم تضعف لخمولها

وسطوتك، قالت: لألسعنه أو يفارق الديار، وموتي في الجهاد خير من الحياة في المذلة والهوان، فشاركني الفلاح في تفكيري، وعلمت أنه من جهة «فم البحر»، وتطاول بنا الحديث إلى «أبي قردان» فقال: لقد فقدناه في هذه السنوات وذلك لقلة تقوانا وضعف إيماننا، نحن عن الصلاة معرضون وما نحن للزكاة فاعلون، وأكلنا التراث أكلاً لماً وأحببنا المال حباً جماً، وفسدت منا القلوب فخلت الجيوب. فقلت: ما للصلاة ولأبي قردان؟ ولكن الفلاح المجهول صاد «أبا قردان» لجهله بمنافعه وبعده عن العلم الصحيح والعمل الشريف، فقال: لم يصده أحد من الناس وإنما صاده الأوروبيون، وطالما رأيته يحلق ويرفرف بجناحيه حول الماء، وينفذ منقاره في الطين ليبحث عن الدود والحشرات الكامنة فيه فيلتقطها ويزدردها، لقد كنت إذا نزلت الماء على الأرض جلل هو وجهها، ولقد طلبناه في هذه الأيام فما وجدناه، وكان فقده في هذه السنين وذلك منذ عشرة سنين، فقلت: هذا الخبر يحتمل الشك، وبت تلك الليلة مشغول الفؤاد حزين القلب يائس النفس كئيباً لما حلّ بالبلاد من الخراب والدمار وذهاب الثروة وضياع المال وقلة العلم وكثرة الجهل، فلما أن نمت خيل لي في نومي أن صبياناً يركبون على شجيرات نابتات على ضفاف نهر أبي الأخضر الشرقية، وكأنهم ينفرون الطيور من أعشاشها، ولا يقرّونها في وكناتها، فهممت بهم كي يتركوها، ونعقت بهم كي يقروها، فرجعوا مهرولين وولوا هاربين، فلما أن استيقظت وتذكرت ما رأيت، قارنت رؤياي برؤيا ملك مصر في الأزمان الغابرة والأيام الخالية إذ رأى البقرات السمان والسنبلات الخضر واليابسات، ورأيت الطيور مذعورة وصبيان الأمة لجهلهم يعمهون، لقد صدقت رؤيا الملك وصدقت رؤياي.

مقابلة الأستاذ الشيخ محمد عسكر الكبير

ذلك أني إذ طلع النهار اتفق أن أرسل إليّ الشيخ محمد أبو عسكر ذلك الشيخ الوقور، وكنت له مشتاقاً، فلما استقر بنا الجلوس وتناجت فيما بيننا النفوس، أريته ما قد كتبت وقصصت عليه ما رأيت، وقلت لقد تبرأ الفلاحون من صيد «أبي قردان» واتهموا بذلك الأوروبيين وقالوا: إنا والله براء مما يقولون، فقال الشيخ: طالما وردت لي الأخبار أن الأوروبيين هم القاتلون لأبي قردان. فقلت له: أليس من العار والجهل والشنار أن يعيش أبو قردان قروناً وقروناً ويحميه قدماء المصريين من الفراعنة وملوك الرعاة ويعيش مع ملوك اليونانيين والبطالسة والفارسيين، ويعبده الأثيوبيون والرومانيون، وينمو في أزمان العرب الإسلاميين، ولا ينقص عدده في أيام الأمويين، ولا يؤذيه العباسيون، ويحمى من العدوان أيام الإخشيديين، ويحفظ حياته الفاطميون، ولا يمسه بسوء الأيوبيون، ويزداد عدده وينمو بكثرة أيام المماليك البرية والبحرية، ولا يبيده الترك، ولا يعدو عليه العرابيون، ولا ينقص عدده أزمان أسرة محمد علي باشا، بل ظلّ جمّ العدد كثير المدد إلى الثورة العرابية، ثم أخذ في التناقص، وأخذ الدود ينمو بالتزايد، حتى فني عن آخره.

عار والله وأيّ عار، أهذه هي المدنية والعلوم العصرية، أهكذا يكون تمدين الأمم، أفبهذا أتتنا المدنية، أيقتل هذا الطائر شريك الفلاح صديق المصري والناس غافلون، أفبهذا ارتقت مصر؟ ربّ إليك المشتكى. يا رجال الأمة ويا علماءها وعظماءها، أهكذا يكون العمران، أبو قردان أخو الفلاح كان معبوداً، عبده قدماء المصريين، لماذا. لأن كبراءهم أوصوهم به خيراً لفلاح الزرع بإبادة الدودة

والحشرات، فاستوصوا به خيراً وتمادوا في ذلك ازدياداً حتى عبدوه؛ هكذا كان الملوك السابقون والعلماء الغابرون فورثنا أرضهم وجهلنا علمهم. ما أعظم قدماء المصريين، وما أجهلنا نحن الحاليين، جهل عظيم موت عميق وطامة كبرى ودمار وأيّ دمار.

أخبرني الشيخ محمد أبو عسكر قال: لقد قرأت في بعض الأسفار أن قدماء المصريين شكوا إلى فرعونهم يقولون: «لقد طغت علينا الحيات واغتالت الأبناء والبنات»، وأكثر ما يكون إذا أقبل النيل وعمّ البلاد وساق جنودها أمامه، واكتسحها من البور إلى العمران، فأوعز الملك إلى العلماء والحكماء أن يداووا هذا الداء ويلتمسوا له الدواء، فلما أن جاءهم أمره ساحوا في الأرض يبتغون طيراً يلتقط الحيات ليربوه في البلاد، فدلهم علمهم وأراهم اختبارهم ووفقهم بحثهم إلى اللقلق، فربوه تربية حسنة فنما عدده وكثر ولده وصارت أفراخه آلافاً مؤلفة، فنجى الناس من شر الحيات وفرحوا بما عندهم من العلم والحكمة والهمة والدين.

فعلى قادة الأمة وأولياء أمورها أن يصنعوا ما صنع القدماء ويجلبوا «أبا قردان» ويربوه حتى يكثر عدده ويهزم جيشه جيوش الديدان، وإلا حقت كلمة العذاب على المصريين.

عار يا رجال مصر، عار يا أمراء البلاد، عار يا عظماءنا، هذا الطائر نصير الفلاح، قاتل الدود مبيد الحشرات منمي الغلات، كنت أراه بعيني رأسي يجلل الأرض ويغطي وجهها إذا أنزل الفلاح عليها الماء، حتى قتله الجهلة الأغبياء من أوباش الناس ليزينوا به القبعات للسيدات، وأباده أولئك الطغاة فبادت البلاد وهلك الزرع وقلّ الضرع وأصبحت البلاد في شقاء عظيم، أبمثل هذا تهان الأمم وتداس الحرم، هذا والله جهد البلاء وعضال الداء ونهاية الشقاء، ولقد أنذرت وحذرت ونصحت ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود: ٣٤].

الفصل الثاني: إيذاء إخوة يوسف

لا أحد من المصريين أبناء بلادي يجهل ما فعله إخوة يوسف من كيد وما دبروا من حيلة، وكيف نصبوا له الحبائل ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف: ١٨]، وسوّلت لهم أنفسهم أمراً، وصبر يعقوب صبراً جميلاً، ودلوه في البئر ثم باعوه ﴿بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠]، أجمعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى وأوثقوه في هاوية، فما كان عاقبته إلاّ أن تربى في مصر وترعرع وبلغ أشدّه وكان لهم من المحسنين.

هذه كانت قصة يوسف عليه السلام وذلك خبر إخوته، فكان منهم الإساءة ومنه الإحسان، ومنهم الشر ومنه الخير، وأول أمره شقاء وآخره هناء، ومبدؤه ذل ونهايته عز وإسعاد، ذلك عبرة للمسلمين وتذكرة للمصريين ونعمة على العاملين. تنبئك قصة يوسف بما يلاقيه المصلحون فيها من الجاهلين، ما في الأرض من مصلح إلاّ وكان أول أمره مطارداً منبوذاً تتنابه الأعداء، ويسطو عليه الأقرباء ويحط من قدره الأولياء استغراباً لقواه واستبعاداً لعمله وحطاً من شأنه وحسداً على ما آتاه الله من فضله وإحباطاً لعمله وتشنيعاً عليه، فإن صبر فاز وإن جزع وعجل هلك وباد، فتعجب كيف كانت عاقبة النبي يوسف الصدّيق أن بيع للمصريين وترعرع في بيت العز وحاقت به الفتنة وصبر على الظلم والسجن، ولم يدر إخوته الزاهدون ولا حاشية العزيز وهم له ساجنون، ولا من كانوا معه

مسجونين أن السعد سيؤمّه وأن العز سيرقيه، وأنه سيقبض على ناصية البلاد ويدين له الهرمان ويساعده الزمان وينسج على ما قاساه عناكب النسيان.

ذلك مثل الصادقين القائمين بالأعمال الشريفة والفضائل العالية المنيفة، فليبشر أولئك الذين صدقت نياتهم وحسنت أعمالهم وأخلصوا لأمتهم وأرادوا إنقاذ البلاد من الجهل والفساد، فسوف يبدّل شقاؤهم راحة وذلهم عزاً وسعادة، وتغني الأغصان عند هبات الرياح بمدحهم، ويعبق الجو بأريج ذكرهم وعاطر ثنائهم، وهذا ناموس الوجود لم يشذ منه نبي مرسل ولا عالم مصلح وكانت العاقبة للمتقين، ولم يذر من رجال الإصلاح من أحد حتى أخذ حظيه من النصب والراحة وسار على خطته، وحلب الدهر شطريه. ولقد كان لنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة، فلقد أوذي كما أوذي الصدّيق يوسف عليه السلام، وما آذاه إلاّ أقرباؤه الأدنون. وتألبت عليه قرابته، ثم نصره الله كما نصر يوسف، وآوى إليه من كان يؤذيه كأبي سفيان وهند زوجته وغيرهما من علية القوم وسراتهم وعظمائهم، فأصبحوا له محبين، كما خرّ إخوة يوسف له سجداً، وقال: ﴿ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ ﴾[يوسف: ١٠٠]. ربّ إني أيقنت بناموسك العالي وكتابك الكريم.

يا أيها الناس، يا أبناء البلاد، لا يجرمنكم شنآن قوم من بلادكم أن يصدّوكم عن إصلاحها، فعلى مقدار فضل الرجل يكون أعداؤه، وكما يكون النصب تكون الثمرات، فاعملوا لبلادكم كما عمل الصدّيق، وتجاوزوا عن خطوات الشياطين مع إخوانكم المبغضين المثبطين الحاسدين ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ ﴾[التوبة: ١٠٥]. انتهى الفصل الثاني.

الفصل الثالث: قصة النبي الصدّيق في بيت العزيز

تتوالى النكبات إثر النكبات على المصلحين المجاهدين والأنبياء المرسلين، ساقت القوة الغضبية إخوة الصدّيق فهجروه بل نبذوه وباعوه، وسلطت الشهوة البهيمية امرأة العزيز فراودته، ويوسف باق على كماله، صابر على عفته مع جماله الفتّان، فقالت له: لتسجنن ولتكونن من الصاغرين. فقال: إنّما الصغار لمن لا عفة له ولا شرف، ونفس المرء أوسع من السماوات والأرض،

إذا لم تسعك النفس فالكون كله وآفاقه للمرء أضيق من قبر

وفي الفكر نيران وفي الفكر جنة وما أكثر الآفات إلاّ من الفكر

فإذا خنت سيدي ودنست عرضي كنت من الجاهلين، أو يجمل في دين المروءة أن يحسن إليّ وأسيء، ويصدق وأكون من الكاذبين، إن العزيز سيدي أحسن إليّ، وعطف بالبر والإحسان عليّ، فهل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان؟ واللئيم يجزي المحسن بالكفران، ألا بعداً للجاهلين، أنا من بيت النبوة بيت إبراهيم وإسرائيل، ولن يليق بي أن أكون شر خلف لخير سلف حتى يقال فيّ: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾[مريم: ٥٩].

أنا أرنو لشرف عظيم ومجد كبير، ومن لم يحفظ النفس في إبان حياتها قعدت به همته عند كبرها، ومن أراد الإصلاح فليبدأ بإصلاح نفسه وليكرمها فإنها بالإكرام أولى، ومن لم يحكم أمر البداية حرم الفضل في النهاية.

عبـــرة

فعلى من يريد الإصلاح أن يفي بالعهد ولا ينقض الميثاق ولا يخون إخوانه في العرض ولا في المال ولا يفشي لهم سراً، ذلك هو مبدأ الشرف الأسمى والخير الأعم والفضل الأدنى، وقد قال الله لنبيه: ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾[الأنعام: ٩٠]، فنحن أولى بالاقتداء وأحق بالاتباع، وإذا اقتدى المعصومون فغيرهم أولى بالاتباع وأحق بالاعتبار.

الفصل الرابع: سجن النبي يوسف الصدّيق عليه السلام

ما أشبه قصة النبي يوسف عليه السلام بعلم تهذيب الأخلاق، إذ يقسمونه ثلاثة أقسام:

سياسة النفس بالعفة والصيانة كما كان الصدّيق في بيت العزيز.

وسياسة أمر المنزل أشبه بما اتفق له في السجن.

وإصلاح أمر المدينة كما حصل له إذ قال له الملك: ﴿ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾[يوسف: ٥٤].

حلقات ثلاث لا يصلح أخراها إلاّ بصلاح أولاها، عفّ في أول منازله فغشا ظلم الحاشية على حسن سيرته، واتهموه وهو بريء وسجنوه وهو محسن، فكان السجن ثاني المنازل، فنصح للمسجونين وقال لهم: ﴿ يَٰصَىٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ [يوسف: ٣٩]، درس لهم التوحيد بالبرهان، ثم ذكر شرف قومه وأهله فقال: ﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [يوسف: ٣٨] الخ، نصح النبي الصدّيق للمصريين وهو غريب حفظاً للجميل وقياماً بحق الإنسانية والنبوة.

ذلك إرشاد من الله وتعليم أن كونوا أيها المصلحون شموساً تضيء سناها على العالمين، ولا تدعوا أيها العلماء الفلاحين المصريين غافلين، بل أيقظوهم وعمموا التعليم، إن المصري لشكور على النعماء مجاز لرحمة الرحماء.

فلعمرك ما دلّ الملك على الصدّيق إلاّ ذلك الخادم الساقي على بساط الملك لما سمع منه الحكم الغوالي والدرر الثمينة فأثمر عنده الإحسان، وقال للملك: أرسلون إلى يوسف ليؤوّل الرؤيا ففعلوا، لقد نصح النبي في السجن ولم يعقه ضيقة السجن ولا زور القول عن أن يقشع سحب الضلال، ويصقل قلوب العامة بصقال العلم، ويجليها بجلاء الحكمة، فكان من المحسنين، فليقم المصري بانتشال أمته من وهدة الجهل وليرفعها إلى سماء الفضيلة، وليعمم العلم بين أفراد أمّة المصريين.

الفصل الخامس

أما ثالثة الأثافي وخاتمة الفصول الخمسة فذلك أن تبوّأ عرش مصر، ودبر الخزائن ونظم أمر البلاد فأحسن للأمة المصرية وقد أساؤوا فسجنوه، أكرم أبويه الشفيقين وعفا عن إخوته بعد أن طرحوه ونبذوه وباعوه، ودبر الحيلة لأخيه بنيامين بعد أن جعل بضاعتهم في رحلهم فعرفوها. أكرم الصدّيق أبويه وأحسن إلى عشيرته الأقربين وقال: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ وقد قالها بلفظها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي سفيان يوم فتح مكة فقال: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[يوسف: ٩٢]. وعد الله الرسل بالنجاة والفوز والسعادة ولن يخلف الله وعده.

يقول الله : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٩] ، يحذو الأواخر حذو الأوائل ، ويتبع الآخرون سبل الأولين ، سلام على المرسلين وسلام على الصالحين وسلام على المخلصين .

يقول الله : ﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ ﴾ [يوسف: ١١١] .

سورة « يوسف » أحسن القصص ، لقد خلت مما يتنحى عنه أولو العزم من المرسلين كالعجلة التي ابتلي بها ذو النون إذ قال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴾[القلم: ٤٨] ، يأمر بالصبر والثبات والتؤدة حتى يأتي أمر الله وقد كان وصدق الله وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده ، ولم تجمع قصة موسى وفرعون وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين وأهل الكهف وأصحاب السبت من المواعظ والعجائب والمقدّمات والنتائج ما تضمنته قصة يوسف ، لذلك كانت أحسن القصص وسار عليها صلى الله عليه وسلم حتى نال أعلى الغايات والنهايات . انتهى .

هذا هو الذي كتبته في مجلة « الملاجئ العباسية » في ذلك التاريخ ، فهاك ما جاء في المجلة المذكورة في العدد التالي لذلك ، وهذا نصه :

باب الزراعة : حماية الطيور النافعة

ما كاد يظهر العددان الأول والثاني من هذه السنة وفيهما تفسير سورة « يوسف » عليه السلام للأستاذ الشيخ طنطاوي جوهري ، وإفاضته على التكلم على الطيور النافعة للزراعة بالتقاط الحشرات الضارة بها ، وتنبيهه ولاة الأمور إلى المحافظة عليها وحمايتها من القناصين والصيادين ، حتى أسرعت مصلحة الزراعة بإصدار هذا المنشور لحماية الطير المسمى بأبي قردان الشهير بكونه صديقاً للفلاح ، وهاهو المنشور بنصه :

حماية الطير المسمى « أبو قردان » صديق الفلاح

معروف من قديم الزمان أنه يوجد نوع من الطيور تتغذى كلية من الحشرات المضرة بالزراعة ، وأن هذه الطيور إذا تركت بدون إزعاج في المحلات التي نشأت فيها كانت سبباً في نجاة الغيطان القريبة منها من إصابة الحشرات ، وقد كانوا ينظرون سابقاً إلى « أبي قردان » كصديق للفلاح المصري ، وكان يراه الإنسان في كل غيط وهو يلتقط الدود الذي يخرج من باطن الأرض وقت تقليبها بالمحراث .

أما في السنين الحديثة فقد أباحوا اصطياد هذا الطير الذي هو في الحقيقة مساعد نافع للمزارع بدرجة عظيمة ، حتى إنه لم يبق سوى بعض جهات قليلة في الوجه البحري يمكن أن يعيش فيها بأمان .

فالغرض من هذا المنشور الآن هو تكليف جميع عمد البلاد بإخطار مديرياتهم عما إذا كانوا يعلمون بوجود طوائف من الطير المذكور ببلادهم ، وكم عدد كل طائفة منه ، والتوصية بتركه بدون إيذاء حتى يأخذ عدده في الازدياد ، هذا والحكومة لا تألو جهداً في تقديم أية مساعدة ممكنة لحماية جميع الطيور النافعة للفلاح والمعروفة بأنها من أعداء دودة القطن وما شاكلها من الحشرات . اهـ .

هذا هو الذي نشرته الحكومة المصرية في ذلك التاريخ ، ثم إن طير أبي « قردان » الآن قد ملأ الأقطار المصرية بما فعلته الحكومة من تربيته وحفظه ، والفضل في ذلك يرجع لمحمد باشا سعيد ، لأنه

كان هو السبب في نشر التفسير في تلك المجلة، والحكومة هي التي تصرف عليها من خزينتها، وهو إذ ذاك رئيس الوزراء أيام «اللورد كتشنر» الإنجليزي، فقد نشرت الحكومة بعد ذلك بنحو ست سنين منشوراً للأمة أبانت فيه أن الأمر الصادر من قبل لحفظ الطيور قد أثر تأثيراً حسناً في «أبي قردان» الذي أصبح يرى في كثير من أنحاء الوجه البحري بعد أن كان عدده حين صدور القانون قد نقص، حتى لم يبق منه هناك إلاّ سرب واحد في مديرية الدقهلية، أما بقية الطيور التي سيأتي ذكرها فإنها لم تكثر الكثرة المطلوبة لعدم العناية بتنفيذ القانون، وجاء فيه ما يفيد أن في الطبيعة من المحافظة على الزرع بخلق الله هذه الطيور الآكلة للدود ما لا نظير له في الوسائل التي يتخذها الناس. انتهى المقصود منه، وإني أحمد الله عزَّ وجلَّ إذ أراني في حياتي أن طير «أبي قردان» قد كثر حتى ملأ البلاد وهم يطاردونه ولكن لا يقدرون على قتله من الحكومة، وقد عملت الحكومة بما كتبته في المقالة من تربيته، وهاهي ذه تحمي الطيور الأخرى الآتية ولكن فاتها ذكر الغراب ولعلها تركته لأنه غير مرغوب فيه.

ولقد ألف بعض رجال الحكومة المصرية بوزارة الزراعة كتاباً في وصف أنواع الطيور المحرّم صيدها، محلى بصورها، فلنذكر ملخصه هنا لتعم الفائدة، فلقد جاء فيه بيان أشهر أنواع الطيور التي يحميها القانون في مصر، وهو يشمل أسماءها بالعربية والإنجليزية والفرنسية واللاتينية، مع وصف أحوالها المحلية وحجمها التقريبي وألوانها لتميزها، وذلك بقلم الماجور «س، فلاور» مدير مصلحة وقاية الحيوانات، والمستر «م ج نيكول» مساعد مدير مصلحة وقاية الحيوانات، وهذا بيان أشهر الطيور التي يحميها القانون، وسنرسم هنا بعض صور الطيور الدالة على باقيها.

عصفور سقسيكولا (شكل ١)

يمر منه جموع كثيرة بمصر في كلتا الرحلتين، طوله ٦ بوصات تقريباً، أي: ١٥٢ ملليمتراً، ذكره في الربيع رمادي الأعلى، أبيض طفليّ الأسفل، أجنحته سوداء وكذا ريش أذنه وخط عرضيّ على طرف ذيله، أما باقي الذيل فأبيض، وذكره في الخريف أسمر الأعلى لا رماديّ، وكذا أنثاه وفراخه في كل وقت.

(شكل ١)

سقسيكولا أبو ذيل أبيض

يكثر فيما بين أغسطس وإبريل، طوله ٦ بوصات تقريباً، أي: ١٥٢ ملليمتراً، أجزاؤه العليا رملية طفلية خفيفة اللون، والسفلى سمراء طفلية، وخوافي الأجنحة بيضاء وكذا قاعدة الذيل، والذكر والأنثى سواء.

عصفور أبو ذيل أحمر

يكثر أثناء الرحلتين ولا سيما في الربيع، طوله ٥ بوصات تقريباً، أي: ١٢٧ ملليمتراً، الذكر جبهته بيضاء وأجزاؤه العليا رمادية اردوازية، وريش ذيله أحمر كله ما عدا الريشتين الوسطيين فإنهما أشد سمرة، وذقنه وزوره وأعلى صدره أسود، ولون بقية الأجزاء السفلى كستني محمرّ، والأنثى أبهت لوناً ولكنها مفقودة السواد في الزور.

عصفور أبو رقبة زرقاء

يكثر في الشتاء وفي أوائل الربيع، طوله ٥ بوصات تقريباً، أي: ١٢٧ ملليمتراً، الذكر أجزاؤه العليا سمراء وذيله أحمر القاعدة مقمع بسمرة، وذقنه وزوره وأعلى صدره ذات زرقة معدنية بحافتها من أدنى أشرطة حمراء وبيضاء وسوداء، وفي وسط الزور بقعة حمراء كستنية أو بيضاء، والبطن أبيض طفليّ، والأنثى كالذكر ولكنها مفقودة الألوان الزاهية التي تكسو الزور.

عصفور أبو صدر أحمر

يكثر في الشتاء، طوله ٥ بوصات ونصف تقريباً، أي: ١٤٠ ملليمتراً، الذكر أجزاؤه العليا سمراء، وذقنه وزوره وصدره حمراء برتقالية، وبطنه بيضاء، والأنثى كالذكر ولكنها أبهت لوناً وأقل احمراراً على الصدر.

المغنّي الأسمر

كثير جداً أثناء رحلة الربيع، ولكنه في الخريف أقل عدداً، طوله ٦ بوصات ونصف تقريباً، أي: ١٦٥ ملليمتراً، والذكر والأنثى متشابهان، أجزاؤه العليا وذيله سمراء محمرّة، وأجزاؤه السفلى بيضاء مشربة رمادي في الصدر وبلون طفلي في البطن.

عصفور أبو رقبة بيضاء

يكثر في كلتا الرحلتين، طوله ٦ بوصات تقريباً، أي: ١٥٢ ملليمتراً، وذكره تاج رأسه ضارب إلى اللون الرمادي، وظهره أسمر، وأجزاؤه السفلى بيضاء تخالطها طفلية، وأنثاه أكبى لوناً.

عصفور أبو رقبة بيضاء الصغير

يكثر في الربيع والخريف، ويبقى منه قليل في مصر أثناء الشتاء، طوله ٥ بوصات تقريباً، أي: ١٢٧ ملليمتراً، والذكر والأنثى متشابهان، أجزاؤه العليا سمراء رمادية ويمتد بالعرض، في عينه خط قاتم، وأجزاؤه السفلى بيضاء تقريباً.

المغنّي الأخضر

يكثر جداً من نوفمبر إلى مارس، طوله ٤ بوصات تقريباً، أي: ١٠٢ ملليمتراً، والذكر والأنثى متشابهان، وأجزاؤه العليا سمراء مخضرة، وأجزاؤه السفلى بيضاء مخضرة.

عصفور الصفصاف المغنّي (شكل ٢)

يكثر أثناء رحلة الخريف، طوله ٤ بوصات ونصف تقريباً، أي: ١١٥ ملليمتراً، والذكر والأنثى متشابهان، وأجزاؤه العليا سمراء تخالطها خضرة، أجزاؤه السفلى بيضاء مصفرّة.


(شكل ٢)

المغنّي الأصفر

يكثر في رحلة الربيع، طوله ٤ بوصات ونصف تقريباً، أي: ١١٥ ملليمتراً، الذكر والأنثى متشابهان، أجزاؤه العليا خضراء، ولون زوره وصدره أصفر ليموني، وبطنه أبيض حريري.

المغنّي الأحمر

يكثر من إبريل إلى سبتمبر، طوله ٦ بوصات ونصف تقريباً، أي: ١٦٥ ملليمتراً، الذكر والأنثى متشابهان، أجزاؤه سمراء محمرّة، وذيله بين الحمرة، وكل ريشة منه مقمعة بسواد وبياض ما عدا الريشتين الوسطيتين، فكل منهما حمراء برمتها، والأجزاء السفلى بيضاء طفلية.

عصفور صونت المغنّي

يكثر جداً من مارس إلى أكتوبر، طوله ٤ بوصات ونصف تقريباً، أي: ١١٥ ملليمتراً، الذكر والأنثى متشابهان، عاليه أسمر ترابي باهت، وسفليه أبيض طفلي.

عصفور البوص المغنّي

يكثر في كلتا الرحلتين، ويبقى منه قليل في القطر المصري أثناء الشتاء، طوله ٥ بوصات وربع تقريباً، أي: ١٣٣ ملليمتراً، والذكر والأنثى متشابهان، أجزاؤه العليا سمراء، والسفلى طفلية كبريتية وطفلية محمرّة.

عصفور البرسيم المغنّي

يكثر في مصر، ويعيش في المزروعات، طوله ٣ بوصات تقريباً، أي: ٧٦ ملليمتراً، ذكره وأنثاه متشابهان، أجزاؤه العليا سمراء ضاربة إلى الصفرة ومخططة بسواد، وأجزاؤه السفلى طفلية، وذيله مقمع بسواد وبياض.

المغنّي أبو ذيل طويل

يكثر في مصر، ويعيش في المزروعات، طوله ٤ بوصات ونصف تقريباً، أي: ١١٥ ملليمتراً، والذكر والأنثى متشابهان، أجزاؤه العليا سمراء مخططة بسواد، وأطراف ريش الذيل مخططة بخطوط عرضية سوداء وبيضاء، والسفلى بيضاء تقريباً.

أبو فصادة (شكل ٣)

يكثر جداً في مصر فيما بين أكتوبر ومارس، ويبقى بعضه إلى إبريل، طوله ٦ بوصات ونصف تقريباً، أي: ١٦٥ ملليمتراً والذكر والأنثى متشابهان تقريباً، جبهته بيضاء، تاج رأسه أسود، والأجزاء العليا رمادية، والسفلى بيضاء بها رقعة سوداء على الزور.

(شكل ٣)

أبو فصادة الأصفر

يكثر جداً في الربيع والخريف، ويبقى بعضه في القطر طول السنة، طوله ٦ بوصات تقريباً، أي: ١٥٢ ملليمتراً، الذكر قمة رأسه زرقاء رمادية والأجزاء العليا سمراء مخضرة، والأجزاء السفلى جميعها صفراء زاهية، والأنثى أجزاؤها العليا سمراء والسفلى بيضاء تخالطها على البطن صفرة.


(شكل ٤)

عصفور البيبت أبو زور أحمر (شكل ٤)

يكثر جداً من أكتوبر إلى إبريل، طوله ٥ بوصات ونصف تقريباً، أي: ١٤٠ ملليمتراً، الذكر أجزاؤه العليا سمراء مخططة بخطوط سوداء وطفلية، لون زوره وأعلى صدره أحمر وباقي الأجزاء السفلى بيضاء مخططة ومبقعة بسواد، والأنثى شبيهة بالذكر سوى أن زورها فقط هو الأحمر، وفراخ هذا العصفور ليس بها حمرة أصالة.

عصفور البيبت

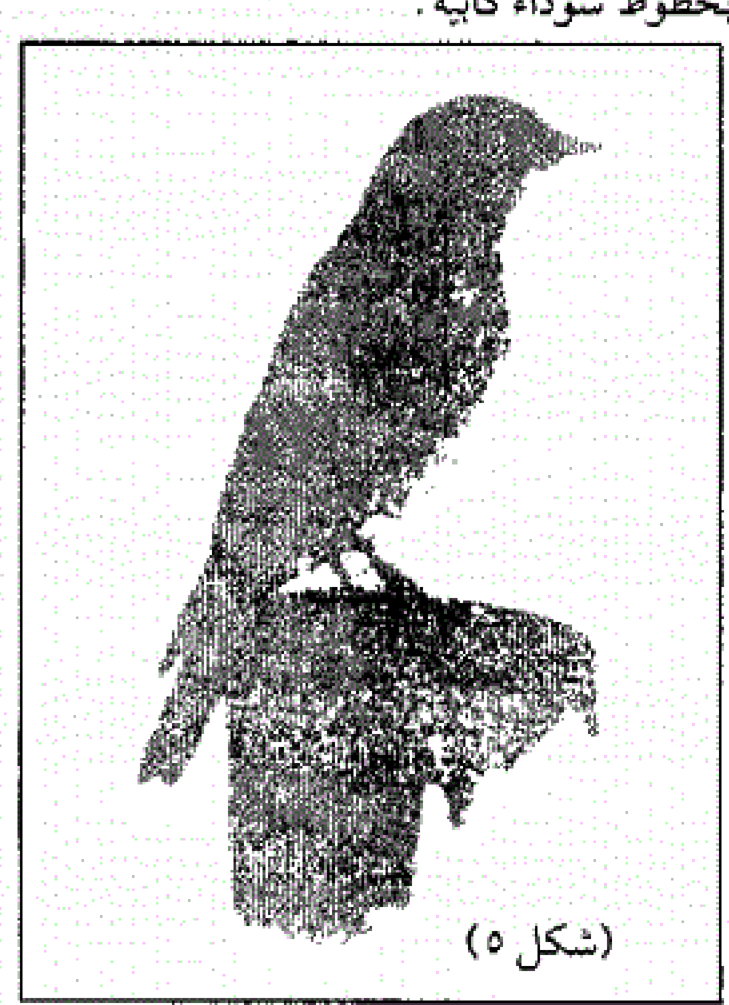
يكثر جداً في الربيع والخريف، طوله ٦ بوصات ونصف تقريباً أي: ١٦٥ ملليمتراً، الذكر والأنثى متشابهان، أجزاؤه العليا سمراء رملية والسفلى طفلية صفراء.

عصفور بيبت الماء

يكثر أثناء أشهر الشتاء ويبقى بعضه إلى إبريل، طوله ٦ بوصات تقريباً، أي: ١٥٢ ملليمتراً، والذكر والأنثى متشابهان، أسمر الأعلى، أبيض كاب من الأسفل، معلم على الصدر بخطوط سمراء والأجزاء السفلى في الربيع مشربة بلون طفلي محمرّ زاه.

الصفير

تمر بالقطر منه جموع كثيرة أثناء الرحلتين، طوله ١٠ بوصات تقريباً، أي: ٢٥٤ ملليمتراً، الذكر أصفر ذهبي إلا ريش أذنيه وأجنحته ومعظم الذيل فإنها سوداء جميعاً، والأنثى وفراخه خضراء الأجزاء العليا بيضاء رمادية الأجزاء السفلى مخططة بخطوط سوداء كابية.


(شكل ٥)

عصفور آكل الذباب (شكل ٥)

يكثر أثناء الرحلتين، طوله ٦ بوصات تقريباً، أي: ١٥٢ ملليمتراً، والذكر والأنثى متشابهان، الأجزاء العليا رمادية سوداء، تاج رأسه مخطط بخطوط سمراء والأجزاء السفلى بيضاء مخططة بسمرة على الصدر.

عصفور آكل الذباب أبو طوق أبيض

يكثر أثناء رحلات الربيع، طوله ٥ بوصات تقريباً، أي: ١٢٧ ملليمتراً، الذكر جبهته وطوقه أبيضان، وبقية أجزائه العليا سوداء، والأجنحة مسودّة تقطعها خطوط بيضاء، والأجزاء السفلى بيضاء، والأنثى كالذكر سوى أن السواد في الذكر يقابله سمرة في الأنثى.

القنبرة الإفرنجية (شكل ٦)

تكثر بالقطر أثناء أشهر الشتاء، طولها ٧بوصات ونصف تقريباً، أي: ١٩١ ملليمتراً، والذكر والأنثى متشابهان، الأجزاء العليا سمراء رمادية مبقعة بسمرة قاتمة، وأجزاؤها السفلى مبيضة، زورها ورقبتها مخططان بسمرة، والذيل أسمر وأبيض.

(شكل ٦)

القنبرة أم الشوشة

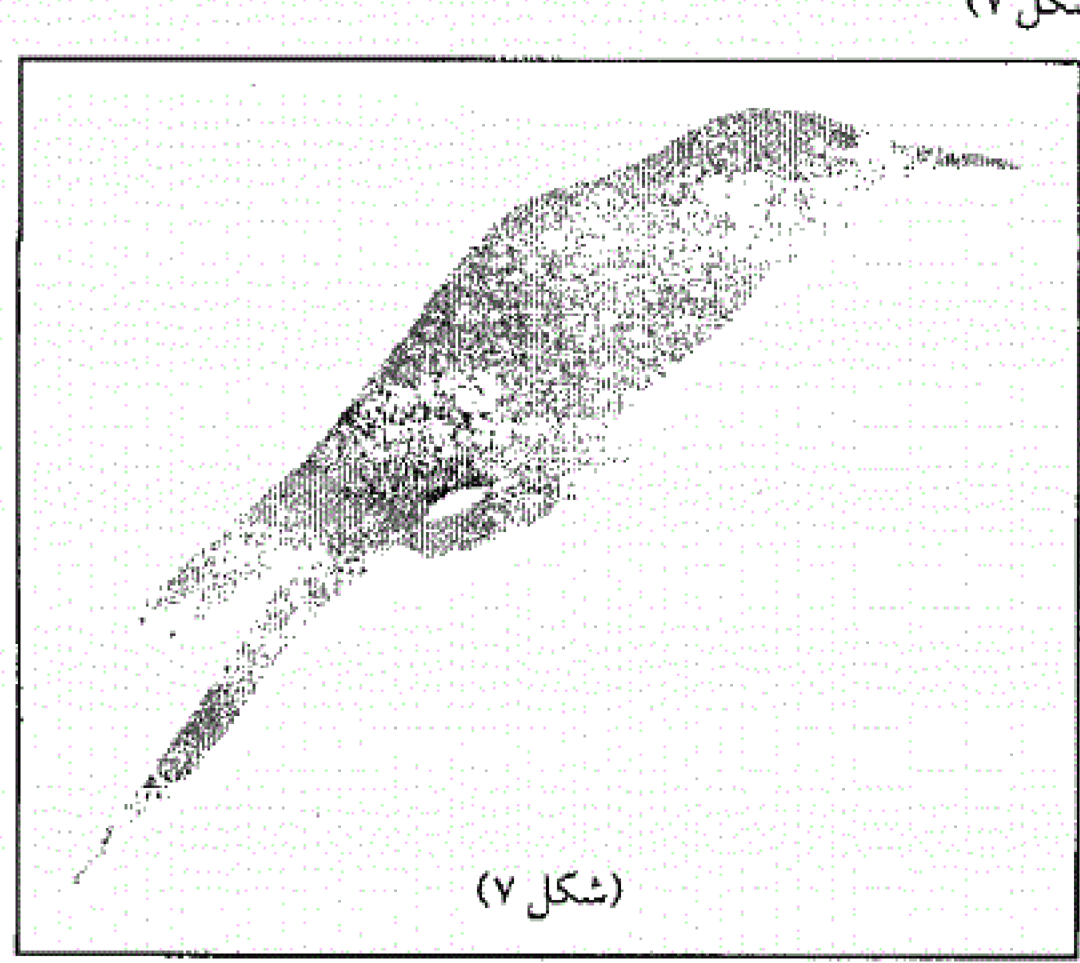
كثيرة مستوطنة، طولها ٦بوصات ونصف تقريباً، أي: ١٦٥ملليمتراً، والذكر والأنثى متشابهان، الأجزاء العليا سمراء ومبقعة بسواد، والسفلى بيضاء كابية مخططة بسواد، وتختلف شدة اللون تبعاً للأماكن التي تغشاها هذه القنبرة، فأغمقها يوجد في أراضي الدلتا الغنية، وأفتحها يوجد في الأراضي الرملية مثل جهات وادي النطرون.

القنبرة الصغيرة

كثيرة كثرة هائلة أثناء الرحلتين، وترى أحياناً في الشتاء، ويبقى قليل منها يتوالد في مصر أثناء أشهر الصيف، طولها ٥ بوصات تقريباً، أي: ١٢٧ ملليمتراً، والذكر والأنثى متشابهان، الأجزاء العليا سمراء رملية مبقعة بسواد، تاج رأسها أشد حمرة، والأجزاء السفلى بيضاء تقريباً، وتوجد رقعة سوداء صغيرة على جانبي الرقبة، والذيل أسمر وأبيض.

الوروار الإفرنجي (شكل ٧)

تمر بمصر منه جموع كثيرة أثناء الرحلتين، طوله ١١بوصة ونصف تقريباً، أي: ٢٩١ملليمتراً، والذكر والأنثى متشابهان، والأجزاء العليا صفراء مسمرة والذقن أصفر، بحافته السفلى شريط أسود، وباقي الأجزاء السفلى خضراء مزرقة، والريشتان الوسطيان من الذيل أطول قليلاً.



(شكل ٧)

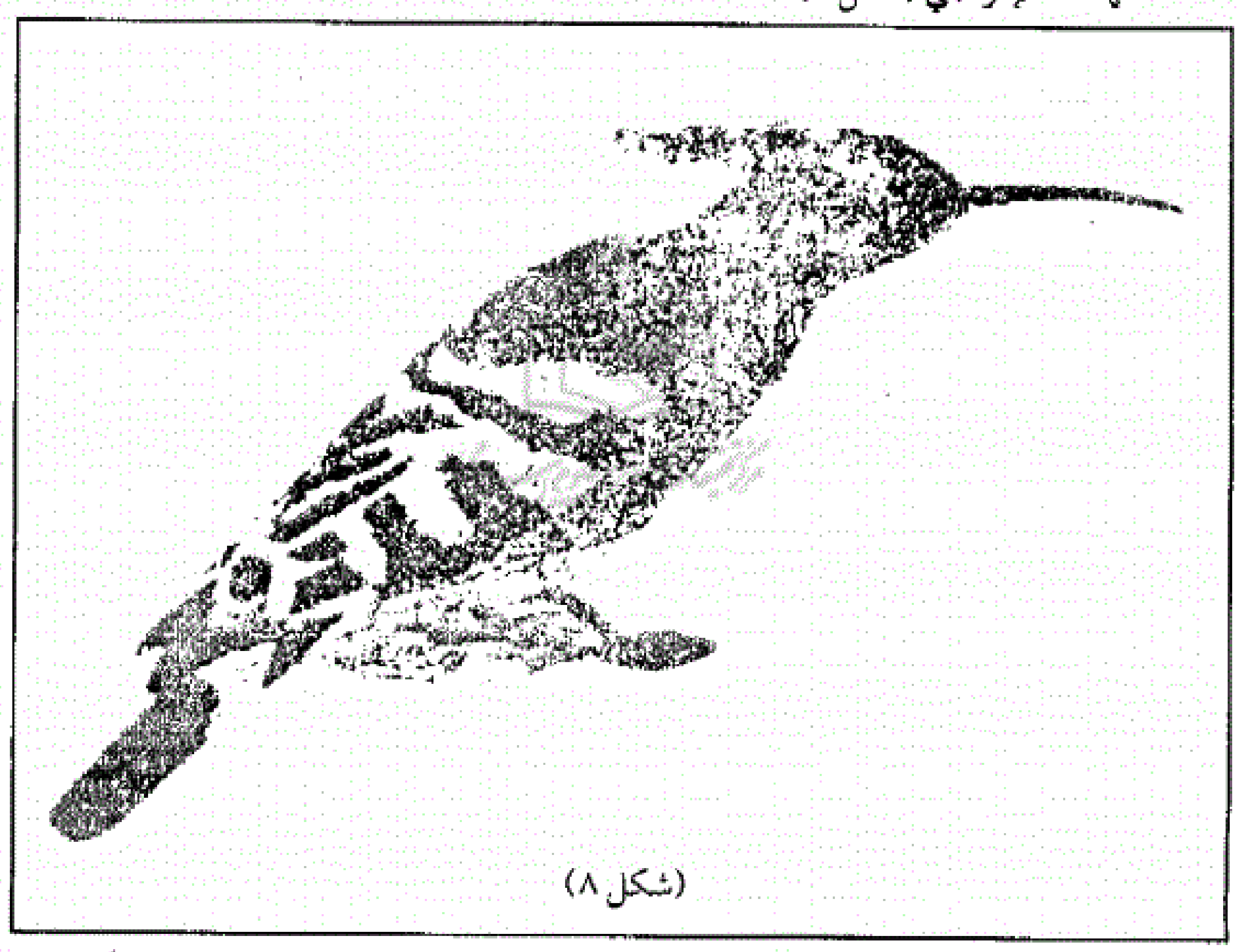
الوروار المصري

يكثر في مصر من النصف الثاني من مارس إلى سبتمبر، طوله ١١ بوصة ونصف تقريباً، أي: ٢٩١ ملليمتراً، والذكر والأنثى متشابهان، وريشه جميعه أخضر زرعي ما عدا زوره فإنه أصفر محمر وبه خط أسود قاطع عرض العين، وتوجد على جانبي وجهه رقع بيضاء وزرقاء، والريشتان الوسطيان من الذيل أطول قليلاً.

الوروار الصغير

كثير مستوطن في القاهرة وما يليها جنوباً، طوله ٩ بوصات ونصف تقريباً، أي: ٢٤٢ ملليمتراً، والذكر والأنثى متشابهان، وريشه جميعه أخضر زرعي ما عدا خط أسود قاطع عرض العين، وتوجد رقعة حمراء كابية في الجناح عند نشره، والريش الأوسط لذيله أطول كثيراً.

الهدهد الإفرنجي (شكل ٨)



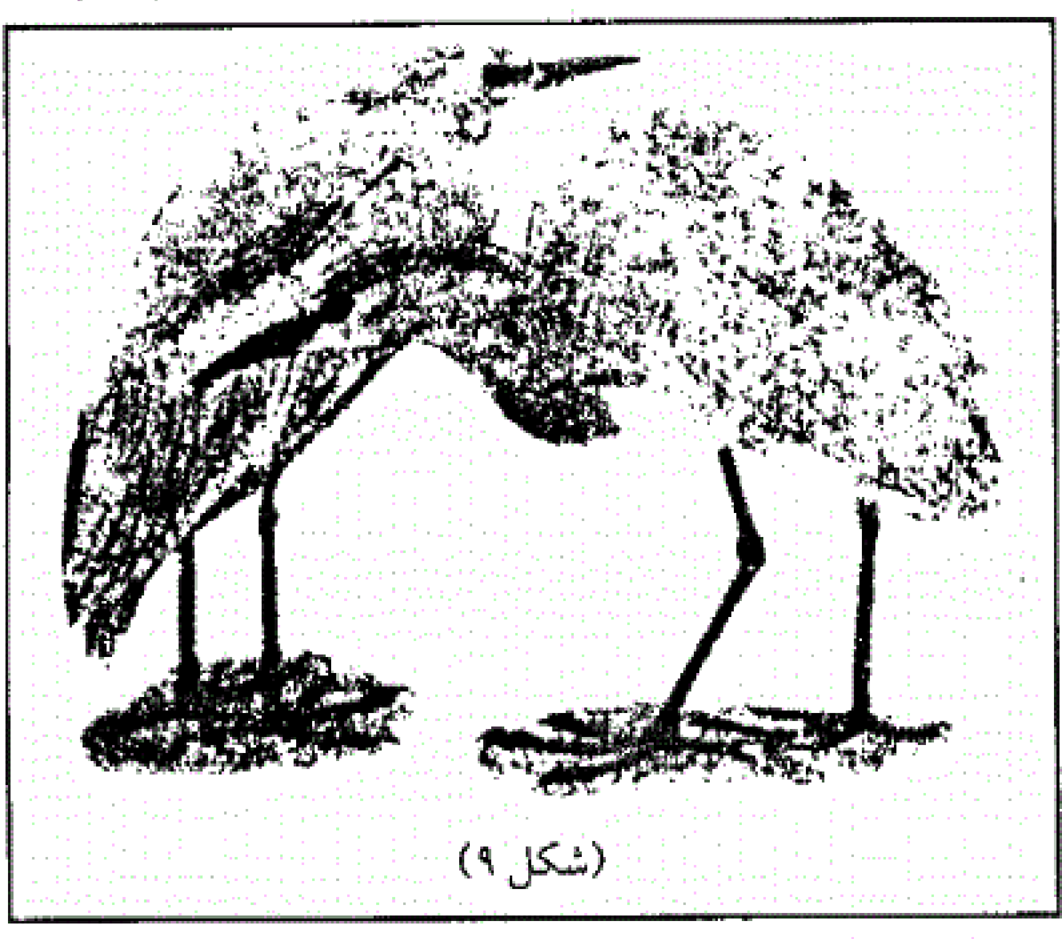
(شكل ٨)

يكثر جداً أثناء رحلتي الربيع والخريف، طوله ١٢ بوصة تقريباً، أي: ٣٠٥ ملليمتراً والذكر والأنثى متشابهان إلاَّ أن الذكر أكبر منقاراً، الرأس والرقبة كابيا الاحمرار، والعرف كبير معتدل أحمر مقمع بسواد وبياض، والزور والصدر أحمران قرنفليان، والبطن مبيض، والظهر أسمر، والذيل والجناحان سود مخططة بخطوط عرضية عريضة بيضاء وطفلية.

الهدهد المصري

كثير ومستوطن، طوله ١٢ بوصة تقريباً، أي: ٣٠٥ ملليمتراً، يخالف الهدهد الإفرنجي الرحالة في كون منقاره أطول وأكثر ثخانة، ولونه أكبى قليلاً.

أبو قردان (شكل ٩)



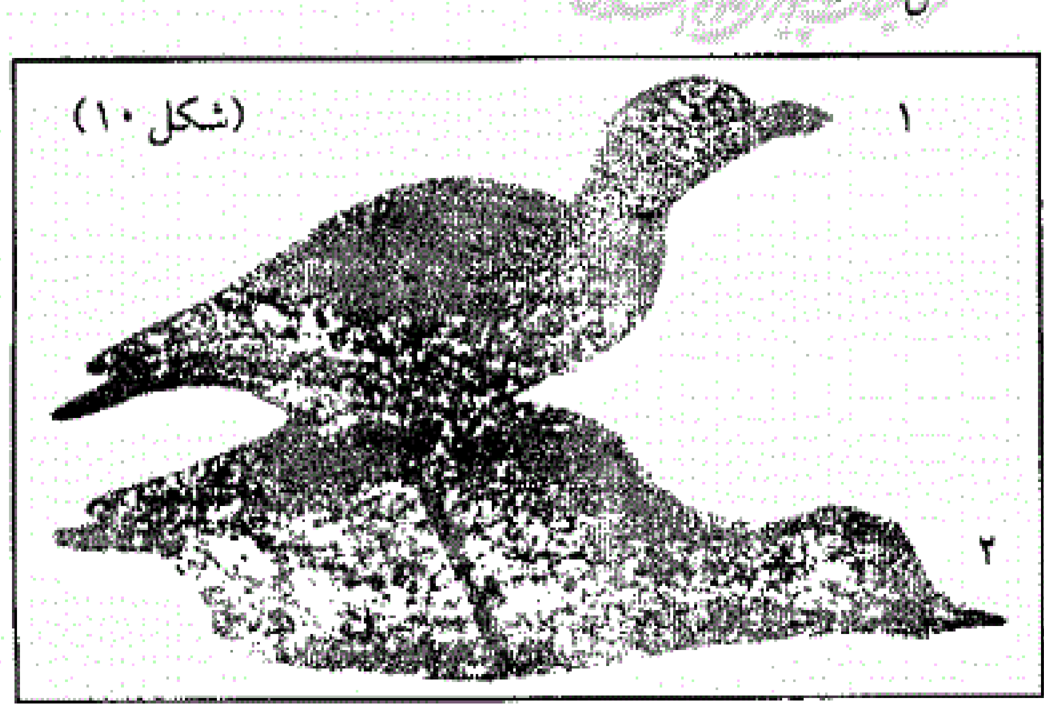
(شكل ٩)

مستوطن في مصر، كان فيما مضى كثيراً جداً، طوله ٢٠ بوصة تقريباً، أي: ٥٠٨ ملليمترات الذكر والأنثى متشابهان، الريش كله أبيض إلاّ في موسم الرقاد حيث يرى أن قمة الرأس والقفا وأصل الرقبة تكون محلاة بريش طفلي اللون شعري القوام.

العنز

في أثناء رحلة الربيع يمر عدد عظيم بالقطر المصري ويبقى عدد قليل منه طول الصيف، غير أن هذه الفصيلة لا يعرف عنها أنها ترقد في هذا القطر، أما العودة أثناء الخريف فإنها أقل وضوحاً من رحلة القدوم في الربيع، الطول نحو ٤٢ بوصة، أي: ١٠٦٧ ملليمتراً، الذكر والأنثى متشابهان، الريش كله أبيض إلاّ ريش الجناح فإنه أسود مرصع بلون رمادي، المنقار والرجلان حمر.

الكروان الجبلي (نمرة ١، شكل ١٠)



(شكل ١٠)

كثير مستوطن يعيش في الصحراء، طوله ١٧ بوصة تقريباً، أي: ٤٣٢ ملليمتراً، الذكر والأنثى متشابهان، الأجزاء العليا سمراء رملية مخططة بسواد، ويرى في الجناح في حالة انقباضه خط عرضي ضيق ومبيض، الزور أبيض وكذلك خط تحت العين الصدر طفلي مخطط بسواد، البطن مبيض والعين واسعة صفراء.

الكروان البيتي (نمرة ٢، شكل ١٠)

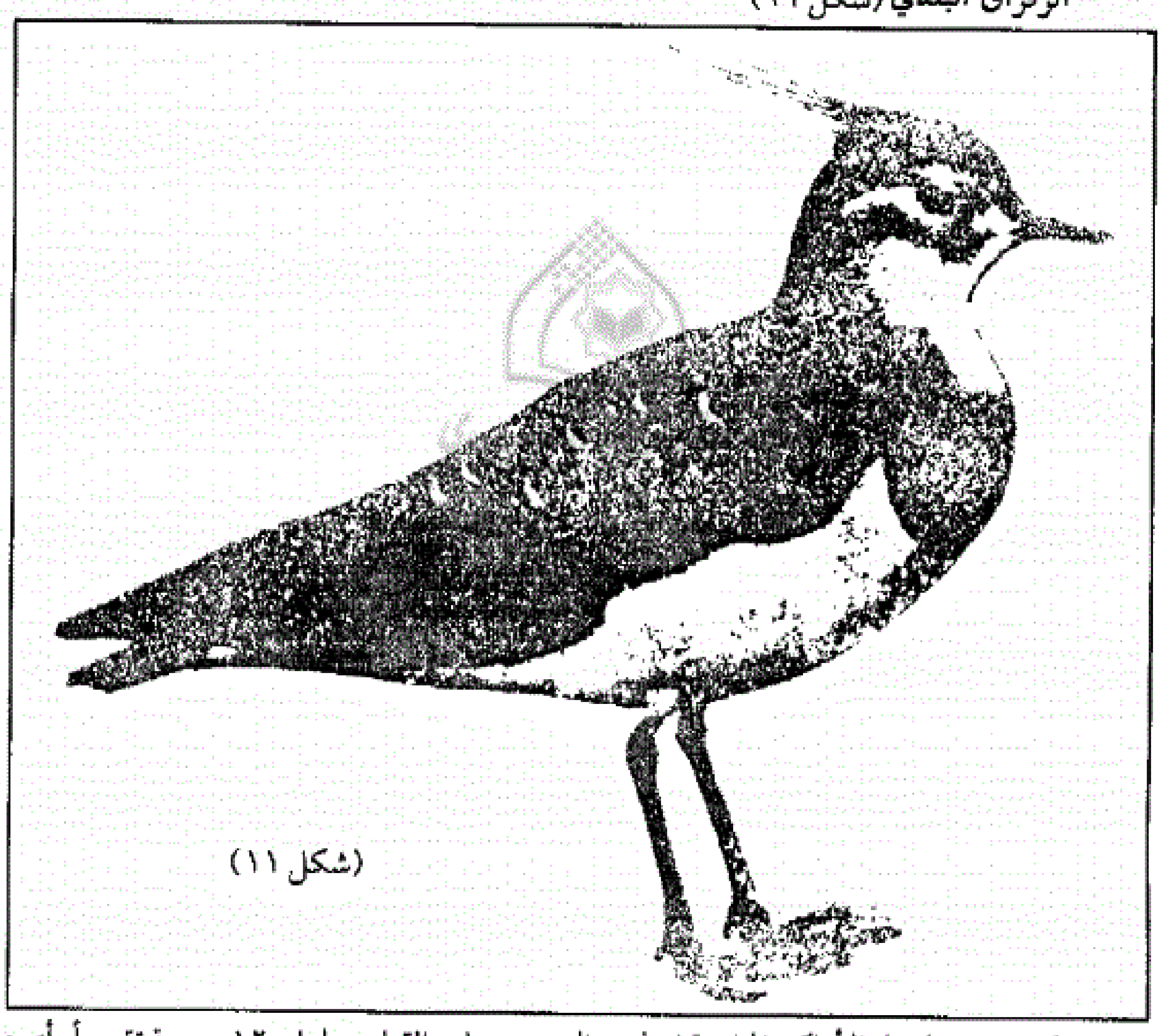
كثير مستوطن يعيش غالباً في المدن، ويعشعش عادة على أعالي المباني، الطول ١٧ بوصة تقريباً، أي: ٤٣٢ ملليمتراً، الذكر والأنثى متشابهان، يخالف الجبلي في كونه لونه أكبى وأشد رمادية وفي كون جناحه يكون خالياً في حال انقباضه من الخط العرضي الأبيض الواضح. يكثر في البقاع

الرطبة والأراضي المغمورة بالمياه طول الخريف والشتاء، ويبقى قليل منه في القطر ويعيش ويفرخ في أماكن مناسبة، طوله ٦ بوصات ونصف تقريباً، أي : ١٦٥ ملليمتراً، والذكر الأنثى متشابهان، أجزاؤه العليا سمراء باهتة وجبهته سوداء في وسطها غرّة بيضاء، وريش أذنه أسود وله طوق أسود، وعلى قفاه شريط أبيض، وأجزاؤه السفلى بيضاء .

الزقزاق الشامي

يكثر في أشهر الشتاء، طوله ١٢ بوصة ونصف تقريباً، أي : ٣١٨ ملليمتراً، الذكر والأنثى متشابهات، تاج الرأس والعرف أسودان مخضرّان، والأجزاء العليا خضراء معدنية ذات انعكاسات أرجوانية ومعلمة قليلاً بلون طفلي، والذيل أبيض به شريط أسود عريض، والبطن أبيض وخوافي الذنب كستنية باهتة .

الزقزاق البلدي (شكل ١١)


(شكل ١١)

كثير مستوطن في الأماكن المناسبة له في معظم مديريات القطر، طوله ١٢ بوصة تقريباً، أي : ٣٠٥ ملليمترات، الذكر والأنثى متشابهان، لون قمة الرأس والقفا والزور والصدر أسود، ولون جانبي الرأس والرقبة والبطن أبيض، والأجزاء العليا سمراء، وريش الأجنحة معلم بسواد وبياض واضحين، والذنب أسود ذو قاعدة بيضاء، وحدقة العين قرمزية .

انتهى الإجمال، فهاك تفصيل التفسير لهذه السورة :

أقسام هذه السورة ست :

القسم الأول : رؤيا النبي يوسف عليه السلام من أول السورة إلى قوله : ﴿ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ [الآية : ٧] .

القسم الثاني : أذى إخوته ، من قوله : ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ ﴾ [الآية : ٨] ، إلى قوله : ﴿ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾ [الآية : ٢٠] .

القسم الثالث : قصته في بيت العزيز ، من قوله : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ ﴾ [الآية : ٢١] ، إلى قوله : ﴿ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ [الآية : ٣٢] .

القسم الرابع : قضيته في السجن ، من قوله : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ ﴾ [الآية : ٣٣] ، إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الآية : ٥٣] .

القسم الخامس : تنظيمه للخزائن المصرية ، من قوله : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ﴾ [الآية : ٥٤] إلى قوله : ﴿ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ [الآية : ٩٩] .

القسم السادس : خاتمة السورة وحكمها وعجائبها ، من قوله : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الآية : ١٠٠] إلى آخر السورة .

القسم الأول

﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ ﴾

التفسير اللفظي

﴿ الٓر ﴾ تقدم الكلام عليه في أول «آل عمران» ، يقول الله : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ أي : الآيات التي أنزلت عليك في هذه السورة ، آيات السورة الظاهر أمرها في إعجاز العرب وفي إجابة السائلين منهم بإرشاد اليهود قائلين لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر وما قصة يوسف ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ هذا الكتاب الذي فيه قصة يوسف عليه السلام حال كونه ﴿ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ وبعض القرآن يسمى قرآناً لأنه اسم جنس يقع على البعض وعلى الكل ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ﴾ [فصلت : ٤٤] ، ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي : تفهمون أيها العرب وقد نزل بلغتكم ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ والقصص إما مصدر بمعنى الاقتصاص ، وإما بمعنى المفعول ، فيراد به المقصوص كالسلب بمعنى المسلوب ، فيقال : نبيّن لك أحسن البيان لأنه جاء على أبدع الأساليب ، أو أحسن الذي يقصّ لما فيه من العجائب والحكم والآيات والفوائد النافعة في الدنيا والدين كسير الملوك والمماليك

وحسن السياسة وتدبير الملك وإقامة العدل ونظام الدولة ومكر النساء والاصطبار على الأذى والعفو والتجاوز عن هفوات الأقارب، واشتقاقه من: قصّ أثره، إذا تبعه، فإن الذي يقص الحديث يتبع ما حفظ منه شيئاً فشيئاً، كما يتبع القاصّ الأثر شيئاً فشيئاً، وقوله: ﴿ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ ﴾ أي: بإيحائنا إليك هذه السورة ﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴾ أي: إنه أي الشأن أو الحديث كنت من قبل إيحائنا إليك من الجاهلين به، لأن هذه القصة لم تقرع سمعك ولم تخطر ببالك، و« إن » مخففة من الثقيلة، و« اللام » فارقة ﴿ إِذۡ قَالَ ﴾ بدل اشتمال من « أحسن القصص » إذا كان مفعولاً به، وهو بمعنى المقصوص، فأما إذا كان بمعنى الاقتصاص وهو المصدر فيكون « إذ » منصوباً بإضمار « اذكر »، يقول الله: قال: ﴿ يُوسُفُ ﴾ بتثليث السين ﴿ لِأَبِيهِ ﴾ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ﴿ يَٰٓأَبَتِ ﴾ بتثليث التاء، فالضم لإجرائها مجرى الأسماء المؤنثة بالتاء، وفتحها لأنها أصلها « يا أبتا »، وكسرها لأنها عوض عن حرف يناسب الكسرة ﴿ إِنِّي رَأَيۡتُ ﴾ في المنام، فهو من الرؤيا لا من الرؤية ﴿ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ ﴾ نزلن من أماكنهنّ وسجدن لي سجدة التحية، والنجوم في التأويل إخوته وكانوا أحد عشر رجلاً يستضاء بهم كما يستضاء بالنجوم، والشمس أبوه والقمر أمه راحيل، وقوله: ﴿ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ﴾ استئناف لبيان الحال التي رآهنّ عليها، وأجريت مجرى العقلاء لوصفها بالسجود وهو من صفاتهم. ولقد كان يعقوب شديد الحبّ ليوسف، لأن الجمال والذكاء مما يضاعف الحب في البنين والبنات، كما يحب الناس جمال زهر الورد ويقلّ التفاتهم لزهر السنط والصفصاف، ولقد قال علماء الحكمة: إن جمال الظاهر بانتظام العين والأنف والفم والخدّ، وحسن ائتلافها دالّ على جمال الباطن بالعفة والحكمة والشجاعة والعدالة. فالإنسان شغوف بالجمال في أبنائه لأن نفوس الناس تشعر بجمال بواطن من حسنت ظواهرهم ولذلك حسده إخوته، وظهر ذلك ليعقوب، فلما رأى يوسف هذه الرؤيا وكان تأويلها إن إخوته وأبويه يخضعون له ﴿ قَالَ ﴾ يعقوب ﴿ يَٰبُنَيَّ ﴾ تصغير « ابن » للشفقة ولصغر السن، وكان ابن اثنتي عشرة سنة ﴿ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ ﴾ فيحتالوا لإهلاكك حيلة، و« اللام » في « لك » صلة، كما تقول: نصحتك ونصحت لك، فخاف عليه حسدهم وبغيهم، والرؤيا في المنام كالرؤية بالبصر، وسيأتي إيضاح الكلام عليها قريباً، ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ ظاهر العداوة كما فعل بآدم وحواء.

وفي صحيح البخاري قال صلى الله عليه وسلم: « إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها فإنها من الله فليحمد الله عليها وليحدّث بها، وإذا رأى غير ذلك مما يكره فإنّما هي من الشيطان فليستعذ بالله من الشيطان ومن شرّها ولا يذكرها لأحد فإنها لن تضره ». ومعنى أنها من الشيطان أنه يحضرها أو أنها تسرّه، فهي من الله خلقاً، ولكن تنسب للشيطان مجازاً لأن كلاً من عند الله، ويقال: الرؤيا اسم للمحبوب، والحلم اسم للمكروه. وقد أخذ العلماء من مجموع الأحاديث أن الإنسان لا يحدّث بالحلم وليتعوّذ بالله من الشيطان الرجيم من شرّها ويتفل ثلاثاً وليتحوّل إلى جنبه الآخر فإنها لا تضرّه، وهذه تكون سبباً لعدم ضرره.

كما جعلت آية الصدقة لوقاية المال وغيره من البلاء ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ يقول الله تعالى: وكما رفع الله منزلتك بهذه الرؤيا الشريفة العظيمة كذلك يصطفيك ربك ويخصّك بفيض

إلهي، فتكون نبياً وملكاً، وتكون لك أنواع الكرامات بلا سعي منك، وتلهم الخير إلهاماً. ثم ابتدأ كلاماً خارجاً عن التشبيه السابق فقال تعالى: ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ أي: تأويل الرؤيا، فإن كانت من أحاديث الملك كانت صادقة، أو من أحاديث النفس أو الشيطان كانت كاذبة كما سأوضحه قريباً، وتأويل كتب الله تعالى وسنن الأنبياء وكلام الحكماء، والأحاديث اسم جمع للحديث، وهو ليس بجمع لأحدوثة، وسمي تعبير الرؤيا تأويلاً لأنه يؤول أمره إلى ما رأى في منامه، وكان يوسف عليه السلام أعلم الناس بتعبير الرؤيا، وقوله: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾أي: بالنبوة ﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ وذلك بأن وصل لهم نعمة الدنيا بنعمة الآخرة فهم أنبياء الله في الدنيا وملوك، وفي الآخرة في أعلى درجات الجنة، و«آل» معناه أهل، ولكن الأول يستعمل فيمن له خطر كآل النبي، فلا يقال آل الجاهل وآل العصاة، وإنما يقال أهل، وآل يعقوب سائر بنيه، ولقد دلّ على شرفهم بضوء الكواكب ﴿ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ فجعلهما نبيين ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ ﴾ بمن هو أهل للاجتباء ﴿ حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها ﴿ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ﴾ أي: في قصتهم وحديثهم ﴿ ءَايَٰتٌ﴾ دلائل على قدرة الله وحكمته وعلى نبوّتك ﴿ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ لمن سأل عن قصتهم. وإخوة يوسف هم أولاده العشرة: «يهونا، روبيل، شمعون، لاوى، زبالون، يشجر» وأمهم ليا بنت ليان، وهي ابنة خال يعقوب وولد ليعقوب من سريتين أربعة أولاد وهم: «دان، نفتالي، جاد، آش»، ثم توفيت ليا فتزوج يعقوب أختها راحيل فولدت له يوسف وبنيامين، فهؤلاء هم الأسباط بنو يعقوب، وعددهم اثنا عشر، فستة من ليا، وأربعة من سريتين اسم إحداهما زلفة، والأخرى بلهة، واثنان من راحيل أخت ليا بنت ليان بعد موت أختها أو كانت معها على رأي، ولقد دهش اليهود الذين قالوا للعرب سلوه عن سبب انتقال ولد يعقوب من أرض كنعان، وعجبوا كيف يذكر هذا القصص الموافق لما في التوراة ولا علم له بالكتب ولم يجالس الأحبار ولا العلماء، وأيضاً في هذا عبرة وعظة في عجائب هذه القصة من صبر وحلم وحزن وعفة وسجن وملك وصفح، فكل هذه آيات للسائلين ودلائل للمفكرين، وفي هذا المقام لطائف:

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ الخ.

اللطيفة الثانية: في استطلاع البشر إلى معرفة الغيب وغرامهم به وأن منه العرافة ومنه الرؤيا وأن فيهما الصادق والكاذب.

اللطيفة الثالثة: في الحسد وأسبابه.

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾

اعلم أن الله عزّ وجلّ لما ذكر في سورة «هود» عجائب صنعه وبدائع حكمته في خلقه، وجعل مناط التفكير فيها النظر في الدوابّ وسعة علم الله، ثم إن ملكه ثابت على مقتضى العلم والحكمة، وإذا كان ملك الله ودوامه إنما كان لثباته على العلم، هكذا لا دوام لملك الأمم إلاّ بالعلم الذي ينالونه وكل ملك لم يؤسس على العلم آيل للزوال السريع. ولما كان علم الله لا نهاية له كان ملكه لا نهاية له معروفة وعلم الناس محدود، ولذلك كان ملكهم محدوداً، هذا بعض ما يؤخذ من سورة «هود»، وقد فاتني أن أذكر هذا هناك، ثم أقول: فسورة «هود» مدار الأمر فيها على النظام في الحيوان وعلى سعة علم الله وحكمته وقدرته وأنه آخذ بناصية كل دابة، فأما في هذه السورة فقد فتح باب الفكر الإنساني

والعقل الآدمي، كأنه يقول: أيها الناس، اقرؤوا علوم الطبيعيات والفلكيات وكل ما في الأرض والسماوات، ولا يشغلكم شيء عن القصص والعظات. وبعبارة أخرى ليقرأ الناس علوم الطبيعة وعلوم الأدب.

اعلم أيها الذكي أن هذا المقام يحتاج لشرح وإيضاح، لقد جاء في كتاب أميل القرن التاسع عشر ما يفيد أن التعليم في الأمة الفرنسية التي منها مؤلف الكتاب المذكور ناقص، لأنها قصرت في تعليم النشء الروايات والخرافات والأحاديث المستملحة الغريبة، وعلل ذلك بأن الأطفال ومن نحا نحوهم لا يقبلون إلاَّ على ما يوسع الخيال ويفتح باب التصوّر وسعة القوة المخيلة، ولن يكون ذلك إلاَّ بالروايات المدهشة الموسعة للمخيلة المخالفة للحقائق المعروفة، وأيد ذلك بما يصنعه الإنجليز في بلادهم وأن الأطفال والشيوخ الذين لم يتعلموا يحضرون مجالس خاصة في محالّ تفتح لهم، وفيها تكون تلك الخرافات، وضرب أمثالاً لذلك مثل الفتاة التي طلب أبوها أن يتزوّجها، واقترحت عليه ثوباً كلون الشمس وثوباً كلون القمر، وفي آخر الأمر اقترحت عليه أن يذبح حماره ففعل كل ذلك، ولبست جلد الحمار، فصار هذا الجلد يخفيها عن الأنظار، والذي أرشدها لهذا الاقتراح جنية، وأطال في ذلك بأمثال لا محل لذكرها هنا، وإنما أقول: إن هذه الخرافات قد وضعت بين عامّة الجهّال من البشر لحكمة من الله دبّرها، يقول: وإن هذه الخيالات الكاذبة توسع القوة المخيلة حتى إذا ما ترعرع الشاب انفتحت بصيرته للعلوم الطبيعية والفلكية، فتصقل ذهنه فتذهب تلك الخرافات من عقله ويتم له الكمال، هذا رأيه.

ولقد اطلعت على خرافات منقولة عن اليابان، وقد ذكروا مع كل واحدة منها للأطفال أن هذه خرافة، أما هذا الفرنسي فإنه يقول: يجب ألا تنغص على الصبي بأن هذه لا حقيقة لها ولندعه يفرح بها، حتى إذا كبر الصبي عرف الحقيقة.

هذا ما وصل إلينا من علم الأمم حولنا في هذا المقام، فلنرجع إلى ما نحن فيه. ولننظر في القصص وأحسن القصص، يقول الله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ وهذا يفيد أن القصص فيه حسن وأحسن، والله قصّ الأحسن، ولا جرم أن الناس يقصون الحسن والرديء، وهذا فتح باب للحكايات والروايات والقصص ما بين صادقة وخيالية. ولقد كانت أمة بني إسرائيل مغرمة بالقصص والحكايات، ومنها ما هو ضرب أمثال، وكان صلى الله عليه وسلم يحدّث أصحابه عامّة الليل، ومن ذلك حديث أم زرع الطويل الذي اعتنى كبار العلماء والمحدثين بشرح معناه وألفاظه اللغوية الأنيقة، وكان صلى الله عليه وسلم يقول: «حدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج».

ولعل القصد أن يكون الحديث خاصاً بما يفيد علماً وحكمة، وما عدا ذلك فهو لغو الحديث، ولقد وجدنا أمتنا الإسلامية قد خلفت لنا آثاراً من الروايات كألف ليلة وليلة، وكتاب «كليلة ودمنة»، وروايات كثيرة فمنها ما هي عامية، ومنها ما هي باللغة العربية، ولقد نجد قصة عنترة وغير عنترة، وكل ذلك شهادة بأن أمتنا نهضت نهضة واسعة النطاق، ولقد نجد في كتاب «كليلة ودمنة» من المحاورات الجارية على لسان البهائم ما يعلمك الحكمة والسياسة والأخلاق والمواعظ والعبر وكل ما فيه جار على لسان ما لا يعقل.

فأما كتاب « ألف ليلة وليلة » فإنه جار على ألسنة الناس وفيه المبالغات وحديث العفاريت والجن والشياطين وما أشبه ذلك من الخرافات، ومع ذلك تجد فيه ما يوسع الخيال كما ترى في قصة السندباد البحري وحديثه مع السندباد البرّيّ، وكيف يقص عليه من أنباء سياحاته السبع وكيف كان في كل سفرة منها يلاقي من الأهوال والمصاعب ما لا يطيقه إلاّ الأبطال، وكيف يقص عليه نبأ تلك البيضة التي هي كقبة كبيرة جداً، وقد جاء الرخ وجثم عليها وكيف ربط نفسه في رجله وهو لا يحس به كأنه برغوث على جسم إنسان، وهكذا كيف رمته المقادير فوق الجبال وفي الأودية وكيف ربط نفسه في قطعة اللحم التي التصق بها الألماس فرفعه الطير إلى أعلى الجبل، وكيف وصل إلى أشجار الصندل فاتخذ منها سفينة وجرت به في البحر وتحت الجبل في الماء، وكيف كانت هذه السفينة تجارة وهو لا يدري، وهكذا من شياطين يطيرون به، وما أشبه ذلك مما دوّنه أسلافنا في كتبهم وتركوه إلى خلفهم ليطلعوا عليه وينفذوه ويفكروا فيه. فأمة الأمة الإسلامية فإنها على مذاهب شتى.

فأما الفقهاء وأهل الدين فإنهم كانوا منذ قرون كما هو مشاهد الآن يمنعون التلميذ أن يقرأ إلاّ كتب الدين وعلوم النحو والصرف وما أشبهها، والطالب يحقر كل ما عدا ذلك لأن أستاذه حقره. فأما تلك الكتب فقد بقيت عند العامة والجهلاء، ثم إن علماء أوروبا قد اعتنوا بها وبحثوا عنها وفكروا فيها، ووجدوا أن كتاب « ألف ليلة وليلة » نافع لهم فترجموه، وقد اطلعت عليه باللغة الإنجليزية. وألفوا كتباً أخرى يسمونها « الليالي العربية والليالي العربية الجديدة » وقال بعض كتابهم الذين نبغوا في قومهم: إنا لن نصل لهذه القوة إلاّ من قراءة كتاب « ألف ليلة وليلة »، ومعنى هذا أنه قرأه في صغره وقرأ العلوم الطبيعية في كبره.

فأما الاقتصار على أمثال هذه الكتب فإنه يجعل المرء كثير الخرافات مصدقاً بالترهات، هذا، وعلى ذلك جاءت هذه السورة عقب سورة « هود » التي أعلت شأن علوم الطبيعة ليبيّن الله أن القصص شأنها عظيم. ولعمري لا دين ولا أمة تقوم لها قائمة إلاّ بضرب الأمثال والروايات، والحكايات المنعشات للنفوس المرقيات للخيال.

كيف كانت قصة يوسف أحسن القصص

وإنَّما كانت قصة يوسف أحسن القصص لأنها جمعت بين ما يوسع الخيال من المناهج العجيبة وما يوضح الحقيقة، وبعبارة أخرى، إن العلماء أباحوا الخرافات لترقية الأمم، بل جعلوها من الأمور اللازمة، وذلك لتوسيع الخيال، فهذه القصة مع ما فيها من توسيع الخيال جاءت مطابقة للحقيقة لأنها تذكر أموراً جرت، فليس يعقوب ويوسف وإخوته ووجودهم في مصر أمراً خيالياً، بل هو حقيقة تاريخية معروفة. وليس ككليلة ودمنة الذي هو حسن حقاً. ولكنه ليس أحسن لأنه يأتي بحوادث الحيوان مما لا ينطبق إلاّ على الإنسان، كحكاية السمكات الثلاث اللاتي اختلفن في الرأي لما حيل بينهن وبين ماء النهر، فأما الأحزم فيهن فإنها فرّت بسرعة من مكانها إلى النهر، وأما الحازمة فإنها لما أحاط بها الخطر تماوتت وعامت على وجه الماء كالميتة فرماها الصيادون، وأما الغبية فإنها لم تفكر حتى أخذها الصيادون، فإن هذه الحكاية وأمثالها قد استحسنها العقلاء ودرسها جميع الأمم، ولكن

قصة يوسف أحسن لأن أشخاصها حقيقيون ووقائعها صحيحة، وفيها الحكم والمواعظ التي لا يراها الإنسان في قصة أخرى، حتى إن قصة يوسف في التوراة ليس فيها من الطلاوة والأخذ بالألباب والعظات، والحضّ على مكارم الأخلاق مثل ما في القرآن، فهذا معنى كون هذا أحسن القصص.

كيف تربّي أوروبا أبناء الشرق

لقد علمت أيها الذكي آراء علماء أوروبا في الروايات، وعرفت أن المتأخرين من أمتنا الإسلامية سدّوا الباب في وجوه الطلبة، فوقفت العقول، وسدت الطرق، فلما دخل الإنجليز بلادنا زادوا الطين بلة، فقالوا: لا تقرؤوا الروايات فإنها خرافات، وقد علمت أن هذه تليق للأطفال ولصغار العقول، ثم هم قللوا علوم الطبيعة بحيث لا يعرف الطالب ما جاء في سورة «هود» من النظر في الحيوان وأنواعه ولا في عجائب صنع الله تعالى.

فهذا الباب أقفل إلاّ قليلاً وذلك على الكبار، وهكذا الأطفال منعوهم مما يرقي الخيال، ثم جاؤوا بروايات «شكسبير» ليقرأها الكبار بدل الصغار، وكذلك بعض روايات عربية مترجمة إلى لغتهم من ألف ليلة وليلة وجعلوها للكبار ليشغلوهم بما يجب أن يكون للأطفال وذلك لإضعاف العقول وموت النفوس. هذا ما أردت ذكره في هذا المقام ليقف عليه العلماء بعدنا فيبحثوا فيما يصلح للأمة وما لا يصلح، فينظموا التعليم على ما ينفع العباد.

وإني قبل أن أغادر هذا المقام أذكر أن أحد الفضلاء أخبرني أنه كان يخاف من خياله. فلما قرأ قصة عنترة أصبح شجاعاً وصار لا يخشى من أعظم الأشياء وأهولها. ولما حضر إلى مصر الأستاذ ادوارد براون الإنجليزي، وسمع قصة عنترة تأسف وقال: إن العوام عندكم خير منهم عندنا، فإنهم يسمعون مكارم الأخلاق والشجاعة في هذه القصة وهم يفهمونها، فترقى أخلاقهم وعقولهم، ثم أخذ قصيدة منها بالفونوغراف وأسمعني صوته فكان عجيباً جداً وهي التي فيها هذا البيت:

إياك والفحشاء لا تنطق بها ... ما دمت في هزل الكلام وجده

هذا ما أردت ذكره في هذا الكلام.

اللطيفة الثانية

اعلم أن الناس مفطورون على الاستطلاع والتشوق لمستقبل أمورهم، وقد يعرفون بعض المستقبل برؤيا يرونها أو بعرّاف يجيبهم أو بزجر أو بفأل أو بضرب الحصى أو بالنظر في الأكتاف أو في الماء أو التنويم المغناطيسي أو بتحضير الأرواح.

تحقيق هذا المقام

اعلم أن الله عزّ وجلّ أقفل أبواب معرفة الغيب عن البشر ولم يرد ذلك إلاّ رحمة بهم وإسعادهم ولو علم الناس الغيب لنزلوا إلى الحضيض ولكانوا أخسّ المخلوقين، ذلك أن المرء لو اطلع على الغيب وأنه بعد عشرين سنة سيكون وزيراً أو غنياً أو عالماً كبيراً لم يفكر يوماً ما في علم السياسة ولا في جلب المال ولا في قراءة العلم، وإذن تضيع الحكمة وتذهب الحياة سدى؛ وجهل الناس بالمستقبل هو الذي تكفل بإسعادهم لأنهم يجدّون وهم وجلون. وذلك داع حثيث إلى إتقان العمل، ولا نتيجة إلاّ بمقدمة والمقدمة لا وجود لها مع العلم بالمستقبل، فعلم الناس للغيب أكبر ضرر عليهم وهم لا يشعرون.

ناهيك بما يكون من اطلاع الناس بعضهم على ما في قلوب بعض من الحسد والبغض والكراهة فكيف يعيش الناس في صفاء وهم مطلعون على ذلك الجفاء والعداء والاستياء، لهذا منع الله الغيب، ولكن لما كان إقفال باب الغيب مرة واحدة يوجب اليأس من عالم أرقى من هذا العالم ويوقع في النفوس أنه لا روح ولا حياة بعد هذه الحياة، أغاث الناس ببعض الرؤيا الصادقة، وخصص أناساً بالاطلاع على بعض الحقائق واضحة كالأنبياء، وغير واضحة ممزوجة بالأباطيل كالعرافين والرمالين والناظرين في الكف وفي الحصى، والحاسبين في علم الزايرجة، فهؤلاء كما تحققنا يأتون بحقائق وأكاذيب، وهكذا الرؤيا فمنها الكاذب وهو الأكثر، ومنها الصادق وهو أندر من الندور، كما في رؤيا يوسف عليه السلام.

هل تصدق الأرواح في إخبارها عند استحضارها

هذه القاعدة لا يشذّ عنها شيء، فاعلم أن الأرواح التي يحضرها الناس في الشرق وفي الغرب تأتي بالصادق والكاذب، وبيانه أن الذي يستحضر الروح لأجله إذا كان طالباً مالاً أو جاهاً أو عرضاً دنيوياً أعرضت عنه الأرواح العالية، واقتربت منه الأرواح الناقصة لمشاكلتها لطباعه، فذكرت له ما يناسب ذوقه وبشرته بمستقبل سعيد وعمر مديد ومنزل جديد وبالأبناء والعبيد، وإن كان الطالب مريداً الحكمة والعلم والحقائق ولم يكن محكوماً عليه بالحرمان لذنب أصابه، أقبلت عليه الأرواح العالية وعلمته تعليماً يناسبه. ولعمري لا فرق بين عالم الأرواح وعالم الدنيا، فالعالم يضنّ بعلمه على من لا يعقله، والناس أشكال فكل شكل يحنّ إلى شكله، ويألف قرينه، ويهوى أمثاله. هذا ولأفصل الكلام إلى مقامين: العرّافين في التوراة. وحقيقة الرؤيا.

العرافون في التوراة

لقد كان بنو إسرائيل مغرمين بالعرافة موصوفين بمحادثة الأرواح، ألا وإن أهل أمريكا وأوروبا الآن يشبهون اليهود قديماً في غرامهم بمحادثة الأرواح، وما كان يخطر ببالي أن بني إسرائيل هكذا لولا ما رأيته في الإصحاح الثاني والعشرين من الملوك الأول من التوراة.

ذلك أن « يهوشاقاط » ملك يهوذا نزل عند ملك إسرائيل، فقال الثاني لعبيده: ألا تعلمون أن أرض « راموت جلعاد » هي أرضنا ونحن عنها ساهون لاهون، فلنحارب لترجعها لنا ثانياً ونأخذها من ملك « أرام »، ثم التفت إلى « يهوشاقاط » قائلاً: أتذهب معي للحرب؟ فقال « يهوشاقاط »: شعبي كشعبك وخيلي كخيلك، فقاتل أنا معك، ثم قال لملك إسرائيل: اسأل اليوم عن كلام الرب، فجمع ملك إسرائيل الأنبياء «العرافين» نحو أربعمائة رجل واستشارهم، فأشاروا عليه جميعاً بالتوجه للحرب لا سيما « صدقيا بن كنعنة » فإنه صنع لنفسه قرنين من حديد وقال: هكذا قال الرب، بهذه تنطح الأراميين حتى يفنوا، فقال « يهوشاقاط »: أما بقي من هؤلاء الكهنة أحد بعد؟ فقال ملك إسرائيل: لم يبق إلاّ واحد وهو وحده لا يتنبأ لي بخير وهو « ميخا بن يمله »، فأمر بإحضاره فسألوه فقال: رأيت كل بني إسرائيل مشتتين على الجبال كخراف لا راعي لها. فقال الرب: ليس لهؤلاء أصحاب فليرجعوا كل واحد إلى بيته بسلام، ولقد رأيت الرب جالساً على كرسيه، وكل جند السماء وقوف لديه عن يمينه وعن يساره، فقال الرب: من يغوي «اخاب» فيصعد ويسقط في « راموت جلعاد »

فخرج الروح ووقف هكذا أمام الرب وقال: أنا أغويه. قال له الرب: بماذا. قال: أخرج وأكون روح كذب في أفواه أنبيائه « كهنته »، فقال: إنك تغويه وتقتدر فاخرج وافعل هكذا، والآن هو ذا قد جعل الرب روح كذب في أفواه جميع أنبيائك هؤلاء، والرب تكلم عليك بشر، فعارضه « صدقيا » المتقدم ذكره فقال له « ميخا »: سترى في ذلك اليوم الذي تدخل فيه من مخدع إلى مخدع لتختفي. اهـ.

فحينئذ حبسوه وضيقوا عليه، وصعد ملك إسرائيل ويهوشافاط ملك يهوذا إلى « راموت جلعاد »، فاتفق أن رجلاً نزع في قوسه غير متعمد وضرب ملك إسرائيل بين أوصال الدرع، فقال لمدير مركبته: ردّ يدك وأخرجني من الجيش لأني قد جرحت، واشتد القتال وأوقف الملك في مركبته مقابل « أرام » ومات عند المساء وجرى دم الجرح إلى حضن المركبة ودفنوا الملك في السامرة. اهـ.

هذه هي القصة التي لخصتها من الملوك الأول، ومنها تعلم أيها الذكي أن بني إسرائيل قد شاع عندهم علم الكهانة والعرافة وكذلك تعبير الرؤيا.

حكمة وتبيان لجعل سورة يوسف بعد يونس وهود في الترتيب

اعلم أن العالم الروحي والعالم الجسمي كل منهما فيه عوالم لا تتناهى بحسب نظرنا، فبينما الإنسان الواحد منا نراه واحداً مفرداً نجد أن له ما لا يحصى من الكرات الدموية البيضاء والحمراء لا تقدر بمئات ملايين الملايين، وهكذا أعضاؤه وعجائبها. ثم إنا نرى النبات والحيوان لا تعد عجائبهما ولا تحصى، وكلها خادمة للإنسان، فلننظر نظرة في العالم الروحي فإن آراءنا وأفكارنا متصلة بعوالم أكثر من العوالم المشاهدة، ولعل أرواحنا تتصل بعوالم تناسبها، ومن تلك العوالم ما نراه في المنام، ومنها ما جاء على ألسنة الأنبياء، ومنها ما يجيء على ألسنة العرّافين والكهنة وغيرهم، وهؤلاء الذين ذكرناهم بعد الأنبياء يصدقون ويكذبون، كما أن نرى العوالم المحسوسة منها الضار ومنها النافع، ونحن بين هذه العوالم نربي ونختبر ونميز ونرتقي في تلك التجارب.

ويا عجباً لقصة يوسف التي أنزلها الله لفتح هذه الأبواب العلمية، ولتبيّن لنا كيف تكون البشارة للمؤمن في هذه الحياة الدنيا فيما مرّ في سورة « يونس الآية: ٦٤ » إذ قال تعالى: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ وورد في الحديث: « إن البشرى في الحياة الدنيا هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له ». فهذه السورة أرتنا أن من الناس من يفتح لهم باب السعادة بحسب استعدادهم، ويلهمون ذلك أو يرونه في المنام وهذه الرؤيا تكون بشرى كما بشر يوسف بما هو معلوم فنال ما رآه. وكل من الرؤيا وكلام الكهنة فيه الصادق والكاذب.

ولقد ترى في كلام « ميخا » المتقدم ما يوهم خلاف جلال الله وجماله، فاعلم أن هذا ليس أمراً مقدساً، وإنّما ذكرناه لتعلم على كل حال أن القوم كان لهم إلمام بالكهانة، وإن لم يكن هذا الكلام موزوناً بميزان الشرع في التعبير.

الرؤيا الصادقة والرؤيا الكاذبة وتحقيق الكلام في هذا المقام

اعلم أن الرؤى على أقسام:

القسم الأول: ما نشأ من غلبة الدم الناجم من الإكثار من الأغذية الدموية الحارة الرطبة، كالطبائخ الدسمة والحلواء، فتهيج الطبيعة فتبخر في الدماغ بخاراً حاراً رطباً، فيكون الصداع العظيم

وفترة الحواس . وقد يزداد فتحمر العين ويكون وجع الحلق وذات الجنب وورم الكبد والطحال والأمعاء والأنثيين ، ويرى في منامه الرعاف والاحتجام والدم واللعابين والرقاصين .

القسم الثاني : ما نشأ من غلبة الصفراء الناجمة من الإكثار من الأغذية اليابسة كالعسل ولحم الكبش الحولي ونحو ذلك ، فتحترق الطبيعة من الجوف إلى الدماغ ببخار صفراوي غير معتدل ، فيكون صداع في الرأس وشقيقة وقلة نوم وحرارة اللمس ، وقد يصفرّ اللون والعين ويكون اللون مراً ، ويرى في منامه النيران والشمس المحرقة والصواعق والحروب ولا يزال مختماً مهتماً .

القسم الثالث : الرؤيا الناشئة من البلغم الناجم من الإكثار من الأغذية الباردة الرطبة المولدة بخاراً رطباً ، يوقع فترة في الجسم ورخاوة في المفاصل وكثرة الريق ولزوجيته وبرد الجسم وقلة شهوة الطعام أول النهار وقلة العطش وضعف المعدة وبياض البول وكثرة النوم والكسل والنسيان ، وأن يرى صاحبه في نومه الأمطار والمياه والأودية والاغتسال والسباحة .

القسم الرابع : الرؤى الناجمة من غلبة السوداء الناشئة من الإكثار من الأغذية السوداوية ، كالعدس والدخن ولحم البقر والباذنجان ، فيبتدئ المرض السوداوي بفترة في البدن وشدة عطش وقلة نوم ، وقد يطغى المرض إذا لم يتدارك فيكون الجذام والجرب والحكة والفالج والسكتة وخفة الرأس والرعاف والثآليل والباسور والصرع والماليخوليا والقوبا والبهقة والسعال اليابس الخ ، ويرى في منامه الأهوال والمخاوف والخيالات والظلمة والأشياء السوداء المحرقة ويهرب من كل أحد ويرى الأموات ونحو ذلك ، وأكثر ما يقع ذلك من أكل الملوحة والحموضة والفول والعدس .

القسم الخامس : أن تكون القوة المخيلة في الدماغ مشغولة بصور واردة عليها من الحواس مخزونة فيها ؛ ومن خصائص هذه القوة العجيبة أنها تحلل تلك الصور وتركبها كأنها تتخيل :

أعلام ياقوت نشــــــر　　　　ن على رماح من زبرجد

وكأن تتصور إنساناً مقطوع الرأس وهو لا يزال حياً .

القسم السادس : أن تحاكي القوة المتخيلة المذكورة ما غلب على النفس من منازعها الشهوية الطبيعية كشهوة الطعام وشهوة التزاوج والتناسل ، فإن تلك القوة تخترع الأعاجيب في المنام ، فتقدم للنائم الطعام والشراب والأنس والأصحاب والأوانس والغادات مضاهاة ومحاكاة لما يحصل في العيان .

القسم السابع : أن تحاكي تلك القوة ما غلب على النفس قبل من القوة الغضبية والحمية والعصبية ، فتخترع له تلك القوة آلات للقتال ودروعاً للنضال وسيوفاً وحراباً لملاقاة الأبطال ومدافع لكفاح الأعداء ، فتجد ما كان في النهار قوة كامنة في النفس ظاهراً في النوم عند تلك القوة تفتك بأقرانه وتجندل أعداءه ، وهو منصور في المنام .

القسم الثامن : أن يكون البدن هادئاً ساكناً لم تغلب عليه الصفراء ولا السوداء ولا الدم ولا البلغم ولا الشهوة البهيمية ولا القوة الغضبية ، ولم تزدحم معدته بالطعام ، فإن هذا ربما يرى في منامه واردات من عالم العقل ، فترتسم تلك المعاني العالية الواردة عليه وتصور بصور المحسوسات ، وقد تكون بديعة جداً بهية المنظر ، وقد تكون تلك الواردة عليه أقوالاً لطيفة ورموزاً لها معان إجمالية تخبر

بأمر في الحال أو الاستقبال؛ فهذه هي الأقسام الثمانية التي لا يخلو منها أو من بعضها أصحاب الرؤى من الناس.

واعلم أيها الذكي أن هذا القول ملخص ما ذكره الفارابي في علم النفس وملخص ما جاء في علم الطب في هذا المقام، فهذا المقام أصوله في فلسفة الفارابي. وفي علم الطب قد فصلته لك تفصيلاً ومزجته مزجاً جميلاً وأبنته أيّما تبيان. وعلى ذلك تكون الأقسام السبعة، وهي حال الصفراء والدم والبلغم والسوداء والصور الواردة من الحواس وغلبة القوة الغضبية والقوة الشهوية، الرؤى فيها أضغاث أحلام لا تأويل لها، وإنّما هي نتيجة ما قام بالجسم من الأمزجة والأحوال.

فأما القسم الثامن فإن له ضروباً شتى وأحوالاً مختلفة، فمنها ما يكون واضح الدلالة، ومنها ما يحتاج إلى تأويل، وهذا هو الذي تكون منه الرؤيا الصادقة، وهي نادرة في النوع الإنساني، فأما أكثر الرؤى فإنها أضغاث أحلام وهي تلك السبع. والله يعلم ولكن أكثر الناس لا يعلمون. وهذا خير ما اطلعت عليه مما ذكره أهل العلم في الرؤى والأحلام. والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. هذا ما جاء في الحكمة الموروثة.

الأحلام في العلم الحديث

واعلم أن أهل العلم في البلاد الشرقية كأبناء العرب بمصر وما جاورها قد نسبوا علوم آبائهم وضرب بينهم وبين الماضي بسوط لا باب له؛ ولذلك تراهم يتبعون الأوروبيين إثباتاً ونفياً، فلعلك تحب أن تقف على ما وصلوا إليه، أقول لك: قد جاء في بعض المجلات العلمية بمصر أثناء طبع هذا الكتاب هذه النبذة التي سأذكرها، وأنا موقن أنك ستتعجب من أن ما نقلوه عن الأوروبيين هو نفسه ما قاله الفارابي وعلماء الإسلام الذين عللوه بقدر إمكانهم. أما هؤلاء فإنهم ينتظرون سبباً للرؤى من كلام الأوروبيين، ولم يعلموا أنهم قالوا في كتب كثيرة مثل قول الفارابي، ولله في خلقة شؤون، وقد آن أن أسمعك هذه النبذة، وهي:

هل من علاقة بين الأحلام والحوادث؟

نشرت إحدى المجلات العلمية فصلاً حاولت أن تشرح به مسألة الأحلام وأن تثبت أن بينها وبين الحوادث التي تقع حولنا علاقة لا يمكن إنكارها، وقد رأينا أن نورد فيما يلي خلاصة كلامها، قالت:

يبذل العلماء منتهى الجهد للوقوف على كنه الأحلام وحلّ ألغازها، ومع أن جهودهم في هذا السبيل ترجع إلى أقدم الأزمنة إلاّ أنهم لم يكترثوا للأمر اكتراثاً جدّياً إلاّ منذ عهد قريب.

وفي الواقع أن علماء نصف القرن الماضي لم يكونوا يعتقدون أن الأحلام جديرة بالبحث، ولكن علماء هذا العصر ينظرون إلى المسألة نظرة أخرى ويجمعون الحقائق التي تعينهم على استجلاء هذا السر الغامض.

وهنالك أمور ثابتة لا سبيل إلى إنكارها، وفي مقدمتها أن حوادث كثيرة أشير إلى وقوعها أو أنبئ بها بواسطة الأحلام. وهنالك أيضاً ما يثبت أن بعض الأحلام أوجدت في أصحابها قوة النبوة واستجلاء المستقبل مما لا سبيل معه إلى إهمال تلك الأحلام وعدم الاهتمام بها.

فمن أمثلة ذلك ما رواه الدكتور « دي سرمين » وهو أنه حلم ذات ليلة أن ولده الذي كان يحبه محبة فائقة وقع في نار ملتهبة واحترق ، وكان الحلم واضحاً جداً حتى انزعج الدكتور فنهض من نومه مذعوراً وذهب إلى حيث كان ولده مستغرقاً في سبات هنيء . وفي اليوم التالي ظلّ تأثير الحلم عالقاً في به ، حتى إنه أخذ يراقب ولده كمن يحاول أن يردّ عنه الشرّ ثم يفحص جسمه بكل دقة ، فوجده صحيح البنية لا يشكو علة ، ولكن الولد أصيب في اليوم الذي بعده بالتهاب الرئة الحادّ وتوفي بعد بضعة أيام ، فهل كان حلم الدكتور « دي سرمين » من قبيل الاتفاق ، أم كان بينه وبين وفاة الولد علاقة ما؟ .

ومن هذا القبيل ما وقع لسيدة عجوز من أهالي مدينة « فيلادلفيا » بأمريكا منذ بضع سنوات ، فإنها حلمت ذات يوم بأن ابنها ـ وهو رجل كهل ـ سقط بين عجلات الترامواي وقتل ، فنهضت السيدة من نومها مذعورة ، ولما علمت أن ما رأته لم يكن سوى حلم عادت فنامت ثانية ، ولكنها حلمت مرة أخرى بأن الترامواي قد قتل ابنها .

وكان الحلم جلياً جداً حتى إنها ركبت القطار في صباح اليوم التالي وذهبت إلى « نيويورك » حيث كان ابنها يسكن ، وما كادت تخرج من محطة « نيويورك » وتجتاز أحد الشوارع حتى أبصرت جمهوراً من الناس مجتمعين حول رجل ميت قد دهمه الترامواي ، وكان ذلك الرجل هو ابنها وهو المستر « وليم كوبر » من كبار أغنياء الأمريكيين ، وقد شهد الكثيرون بصحة ما روته السيدة أمه ، إذ أطلعت الكثيرين على حلمها قبل أن تسافر من « فيلادلفيا » إلى « نيويورك » ، ومن جملة الذين شهدوا بذلك العلامة « كاميل فلامريون » .

وهنالك أيضاً أحلام تنبئ بوقوع حوادث تافهة ، فمن ذلك أن فتاة إيرلندية حلمت ذات ليلة بأنها واقفة في إحدى مركبات السكة الحديدية وحولها أصدقاؤها ، وما كاد القطار يقوم حتى شعرت بأن يداً قذفت إليها رزمة ففتحتها ، وإذا بها قطعة من الصابون وأخرى من البسكويت ، وأرادت أن ترى ما في بقية الرزمة ، ولكن القطار دخل في تلك اللحظة نفقاً مظلماً ثم استيقظت .

قصت الفتاة هذا الحلم على أمها وجمهور من صديقاتها كنّ مجتمعات حولها ، وبعد ثلاثة أشهر كانت مسافرة بأحد القطارات الاسكتلندية فوقع لها ما رأته في الحلم تماماً .

وروى « شوبنهاور » الفيلسوف الألماني العظيم أنه قلب ذات يوم دواة الحبر في مكتبه ، فدق الجرس واستدعى خادمته لكي تنظف المكان ، فلما حضرت قالت له إنها كانت قد حلمت بذلك الحادث تماماً في الليلة الماضية ، فلم يصدقها الفيلسوف بل ظنّ أنها تهزأ به ، فاستدعت الخادمة خادمة أخرى كانت قد قصت عليها حلمها ، واستشهدت بها على صدق كلامها فصدقها « شوبنهاور » .

ترى ما معنى هذه الأحلام ، وكيف تعلل وقوعها ، وهل هي من قبيل الاتفاق؟ أو بينها وبين الحوادث التي تقع حولنا علاقة ما؟ إن الكثيرين من العلماء يعتقدون اليوم أن في الإمكان الإنباء بالمستقبل بواسطة الأحلام .

يروى عن « ادوين ريد » العالم الطبيعي الشهير أنه حلم ذات يوم أنه كان سائراً في أحد الشوارع فأبصر صليباً من الصلبان التي يضعها المسيحيون على قبورهم وينقشون عليها تاريخ أمواتهم ، ورأى على ذلك الصليب اسمه منقوشاً كما يلي « ادوين ريد توفي في ٧ نوفمبر سنة ١٩١٠ » .

وقد روى هذا العالم حلمه لجمهور من أصدقائه وهو يضحك، وفي ٧ نوفمبر سنة ١٩١٠ توفي، فهل كان من قبيل الاتفاق، وهل ثمة شك في أنه كان من قبيل الإنباء أو التحذير؟ ثم إن من الأحلام ما هو بمنزلة تحذير من مصيبة مقبلة. ومن هذا القبيل أن ضابطاً أمريكياً يدعى الكابتن «مكجون» قد عزم ذات يوم أن يذهب هو وولداه إلى مسرح «بروكلين» بنيويورك، فطلب من إدارة المسرح أن تحجز له ثلاثة أماكن، وفي الليلة السابقة لذهابه إلى المسرح حلم أن ناراً عظيمة قد شبت والتهمت المسرح، فهلك ثلاثمائة نفس وكان الحلم جلياً حتى إن الرجل هبّ من نومه مذعوراً وفرائصه ترتعد، وفي صباح اليوم التالي أخبر إدارة المسرح بأنه قد عدل عن الذهاب هو وولداه، وفي تلك الليلة عينها شبت نار هائلة التهمت المسرح كله وهلك بالنار ثلاثمائة نفس بين رجال ونساء، وقد فحص كثيرون من العلماء حكاية هذا الحلم فشهدوا بصحته، وفي مقدمتهم الأستاذ السر «وليم بارت» العالم الإنجليزي الشهير.

ومن الناس من قد استفاد من الأحلام فربح جوائز اليانصيب أو الرهن على الجياد الفائزة في ميادين السباق، والحوادث التي من هذا القبيل كثيرة متعددة، ولكن لا يصعب إرجاع معظمها إلى مبدأ الاتفاق الذي تسميه العامة المصادفة، إلاّ إذا حلم المرء أن الرقم الفلاني من أوراق اليانصيب ربح الجائزة الكبرى، وفي الواقع ربح ذلك الرقم الجائزة، فإن الربح في هذه الحالة لا يمكن إرجاعه إلى ناموس الاتفاق، بل يجب تعليله على وجه آخر.

إن العلماء يواصلون البحث لمعرفة أسرار الأحلام والوصول إلى تعليلها تعليلاً علمياً صحيحاً ولا بد أن ينتهوا إلى حلّ يحسن السكوت عليه فيثبتوا أن الأحلام ليست مجرد مشاهد تعرض للنائم بلا سبب منطقي، بل إن بينها وبين الحوادث علاقة لا سبيل إلى إنكارها. اهـ.

هذا هو الذي ينقله المتعلمون في بلادنا وهم أنفسهم يسمعون في منازلهم ومن أصحابهم بمصر وغيرهما أمثال هذا كثيراً، ولا يعيرونه التفاتاً ولا بحثاً، حتى إذا سمعوه من أهل أوروبا كتبوه. هذا هو الجهل واحتقار النفس، وسيأتي يوم يعرف فيه الشرق أن له أحلاماً وأن له عقلاً وأنه يفكر ويفهم ما في نفسه وما حوله. اهـ.

اللطيفة الثالثة: في الحسد وأسبابه

اعلم أن الحسد لا يكون إلاّ بين المتشاركين في حال، كالجار والصهر والقريب والمشارك لك في صناعة وتجارة أو زراعة أو إمارة أو علم أو سنّ أو المقيم معك في مدرسة أو منزل أو شارع. وكلما ارتفع صيت الإنسان حسده من يشاركه في ذلك الصيت، وترى العالم لا يودّ أن يشاركه في ذلك المجد أحد، ويزداد الحسد كلما ازداد الصيت وحسن الذكر، وهذه الخصلة إنَّما أوجدت في الإنسان لطلب المجد والرفعة وعلوّ الشأن، وليسابق الإنسان غيره في المفاخر والفضائل والمجد فتربو الأحوال ويكثر العمل ويزداد العمران، وما من خصلة تخلق في الناس إلاّ ولها فوائد لمنافعه، ومنفعة هذه الغريزة ما ذكرناه فيجاري الرجل غيره ويريد مسابقته، وهذه تسمى الغبطة، وهي محمودة، فأما أن الإنسان يسعى لإزالة الفضل عن المحسود فهذا هو المذموم، ويظهر أن هذه الأرض من العوالم المنحطة لأن الذين يسكنونها لا ينالون الفضائل إلاّ مقرونة بما يؤذي ويؤلم، وهل في العوالم من هو أصفى وأنقى وأرقى؟ ولعل أهل الأرض يوماً ما يصلون إلى هذا المقام، وإذا كنا نرى الأغذية فيما تقدم لها أثر في

أحوال الرؤيا والصور التي نتخيلها في منامنا، وهكذا يقول علماء الحيوان: إن الحيات السامة لا تكون إلاَّ حيث يكون العشب فاسداً والمستنقعات عفنة، فأما الحيات التي لا سم لها فإنها أكثر من التي لها سمّ وتبلغ ثلاثمائة نوع وهي ثلاثة أضعاف التي لها سم، وما السم إلاَّ من آثار الغذاء السيئ والأعشاب النابتة في المواضع المستوخمة، فالسم إذن نتيجة الأغذية، فهكذا نقول: إن أرضنا طبعها هو الذي نحن عليه، أي: إن طينتها ومناخها لا يحوي إلاَّ أناساً هذه حالهم تخلق فيهم الفضائل تكتنفها الرذائل كما يكتنف المرض الأغذية فتحدث فينا صحة يتلوها مرض فموت. هذا طبع أرضنا فالحسد فينا وغيره من طبائع هذا العالم، والعلم يلطفه ويهذبه، فالدين والفلسفة وجدا في الأرض ليلطفا من طباع الناس كما لطفت حرارة الشمس كل ما على الأرض وأثرت فيه ونما كل حيوان ونبات، فنسبة العلوم إلى غرائزنا كنسبة ضوء الكواكب إلى المخلوقات الأرضية.

هذا هو المقصود من ذكر حسد بني يعقوب ليوسف عليه السلام في هذه السورة. انتهى الكلام على القسم الأول ولطائفه.

القسم الثاني

﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

التفسير اللفظي

قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ ﴾ «اللام» لام القسم، أي: والله ليوسف وأخوه بنيامين وهما من أم واحدة وهي راحيل ﴿ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا ﴾ إنَّما وحد «أفعل» لأنه إذا لم يكن فيه «أل» ولم يكن مضافاً لا يفرق فيه بين الواحد وغيره، ولا بين المذكر والمؤنث ﴿ وَنَحْنُ ﴾ والحال أننا ﴿ عُصْبَةٌ ﴾

جماعة أقوياء فنحن أحق بالمحبة من صغيرين لا كفاية فيهما، والعصبة والعصابة العشرة فصاعداً، وسموا بذلك لأن الأمور تعصب بهم ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ غلط بيِّن في تدبير أمر الدنيا.

وكيف يؤثر حب يوسف علينا مع صغره وعدم نفعه، ونحن عصبة نقوم بمصالحه من أمر دنياه وإصلاح مواشيه؟ وكيف يترك محبة من هم أكبر سناً وأكثر عدداً وأشد بأساً وقوة ومنفعة، وفاتهم ما قاله بعض فصحاء العرب لكسرى لما سأله: أيّ بنيك أحبّ إليك؟ قال: الصغير حتى يكبر والغائب حتى يؤوب والمريض حتى يبرأ. ويوسف كان صغيراً، وفوق ذلك كانت تظهر عليه مخايل النجابة والذكاء وقوّى ذلك الرؤيا العجيبة الدالة على مستقبل باهر.

ثم إن أفعال إخوة يوسف كانت قبل أن يوحى إليهم فيكونوا أنبياء، والعصمة للأنبياء بعد النبوة وثبوتها، وإلا فالحسد من الكبائر، وخطاب الأب بمثل ما تقدم عقوق، وكل ذلك قبل النبوة التي ثبتت لهم فيما بعد، ﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ ﴾ هذا من جملة ما قالوه كأنهم اتفقوا على ذلك إلاّ من قال: «لا تقتلوا يوسف». ﴿ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾ منكورة مهجورة بعيدة عن العمران، وهو معنى تنكيرها ولذلك نصبت كالظروف المبهمة ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ يقبل عليكم إقبالة واحدة لا يلتفت عنكم إلى غيركم والمراد بالوجه الذات فلا يشغله عنكم شاغل في محبة، وقوله: ﴿ يَخْلُ ﴾ جواب الأمر، وعطف عليه قوله: ﴿ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ من بعد يوسف والفراغ من أمره أو قتله أو طرحه ﴿ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴾ مع أبيكم يصلح ما بينكم وبينه بعذر تمهدونه أو صالحين في أمر دنياكم فإنه ينتظم لكم بخلو وجه أبيكم، ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ ﴾ وهو يهوذا كما قيل، وهو أحسنهم رأياً ﴿ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ ﴾ فما أعظم أمر القتل ﴿ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ﴾ أي: قعره، سمي به لغيبوبته عن العيون، والجب: البئر الكبيرة التي لم تطو وسمي بذلك لأنه جبّ، أي: قطع ولم يطو، وفي موضع هذا البئر خلاف لا فائدة في ذكره، ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ ﴾ يرفعه بعض الذين يسيرون في الأرض ﴿ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ به شيئاً أو فاعلين بمشورتي ﴿ قَالُوا۟ ﴾ وقد عرفوا أن أباهم أحس منهم بما أوجب ألا يأمنهم عليه ﴿ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ أي: لم تخافنا عليه ونحن نريد له الخير ونشفق عليه، وهذا قوله: ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴾ يريدون بذلك استنزاله عن رأيه في حفظه منهم، ثم رغبوه بما فعلوه بقولهم: ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ ﴾ يتسع في أكل الفواكه ونحوها، من الرتعة وهي الخصب والسعة ﴿ وَيَلْعَبْ ﴾ بالاستباق والانتقال والصيد والركض، ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ من أن يناله أذى ﴿ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ ﴾ أي: ذهابكم به لشدة مفارقته وقلة صبري عنه ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴾ لأنه رأى في المنام أن الذئب قد شدّ على يوسف والأرض كانت مذأبة ﴿ قَالُوا۟ ﴾ والله ﴿ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ والحال أننا عصبة: فرقة مجتمعة مقتدرة على الدفع ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ ضعفاء، وكيف نحفظ مواشينا من الذئب إذا أكل أخانا، وأي خسارة أكبر من هذه؟ وهذه الجملة جواب القسم أجزأت عن جواب الشرط، ثم إنه أرسله معهم ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ أي: عزموا على إلقائه في أسفل الجبّ، وهذه البئر كانت على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب، وجواب «لمّا» محذوف تقديره أقدموا على فعلهم، وقد اتفقت رواية أكثر المفسرين أنهم لما برزوا للبرية أظهروا له العداوة وضربوه وكادوا يقتلونه، فمنعهم يهوذا، فلما أرادوا إلقاءه في الجب تعلق بثيابهم فنزعوها

من يده فتعلق بحائط البئر فربطوا يديه ونزعوا قميصه ليلطخوه بالدم فيحتالوا به على أبيهم، وأدلوه في البئر وكان فيها ماء فسقط فيه ثم آوى إلى صخرة فقام عليها وهو يبكي، وكان يهوذا يأتيه بالطعام والشراب، وقد أطال بعضهم، وبعضهم اختصر، ونحن لا نصدّق إلاَّ ما جاء به القرآن أو ثبت بالسنة الصحيحة، فإن ثبت بها فبها وإلا فلا.

ثم إنه لما آوى إلى الصخرة في غيابة الجب بكى، فجاءه جبريل عليه السلام بالوحي كما قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ ﴾ أي: ألهمناه، كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ ﴾ [القصص: ٧]، ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ فألهم الله يوسف لتخبرنّ إخوتك بصنيعهم هذا بعد هذا اليوم وهم لا يشعرون بأنك أنت يوسف لعلوّ شأنك، والقصد من هذا الإلهام تقوية قلب يوسف عليه الصلاة والسلام، وأنه سيخلص مما هو فيه من المحنة ويصير مستولياً عليهم، ويصيرون تحت أمره وقهره.

واعلم أنه لولا ما يحس به عظماء الرجال في نفوسهم من عزيمة صادقة وآمال قوية وأحاديث نفسية توقع الأمل في قلوبهم، ما بلغوا مقاصدهم ولا نالوا مآربهم، ومستحيل أن يقوم عظيم بأمر عظيم إلاَّ بآمال نصب عينيه يرمي إليها، وهواجس تقوم بنفسه تسليه على مصائبه وتشدد عزائمه وتقوّي رغائبه، وإلاَّ فلا أعمال ولا عظماء، وليس ذلك لهم وحياً، وإنّما هو خواطر تسليهم، والقلب مهبط التجلي الإلهي ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴾ [البروج: ٢٠].

ثم قال تعالى: ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴾ يقول الله: جاؤوا أباهم آخر النهار بعد ما طرحوا يوسف في الجب مجترئين على الاعتذار الكاذب، وكان ذلك البكاء حين قربوا من منزل يعقوب وهم يصرخون، فسمع أصواتهم ففزع من ذلك وخرج إليهم، فلما رآهم قال: بالله سألتكم يا بَنِيَّ، هل أصابكم شيء في غنمكم؟ قالوا: لا. قال: فما أصابكم وأين يوسف؟﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾ أي: نتسابق في العدو أو في الرمي ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾، وقوله: ﴿ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ أي: مصدّق لنا ﴿ وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ لسوء ظنك بنا وفرط محبتك ليوسف، وقوله: ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ وصف بالمصدر مبالغة كأنه نفس الكذب وعينه، كما يقال للكذاب هو الكذب بعينه والزور بذاته. روي أنهم ذبحوا سخلة ولطخوا القميص بدمها، وغاب عنهم أن يشقوه، فقال يعقوب: كيف أكله الذئب ولم يشق قميصه؟ فاتهمهم بذلك ﴿ قَالَ ﴾ يعقوب ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ ﴾ زينت أو سهلت ﴿ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ عظيماً ارتكبتموه ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ أي: فأمري صبر جميل، أو فصبر جميل أجمل، وهو ما لا شكوى فيه إلى الخلق ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ ﴾ أستعينه ﴿ عَلَىٰ ﴾ احتمال ﴿ مَا تَصِفُونَ ﴾ من هلاك يوسف.

﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ ﴾ رفقة يسيرون من مدين إلى مصر، فنزلوا قريباً من الجب بعد ثلاثة أيام من إلقائه فيه ﴿ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ ﴾ الذي يتقدم الرفقة إلى الماء فيهيئ الأرشية والدلاء. يقال: أدليت الدلو إذا أرسلتها في البئر، ودلوتها، إذا أخرجتها، فتعلق يوسف عليه السلام بالحبال وكان أحسن من يكون من الغلمان، وروي أنه أعطي شطر الحسن، وهذا قوله: ﴿ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ﴾ نادى البشرى، أي هذا أوانك فاحضري، كأن يقول لأصحابه أبشروا. وفي قراءة: (يا بشراي هذا غلام)

صاح بذلك لما دنا من أصحابه يبشرهم به، ﴿ وَأَسَرُّوهُ ﴾ أي: أخفى الوارد وأصحابه أمر يوسف عن بقية الرفقة، وقالوا لهم: دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر، وذلك خيفة أن يطلبوا منهم الشركة فيه، بل يختص به الوارد وأصحابه دون بقية السيارة. وقيل: إن يهوذا كان يأتي يوسف بالطعام كل يوم، فأتاه يومئذ فلم يجده فأخبر إخوته فأتوا الرفقة وقالوا: هذا غلامنا أبق منا، فاشتروه فسكت يوسف مخافة أن يقتلوه، وقوله: ﴿ بِضَٰعَةً ﴾ حال، أي: أخفوه حال كونه متاعاً للتجارة. والبضاعة: ما بضع، أي: قطع من المال للتجارة ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴾ أي: لم يخف عليه أسرار السيارة أو صنيع إخوة يوسف بأبيهم، فسيجعل ذلك سبباً لتحقيق رؤياه حتى يصير له مجد في مصر ﴿ وَشَرَوۡهُ ﴾ يطلق «شرى» على البيع والشراء، وكلاهما يصح هنا، فيقال: وباع يوسف إخوته ﴿ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ ﴾ مبخوس ناقص عن القيمة نقصاً فاحشاً ﴿ دَرَٰهِمَ ﴾ بدل من «ثمن» ﴿ مَعۡدُودَةٖ ﴾ قليلة تعد عداً ولا توزن وزناً، لأنهم كانوا يعدون ما دون الأربعين، ويزنون الأربعين وما فوقها، وكانت عشرين درهماً ﴿ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾ ممن يرغب عما في يده فيبيعه بالثمن الطفيف. هذا إذا جعلنا «شرى» بمعنى «باع»، ويصح أن يقال: وشروه، أي: اشتراه الرفقة من إخوته وكانوا غير راغبين فيه، لأنهم اعتقدوا أنه آبق. انتهى القسم الثاني من السورة.

القسم الثالث

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ﴿٣١﴾

قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾

التفسير اللفظي

قال أصحاب الأخبار: إن الذي اشترى يوسف من إخوته بعد أن أخرجه من الجب هو مالك ابن ذعر وأصحابه الذين أخفوا أمره عن بقية السيارة؛ ولما اشتروه انطلقوا به إلى مصر وتبعهم إخوته يقولون استوثقوا منه لا يأبق منهم، فذهبوا به حتى قدموا مصر، فعرضه مالك على البيع فاشتراه قطفير وهو صاحب أمر الملك، وكان على خزائن مصر وكان يسمى العزيز. ويقال عن يوسف: كان ابن ثلاث عشرة سنة أو ١٧ سنة. ويقول أهل الأخبار: أن الملك كان يسمى «الريان بن العماليق»، ولبث يوسف في منزل العزيز ثلاث عشرة سنة، واستوزره الريان وهو ابن ثلاثين على الرأي الثاني، وأعطي العلم والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، وتوفي وهو ابن ١٢٠ سنة. وأما ثمنه فقيل: إنه بيع بوزنه ذهباً ووزنه فضة ووزنه مسكاً وحريراً، وقيل: لا بل هو عشرون ديناراً وزوجا نعل وثوبان أبيضان، وهذه أمور لا دليل عليها البتة.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ﴾ المسماة زليخا أو راعيل ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ اجعلي مقامه عندنا كريماً، أي: حسناً، أي: أحسني تعهده ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ في ضياعنا وأموالنا ونستظهر به في مصالحنا ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ نتبناه، وكان عقيماً وقد تفرس فيه الرشد. يقول العلماء: أفرس الناس ثلاثة: عزيز مصر، وابنة شعيب النبي قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ [القصص: ٢٦]، وأبو بكر حين استخلف عمر. يقول الله: وكما مكنا محبته في قلب العزيز مكناه في المنزلة بعد أن أنجيناه من الهلاك بكيد إخوته ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرض مصر وجعلناه ملكاً ليتصرف فيها بالعدل ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ فهذا التمكين لنتيجتين:

(١) أن يقيم العدل ويدبر أمور الناس.

(٢) وأن يعلم معاني كتب الله وأحكامه وتعبير المنامات المنبهة على الحوادث الكائنة ليستعد لها ويشتغل بتدبيرها قبل أن تحل.

كما فعل بغلات مصر في السنين السبع الآتي ذكرها، وذلك بتأويل الرؤيا واستطلاع الأمور قبل حلولها والاستعداد التام، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ لا يرده شيء في أمر يوسف وغيره، وقد أراد إخوة يوسف أمراً، ودبر الله غيره فغلبهم ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لطائف صنعه وخفايا لطفه، وأن الشر الظاهر قد يكمن فيه الخير الكثير كما حصل ليوسف في الجب، وأن الخير والنصر الظاهريّ قد يكون وراءه الندامة والحسرة، كما نصر إخوة يوسف عليه السلام ورموه في الجب، ثم انتهى الأمر بأن صار سيدهم، وأن ما فعلوه به كان من أسباب ارتقائه، ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ منتهى استعداد قوته، وهو سنّ الوقوف ما بين الثلاثين والأربعين أو ثمان عشرة سنة أو إحدى وعشرون، أقوال لا طائل في تحقيقها فلندعها، ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ حكمة وهو العلم مع العمل، أو حكماً بين الناس ﴿وَعِلْمًا﴾ أي: علم تأويل الأحاديث ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى

﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: وكما جزينا يوسف على إحسانه في عمله وتقواه في عنفوان شبابه، نجزي المحسنين فنتمم لهم أمورهم ونؤتيهم ما يستحقون من الكمال.

ثم أخذ يذكر بعض الإحسان الذي نشأ عنه أنه جوزي بأنه أوتي حكماً وعلماً، فقال: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ طلبت منه أن يفعل المعصية معها، من: راد يرود، إذا جاء وذهب لطلب شيء، ومنه: الرائد والمراودة، مفاعلة، وفي ذكر الاسم الموصول، وتبيان أن يوسف في بيتها، ثم تغليق الأبواب واستعدادها له إعلاء لشأن يوسف، ومقام عظيم في البلاغة في هذه الآية، لأن ذكر الاسم فضيحة، وكونه في بيتها أدعى إلى موافقتها، وتغليق الأبواب كل ذلك داع إلى الموافقة، لأن المستتر لا سيما مع من يملك أمره يفعل ما لا يفعله الذي استبان فعله وظهر أمره وانكشف حاله، وقد راوده من لا يملك له أمراً ولا يملك له نفعاً ولا ضراً، فالعفة مع هذه الأحوال أرقى ما وصل إليه الأخيار، وهذا هو قوله تعالى: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ السبعة على ما قيل، والتشديد مبالغة في الاستيثاق ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي: أقبل وبادر، أو تهيأت، وهي اسم فعل مبني على الفتح أو على الكسر أو على الضم قراءات و«اللام» في «لك» للتبيين، كقولك: سقياً لك، منهم من قرأها «هيت» بالفتح وكسر الهاء، و«هئت لك»: كجئت، من: هاء يهيء، إذا تهيأ، ومعاني اسم الفعل المتقدم لا يغيرها ضم ولا فتح ولا كسر، لأن هذه فتحات البناء، فالمعنى: إما تهيأت، وإما بادر، في جميع تلك اللغات ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أعوذ بالله معاذاً ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: الشأن ﴿رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ سيدي قطفير أحسن تعهدي إذ قال لك: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ فما جزاؤه أن أخونه في أهله، ويصح أن يكون الضمير لله، أي: إنه خالقي وأحسن منزلتي بأن عطف عليّ قلب العزيز فلا أعصيه تعالى، والأول أقرب ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ المجازون الحسن بالسيئ ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ قصدت مخالطته، والهمّ بالشيء: قصده والعزم عليه ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ حكى أبو حاتم عن أبي عبيدة أن يوسف عليه الصلاة والسلام لم يهمّ، وأن الكلام فيه تقديم وتأخير، أي: ولقد همّت به ولولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها، أقول: وهذا المعنى هو الموافق لمساق الآية. ألا ترى أنه ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ وهذا نفسه هو البرهان من ربه، وفي التعبير بلفظ الرب نكتة لطيفة، وأيّ برهان أعظم من هذه الفضيلة، وهي أن الإنسان يجب أن يحفظ نعمة المربي والسيد سواء أكان خالقاً أم مخلوقاً، فهذا هو البرهان وهذه صورته، هذا ربي أحسن مثواي وكل من أحسن إلى إنسان وجب عليه تكبيره، فتكون النتيجة هكذا: هذا العزيز يجب شكر نعمته ولا شكر لمن خان سيده، فهذا برهان منطقي ديني حسن.

فالبرهان في الآية مذكور فكيف كثر فيه الاختلاف، ولا حاجة إلى الإطالة في هذا المقام كأن يقال: إنه رأى صورة يعقوب ينهاه أو أنه رأى معصماً بلا عضد وعليه مكتوب ما يفيد تحريم الزنا، أو أن البرهان هو النبوة، فقد علمت أنه لا حاجة إليه بعد وضوح الآيات.

وتعجب كيف عبر بلفظ «رب» في الأول، ثم قال: ﴿بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾، والمعرفة إذا أعيدت معرفة كانت عين الأول، فالرب سيده والرب الثاني هو عينه، كأنه يقول: لولا أن رأى برهان احترام سيده وحفظ حقوقه لهمّ بها، وهذا التفسير يعضده ما سبق ذكره وما سيأتي، وذلك أن كل من له تعلق بهذه الواقعة شهد ليوسف بالبراءة، المرأة وزوجها والنسوة اللاتي قطعن أيديهن، وذلك الحكيم قريبها الذي

شهد على القميص، والله أيضاً شهد ببراءته من الذنب، ويوسف برأ نفسه. أما المرأة فإنها قالت: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ وقالت: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾. وأما الشاهد فهو ما قال الله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾، وأما الله فقد قال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ وأيّ إخلاص لمن همّ بالمرأة، وأما هو نفسه فإنه ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾. انتهى.

ثم قال الله تعالى مثل ذلك التثبيت ثبتناه ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ﴾ الخيانة ﴿وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ الزنا ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ الذين أخلصناهم لطاعتنا، ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ أي: تسابقا إلى الباب، فحذف الجار، أو ضمن الفعل معنى الابتدار، أي: ابتدر الباب، فأما يوسف فقد فرّ منها ليخرج، وأما هي فأسرعت وراءه لتمنعه الخروج واجتذبته من ورائه فانقدّ قميصه، والقدّ: الشقّ طولاً، والقطّ: الشقّ عرضاً، وهذا قوله تعالى: ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾، وقوله: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾ أي: وصادفا زوجها ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فهي بذلك ضربت طيرين بحجر واحد فهي من جهة تبرّئ نفسها، ومن جهة تخيف يوسف حتى يطاوعها فلا تفتري عليه بعد ذلك، و«ما» نافية أو استفهامية، أي: أيّ شيء جزاؤه إلاّ السجن، ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ طالبتني بالمؤاتاة ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ وهو قريب لها كان حكيماً عاقلاً، والشهادة على لسان حكيم من أهلها ألزم والمعنى: وحكم حاكم من أهلها فقال: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ أي: من قدّام ﴿فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ لأنه يدلّ على أنها قدّت قميصه من قدّام بالدفع عن نفسها، ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ لأنه يدلّ على أنها تبعته فاجتذبت ثوبه فقدّته، ﴿فَلَمَّا رَءَا﴾ قطفير أو الشاهد ﴿قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ وعلم براءة يوسف وصدقه وكذبها ﴿قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾ أي: من قولك ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ الخ، وكذلك الاحتيال على الرجال ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ﴾ معاشر النساء ﴿عَظِيمٌ﴾ لأنهن ألطف حيلة وأعظم كيداً فيغلبن الرجال.

قال بعض العلماء: إني أخاف من النساء أكثر مما أخاف من الشيطان، لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، وقال: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]. وقال الحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد: إن هذا الشاهد لم يكن صبياً بل كان رجلاً حكيماً. وحكي أيضاً أنه ابن عم المرأة، وهذا الرأي وجيه فهو أولى من ذكر أنه صبي. ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ أي: يا يوسف اترك هذا الحديث ولا تذكره لئلا يفشو بين الناس أو لا تكترث بهذا الأمر. ثم التفت إلى المرأة وقال: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾ يا راعيل ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ من القوم المذنبين، من: خطئ، إذا أذنب متعمداً، وفيه تغليب المذكر على المؤنث، وخطؤها بخيانة زوجها ورميها يوسف بالتهمة وهو بريء، وفي هذا دليل على أن العزيز حليم قليل الغيرة إذ لم يزد على ذلك مع امرأته، ولذلك كثرت الإشاعة حتى اتهمها نساء المدينة بأنها راودته عن نفسه ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ اسم لجمع امرأة، ولم يؤنث فعله لأنه بهذا الاعتبار تأنيث غير حقيقي، أي: أشاع جماعة من النساء وكنّ خمساً من أشراف مصر ﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ في مدينة «عين شمس» التي كانت عامرة إذ ذاك ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ زليخا ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي: عبدها

الكنعاني، والفتى معناه الشاب حديث السن ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ أي: شق شغاف قلبها وهو حجابه حتى وصل إلى فؤادها، أو شغفها من: شغف البعير بالقطران فأحرقه ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ في خطأ بيّن ظاهر ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾ وسمي مكراً لأنها أفشت إليهن أمرها واستكتمتهنّ سرّها فأفشينه عليها ﴿ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴾ تدعوهنّ، وقيل: كانوا نحو أربعين ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا ﴾ وهيأت لهنّ ما يتكئن عليه من نمارق ومساند، ويطلق المتكأ على نفس الطعام، فإن كل من دعوته ليطعم عندك فقد أعددت له وسائد يجلس ويتكئ عليها، فيكون الطعام متكأ على سبيل المجاز، وسواء أكان المتكأ هو ما يتكأ عليه عند الطعام أو الشراب أو نفس الطعام، فإن المآل واحد، وإن امرأة العزيز أعدّت لهنّ الطعام وفيه اللحم طبعاً والفاكهة ﴿ وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا ﴾ كما هي العادة المتبعة الآن في الطبقة العليا في مصر وفي المدارس تقليداً للأوروبيين، وانتظاماً في سلك المتمدينين الناقلين لها عن قدمائنا المصريين، فإن الموائد اليوم عند هؤلاء لا بد فيها من سكين لقطع اللحم وأخرى لقطع الفاكهة، فلما أخذن يأكلن وأمسكت كل واحدة بسكينها؛ انتهزت تلك الفرصة ﴿ وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ﴾ يا يوسف، وهو لا يعصي لها أمراً، بعد أن زينته وخبأته في مكان آخر، ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ ﴾ أي: رأى النسوة يوسف ﴿ أَكْبَرْنَهُۥ ﴾ أعظمنه ودهشن عند رؤيته، وهبن ذلك الحسن الرائق والجمال الفائق، وقد أعطي يوسف شطر الحسن. ويقال: معنى ﴿ أَكْبَرْنَهُۥ ﴾ حضن، يقال: أكبرت المرأة، حاضت، والهاء للسكت لا مفعول، لأن الفعل لازم، وإذا صحّ هذا المعنى يكون ذلك لفزعهنّ وما هالهن من أمر يوسف، وهذا المعنى هو الذي قاله أبو الطيب:

خف الله واستر ذا الجمال ببرقع　　فإن لحت حاضت في الخدور العواتق

واعلم أن إعظام النساء ليوسف وإجلاله لأنهن رأين عليه نور النبوة، وسيما الرسالة وآثار الخضوع والإخبات، وشاهدن فيه مهابة وهيبة ملكية وعدم التفات إلى الشهوات من النساء والمطاعم، فإذا كان الجمال مقروناً بتلك الصفات حقّ لهنّ أن يهبنه، ﴿ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ وجعلن يقطعن أيديهن بالسكاكين التي معهنّ وهنّ يظنن أنهنّ يقطعن الأترجّ ولم يحسسن بالألم لفرط دهشتهن، فما أحسسن إلاّ بالدم ﴿ وَقُلْنَ ﴾ أي: النسوة ﴿ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا ﴾ أي: معاذ الله أن يكون هذا بشراً، وكيف يكون بشراً والجمال الفائق الذي فضل كفضل القمر ليلة البدر على نجوم السماء يصحبه عفة ومكارم أخلاق وحفظ شرف وحسن معاشرة ومقابلة الحسنة بمثلها، وهذه صفات الملائكة المنزهين عن شهوات أهل الأرض ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ وحينئذ وصلت زليخا إلى ما كانت تقصده من دعوتهن للطعام فلما رأت ذلك ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ﴾ أي: هذا هو العبد الكنعاني الذي صورتنّ في أنفسكنّ، ثم لمتنني فيه، فلما رأيتن عرفتن ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ أي: امتنع، فقال النسوة له: أطع مولاتك، فقالت زليخا: ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ أي: ما آمره به، و«يسجنن»: يحبسنّ، وقوله: ﴿ مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ أي: السراق والسفاك والأباق كما سرق قلبي وسفك دمي بالفراق وأبق مني، فلا يهنأ ليوسف طعام ولا شراب كما منعنى كل ذلك. يقال: صغر كفرح، صغراً وصغاراً: ذلّ، فأما صغر كعظم، فهو ضدّ كبر. انتهى. وهنا لطيفتان:

اللطيفة الأولى في قوله تعالى:
﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ الخ

اعلم أن هذه القصة لم تذكر لنعرف جمال يوسف، أو لنفهم أن نساء مصر قطعن أيديهن فحسب، كلا، وإنّما هذه الآيات ترمي لمعان أعلى، ومراقي أبهى، وكمالات أتمّ، وعظات أرقى، ترمي إلى الاعتبار والاتعاظ أخلاقاً وعلماً، إن الجمال محبوب والناس متى غفلوا عن الجمال كانوا جهالاً، إن جمال الوجوه وحسن الفتيات وبهجة الفتيان يعرفها العام والخاص، وجمال الرجال والنساء معروف مشهور، إن الناس لا يفقهون من الجمال إلاّ ما ذكر هنا وأضرابه، وهو شائع بين العامة وسائر الخاصة، ولكن هناك جميل أجلّ وحسن أعلى وبهجة أرقى، قد شرحناها فيما مضى في هذا الكتاب، وهو جمال هذه الدنيا وبهجتها، بل جمال الله الذي تجلى في وجوه السماوات والأرضين، ذلك الجمال الذي حجب عن الجهال، وتمتع به أكابر الحكماء والخواص وترنّموا به، ذلك الجمال البديع في بهجة هذه الدنيا، وإذا كان النساء قد غابت عقولهن وقطعن أيديهن لرؤية يوسف وهو مخلوق في العالم، فما بالك بمن يحلون رموز هذا العالم ويقفون على بعض أسراره وعجائبه، ويرون ما تقطع دونه الأعناق، وتقف حيرى دونه الألباب، أفليسوا على حق إذا هم قطعوا أعمارهم في عجائبه وضيعوا ثروتهم في التمتع به، وبذلوا راحتهم في سبيل درسه، أولئك هم العاشقون حقاً، أولئك هم المخلصون صدقاً، أولئك هم الذين نظروا الجمال، أولئك هم الذين فازوا بالوصال، أولئك هم الرجال، أولئك هم الذين يقطعون قلوبهم ويمزقون أجسامهم بكثرة الفكر والعمل فلا يكتفون بتقطيع الأيدي، لأن هذا للحب الأدنى، وأين الأدنى من الأعلى؟ وهل أنبئك بما رأيت الليلة في المنام حين وصلت إلى هذا المقام أذكره هنا تذكرة للعقلاء وتبصرة للفضلاء وترويحاً من العناء ومسامرة للأجلاء:

تذكرت هذه الليلة ما اتفق لي منذ نحو ١٢ سنة، إذ زرت صديقاً لي بحلوان، وهو عالم بعلم النبات، مجدّ في تحصيله، دائب على جمع كتبه، يدرسه للتلاميذ ويعلمه لأبناء النيل، فأخذني إلى حجرة خاصة فيها آلة لينظر بها أدقّ الأشياء وأصغر الذرات بطريق التكبير؛ وهي آلة زجاجية على هيئة خاصة بطريق علم المناظر، فبلّ وجهها بالماء بلاً ووضعها وضعاً خاصاً، فنظرت بركة فيها ماء غزير مملوءة حشائش وحيوانات مختلفة عجيبة الشكل، وبعضها يتناول طعامه بعجلة يديرها دورات سريعة، وفي خلال دوراتها تلتقط له بعض القوت فيغتذي به، وهناك أشجار لها فروع عجيبة، كل ذلك في رطوبة على وجه الزجاجة، هذا ما أحضره الخيال الليلة في منامي، وهذه ليست رؤيا وإنّما هي من الصور التي تحضرها المخيلة من المخزون فيها كما تقدم في أقسام الرؤيا في أول السورة، ولعل المخيلة لما أحضرت هذه الصورة التي شاهدتها في حلوان مع ذلك الصديق العالم النباتي كانت مفكرة في الجمال، وكأنها أحضرتها لتكون درساً لأكتبه في هذا المقام من دروس الجمال الطبيعي في هذا العالم الذي خبأه الله عن الجاهلين، وأبرزه اليوم في هذا الكتاب وفي غيره للمسلمين ليحظوا به.

وإياك أيها الفطن أن تقول: إن هذا تمحل في القول، فإنك ترى من نوع الإنسان من يغرمون بعلومهم إلى درجة الجنون، ومنهم من يموتون من جدّهم في علومهم. لا فرق في ذلك بين العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية والدينية وغيرها، ومستحيل أن يكون ذلك إلاّ بالعشق والغرام، فهذا غرام

وغرام وهيام وأيّ هيام، فليكن غرام المسلمين بالعلوم اليوم، وليعلموا أن هذه السورة إنَّما جاءت لأمثال هذه المعاني التي أعدت لقوم يعلمون وإن لم يكن العلم عن حبّ فليس بعلم.

رأي أفلاطون في العلم

قال أفلاطون: إن رئيس الجمهورية يجب عليه أن يفتح لطبقة الأمراء ورؤساء الأجناد باب اللذة العقلية، ولا يدعهم قاصرين على اللذة الشهوية والغضبية، فهاتان اللذتان دائمتان مع الإنسان، فهو بطبعه ميال للطعام وللشراب وللاختلاط الجنسي ولغلبة الأعداء، ولكنه لا يفتح له باب حب العلم والغرام به إلاَّ إذا ازينت له طرقه واطلع على جماله وعرف بهجته، فذلك هو الدواء الوحيد لداء الرشوة، فأما الاقتصار على تينك الشهوتين فإنه يوجب أن يكون الأمراء مغرمين بمشاركة الأمة في أموالها وأعراضها، فأما إذا فتح باب العلم فإنهم يجدون لذة جديدة يكتفون بها عن ازدياد لذة الوقاع والطعام.

اللطيفة الثانية

جمال يوسف في علم الحديث وفي علم الموسيقى والجمال

قال عكرمة: كان فضل يوسف على الناس في الحسن كفضل ليلة البدر على سائر النجوم. وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رأيت ليلة أسري بي إلى السماء يوسف كالقمر ليلة البدر» ذكره البغوي بغير سند. وقال إسحاق بن أبي فروة: كان يوسف إذا سار في أزقة مصر تلألأ وجهه على الجدران.

أقول: تفكر أيها الذكي في حسن يوسف ولم ذكر في هذه السورة؟ إن القرآن لم ينزل لمجرد قراءتها، كلا، ولا لإعرابها ولا لمعرفة القصة فحسب، وإنَّما جاء للاتعاظ بها، وقد قدمنا في أول تفسيرها بعض ما تشير إليه من المعاني، فأما الحسن فهذا وقته، فلنشر له بعض الإشارة لنكتفي بالقليل عن الكثير فأقول:

انظر كيف ذكر القرآن جمال يوسف، وجعله صلى الله عليه وسلم كالقمر ليلة البدر، وحسن يوسف ما هو إلاَّ بعض ما في هذا العالم من الجمال الذي يجب النظر فيه والبحث عنه والتفكر فيه. وإذا كان لقصص يوسف أحسن القصص، وجماله أحسن الجمال، فقصة الجمال العام والحسن التام في نظام السماوات والأرض أجمل قصصاً وأحسن أملاً وخير ثواباً وأعظم بهجة، فالنظر في الجمال الجزئي يدعو للنظر في الجمال الكلي.

إن هذا العالم الذي نعيش فيه عند علماء الفلك والموسيقى والطبيعة، كله جمال في جمال، وليس هذا المقام بمتسع لذلك، فإنك إذا أردت أن تدرس جمال العالم فإنك تحتاج إلى العلوم الرياضية كلها والطبيعية، ولكن لأذكر لك ما يثلج صدرك، فأقول: إن جمال الوجه في تناسب أربعة أشياء وهي: الفم والأنف والعينان والخدان، فهذه إن تناسبت كان الجمال، وإن تنافرت لم يكن جمال. والتناسب والتنافر بحساب دقيق. اعلم أن الشبر هو مقياس لجميع أعضاء الإنسان، فقالوا: إن طول عينه ثمن شبره، وطول أنفه ربع شبره، وكذلك شق فمه وشفتيه كل منهما ربع شبره، فإن زاد أو نقص لم يكن جمال، وكان القبح على نسبة التفاوت، ويقولون: إنه إذا فتح يديه كالطائر كان ما

بين أصابع يده إلى مرفقه يساوي مقدار ما بين مرفقه إلى ترقوته يساوي مقدار ما بين ترقوته إلى مرفقه اليسرى يساوي ما بين مرفقه اليسرى وأطراف أصابعها ، فكل واحد منها شبران ، وإنَّما ذكرت لك ذلك لتعرف أن الشبر هو المقياس سواء أكان بأجزائه كما في الفم والأنف أو بمضاعفاته كما هنا ، ولأقتصر لك على ذلك في هذا المثال فقد كفاك وأفادك .

واعلم أن الجمال الذي رأيته في الأجسام كجسم يوسف الذي نحن بصدده التابع للحساب هو بعينه الذي يكون في الكلام ، فإن الشعر والموسيقى مبنيان على المتحركات والسواكن ، ولو أنك نظرت بحر الطويل لوجدت اللذة في سماعه راجعة إلى حسن النسبة بين متحركاته وسواكنه ، وأنت تعلم أن « فعولن مفاعيلن » أربع مرات ٤٨ حرفاً إذا كان غير مزحف ، ٢٨ منها متحركة وعشرون حرفاً ساكنة وهي منقسمة أربعة أقسام :

(١) فنقول : ٧ : ٥ ١٤ : ١٠ و١٤ : ١٠ ٢٨ : ٢٠ .

(٢) فهذه نسبة هندسية ، نسبنا متحركات ربع البيت إلى سواكنه ، فكانت كنسبة متحركات نصف البيت إلى سواكنه ، وهذه منسوبة إلى متحركات وسواكن البيت كله ، وهذا ظاهر للأذكياء العالمين بالشعر وبالحساب ، فهذا جمال تشهده الأذنان لأنها تزن الحركات والسكنات فتنفر من غير المتناسب وتستلذ بالمتناسب ، كما فعلت العين في الجمال سواء بسواء لا فرق بين جمال يوسف ونغمات الأوتار ، فكما تعرف أعيننا مقاييس الأعضاء المتقدمة وتحكم ولا علم لنا بأسباب الحكم ، هكذا تحكم آذاننا في نغمات الأوتار وعجائبها .

(٣) ومثل ذلك نظر العقل الذي لا يحظى به إلاَّ علماء الفلك الذين يفكرون في دورات النجوم والشموس والأقمار ، ويرون أن النسب محفوظة بحيث إنك لو راقبت السنين القمرية ولاحظت البسيطة والكبيسة لوجدتها في كل ثلاثين سنة ١٩ سنة بسيطة و١١ سنة كبيسة ، والدور عندهم ثلاثون في جميع الدهور والعصور ، والدور الكبير ٢١٠ أي : ٧ في ٣٠ ، ويمكننا أن نفعل هنا ما فعلناه في بيت الشعر سواء بسواء ، فيرى هناك انتظام تام وأدوار متتالية تقاس كما تقاس النغمات ، وكما يقاس الفم والأنف والعين بالشبر .

(٤) وهكذا نغمات الطير جارية على حساب الحركات ، فإذا سمعت الفاختة وهي تترنّم ككوه كوه ككو كوكو ، علمت أن هذه أوزان بحر الطويل « فعولن مفاعيلن » ، فإذا سمعت أربع مرات فقد أتت ببحر الطويل ، وقد عرفت وزنه وبناء عليه أصبح جمال يوسف وعزة وليلى يشارك نغمات الأوتار ونظم الأشعار وغناء الأطيار في أن كلاً مبني على نسب ، وأن الجمال راجع للنسب فلا فرق بين الشموس في مداراتها والطيور في أشجارها والشعراء في أشعارها وجماعة المغنين في ألحانها والوجوه في أبهج أنوارها .

إن الجهلاء يسمعون قصة يوسف فيفرحون وهم عن الجمال معرضون ، وما قصها الله إلاَّ للاعتبار بما فيها ، ومن أهمه النظر في الجمال في الكواكب والطبائع والأشعار والأشجار ، ولأقتصر لك على هذا لئلا يتسع بنا المقال في ذكر الجمال في المزارع ، وكيف كانت نسب أوراقها وأزهارها بمقياس كما كان تركيب عناصرها بميزان وهو نفس الجمال ، فالجمال في جميع العالم علويه وسفليه

وليس يدركه إلاّ العالمون الذين للرياضيات والطبيعيات دارسون، فإن كنت جاهلاً فلا تتعدّ يوسف وما أعطي من جمال، وإن كنت حكيماً فأدر نظرك في العالم كله بالتفصيل تارة وتارة بالإجمال، هنالك تعلم ما هو الجمال. إن العالم كله جمال ولكن أكثر الناس لا يدركون ذلك الجمال.

رمز النبوة بحسن يوسف لجمال العالم وإيماؤها إلى ما قررناه

لا يعزب عليك أن الأنبياء يريدون العلم والحكمة وشوق الناس إلى الجمال الذي مثلنا له بما قدمناه لترقى أممهم وتسعد حالهم، فإذا سمعت أن يوسف أعطي شطر الحسن فيا ليت شعري أين منتهاه؟ أما منتهاه فتجده في أمثال ما قدمناه، فالعالم الأرضي ليس له من الحسن إلاّ بمقدار، ولعلك تقول: فأين نولي وجهنا حتى نعرف ذلك الجمال؟ أقول: اقرأ الحديث فانظر كيف ذكر الإسراء والسماء والقمر وفضله على النجوم، وكأن هذا التشبيه يرمز به إلى المنحى الذي ينحوه الناس في قصد الجمال، أفلا تعجب كيف انتقل من حسن الأجسام الزائلة إلى المحاسن العالية لنرتقي في الأسباب ولندخل البيت من بابه، وهاأنا ذا قد فتحت لك الباب فلج فيه، وذلك لا يكون إلاّ بالعلوم الطبيعية والفلكية، فإذا ذكرت النجوم والقمر في باب التشبيه في حسن يوسف فذلك ليتأمل الناس ذلك الجمال معلوم أن المشبه أقل من المشبه به، فكأن النبوة تومئ إلى أنه يجب البحث في الجمال الأكمل، وهو المشبه به وهو ما أدخلتك في بابه، فإن كنت من أهله فبها ونعمت، وإلا فقل للمسلمين اقرؤوا العلوم فهي الجمال الذي يرمز له خاتم الأنبياء، وإذا أعطي يوسف شطر الحسن ففي العالم الجمال الأكمل والحسن الأوفر والبهجة العليا، والحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

انتهى القسم الثالث.

القسم الرابع والخامس

قضية السجن

﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ (٣٣) فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٣٤) ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ (٣٥) وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ (٣٧) وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨) يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ

ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ
﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ
مِن رَّأْسِهِۦ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى
عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ
أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ
بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ
فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ
سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ
سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ
سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ
فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ
إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا
خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ
ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ
أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ
لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ
لِنَفْسِى فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ
إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ
بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟
يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم
بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ
﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا
لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ
أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ
مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ

أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا
بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ
أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا
مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ
﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم
مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾
وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي
نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا
دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ
﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ
لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ
وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي
الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن
وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ
ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا
أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ
سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ
أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا
نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا
لَّظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ
قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ
لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ
ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي
كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا
فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ
وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ

تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾

التفسير اللفظي

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ﴾ بالرفع والنصب على المصدر في الثاني ﴿أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ آثر عندي من مؤاتاتها بالنسبة للعاقبة، وإلا فهذا أعزّ مشتهيات النفس، ويقال: إن من المؤثرات في دخوله السجن باطناً هذا القول؛ ولذلك ردّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على من كان يسأل الصبر، وأمره أن يسأل الله العافية.

واعلم أن هذا القول من علمائنا قد قرره علماء هذا العصر، فإنهم جزموا بأن تصورات النفس والأقوال التي ينطق بها المرء في سره وجهره لها آثار في عواقبه؛ ويقولون: إن حصول الصور في العقل من حسنة وسيئة لها أثر في الأفعال والأحوال الظاهرة، وضربوا لذلك مثلاً بأن اعتقاد الإنسان بأنه من الملوك أو التجار أو العلماء أو الأشراف تدعوه إلى أن يتزيا بزيهم ويسير بسيرتهم ويتجمل بملابسهم، فهكذا الأحوال العارضة عليه من الخارج ومن القضاء والقدر تكون مناسبة لما في عقله موافقة لما ينطق به من الآراء والأحوال والأعمال، وهذا القول ـ وإن كان خطابياً لا يقينياً ـ مناسب لهذا المقام.

ثم قال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ﴾ في تحسين ذلك ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أمل إلى إجابتهن، ويصح أن يقال: أصب، أي: أشتق، من الصبابة وهو الشرق ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ من السفهاء بارتكاب ما يدعونني إليه، فإن الحكيم لا يفعل القبيح ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ أي: فأجاب الله تعالى دعاء يوسف ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لدعاء يوسف وغيره ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم وما

يصلحهم، ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم ﴾ للعزيز وأصحابه في الرأي ﴿ مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ ﴾ الدلائل الدالة على براءته كقدّ القميص، وظهور براءته، وشهادة شاهد من أهلها، وفاعل «بدا» مضمر مفسر بقوله: ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ وذلك أن المرأة قالت لزوجها: إن ذلك العبد العبراني قد فضحني عند الناس يخبرهم أني قد راودته عن نفسه، فإما أن تأذن لي فأخرج وأعتذر إلى الناس، وإما أن تحبسه، فرأى حبسه إلى أن تنقطع مقالة الناس، وبعضهم قال: إنها سبع سنين، وبعضهم قال: خمس، ولا حاجة إلى تحقيق ذلك، ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾ عبدان للملك: خبازه وشرابيه بتهمة السم فأدخلا السجن ساعة إدخال يوسف، ﴿ قَالَ أَحَدُهُمَآ ﴾ أي: شرابيه ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ ﴾ أي: في المنام ﴿ أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ أي: عنباً، سمي العنب بما يؤول إليه، والخمر اسم للعنب بلغة عمان، فلا حاجة إذن للمجاز، ﴿ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ ﴾ أي: خبازه ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ﴾ تنهش منه، ﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ من الذين يحسنون تأويل الرؤيا، ويحسنون إلى أهل السجن، فأحسن إلينا بتأويل ما رأينا، ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾ فأبيّن لكما نوعه وكيفيته، ﴿ ذَٰلِكُمَا ﴾ أي: التأويل ﴿ مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ﴾ بالإلهام والوحي وليس بطريق الكهانة والعرافة والتنجيم وغيرها، وعلل ذلك فقال: ﴿ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴾. ثم أبان أصل هدايته وعلى أيّ دين هو، فقال: ﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ فأنا من بيت النبوة فاستمعا إليّ. وقد قال العلماء: يجوز لحامل العلم أن يصف نفسه حتى يعرف فيقتبس منه. ثم قال: ﴿ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾ أي شيء كان ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ التوحيد ﴿ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا ﴾ بالوحي ﴿ وَعَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ وعلى سائر الناس ببعثنا لإرشادهم، ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ ﴾ المبعوث إليهم ﴿ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ هذا الفضل فيشركون بالله ولا ينتهون، وإنّما قال لهما هذه الجمل لاستمالتهما للدين الصحيح، ثم أخذ يشرح ما قصده من هذه المقدّمات الدينية فقال: ﴿ يَـٰصَـٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ﴾ يا ساكنيه أو يا صاحبيّ فيه ﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ ﴾ شتى متعددة يستعبدكما هذا ويستعبدكما هذا ﴿ خَيْرٌ ﴾ لكما أم يكون لكما رب واحد لا يغالب ولا يشارك في الربوبية، وهذا قوله: ﴿ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾، والأرباب المتفرقون هي الأصنام والأوثان. ثم خاطبهما ومن كان على دينهما من المصريين لأنهم كانوا يقتسمون أصناماً كثيرة وتماثيل بعد أن كانوا قديماً يعبدون إلهاً واحداً ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ يا أهل مصر ﴿ مِن دُونِهِۦٓ ﴾ من دون الله ﴿ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم ﴾ أي: سميتم ما لا يستحق الألوهية آلهة، ثم أخذتم تعبدونها، فكأنكم لا تعبدون إلاّ أسماء لا مسميات لها، وقوله: ﴿ سَمَّيْتُمُوهَآ ﴾ سميتم بها، تقول: سميته زيداً وسميته بزيد، ﴿ مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا ﴾ بتسميتها ﴿ مِن سُلْطَـٰنٍ ﴾ حجة ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ ﴾ في أمر العبادة والدين ﴿ إِلَّا لِلَّهِ ﴾، ثم بيّن ما حكم به فقال: ﴿ أَمَرَ ﴾ على لسان أنبيائه ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ الثابت الذي قامت عليه البراهين، ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فيخبطون في جهالاتهم، وهذه المقالة تدرج فيها أولاً من رجحان التوحيد على اتخاذ الآلهة من طريق الخطابة؛ ثم برهن على أن الآلهة معبوداتهم أسماء لا مسميات لها، ثم بيّن الدين الحق.

ولما فرغ من المهم وهو الدعوة إلى الدين الحق الذي هو مقصوده، شرع يعبر الرؤيا التي هي مقصودتهما بالذات، وهو عدّها وسيلة للدين كما رأيت، فقال: ﴿ يَـٰصَـٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا ﴾ يريد

الشرابي ﴿ فَيَسْقِي رَبَّهُۥ ﴾ سيده ﴿ خَمْرًا ﴾ أي: يعود إلى عمله ﴿ وَأَمَّا ٱلْآخَرُ ﴾ أي: الخباز ﴿ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ﴾ وقد كانت رؤيا الشرابي أنه قال: إني رأيت كأني في بستان، فإذا بأصل شجرة عنب عليها ثلاثة عناقيد فقطفتها وعصرتها في كأس الملك وسقيته. وقال الخباز: رأيت كأن فوق رأسي ثلاث سلال فيها أنواع الأطعمة، فإذا سباع الطير تنهش منها، فقال للأول: ما رأيت من الكرمة وحسنها هو الملك وحسن حالك عنده، وأما العناقيد الثلاثة فإنه ثلاثة أيام تمضي في السجن ثم تخرج وتعود إلى ما كنت عليه، وقال للثاني: ما رأيت من السلال فهي ثلاثة أيام ثم تخرج فتصلب، ولما سمع الخباز صلبه، قال: ما رأيت شيئاً، فقال يوسف: ﴿ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ أي: قطع وتم ما تستفتيان فيه، وهو مآل أمركما وهو هلاك أحدهما ونجاة الآخر، ﴿ وَقَالَ ﴾ يوسف ﴿ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ اذكر حالي عند الملك كي يخلصني، ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ ﴾ أي: فأنسى الشيطان الساقي أن يذكر يوسف عند الملك، فإن صرف الوسوسة إلى ذلك الرجل الساقي حتى نسي ذكر يوسف أولى من صرفها إلى يوسف، ﴿ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ البضع: ما بين الثلاث إلى التسع، وهي هنا سبع سنين تضم إلى الخمس الأولى، فتكون اثنتي عشرة سنة.

قال كعب: قال جبريل ليوسف عليه السلام: «يقول الله عزَّ وجلَّ لك: من خلقك؟ قال: الله. قال: فمن رزقك؟ قال: الله. قال: فمن حببك إلى أبيك؟ قال: الله. قال: فمن نجاك من كرب البئر؟ قال: الله. قال: فمن علمك تأويل الرؤيا؟ قال: الله. قال: فمن صرف عنك السوء والفحشاء؟ قال: الله. قال: فكيف استغثت بآدمي مثلك؟».

قالوا: فلما انقضت سبع السنين رأى ملك مصر الأكبر رؤيا هالته فإنه رأى سبع بقرات سمان قد خرجن من البحر ثم خرج عقبهن سبع بقرات عجاف في غاية الهزال، فابتلع العجاف السمان ودخلن في بطونهم، ولم ير منهن شيء، ولم يتبيّن على العجاف منها شيء، ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها وسبع سنبلات أخر يابسات قد استحصدت، فالتوت اليابسات على الخضر حتى علون عليهن، ولم يبق من نضرتها شيء. فجمع السحرة والكهنة والمعبرين وقصّ عليهم رؤياه التي رآها، فهذا قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾ بقرات هالكات من الهزال ﴿ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ﴾ وذلك خطاب للأشراف والأعيان من العلماء والحكماء. ثم أخذ يستفتيهم فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ ﴾ يا أيها الأشراف أخبروني بتأويل رؤياي ﴿ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ أي: إن كنتم تحسنون عبارة الرؤيا فتنقلونها من الصور التي صوّرها الخيال إلى المعاني الحقيقية التي هي مثالها. يقال: عبرت الرؤيا عبارة، كما يقال: عبرتها تعبيراً، ومعبر الرؤيا ينتقل من ظاهرها إلى باطنها ليستخرج معناها، ﴿ قَالُوٓا۟ ﴾ أي: الملأ وهم السحرة والكهنة والمعبرون مجيبين للملك ﴿ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ﴾ أي: أخلاط مشتبهة، واحدها ضغث، والضغث في الأصل الحزمة الحاوية أنواع الحشيش، فاستعير للرؤيا الكاذبة، وإنَّما كان الجمع لأجل المبالغة، كما تقول العرب: فلان يركب الخيل، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴾ أي: المنامات الباطلة فإنها ليس لها تأويل عندنا، وإنَّما التأويل للمنامات الصحيحة. ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنْهُمَا ﴾ وهو الشرابي ﴿ وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ وتذكر يوسف بعد جماعة من الزمان مجتمعة، أي: مدّة طويلة. وفي قراءة «بعد

إمة» كنعمة وزناً ومعنى، أي: بعد ما أنعم عليه بالنجاة ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ أنا أخبركم به عمن عنده علمه ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ أي: فابعثوني إلى يوسف لأسأله، فأرسلوه إليه فأتاه فقال: ﴿يُوسُفُ﴾ أي: يا يوسف ﴿أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ أيها البليغ في الصدق مما جرّبته في تأويل رؤياي ورؤيا صاحبي، ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ﴾ إلى قوله: ﴿لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: إلى الملك وأتباعه ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فضلك ومكانتك فيطلبوك ويخلصوك من محنتك، ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ على عادتكم المستمرّة، أي: دائبين، منصوب على الحال، أو تدأبون دأباً، والجملة حال أيضاً، وهو بوزن سبب ونصر، يقال: دأب في العمل دأباً، ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ لئلا يأكله السوس ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ في تلك السنين، أي: ادرسوا قليلاً من الحنطة للأكل بقدر الحاجة وأمرهم بحفظ الأكثر لوقت الحاجة وهو وقت السنين المجدبة، ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: من بعد السنين المخصبة ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ سبع سنين مجدبة ممحلة شديدة على الناس ﴿يَأْكُلْنَ﴾ يفنين ﴿مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أي: يأكل أهلهن ما ادخرتم لأجلهن ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ تحرزون لبذور الزراعة، ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ يمطرون من الغيث، أو يغاثون من القحط وهو من الغوث ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ ما يعصر العنب فيكون الخمر، والزيتون فيكون الزيت، والسمسم فيكون الدهن، يراد بذلك كثرة النعم وعموم الخصب في الزرع والثمار. ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾ بعد ما جاءه الرسول بالتعبير، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾ ليخرجه ﴿قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: الملك ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ﴾ أي: حال النسوة ﴿ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ فقد ثبت يوسف وتأنى في إجابة الملك وقدم سؤال النسوة ليظهر براءته حتى لا يرميه الحاسدون بما يضر سمعته عند الملك، ويستدلون بمكثه في السجن سنين طويلة، وهذا يفيد أن الإنسان يجب عليه اتقاء التهم ونفيها. وقال عليه الصلاة والسلام: «لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره، والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان، ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى أشترط أن يخرجوني، ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول فقال: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، ولو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبث لأسرعت الإجابة وبادرت الباب، ولما ابتغيت العذر، إنه كان لحليماً ذا أناة».

ومن حسن أدبه أنه لم يذكر سيدته مع ما صنعت به، وتسببت فيه من السجن والعذاب، ولم يذكر إلاّ ﴿ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾، وقال فيهن لا فيها: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ لا يعلمه إلاّ الله وهو يجازيهن عليه، فرجع الرسول إلى الملك برسالته، فدعا الملك النسوة المقطعات أيديهن، ودعا امرأة العزيز، ثم ﴿قَالَ﴾ لهن ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾ ما شأنكنّ ﴿إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ هل وجدتن منه ميلاً إليكنّ، ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ تعجباً من قدرته على خلق عفيف مثله ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ من ذنب، ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ ظهر واستقر ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في قوله: ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾، ثم رجع الرسول إلى يوسف وأخبره بكلام النسوة وإقرار امرأة العزيز وشهادتها على نفسها، فقال يوسف: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: امتناعي من الخروج والتثبت لظهور البراءة ﴿لِيَعْلَمَ﴾ العزيز ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ بظهر الغيب في حرمته، وهو حال من «الهاء»، أي: لم أخنه وهو غائب عني. أو ليعلم الملك أني لم أخن العزيز الخ، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ أي: وليعلم أن الله الخ، تعريض بامرأته في خيانتها أمانة زوجها، ويجوز أن يكون هذا

من كلام امرأة العزيز أيضاً إذ قالت: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ ﴾، ثم شرعت تقول: ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ ﴾ أي: ليعلم يوسف أني لم أخنه في حال غيبته وهو في السجن ولم أكذب عليه، فلم أفعل في غيبته ما فعلت في حضوره، وقوله: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ على هذا بمعنى أني لما أقدمت على هذا الكيد والمكر قد افتضحت لأن الله لا ينفذه ولا يسدده.

ثم أخذ يتواضع ويهضم نفسه لئلا يكون لها مزكياً وليبيّن أن هذه الأمانة إنَّما هي من الله، فقال: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ﴾ من الزلل ولست أشهد لها بالبراءة التامة ولا أزكيها في جميع الأحوال ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ أراد به جنس السوء لما فيها من الشهوات ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ﴾ أي: إلاَّ البعض الذي رحمه ربي بالعصمة. ويصح أن يكون هذا من كلام المرأة وهو أظهر، كأنها قالت: ذلك ليعلم أني لم أخنه ولم أكذب عليه في حال الغيبة، وجئت بالصدق عند السؤال، ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ﴾ مع ذلك من الخيانة، فإني خنته كما هو معروف، ثم اعتذرت بأن كل نفس أمارة بالسوء إلاَّ نفساً رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف، ﴿ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ استغفرت ربها واسترحمته مما ارتكبت لأن الله غفور لذنوب عباده ورحيم بهم.

هذه الأخلاق من عفة وصبر وأمانة وعلم غزير وأناة، حملت الملك أن يستخلصه لنفسه، أي: يجعله خالصاً له لا يشاركه فيه سواه، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ﴾ فلما جاء الرسول إلى يوسف، وقال له: أجب الملك، أجابه وتنظف ولبس ثياباً حسنة، ثم قصد باب الملك ودخل عليه وتحدث معه ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ ﴾ وشاهد منه الرشد والدهاء ﴿ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ ﴾ ذو مكانة ومنزلة ﴿ أَمِينٌ ﴾ مؤتمن على كل شيء، ويقال: إنه كان يحسن العربية والعبرية فكلمه بهما فضلاً عن لغات أخرى، وقال له: العربية لسان عمي إسماعيل، والعبرية لسان آبائي، وطلب منه الملك أن يسمعه رؤياه فأسمعها له وذكر له البقرات والسنابل وأماكنها على ما رآها، فأجلسه على السرير وفوّض الأمر إليه، وتوفي قطفير فولاه مكانه وزوّجه زليخا فوجدها عذراء، وولد له منها إفرائيم وميشا، ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ﴾ ولِّني أمر أرض مصر ﴿ إِنِّى حَفِيظٌ ﴾ لها ممن لا يستحقها ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بوجوه التصرف فيها، وهذا دليل على أن من قدر على المنفعة العامة فليتولها وليستظهر بذي الجاه، ولو كان كافراً، لأن الخلق عباد الله، وأقربهم إليه أنفعهم له، والنافعون للناس أشبه بالملائكة القائمين بأمره في تدبير خلقه، ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ ومثل ذلك التمكين الظاهر بأن أنجيناه من الجبّ وخلصناه من السجن وزيناه في عين الملك ﴿ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أرض مصر ﴿ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ﴾ أي: كل مكان أراد، لم يمنع عنه لاستيلائه على جميعها ودخوله تحت سلطانه، ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ﴾ في الدنيا ﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ الذين يحسنون أعمالهم وأخلاقهم ويحسنون إلى الناس، فنجعل الناس يودّونهم ويحبونهم ويملكونهم، ونرفعهم على الجميع في الدنيا، كما في أمر يوسف، وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، وكقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴾ [مريم: ٩٦] أي: يلقي المحبة لهم في القلوب، فيوسف لم يجعله الملك على خزائن الأرض إلاَّ لعلمه وحكمته، وكل من لم يكن أهلاً للأعمال العظيمة في الدنيا يحرم منها. ولذلك نرى المسلمين قد غضّ كثير منهم الطرف عن إحسان

أعمالهم وصناعاتهم وعلومهم وكتبهم ومطابعهم، وجهلوا أكثر ما ينفع الناس ولم يحسنوا الصناعات إلاَّ قليلاً، وفاز بها الإفرنج، فوفى الله بعدله المسلمين حظهم من التأخر، والفرنجة حظهم من التقدم، فإنه لا يضيع أجر المحسنين لأعمالهم، فتعجب.

ولمّا كان المقام مقام دين وحثّ على الآخرة عطف عليه قوله: ﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي: أفضل من أجر الدنيا ﴿ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ ما نهى الله عنه من الشرك والذنوب، فإن الأجر في كل شيء بحسبه، ويوسف ينال في الآخرة أفضل مما أوتي في الدنيا.

ولقد جاء في آية أخرى في حق بعض الأنبياء: ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، يقال: إن الملك لمّا استوزره أقام العدل وضبط الغلات حتى دخلت السنون المجدبة وعمّ القحط مصر والشام وتوجه إليه الناس.

ولقد تغالى أصحاب القصص فقالوا: إنه باع أولاً بالدراهم والدنانير ثم بالحلي فبالدواب فبالضياع والعقار ثم برقابهم، ثم أعتقهم بالاتفاق مع الملك، وكل هذا غير معقول تناقله الناس جيلاً بعد جيل، أكاذيب ما أنزل الله بها من سلطان.

وقد كان أصاب كنعان ما أصاب سائر البلاد، فأرسل يعقوب عليه السلام بنيه إلاَّ بنيامين إلى يوسف للميرة ﴿ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ أي: عرفهم هو، أما هم فلم يعرفوه لطول العهد وعظمة الملك ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾ أصل الجهاز ما يعدّ من الأمتعة للنقلة، كعدد السفر وما يحمل من بلدة إلى أخرى، ويطلق أيضاً على ما تزفّ به المرأة إلى زوجها. يقال: إنه أعطى كل واحد حمل بعير، و(الجِهاز) ـ بكسر الجيم ـ قرئ شاذاً، ﴿ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ ﴾. يقال إنه قال: لعلكم جواسيس؟ قالوا: كلا وذكروا أنهم ١٢، هلك واحد منهم في البرية، ولهم أخ عند أبيهم وهم هنا عشرة، وسألوه حملاً لأجل أخيهم الغائب، فأعطاهم ذلك ورهن أحدهم وهو شمعون بطريق الاقتراع حتى يحضروا أخاهم الغائب ليعلم صدقهم، وأخذ يقيم الحجة على أنهم يجب عليهم أن يرجعوا إليه لفضله عليهم مع إظهار الشدة في المعاملة، وأخذ أحدهم رهناً. وقوله: ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ ﴾ الخ، هذا جمع بين اللين والشدة، وهي خير سياسة بحيث إذا كان الرجل ممن يساقون بالعصا فقد نالها، أو بالحلم والفضل فقد ناله، وذلك عند جهل حال المسوس كما في هذه الحال، فإن يوسف عليه السلام وإن كان عالماً بهم قد عاملهم معاملة من لا يعرفهم، فقال: ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ ﴾ أتمه ﴿ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ لأنه قد أحسن ضيافتهم وأكرم مثواهم، ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ أي: ولا تقربوني ولا تدخلوا دياري، ﴿ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ ﴾ سنجتهد في طلبه من أبيه ﴿ وَإِنَّا لَفَـٰعِلُونَ ﴾ ذلك ولا نتوانى فيه، ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ﴾ لغلمانه الكيالين ﴿ ٱجْعَلُواْ بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ ﴾ أوعيتهم وكانت نعالاً وأدماً وورقاً، وهذه البضاعة كانت ثمن الطعام، ووكّل بكل رحل واحداً يجعل فيه بضاعتهم، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ ﴾ يعرفون حق ردّها وحق التكرّم برجاع ثمن الطعام مع الطعام ﴿ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ ﴾ وفرغوا أوعيتهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ لعل معرفتهم بذلك تدعوهم إلى الرجوع، ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ ﴾ حكم بمنعه بعد هذا إن لم يذهب معنا بنيامين ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ ﴾ نرفع المانع من الكيل ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ من

أن يناله مكروه، ﴿ قَالَ ﴾ يعقوب ﴿ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾ وقد قلتم هذا القول في يوسف ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا ﴾ منكم، وقرئ (حفظاً)، فهو على الأول حال وعلى الثاني تمييز، يقول: إني أتوكل على الله في حفظه ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ فأرجو أن ينعم عليّ بحفظه.

واعلم أيها الذكي أن قوله هنا: ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ لا يعقلها الأذكياء إلاّ إذا درسوا ما تقدم في سورة « هود » وفي سورة « الأنعام » وفي سورة « يونس » وفي سائر ما تقدم من عناية الله بالعوالم الحية ونظره لها نظر رحمة، وأن أكثر الناس لا يعرفون من الله إلاّ منعماً في الجنة، ومعذباً في النار، ومنزلاً على الناس مرضاً وفقراً وموتاً، والجاهل يحجبه ذلك عن التوغل في العلوم، فيعيش مرتبكاً معترضاً على الله في قلبه مظهر الرضا بلسانه مملوءاً حقداً على إبليس وعلى كل مخالف لعقيدته من أهل الأرض، وهذه حياة الجاهلين في جميع الأمم والأجناس، فلا يرون رحمة الله إلاّ من رحم ربك وعرفه، والطريق الذي سلكناه في هذا التفسير أن تعرف رحمته من جمال هذا العالم والتوغل في العلم والوقوف على الحقائق، وأن أمثال سجن يوسف وغربته وسجنه وضرر عين أبيه وحسد الإخوة واستعباد يوسف، كل ذلك يظهر للجهال أنه نقمة، وما هو إلاّ مقدمات للنعمة، وذلك أشبه بدروس المدرسة يتعلمها التلميذ صعبة قاسية ثم تكون عاقبتها السعادة. فهكذا سائر أحوالنا، فبهذا التفسير والسير على منواله ودراسة العلوم التي أشار بها ونبه عليها تعرف أيها الذكي أن الله أرحم الراحمين، فرحمته كرحمة الأب الذي يطعم ابنه ويقهره على تعلم الدروس، ورحمة الجهلاء كرحمة الأم، فتعلم وكن من المفكرين.

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ﴾ أي: ما نبغي شيئاً وراء ما فعل بنا، قد أكرمنا وأحسن مثوانا وباع منا ورد علينا متاعنا، ثم وضحوه فقالوا: ﴿ هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ فنستظهر بها ﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ بالرجوع إلى الملك، أي: نجلب لهم ميرة، وهي طعام يحمل من غير بلدك ﴿ وَنَحْفَظُ أَخَانَا ﴾ عن المخاوف ﴿ وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ وسق بعير باستصحاب أخينا ﴿ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ سهل عليه متيسر لا يتعاظمه، ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا ﴾ عهداً ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي: حتى تعطوني ما أتوثق به من عند الله، أي: عهداً مؤكداً بذكر الله أو الحلف به، فكأن المعنى: حتى تحلفوا بالله ﴿ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ ﴾ هذا جواب القسم، أي: والله الخ، ﴿ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ أي: إلاّ أن تغلبوا فلا تطيقوا ذلك، أو إلاّ أن تهلكوا جميعاً، أي: لا تمتنعون من الإتيان به إلاّ للإحاطة بكم، كما تقول: أقسمت بالله إلاّ فعلت كذا، أي: ما أطلب إلاّ فعلك كذا، ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ ﴾ عهدهم ﴿ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ ﴾ أي: قال يعقوب: الله شاهد على ما نقول، فكأن الشاهد ﴿ وَكِيلٌ ﴾ أي: موكول إليه هذا العهد أو وكيل حافظ، ﴿ وَقَالَ يَـٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾ أمرهم بدخول مدينة مصر من أبواب مختلفة أو من طرق مختلفة لأنهم أبناء أب واحد لهم جمال وطول وقامة بارعان، وقد عرفوا هذه المرة بخلاف التي قبلها، فخاف عليهم العين.

ومعلوم في « علم ما وراء الطبيعة » كما في « الإشارات » لابن سينا أن للنفس آثاراً تنبعث منها بواسطة العين وغيرها إلى الخارج، وهذه الآثار إما ضارة وإما نافعة، وفعل العين من: عانه يعينه: أصابه

بها من تلك الآثار ؛ ولو أنك درست أيها الذكي ما دوّنه المتقدمون وعلماء العصر الحاضر في هذا المقام لدهشت من العلوم النفسية في أمريكا وفي أوروبا من الآثار المغناطيسية في التنويم وغيره ، ولعلمت أن الإنسان قليل العلم ، ففي الأرض اليوم أناس يشفون المريض بمجرد اللمس مرة أو مرات كثيرة ، وذلك يحصل بالتمرين ودروس كثيرة . وقد اشتهر أناس في أصقاع الأرض بهذه الخاصية ، وقد ينوّم الرجل غيره ويوحي إلى المنوَّم وقت النوم ما يشاء أن يفهمه كالصلاح والتقوى وحب الدرس وترك الخمر والتدخين والكوكايين ، أو الإحسان أو ترك الغضب أو قتل فلان في وقت كذا ، فإذا استيقظ المنوَّم لم يعرف شيئاً من ذلك ، وإنَّما الأثر في نفسه يجعله مستعداً لما أوحي إليه في النوم فيفعل ما أمر به في الوقت والساعة والدقيقة والثانية ، ولا يدري من أين حلّ به هذا .

هذا غيض من فيض من علوم العصر الحاضر ، وهكذا ذكر بعض ذلك المتقدمون ، فالنفس الإنسانية لها قدرة مخبوءة تظهر بالعمل والدرس والجد والرياضة تارة وبطبعها تارة أخرى ، فالعين مما يؤثر بدون درس ولا تعلم ؛ كمن يسمون في أوروبا اليوم وسطاء بالطبيعة ؛ أي : إن هناك أناساً خلقوا ولهم قدرة في الوقت الحاضر على مخاطبة الأرواح متى ألقوا أنفسهم في السبات المغناطيسي ، وهكذا آخرون لهم قدرة أن يروا الأرواح بأعينهم ، ويسمى الواحد منهم « الوسيط المبصر » فذلك يكلم الأرواح ، وهذا يراهم ويكلمهم . فكذلك هنا هؤلاء العائنون خلقوا مجبولين على الشر بهذه القوة ، كما خلق الأنبياء مجبولين على الخير ، والشياطين على الشر . فإذا سمعت رواية البخاري ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن العين حق » فاعلم أن هذا هو العلم الحديث والقديم . وإذا سمعت رواية مسلم عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم إذ قال : « العين حق ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين ، وإذا استغسلتم فاغسلوا » ، ومعنى هذا أنه كان يؤمر العائن فيتوضأ ثم يغتسل منه المعين ، فإذا سمعت هذا فاعلم أن العلم اليوم كشف أصول هذه العلوم ، والظاهر أن هذه المسائل سيزيد وضوحها في المستقبل القريب ، وإذا سمعت قوله صلى الله عليه وسلم : « اللهم إني أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامّة » فاعلم أنه لم يجد صلى الله عليه وسلم علاجاً لهذا البلاء الذي يصدر من النفوس إلاّ بالالتجاء لخالق النفوس .

ثم أخذ يعقوب يذكر بنيه أن هذا من الأخذ بالأسباب ، والقدر لا ملجأ ولا مفر منه إذا حتم على امرئ في هذه الدنيا ، فقال : ﴿ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ أي : إن كان الله أراد بكم شراً فلا دافع له من التفرق الذي أشرت به ولا غيره ، وإنَّما علينا الجد والله هو الذي يتولى العباد ، ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ فهو منفذ أمره متى أراد ، ﴿ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ التوكل تفويض الأمر إلى الله والاعتماد عليه ، ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم ﴾ متفرقين ﴿ مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم ﴾ أي : ما كان يدفع عنهم دخولهم من أبواب متفرقة ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ أي : شيئاً قط ، فإنهم مع هذا التفرق في الدخول اتهموا بالسرقة وافتضحوا بعد ذلك بسرقة صواع الملك ، وأخذ أخوهم لأن الصواع وجد في رحله ، وزاد حزن أبيهم بفقد بنيامين ﴿ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ ﴾ استثناء منقطع ، أي : لكن شفقة يعقوب عليهم واحترازه من إصابتهم بالعين ﴿ قَضَىٰهَا ﴾ أظهرها ووصى بها ، ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ ﴾ بالوحي تارة ونصب الحجج تارة أخرى ، فعرف ما تنقطع دونه أعناق الحكماء بحثاً وتنقيباً ،

وهو أن ما هو شائع بين العامة من تأثير العين حقّ وأمر بالتحرز منه وعرف أن القضاء غالب فذكر الأمرين: التوصية والتسليم للقضاء، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فلا يعرفون من الأسباب إلاّ ما تلمسه أيديهم وتراه أعينهم، وكذلك لا يقرّون بقوة فوق هذا العالم تدير شؤونه وتحيط به. فامتثلوا أمر أبيهم وسافروا إلى مصر، ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ ضمّ إليه بنيامين على الطعام وفي المنزل، وذلك أنه قال: سينزل كل اثنين منكم بيتاً، وهذا لا ثاني له فيكون معي، فبات معه وقال له: أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟ قال بنيامين: ومن يجد أخاً مثلك أيها الملك، ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل؟ فبكى يوسف وقام إليه وعانقه و﴿ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي: لا تحزن بما عملوا في حقنا فيما مضى، ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾ أي: هيأ أسبابهم وأوفى الكيل لهم ﴿ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ﴾ وهي المشربة التي كان الملك يشرب بها وهي الصواع، يقال: إنها كان يسقى بها الملك، ثم جعلت صاعاً يكال به لعزة الطعام، وكان يشبه « الطاس » من فضة أو ذهب وقد جعلها في وعاء طعام أخيه بنيامين، ثم ارتحلوا فأرسل خلفهم من استوقفهم، ﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ ﴾ نادى مناد وأعلم معلم، والأذان: الإعلام ﴿ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴾ العير: القافلة، وهي اسم الإبل التي يحمل عليها الأحمال فسمي بها أصحابها، ﴿ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ أيّ شيء ضاع منكم ﴿ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ ﴾ وهو الصاع كما قرئ به، وبالصوع كنصر وكقفل، وبالعين وبالغين وصواغ: من الصياغة، ﴿ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ من الطعام ﴿ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴾ الزعيم: الكفيل بلسان أهل اليمن، يقول: أنا كفيل أؤديه إلى من ردّه، وهذا من باب الجعالة وأنه يجوز ضمان الجعل، ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ ﴾ قسم فيه معنى التعجب ﴿ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴾ وذلك أنهم شدّوا أفواه رواحلهم لئلا تتناول زرعاً أو طعاماً لأحد من أهل السوق في المدينة، وكانوا ذوي أمانة ظاهرة عرفها الملك وبطانته وحاشيته حتى رد بضاعتهم إليهم فوجدوها في رحالهم، ﴿ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ ﴾ أي: فما جزاء سرقة الصاع ﴿ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ في جحودكم وادعائكم البراءة منه، ﴿ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ ﴾ أي: جزاء سرقته أخذ من وجد في رحله، وذلك هو الحكم في شريعة يعقوب أن من سرق يكون رقيقاً سنة، فلما استفتوهم أجابوهم بحسب شرائعهم ﴿ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ﴾ أي: فأخذ السارق نفسه هو جزاؤه لا غير ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي: السرّاق فنسترقهم، ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ﴾ فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء بنيامين لنفي التهمة، حتى بلغ وعاءه فقال: ما أظن هذا أخذ شيئاً، فقالوا: والله لا نتركه حتى تنظر في رحله فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا، فوجدها في وعاء طعامه، ﴿ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ﴾ وأنّث هنا باعتبار السقاية، والصواع يذكر ويؤنث، ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي: مثل ذلك الكيد، أي: الحيلة ﴿ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ أي: علمناه إياه وأوحينا به إليه، ثم فسر الكيد وهي الحيلة المتقدمة فقال: ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ ﴾ لأن الحكم في دين الملك، أي: شريعته للسارق أن يغرم مثلي ما أخذ ويضرب، لا أن يستعبد، ولو أن يوسف جرى على شريعة الملك لم يتمكن من أخذ أخيه، وقوله: ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ استثناء منقطع، أي: لكن أخذه بمشيئة الله وإذنه، ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ بالعلم كما رفعنا درجته ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ أرفع درجة منه، ﴿ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ ﴾ بنيامين ﴿ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ وهو يوسف لأنه

دخل كنيسة فأخذ تمثالاً صغيراً من ذهب كانوا يعبدونه فدفنه، وقيل: أعطي دجاجة كانت في المنزل لسائل، أو أنه منطقة لإبراهيم عليه السلام يتوارثها أكابر ولده فورثها إسحاق ثم وقعت إلى ابنته وكانت أكبر أولاده، فحضنت يوسف وهي عمته بعد وفاة أمه، وكانت لا تصبر عنه، فلما شبّ أراد يعقوب أن ينزعه منها فعمدت إلى المنطقة فحزمتها على يوسف تحت ثيابه، وقالت: فقدت منطقة إسحاق فوجدوها محزومة على يوسف، فقالت: إنه لي سلم أفعل به ما أشاء، فتركه يعقوب عندها حتى ماتت.

ويقال: إنهم لما استخرجوا الصاع من رحل بنيامين، نكس إخوته رؤوسهم حياء، وأقبلوا عليه وقالوا له: فضحتنا وسودت وجوهنا يا بني راحيل ما يزال لنا منكم بلاء، متى أخذت هذا الصاع؟ فقال: بنو راحيل الذين لا يزال منكم عليهم بلاء، ذهبتم بأخي فأهلكتموه، ووضع هذا الصواع في رحلي الذي وضع البضاعة في رحالكم. ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾ أي: مقالتهم إنه سرق كأن لم يسمعها، و﴿ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ﴾ مكاناً: تمييز، أي: أنتم شر منزلة السرقة لأنكم سرقتم أخاكم يوسف من أبيه، ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ تقولون أو تكذبون، ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا ﴾ في السن وفي القدر ﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ﴾ بدله على وجه الاسترهان أو الاستعباد، فإن أباه يتسلى به عن ابن المفقود، ﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ إلينا فأتمم إحسانك، أو من المتعودين الإحسان فكيف تغير عادتك، ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ ﴾ وكيف نظلم غيره فنأخذه على فتواكم، ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴾ في مذهبكم هذا، ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ ﴾ السين والتاء للمبالغة كما في «استعصم»، أي: فلما يئسوا من يوسف ﴿ خَلَصُواْ ﴾ انفردوا عن الناس خالصين لا يخالطهم سواهم، ﴿ نَجِيًّا ﴾ أي: متناجين متشاورين وليس معهم غيرهم، وهو مصدر، فلذلك أفرد لأن هذه قاعدته فهو يكون مفرداً في كل حال، ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾ في السن وهو روبيل، أو في الرأي وهو شمعون ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ عهداً وثيقاً لأن العهد كان معه الحلف، وهو تأكيد له من جهة الله، ﴿ وَمِن قَبْلُ ﴾ ومن قبل هذا ﴿ مَا ﴾ مزيدة ﴿ فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ ﴾ قصرتم في شأنه، ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ ﴾ فلن أفارق أرض مصر ﴿ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ ﴾ في الرجوع ﴿ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي ﴾ أو يقضي الله لي بالخروج أو بالموت، ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ لأنه لا يحكم إلا بالعدل ﴿ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ ﴾ أي: نسب إلى السرقة ﴿ وَمَا شَهِدْنَآ ﴾ عليه بالسرقة ﴿ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ﴾ من سرقته وتيقنا أن الصواع استخرج من وعائه ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴾ وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق، ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ أي: مصر، أي: فأرسل إلى أهلها فاسألهم عن كنه القصة، ﴿ وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ وأصحاب القافلة، وكانوا قوماً من كنعان من جيران يعقوب، ﴿ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ تأكيد، فلما رجعوا إلى أبيهم وقالوا له ما قال لهم أخوهم ﴿ قَالَ ﴾ يعقوب ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ أردتموه فقررتموه، وإلا فمن ذا أفهم الملك أن السارق يؤخذ بسرقته، ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ أي: فأمري صبر جميل، أو فصبر جميل أجمل ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ بيوسف وبنيامين وأخيهما الذي توقف بمصر، ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بحالي وحالهم ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ في تدبيره. ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ﴾ أي: عن بنيه، أي: وأعرض عنهم كراهة لما جاؤوا به

﴿ وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ والألف بدل من الياء ، أي : يا أسفي ، والأسف أشد الحزن والحسرة ، والتجانس بين الأسف ويوسف غير متكلف ، ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ ﴾ لما أكثر البكاء ومحقت العبرة سواد عينه فجعلته بياضاً ، وكان يدرك إدراكاً ضعيفاً ﴿ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ مملوء من الغيظ على أولاده ممسك له في قلبه لا يظهره ، أي : مكظوم ، من : كظم السقاء : شدّه على ملئه ، ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ ﴾ لا ﴿ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾ أي : لا تزال تذكره تفجعاً ، ومن هذا :

فقلت يمين الله أبرح قاعداً ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

أي : لا أبرح ، وقوله : ﴿ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا ﴾ أي : مريضاً مشرفاً على الهلاك ﴿ أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ البث : أصعب الهمّ الذي لا يصبر عليه صاحبه فيبثه إلى الناس ، أي : ينشره ، فهو لا يبثه إلاّ إلى الله .

روي في باب « المواعظ » أن يعقوب اشترى جارية مع ولدها فباع ولدها فبكت حتى عميت .

﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وأعلم من رحمته أنه يأتي بالفرج من حيث لا يحتسب الناس ، ﴿ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ فتعرفوا منهما وتطلبوا خبرهما ، والتحسس هو المعرفة ﴿ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ﴾ ولا تقنطوا من رحمة الله وفرجه ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ لأن من آمن بالله ودرس هذا العالم كما تقدم في هذا التفسير يعلم أن رحمته وسعت كل شيء علماً يقينياً لا تقليدياً ، فخرجوا من عند أبيهم قاصدين مصر ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ ﴾ أي : الشدة والفقر والجوع ، والأهل هم من خلفهم من العيال ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ ﴾ رديئة قليلة كاسدة لا تنفق في ثمن الطعام إلاّ بتجوّز من البائع ، قيل : هي صوف وسمن وحبة خضراء وما أشبه ذلك ، ﴿ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ﴾ أي : فأتم لنا الكيل وتصدق علينا بردّ أخينا ، على اعتبار أن حرمة الصدقة خاصة بنبينا صلى الله عليه وسلم ، أو بالمسامحة وقبول المزجاة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ أي : المتفضلين أحسن الجزاء . يقال : إنه أخرج لهم نسخة الكتاب الذي كتبوه ببيعه من مالك ، وفي آخره : وكتبه يهوذا ، فلما قرؤوا الكتاب اعترفوا بصحته ، وقالوا : أيها الملك إنه كان لنا بعد فبعناه منه ، فغاظ ذلك يوسف وقال : إنكم تستحقون العقوبة ، وأمر بقتلهم ، فلما ذهبوا بهم ليقتلوهم قال يهوذا : كان يعقوب يبكي ويحزن لفقد واحد منا فكيف إذا أتاه الخبر بقتل بنيه كلهم ثم قالوا : إن كنت فاعلاً ذلك فابعث بأمتعتنا إلى أبينا فإنه بمكان كذا وكذا ، فذلك حين أدركته الرقة عليهم والرحمة فبكى و﴿ قَالَ ﴾ يوسف لإخوته : ﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ ﴾ أي : هل علمتم قبح ما فعلتم بيوسف ﴿ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴾ لا تعلمون قبحه ، ﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾ « اللام » لام الابتداء ، و« أنت » مبتدأ ، و« يوسف » خبره ، والجملة خبر « إن » ﴿ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ﴾ من أبي وأمي ﴿ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ﴾ بالسلامة والكرامة ، وهذه الجملة التي تعمهما لأجلها ذكر أخاه وإن لم يدخل في سؤالهم ، ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ ﴾ الله ﴿ وَيَصْبِرْ ﴾ على ما يبتلى به وعلى الطاعات وعن المعاصي ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ الذين يجمعون بين التقوى والصبر ، ولهذا المعنى وضع المظهر موضع المضمر ، ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ اختارك علينا بحسن الصورة وكمال السيرة وجمال العلم والحلم والتقوى والصبر ، ﴿ وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ وإن شأننا وحالنا إنا كنا

خاطئين متعمدين للإثم لم نتق ولم نصبر، لقد أعزك الله بالملك وأذلنا بين يديك، ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ ﴾ لا تعيير ولا تأنيب ﴿ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ متعلق بـ« تثريب »، وإذا لم تؤنبوا اليوم فكيف بما بعده، ثم ابتدأ فقال: ﴿ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ ما فرط منكم.

روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بعضادتي باب الكعبة يوم الفتح فقال لقريش: « ما ترونني فاعلاً بكم »؟ قالوا: نظن خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت. فقال: « أقول ما قال أخي يوسف: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ﴾ ». وروي أن أبا سفيان لما جاء ليسلم قال له العباس: إذا أتيت رسول الله فاتل عليه ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ﴾، ففعل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « غفر الله لك ولمن علمك ».

ويقال: إن إخوة يوسف لما عرفوه أرسلوا إليه « أنك تدعونا إلى طعامك بكرة وعشياً ونحن نستحيي منك لما فرط منا فيك. فقال يوسف: إن أهل مصر وإن ملكت فيهم فإنهم ينظرون إليّ بالعين الأولى ويقولون: سبحان من بلغ عبداً بعشرين درهماً ما بلغ، ولقد شرفت الآن بكم حيث علم الناس أني من حفدة إبراهيم». اهـ.

واعلم أن هذه الحكاية المنقولة عنهم وأضرابها إنّما أذكرها لتقف على المحاورات الحسنة التي تفيد قوة أدبية، وإن لم يكن هناك دليل على ثبوتها لا بالكتاب ولا السنة، ولكن هذا أدب يحسن أن يقال، وقوله: ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ من الوالدين وغيرهما.

ثم سألهم عن حال أبيه، فقالوا: عمي من كثرة البكاء عليك، فقال: ﴿ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا ﴾ أي: القميص الذي كان عليه ﴿ فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا ﴾ يصر بصيراً، فـ« أتي » هنا بمعنى: صار، كما تقول: جاء البناء محكماً، أي: صار. قال يهوذا: أنا أحمل قميص الشفاء كما ذهبت بقميص الجفاء، وتوجه به من مصر إلى كنعان، ﴿ وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ لينعموا بآثار ملكي كما اغتموا وحزنوا لأجلي، ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ ﴾ خرجت القافلة من عريش مصر، يقال: فصل من البلد فصولاً: إذا انفصل منه وجاوز حيطانه، ﴿ قَالَ أَبُوهُمْ ﴾ لولد ولده ومن حوله من القوم ﴿ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ وذلك قبل وصوله إليه ﴿ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ وهو نقصان عقل يحصل من هرم، أي: لولا تفنيدكم إياي لصدقتموني، ﴿ قَالُواْ ﴾ أي: الحاضرون ﴿ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾ أي: لفي خطئك القديم من حب يوسف وتوقع لقائه، وكان عندهم أنه مات، ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ ﴾ أي: يهوذا ﴿ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ ﴾ طرح البشير القميص على وجه يعقوب ﴿ فَٱرْتَدَّ ﴾ فرجع ﴿ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ من حياة يوسف وإنزال الفرج، ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴾ وقد اعترفنا بذنوبنا فنحن أهل لصفحك عنا وأن تسأل لنا المغفرة ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ وقد أخره إلى السَّحَر أو إلى صلاة الليل أو غير ذلك، ثم إن يوسف وجّه إلى أبيه جهازاً ورواحل، فلما بلغ قريباً من مصر خرج يوسف ومعه الجند والملك فتلقوا يعقوب وهو يمشي يتوكأ على يهوذا ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ ﴾ ضم إليه ﴿ أَبَوَيْهِ ﴾ أباه وأمه واعتنقهما، ومعنى دخولهم عليه دخولهم مصر وكانوا إذ ذاك اثنين وسبعين رجلاً وامرأة سوى الذرية والهرمى، ﴿ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ من ملوكها وكانوا لا

يدخلونها إلاَّ بجواز، وقد ثبت في التاريخ أن الأمة المصرية كانت تضنّ على الغرباء بالدخول في البلاد فلما فتحت أبوابها اقتحمها الأجانب، فالمشيئة راجعة إلى الأمن مما تقدم ومن المكاره ومن القحط. انتهى القسم الرابع والخامس.

لطيفة في قوله تعالى: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾

اعلم أن هذه الآية نزلت لتخرج المسلمين من جهالتهم العمياء، إذ هم اليوم أقل الأمم علماً، وهذه السورة فيها سر العلوم، ألم تر أنه قصّ قصص يوسف وإخوته، قال كما سيأتي: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾، فقوله: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ مقدمة لذلك، لأن العلم يكون بما ذرأ الله في العوالم، فهذه السورة وهذه الآية تطلبان من أمة الإسلام رقياً في العلوم بلا نهاية، فإذا كان المسلمون اليوم أجهل الأمم فإنهم في المستقبل سيأخذون في الارتقاء، ومن الممهدات له هذا التفسير.

ولأذكر لك نبذة من كتاب «الدنيا في أمريكا» لتنظر كيف ارتقوا في كل شيء، وأن المسلمين سيقولون إنهم أعلم منا، وإن هذه آيات الله وهم تمتعوا بها ونحن محرومون.

عجائب الصناعات في أمريكا

فيها بناءات شامخات فولاذية تناطح السحاب، وتفاخر الشهب، فهناك عمارة «ولورث» في نيويورك لها ستون طابقاً، والصواعد الكهربائية التي تقلّ سكانها ثمانون، ويسكنها اثنا عشر ألف نفس ولا تعدّ البناءات التي لا تتجاوز عشرين طابقاً مرتفعة، وتجد في البناية الواحدة ستة طوابق تحت الأرض، ولا تشيد المباني إلاَّ من الفولاذ والحجر في المدن، وفي كل عمارة ضخمة في الطوابق التي تحت الأرض آلة للتهوية وللتدفئة، تحرّك هذه الآلة مروحة كبيرة تأتي بالهواء النقي من الخارج وتبعث به إلى كل غرفة في البناء، ومتى أقبل الشتاء مرروا هذا الهواء في تيار ساخن فدفأت جميع الغرف.

طرق المواصلات

يوجد منها في المدن الكبيرة مما يوصل إلى أجزائها المختلفة ثلاثة أنواع: نوع يسير تحت الأرض كما في باريس ولندن وبرلين، ونوع يسير فوق الأرض كما في مصر وغيرها، ونوع معلق بين الأرض والسماء على عمد كبيرة الارتفاع يجري فوقها قضبان تسير عليها القطارات بمحاذاة البنايات الشاهقة، ولا نظير لهذا في الممالك الأخرى، وهناك قطرات تسير تحت قاع النهر، أي: داخل أنابيب تحت الأرض التي يعلوها ماء البحر.

تسهيل الأعمال

في مدينة نيويورك تضع قطعة من النقود في ثقب هناك، فهناك يفتح لك الباب للدخول للقطار بلا مراقب ولا مفتش، وتضع في ثقب التليفون قطعة من النقود، ثم تضع السماعة على أذنك بدون أن تقرع الجرس فتجيبك العاملة على الفور.

تسهيل العمل في المطاعم

هناك مطاعم فسيحة أنيقة تقوم فيها المحركات مقام العمال، ففيها آلاف من الثقوب النحاسية فوق كل منها مصباح موقد وثمن واسم طعام من الأطعمة من لبن وشاي الخ، من كل ما يخطر ببالك

من طعام وشراب، تضع الثمن في الثقب الذي تريده فيبرز أمامك رف صغير فوقه طبق الطعام الذي ترغب فيه، وهناك أجهزة لمسح الأحذية من تلقاء نفسها بعد إلقاء قطعة من النقود في ثقب فيها، ومثل ذلك آلات لغسل الأطباق والشوك والملاعق وأدوات الطبخ وتجفيفها، وهكذا مما لا حصر له، وهم يستعملون الكهرباء للإنارة ولطهي الطعام ولغسل الثياب وغير ذلك. في مدينة نيويورك ٧ آلاف صناعة يتلقى طلبة المدارس ٢٠٢ صناعة فقط منها.

التلغراف الذي لا سلك له

هذا هو الذي اخترعه العالم «ماركوني» الأمريكي، وقد بلغ عدد المحطات التي تبعث إلى السكان ليلاً ونهاراً سنة ١٩٢٣م «٤٦٤» محطة، غير ما للحكومة وهو «٢٢٣» محطة، وغير المحطات الخاصة وعددها «١٨٦٥٨»، وبلغ عدد الأجهزة اللاسلكية في ولايات أمريكا المتحدة خمسة ملايين، وثمن الجهاز من ستة ريالات إلى ألف ريال على حسب توصيله في المسافات بعداً وقرباً، وقد بلغ من منافعها ما يأتي: أن رئيس الولايات المتحدة يقف أمام آلة التلفون المعتادة في قصره، ويلقي خطابه بحماس وحمية، وتكون آلة التليفون متصلة بشركة اللاسلكي وهذا يطيرها إلى كل ما لديه من جهاز، فيسمع خطبة الرئيس الملايين من النفوس، ويسمعها الناس في سائر أنحاء أمريكا وأوروبا، وتراهم يقسمون الأوقات باللاسلكي فيقولون من الساعة ٤ إلى الساعة ٤ والدقيقة ٥ مثلاً أخبار محلية، ومن الساعة ٤و٦ دقائق إلى الساعة ٤ و١٣ دقيقة موسيقى، وهكذا من حكاية فكاهية للأطفال إلى عظة شائقة. إن الإنسان يسمع بهذه الأجهزة كل صوت في الصين وفي أوروبا وأمريكا متى كانت هناك أجهزة للاستعمال، فيكون الناس على الأرض أمة واحدة، بل العلماء هناك يقولون: إن فكر الإنسان يؤثر في عالم الأثير بحركات لطيفة، ويظنون أنهم سيعرفون كيف يقرؤون الأفكار، فلا تبق إذن للناس أسرار، وهذا ظنهم ﴿ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾[الحج: ٤١].

الحركة الفكرية والتجارب العلمية

في مدينة نيويورك مدرسة شهيرة ثانوية يدفع الطالب فيها سنوياً ١٥٠٠ ريال، ويفضلها على مدارس الحكومة التي لا يدفع فيها قرشاً واحداً، وغرض هذه المدرسة وضع مقررات غير ثابتة فهي في تغيير مستمر، والتغيير يكون على حسب الفائدة بالنتائج، وهناك حقول لتجارب الزراعة، فيزرعون الفواكه والخضر ويستبدلون الحب بغيره ليكون الناتج أكبر حجماً وألذ طعماً وأبهج منظراً وهكذا عملهم في تربية الحيوان، وكم يتبرع العلماء بالمال لأجل الفوائد العلمية مثل ما يأتي:

إلى أيّ حدّ تكون الامتحانات العمومية دليلاً على قوة الطلبة العلمية، وقد كانت النتيجة بعد أن وضع الدرجات على أوراق الطلبة الامتحانية مئات من المدرسين، وتلك الأوراق قد طبعت وكل مدرس لا يعلم ما فعله الآخر.

أقول: كانت النتيجة أن الطالب الواحد تختلف درجته في العلم الواحد بحسب تقدير مئات وألوف المدرسين من ٣٠ إلى ٩٠ في المائة من النهاية العظمى، وهكذا فعلوه مع المدرس الواحد، فهو يصحح الورق الذي صححه هو منذ شهور وهو لا يعلم أنه هو الذي صححه، فكانت النسبة أيضاً من ٣٠ إلى ٩٠ في المائة، فلذلك استبدلوا هذه الامتحانات بامتحانات أخرى.

وأيضاً برهنوا بالعمل على أن العقل لا يتعب بل الجسم هو الذي يتعب.

وأيضاً برهنوا على أن عدم النوم لا يؤثر في المذاكرة والحفظ، فقد يفقد المرء النوم ثلاث ليال متوالية ومع ذلك يستطيع القيام بحل المسائل وتحرير الرسائل كالمعتاد.

وأيضاً برهنوا بالتجارب أنه خير للطالب أن يدرس علماً أو يتذكر درساً كل ثلاث ساعات كل يوم لمدة ستة أيام، من أن يدرس نفس الدرس ست ساعات كل يوم لمدة ثلاثة أيام مع أن عدد الساعات واحد.

وأيضاً برهنوا على أن تعليم البنت والولد في مدرسة واحدة خير وأبقى للأخلاق وأكثر صيانة لها، وذلك بأنهم علموا كلاً من الجنسين على حدة في مقاطعة، والاثنين معاً في أخرى، وراقبوا النتائج سنين عديدة.

وأيضاً برهنوا على أن الطالب المقتدر في اللغات مقتدر أيضاً في العلوم الرياضية، بعكس ما نظنه في بلادنا.

وأيضاً كذبوا بالتجارب هذه القاعدة «أن القويّ في العلوم رديء الحظ»، وإنَّما أثبتوا أن الميل إلى الواحد قد يزيد عن الآخر، فتقل اللذة فيه أو تضعف، فلا تتكافأ معلومات الطالب في الاثنين.

وكذبوا بالتجارب أيضاً قاعدة «أن الذكي كثير النسيان»، فقد برهنوا على أن أكثر الناس نسياناً أقلهم ذكاء.

وأيضاً قام البرهان على أن حفظ قواعد اللغة لا يساعد في الإنشاء كثيراً.

وأيضاً كذبوا بالتجارب ما قيل: «إن الهندسة مثلاً والجبر يساعدان على تثقيف العقل»، وهذه القاعدة وضعها أفلاطون في كتابه «الجمهورية» عن أستاذه «سقراط»، فقد وصل هؤلاء إلى تجارب دلت على أن هذه العلوم لا تفيد تقوية ملكة التفكير ولا تثقيف العقل.

وأيضاً أسقطت التجارب ما يظنه الناس من أن أولاد المدن أقل ذكاء من أبناء القرى.

قد بلغت الصحافة هناك أنهم لا يكادون يمسكون سارقاً حتى تطير صورته الفوتوغرافية بواسطة اللاسلكي إلى جميع أنحاء أمريكا، وتنشر تلك الصورة جميع الجرائد مذيلة بالاسم والعنوان والعمر والصناعة وشرح الجريمة، وهناك جرائد مصورة يومية لا تنشر إلاَّ أخبار السوء الشائنة، وقد ذكرت لك أن ذلك يستنتج من آية في سورة «النساء» فاقرأها هناك. ولما كتبت ذلك هناك لم أكن اطلعت على ما قلته لك الآن في أمريكا.

رقي المرأة

بلغ من رقي النساء في أمريكا أنك ترى الطلبة في جامعة «كلومبيا» مثلاً أربعين ألفاً، وجميع مساعدي الأساتذة وكاتبي أسرارهم من النساء، وكذلك ألوف الموظفين في التسجيل والخزينة والبيانات المخصصة للطلبة الداخلين كلهم أو جلهم من النساء، وهناك فرقة واحدة فيها ٣٢٠ طالباً يتلقون الفلسفة وأكثر من النصف نساء، والسواد الأعظم من طلبة مدرسة الصحافة في هذه الجامعة من البنات، وكذلك السواد الأعظم من المحررين والمكاتبين منهن، وفي كلية المعلمين في تلك الجامعة أكثر من ثلاث آلاف طالب، خمسهم من الذكور فقط والباقي من النساء، وقد ثبت أن ٩٠ في المائة

من الأساتذة في أمريكا من السيدات، وأن في مدينة نيويورك وحدها ١٩ ألف معلمة، وأخت الرئيس «هاردنج» معلمة، إن في كل خمسين من السكان في أمريكا طالباً في المدارس الثانوية، وعدد البنات في المدارس الثانوية أكثر من عدد الذكور، في حين أن في ألمانيا طالباً ثانوياً في كل مائة وثلاثين من السكان، وعدد الطلبة في فرنسا في الأقسام الثانوية بنسبة طالب في كل مائة وخمسين، وفي إنجلترا طالب في كل مائة، مع العلم أن الأغلبية الساحقة في هذا العدد من الذكور. إن في أمريكا أكثر من عشرين مليون طالب، وفي الأقسام الثانوية فقط أكثر من مليوني طالب، أكثر من نصفهم من الإناث، ويؤمّ أمريكا من الأمم المختلفة أكثر من عشرة آلاف طالب ليتلقوا العلم في كلياتها وجامعاتها، وقد بنى «روكفلر» أغنى رجل هناك بناء عظيماً يسكن فيه جمع عظيم من الأمم، والأعضاء في هذه الأيام ألف ومائتان، ثلثهم فقط من الذكور، وهؤلاء الأعضاء يمثلون ٧٥ أمة، ويتعارفون ويتحابون، وكل يعطي الآخرين ما في بلاده من أحوال ليكون في غاية المسرة والانشراح.

الحركة العلمية في أمريكا لها أغراض سبعة

الغرض الأول: الإلمام بالمعلومات العامة: كالكتابة والقراءة والحساب وتقويم البلدان وغيرها، وحذفوا بعد الاختبار ما اصطلح الناس على أن يثقف العقول فقط كأكثر النظريات الهندسية والجبرية، ويقولون: إن المهندس لا يحتاج إلا إلى سبع نظريات، وغيره لا يحتاج إليها، ويقولون: إن حل الألغاز الجبرية والهندسية لا تفيدنا في حلّ ألغاز الحياة، والشعر لا يسهل علم الكيمياء، وهل يستفيد المزارع والطبيب والمحامي والتاجر من تحليل الكميات إلى عواملها وإيجاد جذور الأعداد الرمزية والكميات الخيالية.

الغرض الثاني: الاستعداد للمهنة: وذلك أن علماء التربية يجعلون في حصص الدراسة المعتادة حصصاً تتخللها الأعمال اليدوية والصناعية، ليعرف الطالب صناعة منذ نعومة أظفاره، وليحترم العمل اليدوي، ولتظهر مواهبه الكامنة فيه.

الغرض الثالث: الصحة: ولقد جعلوا الصحة في مستوى الأغراض الأخرى، فلهم برك صناعية للعوم والسباحة ومسابقات وألعاب مختلفات تقويه لأبدانهم.

الغرض الرابع: خدمة الوطن: يفهمون التلاميذ أن يعيش المرء للمجموع ويشعر بالمسؤولية الملقاة على عاتقه، ويقرأ التلميذ تاريخ آبائه وأجداده وما أتاه الأبطال من جلائل الأعمال، ويقرؤون خطبهم وحكمهم، وترى علم البلاد خفاقاً ليلاً ونهاراً فوق سارية.

الغرض الخامس: استخدام أوقات الفراغ: يقولون: إن ساعات الدراسة لا تتجاوز الثمان أو التسع ساعات، وما يبقى بعد ذلك ضعف هذا العدد، فيقول هؤلاء: إن أوقات الفراغ أكثر دلالة على تربية المرء من أوقات العمل، ويقولون: أرني ما تفعل في أوقات فراغك وأنا أريك من أنت، وعلى هذا المبدأ وضع القائمون بشؤون التعليم في أمريكا مبدأ عاماً لجميع معاهدهم، وهو وجوب تعليم الناشئة كيف يستخدمون ساعات الفراغ في أحسن وجوهها، فيجعلون للطلبة نوادي كنادي السباحة أو السياحة أو الخياطة أو البطاطس ـ أي: زراعته ـ أو ركوب الخيل أو الخطابة أو التأليف أو الصحافة أو المطالعة.

الغرض السادس: الحياة العائلية والعمل على إسعادها: يقولون: ليست المرأة وحدها مسؤولة عن المنزل والعمل على تهيئة وسائل السعادة فيه، فدروس علم الاجتماع يدرسها الرجال والنساء، ويعرفون آداب المائدة والزيارة والاستقبال ومعاملة أفراد العائلة بعضهم لبعض وطبخ الطعام يتعلمه الذكور كما يتعلمه الإناث.

الغرض السابع: من أغراض التربية تكوين الأخلاق: ولكن لا يدرسون علم الأخلاق، ولكن الأخلاق بالقدوة والمثال اكتساباً تكتسب في المنزل على صدر الأم وركبتي الأب، وعلى المائدة وفي غرفة الاستقبال كما في المطبخ، وفي حجرة الدراسة من المعلم أو المعلمة ومن علاقات الطلبة بعضهم ببعض.

التعليم المشترك بين الجنسين

إن اليابان تربي البنت جنباً إلى جنب الولد في المدارس الابتدائية الأولية، وتفصل في الأقسام الثانوية ثم تنضم إليه مرة أخرى في الكلية والجامعة. ويقال: إن ألمانيا وفرنسا وإنجلترا أميل إلى هذا الرأي، أما أمريكا فإن فيها نحو مليونين ونصف مليون من الطلاب في الثانوي، منهم مليون ونصف مليون من الإناث، وهكذا الحال تقريباً في بلاد اسوج ونروج وهولاندة والدانمرك وجزائر الفيلبين يتبعون النظام المشترك في جميع مدارسهم من الأقسام الأولية والابتدائية والثانوية إلى الكليات والجامعات، وهكذا جزائر «الهواي» السحيقة الواقعة في عرض المحيط الهادي، فإن تعليمها مجاني إجباري مشترك لكل طالب وطالبة بين سن السادسة والسابعة عشرة، وهكذا «بورت ريكو» التي آلت إلى الولايات المتحدة سنة ١٨٩٨، فإن عدد سكانها لا يربو عن مليون نسمة، ومع ذلك بها مائة ألف طالبة وبجانبهن مائة ألف طالب.

هذا ما أردت تلخيصه من كتاب «الدنيا في أمريكا» لأريك أيها الذكي المسلم المصلح للأمة الإسلامية صورة من صور التعليم في الدنيا التي نعيش فيها. ذكرت لك ذلك ولم أقل لك نفعل مثلهم حذو القذة بالقذة، ولكن أقول: هؤلاء فاقونا في العلوم والصناعات والأعمال والأحوال، وأساس ذلك كله العلم إذ لا عمل إلاَّ بعلم، ولا علم إلاَّ بتعليم، والعلم هو الذي جاء في هذه الآية: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

فهاأنت أيها الذكي ترى أن الناس قد اخترعوا وجدّوا وصنعوا وارتقوا، وكلما وصلوا إلى درجة ظهرت لهم درجات، إذ لا نهاية للعلم لأن ﴿فَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾، هكذا في سورة «طه» بعد هذه السورة بسبع سور، يقول الله لرسوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾[طه: ١١٤]. إن المسلمين أولى بهذه العلوم، إن المسلمين هم خير أمة أخرجت للناس، فهل يكونون خير أمة أخرجت للناس وهم قد تركوا مواهبهم وعجائب صنع ربهم، فلم ينتفعوا بها وجهلوا كل شيء.

إن المسلمين في المستقبل سيزدادون علماً وحكمة كما أمرهم ربهم، ويقرؤون علوم الأمم ويصطفون لهم طرقاً تناسب أحوالهم، ولا يتكلون على نظريات غيرهم، بل يجربون ويدرسون كما فعلت أمريكا، وإذن يكونون ممن قال الله فيهم: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٧-١٨] وإنّما قال هم أولو الألباب

لأنهم عرفوا الأحسن بالبرهان لا بالتقليد ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ [الأنعام: ١١٦] ، فالأمم في تعاليمها أشبه بعبّاد الأصنام يدرسون ما سنه غيرهم ولا يفكرون بأنفسهم ، ولكن علماء العصر الحاضر أخذوا يفكرون كما ذكرت لك في هذا الملخص ، والمسلمون أولى بهذه الآراء والتحقيق والتفكير ، إن الأمم الإسلامية اليوم أجهل الأمم ، وبعد هذا التفسير وغيره من المؤلفات سيقوم في هذه الأمم الإسلامية من يفوقون الأمم في أقرب زمن .

وإذا كنا خير أمة أخرجت للناس ، وإذا كنا من الواجب علينا أن نسمع القول فنتبع أحسنه ، وإذا كنا كآباء للأمم ، وإذا كنا شهداء على الناس ، إذا كنا بهذه الصفات كلها فواجب علينا أن نتحلى بها فعلاً وإلا فكيف ترى أهل أمريكا وأهل أوروبا يسمع الرجل منهم الخطب ودروس العلم من جميع الأقطار وهو في حجرته ونحن غافلون جاهلون ، وكيف يتعلم الذكور والإناث ونحن في غفلة ساهون أليس عموم التلغراف الذي لا سلك له جعل الشرقي يسمع الغربي والغربي يسمع الشرقي وكأن الناس كلهم أمة واحدة ، أليس ذلك يذكرنا بآية : ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [البقرة: ٢١٣] ، ولعل الناس في أزمان مجهولة لنا كانوا متواصلين بهذا النمط ، ثم لما انحطت مداركهم صاروا على ما هم عليه اليوم . ولعل هذه الحركة الحاضرة مبشرة بأيام يتحابّ فيها الناس جميعاً من جميع أهل الأرض المسماة أيام نزول المسيح ، والله أعلم . اهـ .

لطيفة في اعتراض لأحد العلماء وجوابه

ولما وصلت إلى هذا المقام واطلع عليه أحد الإخوان الفضلاء قال : لقد أتيت هنا بالعجب العجاب ، وذكرت عجائب العلماء في أمريكا ، ولكن بالله قل لي ! إنني ألاحظ عليك أنك ما قرأت علماً ولا رأيت حكمة إلاّ ألصقتها بالدين . فقلت له : ما الذي رابك في هذا؟ قال : مسألتان الأولى علمية والثانية دينية .

فقلت : فما المسألة العلمية ؟ قال : ألم تذكر أنهم يرون أن الهندسة والجبر ونحوهما أصبحتا لا قيمة لهما ، وأنهما أجدر أن يحذفا ، وأن هناك سبع نظريات هي التي يجدر بالمهندسين معرفتها الخ ، وهكذا مسائل من هذا القبيل . فقلت : وهل أنا قلت إننا نأخذ بهذا عينه؟ ألم أقل إن هذه المباحث تغرينا بالبحث عنها وعن غيرها فنصطفي ما رق وراق ، ونترك ما ليس لنا عليه برهان ، أنا ذكرت ذلك كله لغرض أن نجعله موضع البحث ، وإلا إذا سألتني عن رأيي ، أقول : إن العلوم كلها فروع لشجرة واحدة هي الحياة ، العلوم كلها مشتركة مشتبكة ، فأعلاها محتاج لأدناها ، هذا كله لا ريب فيه ، ولعل القوم يريدون أن الطالب لا يجوز له التغالي في علم إلاّ إذا كان مستعداً للاختصاص فيه ، وإلاّ فالعلوم كلها متضامنة . اهـ .

ثم قلت : فما المسألة الثانية ؟ قال : هي مسألة الدين ، إنك ذكرت أن النساء يتعلمن مع الرجال من الصغر ، وأنهم وجدوا أن هذا أقرب إلى العفة وحسن المعاشرة والرقي في العلوم ، فإذا أنت رويت هذا فمعناه أن المسلمين في نظرك يفعلون هذا ، فيتعلم نساؤهم ورجالهم معاً ، وهذا يناقضه قوله تعالى : ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ

أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[النور: ٣١].

فأنت إذا قلت للمسلمين ذلك فمعناه أنك أبحت رفع الحجاب، وهذا يأباه الإسلام والمسلمون.

فقلت: إن علماء الإسلام أباحوا رؤية الوجه ونحوه إذا مست الحاجة، وذكروا من ذلك تحمل الشهادة والمتاجرة مع المرأة والتطبيب والمحاسبة وما أشبه ذلك، كل ذلك وغيره ذكره العلماء ودونوه، فالمدار عندهم على الحاجة، ثم إني لم أقل إن التعليم يجب أن يكون الذكور فيه مع الإناث وإنَّما حكيت ما فعل القوم لا غير، وقلت: فلنتبع أحسن السبل، فإذا ثبت أن طريقتهم أحسن السبل في التعليم، وأن اختلاط الإناث بالرجال في سن التعليم، أخرج لنا رجالاً ونساء أفضل من الموجودين الآن؛ إذا ثبت ذلك فرضاً فماذا نفعل؟ قلت: ألم أقل لك إن الاختلاط أجازه العلماء للحاجة. قال: هذا القول لا يشفي من علة ولا يروي من غلة. فقلت له: سيأتي في سورة «النور» مسألة الحرام والحلال في هذا المقام، فلنذر الكلام فيه ولنبحث في أمر الأمة الإسلامية العام فنقول:

إن المسلم يعيش ويموت وهو لا يعلم أن سوءة أمته مكشوفة أمام جميع الأمم وأمام الله وأمام النبي صلى الله عليه وسلم، فلقد أجمع العلماء أن ترك الصناعات والعلوم التي تعيش بها الأمة وتحفظ كيانها تكون كلها ذنوباً على الأمة، فيصبح المسلم كل يوم وفي رقبته ثمانية آلاف ذنب، فإنه مأمور بصناعات وعلوم قد امتلأت بها أوروبا وحاربتنا بها، فإن لم نعرفها كنا جميعاً مذنبين، فهذه سوءات وعورات مكشوفات لله وللناس وللنبي صلى الله عليه وسلم، فإن لم يقم بها رجالنا ونساؤنا أي: لكل علم ولكل صناعة جماعات من الطرفين، فإن الأمة كلها مذنبة، فهذه سوءات عرفتها أوروبا فأتت وأخذت بعض بلاد الإسلام، وهذا لأننا خلعنا لباس التقوى غالباً.

جعل الله لباس التقوى أفضل من اللباس الحسي، وهذا حقّ، فلباس التقوى متى عري منه الإنسان وقد لبس أفخر الملابس، حقره الناس جميعاً، فالجاهل بين العلماء واللصوص والزناة وأرباب السوابق، وهكذا كل ذي ذنب وعيب، كل هؤلاء يحقرهم الناس ويكرهونهم، وعوراتهم بادية ظاهرة وأحوالهم مكشوفة، فهؤلاء نزع عنهم لباس التقوى وإن كانوا مستوري العورات، فإذا بقي المسلمون على هذه الجهالات فإنهم قد كشفت سوءاتهم وإن لبسوا أفخر الملابس، فالمدار على التقوى، والتقوى تشمل جميع العلوم والمعارف وجميع الآداب، والمسلمون اليوم أكثرهم عارون من هذه الملابس، فإذا لبس الشبان والشابات لباس العفة والأدب والأخلاق والعلوم وكانوا أعف ولو قليلاً من جيلنا الحاضر فهم أفضل منا ألف مرة وهم أعلم بالقرآن وفهمه. فقال: لله درّك، والله موفقك، وخلق الحكمة على لسانك، والحمد لله رب العالمين.

فقلت: إذن أنت توافقني أن المسلمين يجب عليهم أن يرتقوا في الأسباب وأن يقرؤوا علوم الأمم، ولا يعوقهم عن ذلك عائق، وأن القرآن لم يترك فرصة لجاهل من المسلمين ينتحل بها عذراً، فإنه جاء فيه: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾، وجاء فيه أيضاً: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤]، والآية الأولى خبر لا يدخله النسخ، والآية الثانية ليست منسوخة، فأصبح المسلم بين هاتين الآيتين

ملزماً أن يقرأ علوم الأمم وأن يترقى فيها، أما قراءة علوم الأمم فلنعلم ما لا نعلم، وأما الارتقاء فهو واجب، فنحن في كل حين يجب أن نزداد علماً، والعلم لا نهاية له إذ فوق علمائنا علماء، فنحن إذن ملزمون بالازدياد في كل شيء، ولو لم يكن في القرآن سوى هاتين الآيتين لكفتا في وجوب ارتقاء المسلمين في كل علم وكل صناعة، هذا سر قوله تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾. انتهى.

ابتكار أهل أمريكا أيضاً في علم الزراعة وقوله تعالى ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾

موازنة بين الهواء والدخان والصخور وبين الذهب والملوك والقديم من الديانات

لعلك أيها الذكي القارئ لهذا التفسير تعجب من هذا الموضوع الذي طال بصدد الكلام على أهل أمريكا في قوله تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾، وأنا أقول: إن هذه الإطالة لا بد منها لإيضاح المقام، والقرآن كلام الله، والناس عباده، ونحن نسطر في تفسيره ما يشرح الصدور وييسر الجمهور. واعلم أن الناس لا يشرح صدورهم إلاَّ ما يشرح صدر المؤلف، والمؤلفون المتكلفون هم الذين لا يفلحون، قال تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾[ص: ٨٦-٨٨]، ولم يؤخر المسلمين ويوقعهم في السبات العميق إلاَّ انتقاء الكتب التي كتبها مؤلفوها تكلفاً، فهذه لا تؤثر في قارئيها، لأن المتكلف ليس منشرح الصدر لما يكتب، وهناك صلة بين الكاتب والقارئ، والمتكلم والسامع، ولست تعرفها إلاَّ بالتجربة، والذي خطر لي اليوم ما يأتي، ذلك أني قرأت في رحلة نشرها أحد أصدقائي المصريين أثناء طبع هذه السورة يوم ٧ أكتوبر سنة ١٩٢٧، وهذا نص ما أريده منها، قال:

«وقد توصل القوم في أمريكا إلى استخراج «البوتاسا» من الهباب الذي يتطاير من مداخن المصانع بحيث حصلوا منه مائة ألف طن أفادهم في زراعتهم، ومعلوم أن الطن نحو ٢٢ قنطاراً، وقد توصلوا إلى عمل حمض الفوسفوريك من الحجر والصخور واستعملوه ضمن الأسبخة الزراعية، وهم الآن يدرسون طبيعة التربة ويرسمون خريطات مختلفات لدرس المسائل الآزوتية بصفة عامة، والتجارب التي يهتمون بها الآن هي البحث عن الآزوت الموجود في الجو على هيئة «نوشادر» لاستعماله ضمن الأسبخة».

فلما قرأت هذا خطر لي هذا الموضوع الذي ابتدأت به هذا المقال، فلأشرحه فأقول: انظر إلى الأمم قديماً وحديثاً، وتعجب من صنع الله في الأرض، ويظهر أن الله عامل النوع الإنساني كله معاملة نفس واحدة، فهو كله أشبه بصبي أرسله أبوه إلى المعلم في صغره وأطلق له الحرية في كبره، ألا ترى أن دراسة تاريخ الأمم تكشف لنا النقاب عن هذه الأمور:

(١) التعامل بالنقود من الذهب والفضة وغيرها قد جعل في الأمم طبقة المرابين الذين يعيشون من ثمرات العاملين، وهم لا يعطون الناس مطعماً ولا ملبساً ولا غيرهما.

(٢) الملوك في جميع الأمم يستبدون بالرعية ويبطشون.

(٣) وهكذا رجال الدين في جميع الأمم السالفة استبدوا بالناس بعد أنبيائهم، كما هو حاصل في الدين المسيحي في القرون الوسطى وفي الدين البرهمي الآن.

فهاهنا ظهر أن الأمم كانوا أطفالاً، وأكثرهم لا يزالون كذلك يخضعون للملوك ولرؤساء الدين ولأرباب المال، وتفرع على ذلك أن قوماً بحثوا عن الذهب من علم الكيمياء وأضاعوا في ذلك أعمارهم، وهكذا ترى رجال الدين في أكثر الأمم يجدّون في العلوّ على الناس ويحرصون على الرئاسة والعظمة والمال بطريق الدين، وهكذا أكثر علماء الفقه قديماً في أمتنا الإسلامية، كما نقلته لك عن الإمام الغزالي في سورة «المائدة»، فانظر حال الأمم الآن وتعجب من فعل الله عزَّ وجلَّ، فانظر كيف حبس عقول القدماء في استخراج الذهب بطريق الكيمياء، وجعلهم خاضعين للملوك ولرجال الدين، فكأن الناس إذن عند علماء دينهم وعند ملوكهم أطفال جهال يسخر منهم ملوكهم ورؤساء دينهم ويسخرونهم.

ألا تعجب الآن كيف أصبح الناس يحثون في الهواء عن الآزوت والنوشادر لأجل نجاح الزراعة، ويكسرون الأحجار والصخور لاستخراج حمض الفسفوريك، ولا يضيعون الدخان المتطاير من المداخن فيأخذون منه أكثر من ألفي ألف قنطار في السنة من البوتاسا، وهكذا كان المسيحيون يحرّمون جميع العلوم.

فلما أن جاء الإسلام أخذوا يفكرون ونبذوا القديم وقرؤوا العلوم، وهذا المتأخرون من أمتنا الإسلامية أصبحوا كالمسيحيين القدماء حرموا من العلم، وهانحن أولاء الآن نجدهم مشمرين عن ساعد الجد لحوز العلوم اليوم، وهذا التفسير من مقومات هذه النهضة.

فاعجب لصنع الله عزَّ وجلَّ، حرر العقول الواهمة فأراها أن النعم الحقيقية في استخراج المنافع من هواء ومن صخور ومن دخان، ومن هذه كلها يستخرج الناس سماداً لمزارعهم، وهذا أفضل وأجلّ وأعظم من استخراج الذهب بما لا حصر له، هذا هو تحرير العقول الإنسانية وإخراجها من الجهالة، فالديانات الآن أصبحت لا تمنع العلم، ولكن الإسلام يوجبه، فسلطان الدين إذن لا يمنع من العلوم هاهو العلم أخرج الناس من الظلمات إلى النور، أخرجهم من قيود المذلة للملوك وصارت المجالس النيابية قائمة مقامهم، هاهو ذا العلم زلزل قواعد الملكية وفتح باب المشورة، أخرجهم من الأوهام القاتلة الفاتكة بهم إذ استبد بهم الملوك فسلبوا أموالهم، فقعد العلماء والشعراء بأبوابهم يستعطفونهم ليرزقوهم مما نهبوا من الرعية.

أخرجهم من سجن الذهب إذ كان العالم البارع هو الذي يعثر على طريقة استخراج الذهب بطريق الكيمياء، وهيهات هيهات النوال والغنى، بل كانوا يموتون فقراء، لماذا هذا؟ لأنهم جهلوا الحقائق، ذلك أن الذهب إنَّما هو واسطة التبادل للمنافع، ولو أن الذهب ملأ الأرض وليس فيها قوت ولا ملابس لمات الناس، فالذهب كالحجر عند عدم المنافع المادية من مأكل وملبس، كلا بل الحجر أصبح أفضل من الذهب بالعلم، لأنهم استخرجوا منه كما رأيت المواد التي تسمد بها الأرض، وهذا السماد حياة الزرع، والزرع به حياة الإنسان والحيوان، والذهب ليس له إلاَّ أن تعرف به القيمة فحسب إذن العلوم قلبت أوضاع العقول الإنسانية التي تقدّس الذهب، فأرتها أن أحجار الجبال التي تزدرونها

ودخان معاملكم خير وأبقى، والذهب إنَّما هو أمر ثانوي للتبادل، فمن استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير فهو جهول.

هذا كله داخل في قوله تعالى: ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾، فهؤلاء الذين عرفوا نعمة ربهم واستخرجوها من الدخان المنبوذ، ومن الهواء المتروك، ومن صخور جبالهم، وهؤلاء الذين لم يقيدهم دينهم، ولم يقعد بهم عن المعالي، ولا استناموا لملوكهم، أرفع درجات من أولئك الجهلاء الذين جهلوا نعم ربهم، أو ظنوا أن دين الله الذي أنعم على الناس بهذه الدنيا كلها يمنع من تلك النعم، أو استبد بهم ملوكهم فأذلوهم، ولما كان رفع الدرجات المذكور ليس له سبب إلاَّ العلم، أعقبه بقوله: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾. اهـ.

القسم السادس

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (١٠٠) ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ (١٠١) ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ (١٠٤) وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦) أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٠٧) قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٠٨) وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠٩) حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ (١١٠) لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) ﴾

التفسير اللفظي

قال تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ السرير الذي كان يجلس عليه يوسف، والرفع: النقل إلى أعلى، ﴿ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾ أي: يعقوب وأمه وإخوته، وقيل خالته، لموت أمه، وكانت تحية القوم

إذ ذاك السجود، وهو الانحناء والتواضع ﴿ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ ﴾ التي رأيتها في أيام الصبا ﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ﴾ صدقاً ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ ﴾ وأعرض عن ذكر الجبّ لئلا يكون تثريباً عليهم ﴿ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ ﴾ من البادية لأنهم كانوا أصحاب مواشٍ ينتقلون بها في المياه والمناجع ﴿ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ﴾ أي: أفسد بيننا وأغرى، يقال: نزغ الرائض الدابة، إذا نخسها وحملها على الجري، ﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ﴾ لطيف التدبير فلا صعب إلاّ وله فيه تدبير ينفذ فيه مشيئته، ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بوجوه المصالح والتدبير ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ الذي يفعل كل شيء في وقته.

يقال: إن يوسف طاف بأبيه في خزائنه، فلما أدخله خزانة القراطيس قال: يا بني ما أعقك، عندك هذه القراطيس وما كتبت إليّ؟ قال: أمرني جبريل قال: أوما تسأله، قال: أنت أبسط مني إليه فاسأله، فقال جبريل: الله أمرني بذلك لقولك: ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾ قال: فهلا خفتني، ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ ﴾ ملك مصر ﴿ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ تقدم تفسيرها في أول السورة، يا ﴿ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ تتولاني بالنعمة في الدارين وتوصل الملك الفاني بالملك الباقي ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا ﴾ طلب الوفاة على الإسلام كما قال يعقوب لولده: ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران: ١٠٢]، أو مخلصاً ومسلماً إليك أمري، ﴿ وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ من آبائي وغيرهم، ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي: ما ذكر من نبأ يوسف كائن ﴿ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ خبر ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ يقول تعالى: هذه من أنباء الغيب بالوحي لأنك لم تكن مع إخوة يوسف حين هموا أن يجعلوه في غيابة الجب وهم يمكرون به وبأبيه ليرسله معهم يرتع ويلعب ولقد لبثت في قومك أربعين سنة قبل هذا ولم تلق أساتذة معلمين ولا قرأت كتباً، وذلك قد ذكر في آية أخرى: ﴿ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ﴾[هود: ٤٩]، ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ ﴾ على إيمانهم ﴿ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ لأنهم معاندون، ﴿ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ ﴾ على الإنباء، أو القرآن ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ جعل؛ كما يفعل القصاصون ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ ﴾ عظة ﴿ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ عامة، ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا ﴾ على الآيات ويشاهدونها ﴿ وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها، ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ فإذا سئلوا من خلق السماوات والأرض وأنزل المطر قالوا الله، وهم مع ذلك يعبدون الأصنام، وهذه الآية في أهل الكتاب والمنافقين والمشركين ﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَـٰشِيَةٌ ﴾ عقوبة تغشاهم وتشملهم ﴿ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً ﴾ فجأة من غير سابقة علامة ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بإتيانها ولا استعداد عندهم، ﴿ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ ﴾ أي: الدعوة إلى التوحيد والإعداد للمعاد حال كوني ﴿ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ بيان وحجة واضحة، ﴿ أَنَا۠ ﴾ تأكيد للضمير المستتر في أدعو ﴿ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ عطف عليه ﴿ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ ﴾ أي: وقل يا محمد: سبحان الله، أي: تنزيهاً له عن كل ما لا يليق به ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ أي: وقل يا محمد: «وما أنا» الخ، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا ﴾ مثلك ﴿ نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ لأنهم ذوو علم وحلم، فأما أهل البوادي ففيهم الجهل والغباوة ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ أي: ولدار الساعة الآخرة ﴿ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ﴾ الشرك

وآمنوا ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ فلا يغرّنهم تمادي أيامهم، فإن من قبلهم أمهلوا ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ ﴾ من النصر ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ ﴾ أي: كذبتهم أنفسهم حين حدّثتهم أنهم ينصرون ﴿ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ أي: للمؤمنين والأنبياء فجأة ﴿ فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ ﴾ أي: النبي وقومه ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا ﴾ عذابنا ﴿ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ أي: الكافرين ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ ﴾ أي: في قصص الأنبياء وأممهم ﴿ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ حيث نقل يوسف من غاية الحب إلى غيابة الجبّ، ومن الحصير إلى السرير، فإذن عاقبة الصبر الجميل جميلة «وأفضل أخلاق الرجال التصبر»، ﴿ مَا كَانَ ﴾ القرآن ﴿ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي: ولكن كان تصديق الذي بين يديه من الكتب السماوية ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يحتاج إليه في الدين، ﴿ وَهُدًى ﴾ من الضلال، ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ ينال بها خير الدارين ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ يصدّقون. انتهى التفسير اللفظي.

وهنا خمس جواهر في هذه السورة:

الجوهرة الأولى: في رؤيا يوسف عليه السلام ورؤيا الملك

رؤيا يوسف عليه السلام ورؤيا الملك مطلعان من مطلع كواكب العلم مشرقان. هذا كتاب سماوي، ومن دأب أمثاله أن يسمو بالعقول إلى المدارك الشريفة بطريق الإشارات الحكمية ليفتح للبصائر أبواب الفهم، وهناك تتشعب الآراء ويبحث العقلاء ويجد المفكرون، وتكون تلك الأنوار العلمية أشبه بضوء الشمس إذ يسطع على الأحياء من مملكتي الحيوان والنبات وعلى الجماد، فتقبل كل مملكة من النور ما يلائم أشكالها، ويوافق أحوالها، ويلائم نظامها.

فهاتان الرؤيتان قد فتحتا بابين من العلم:

الباب الأول: ما سأذكره من عوالم اليقظة وعوالم الأحلام في المنام.

الباب الثاني: ما قدمته في أول هذه السورة من أنهما كانتا سبباً في نشر المقالة المتقدمة المبنية على أن فرعون مصر في تلك الأحقاب قد كان مغرماً بأمر الرعية، فرأى في المنام السنبلات السبع الخ ثم أبنت أن الفلاح وثوره يحتاجان إلى طيور تأكل الدود الفاتك بالزرع، وأنه ترك ذكرها لأنها أشبه برجال القضاء والمحاماة، أولئك الذين اضطر إليهم الناس اضطراراً، ولو كان الناس جميعاً كاملين لم يكن لهم قضاة ولا محامون، هكذا هنا لولا ما في الأرض من حشرات مخلوقات فيها لتمتص الرطوبات لم تكن في حاجة إلى أنواع الطيور الخاصة بأكل الحشرات.

كل هذا ذكرته أو أشرت إليه لتبيان السبب في ترك ذكرها في رؤيا الملك، ثم استطردت بذكر أنواع تلك الطيور التي عرفتها أمتنا المصرية ورسمت صورها.

بيان السبب في ذكر تلك الطيور في ذلك التفسير وكيف جاز تصويرها فيما تقدم

أما السبب في ذكر الطيور في هذا التفسير التي حرّم صيدها أهل بلادي فذلك ليكون ذكرى للمسلمين أن يتبينوا ما ببلادهم من الطيور النافعة لزرعهم بأكل الدود أو الفيران، ولن يتم لهم ذلك إلاّ بأن يكون عندهم علماء اختصاصيون في هذه العلوم، ويكونوا دارسين لعلوم الأمم المحيطة بهم، هذا أمر أصبح واجباً وتركه حرام، لأنه فرض كفاية كما شرحناه مراراً في هذا التفسير في أواخر سورة

« البقرة » عند قوله : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [الآية : ٢٨٦] ، وفي أوائل سورة « المائدة » عند قوله تعالى : ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا ﴾ [الآية : ٣١] الخ ، وفي مواطن أخرى تقدمت .

وليعلم المسلمون في أقطار الأرض أنهم محاسبون معذبون في هذه الدنيا قبل الآخرة إذا أهملوا دراسة الطيور ودراسة سائر العلوم . اللهم إني قد أديت الأمانة وبذلت النصيحة ، وأنت أيها القارئ الذكي أصبحت مسؤولاً مثلي ، فاجعل كل حياتك لخدمة أمتك ، ولتكن من حاملي لواء العلم ومن أعمدة النظام العام في الأرض ، فبهذا قد استعددت لتكون خليفة في الأرض ، ونوراً مبيناً ، ونجماً طالعاً وشمساً مشرقة .

لطيفة (١) : لقد تقدم في سورة « هود » عند تفسير البسملة الكلام في رحمة الحيوان والأحاديث الواردة في ذلك ، وكيف أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يردّوا الطائر الصغير إلى أمه لشدة شغفها به ، وقد بينت هناك أن الرحمة هنا واجبة ، وأن الأمم الإسلامية غالباً لا يفكر علماؤها في نصح العامة في هذا .

لطيفة (٢) : وقد تقدم في سورة « يونس » أن رسم الصور الشمسية مباح ، وقد ذكرنا هناك آراء بعض هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف بإباحة رسم الحيوان بالتصوير الشمسي ، وإنني أرى أنه واجب في مثل هذا الكتاب لأجل التعليم ، وإلا فمن أين يعرف المسلمون أنواع الطيور إن لم يروا صورها بأنفسها .

هذا ما أردته في هذا المقام لتعلم أن ما رسم من صور الطيور في هذه السورة واجب لأجل تعليم الأمة لا حرام ، والله هو الولي الحميد . انتهى الكلام على الباب الثاني .

الباب الأول
في الكلام على أن هاتين الرؤيتين قد فتحتا عوالم اليقظة وعوالم الأحلام في المنام

اعلم أيدك الله أن القرآن بسبب كونه كتاباً سماوياً يفتح مغالق من العلم لم يكن فتحها بالحسبان ذلك لأن الناس في أمثالهم يولون : « كلام الملوك ملك الكلام » ، وليس هذا القرآن كلام ملوك بل هو كلام ملك أولئك الملوك . فإذا رأينا أمم الأرض اليوم تهتز أسلاكهم البرقية وتكتب جرائدهم ما ينطق به رئيس الولايات المتحدة أو ملك إنكلترا أو نحو ذلك ، ويعلقون على الجملة الواحدة وقر بعير أو أكثر في جرائدهم ومجلاتهم في الشرق والغرب ، فكيف بكتاب نزل من رب أولئك الملوك فهو أحق بالتعليق والتذكرة . إذن نقول يذكر الله رؤيا الملك ورؤيا يوسف ويبيّن لنا فيهما الزرع ، والدواب ، والسجود ، والكواكب ، والشمس والقمر ، ففيهما العالم الكثيف واللطيف والعلوي والسفلي ، فلنشرح هذا المقام بما فتح الله به فنقول :

(١) حبس الناس في هذه الأرض مع النبات والحيوان ، أول درجة من درجات الحياة أدنى الحيوان ، كالدودة في لب الثمار وبطن الحيوان ، ذلك الذي ليس له إلاّ حاسة واحدة هي حاسة اللمس ثم يترقى قليلاً بحاستين فثلاث فأربع فخمس ، فيكون ارتقاه حتى يصل إلى الآساد والنمور والقردة والإنسان ، وهو درجات أعلاه الحكماء والأنبياء .

(٢) هذه طبقات أدناها ما لا يحسّ إلاّ بما يحس جلده كالدود ، وأعلاها يعرف عالم الأرض وعالم السماوات ، فأعلاها يجاور الأفلاك والملائكة ، وأدناها مغمور في الطين مسجون .

إن هذه الدرجات كتاب مفتوح ظاهر مقروء، ولكن قراؤه قليل في هذا الإنسان، وأعلاهم هم الذين يقرؤونه وهم مستبصرون، وأكثر هذه الطبقات الإنسانية مغمورة في الجهالة لا تبصر هذه الدرجات المشروحة في الطبيعة، فامتاز أناس فنظروا في أنوار السماوات وأنوار العقول.

(٣) قالوا إن العالم الذي نعيش فيه عالم جميل مصوغ من النور بهي حسن الشكل بديع النظام ولكن الناس لم يدركوه وإن كانوا يشاهدونه، لأنهم مغمورون في مطالب شهواتهم وغرائزهم، ومن امتاز منهم بعقل راجح وفكر صائب نظر فرأى أن نور الشمس هو أصل الموجودات الأرضية. فلولا الحرارة المنبعثة منها على الهواء والماء لم يكن بخار ولم يكن هواء، إذ لا بخار إلاّ بحرارة، ولا رياح إلاّ بدافع يدفع الهواء، وأصل كل دافع يرجع للحرارة، والحرارة منبعثة من الشمس، وإذا سكن الريح لم يكن سحاب، وإذا لم يكن سحاب لم تكن أنهار كما هو واضح في هذا التفسير في غير ما موضع.

الله أكبر، جلَّ الله وجلّ العلم، إذن يكون النور في أرضنا أصل وجود ما عليها، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ ﴾، فلولا نور الشمس لم يتهيأ لنا رزق في الأرض والشمس في السماء، وعطف عليه قوله: ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾[الذاريات: ٢٢]، والذي نوعده أيضاً في السماء.

ألا ترى إلى ما تقدم في سورة «آل عمران» عند ذكر الجنة والنار من أن الجنة مستحيل أن تكون في الأرض، إذ الأرض في باطنها نار، فإذن تكون الجنة في عالم السماوات وهي الجنة الحسية.

(٤) في السماء رزقنا لأن النور مع الحرارة المشاهد لنا أصل رزقنا بل أصل حياتنا، وهذا مشاهد فلنقس ما غاب على ما شوهد، ولنقل إن ما وعدنا به في السماء، فالسماء فيها الرزق الدنيوي وفيها الموعد الأخروي.

وإذا كنا نرى في هذه المخلوقات الأرضية اختلافاً بيناً من دودة في بطن بقرة، إلى حكيم ونبي يحيط علماً بكثير من العلوم الأرضية وغيرها، فليكن في عالم السماوات طبقات بحيث تكون نسبتنا نحن إليهم كنسبة الدود إلينا، وذلك في العالم الذي وعدنا به، وتكون تلك الدرجات أدناها، وهم أهل الجحيم أشبه بالدود، وأعلاها وهم أهل الجنة أشبه بالحكماء والأنبياء عندنا، والذي نوعده هو الجنة، والنار موعد ذوي النفوس الضعيفة الغبية.

(٥) لهذا ترى الله يقول لنبينا صلى الله عليه وسلم: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [البقرة: ١٤٤]، ويقول: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[يونس: ١٠١] الخ، ويقول هنا: إن يوسف رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر كلها ساجدات له، رأى العالم المشرق في نومه مشاكلة لروحه، وكان يمكن تصوير حال تلك الرؤيا بغير الأجرام المنيرة، ولكن فطرة الأنبياء متجهة إلى العلو. تتجه إلى السماء عقول الحكماء وعقول الأنبياء، ليطلقوا الناس من ضيق الأرض إلى فسيح عالم السماء، ويوحى إليهم في النوم ليقولوا للناس: أيها الناس، إنكم كل ليلة تموتون ثم تحيون صباحاً، إن النوم نوع من الموت، وإذا كان كذلك فالموت لا خوف منه، وإذا كان يوسف يرى في النوم أن إخوته وأبويه خروا له سجداً على هيئة الأجرام العلوية، ثم ظهر صدقه في آخر أمره، وإذا كان الملك يرى البقرات والسنبلات، ويظهر في آخر الأمر أن الرؤية حق، وأن السنين المجدبة قد أقبلت فأكلت الحرث والنسل، وأتت على كل ما ادخر في سني الخصب السبع، فمعناه أن عالم المادة تابع للعالم العقلي؛

فرؤيا يوسف في إخوته وسيادته عليهم قد تمت، ورؤيا الملك في خصب مصر وفي قحطها قد تحققت، وكما أن النور والحرارة من الشمس أنتجا عالم المركبات الأرضية، هكذا عالم الفكر والعقل أساس نظام الأمم. إن هذه السورة تفيد أن الأمور العقلية الروحية أصل للمادية الظاهرة.

(٦) أمر النفوس بعد الموت واضح في هذه السورة، نام الملك ونام يوسف، أي: توفي الملك وتوفي يوسف عليه السلام، توفاهما الله، ولما توفاهما أطلعهما على صور سماوية وصور أرضية، فإذن الوفاة ليست عدماً، إذن الوفاة فيها علوم أشبه بما نحن عليه في الدنيا، وهذه العلوم تناسب عقولنا بدليل أن الملك لما توفي رأى ما يناسب عقله والنبي يوسف كذلك. إن النوم وفاة ولا عجب في ذلك. يقول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾[الأنعام: ٦٠] فجعل النوم وفاة والحياة بعثاً، وأوضح ذلك أكثر في آية أخرى، فقال: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾ إلى قوله: ﴿ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الزمر: ٤٢]. وملخصها أن الله يتوفى أنفس النائمين وأنفس الميتين، ولكنه يرسل نفس النائم إلى جسده، ويمسك نفس الميت إلى يوم القيامة.

واعلم أن علماء الأرواح سألوا بعضها فأجابتهم بهذا المعنى، فقالت: «إنكم إذا نمتم تقابلون أرواحاً من جنسكم أو أعلى منكم وتعلمكم»، وأكثر ما أنتم عليه من حب أو بغض ناشئ مما تشاهدونه في حال نومكم من أحوال لا تعلمونها في اليقظة. «اقرأه في كتاب الأرواح تأليفي فهو واف في هذا المقام».

(٧) واعلم أن جميع ما يصنعه الناس في هذه الأرض لا يتم منه شيء إلاَّ بمبدأ فكري، فكما اتجه فكر الصدّيق في رؤياه وفكر الملك لما يناسبه، هكذا كل عالم وكل حكيم على مقدار طاقته يكون منه فكر، فعمل على مقتضاه، إن كمال هذا العالم بأمرين: النور السماوي والعقل الإنساني، وقد اجتمعا في رؤيا الصدّيق نور المشرقات، وتنزلت على مقتضى عقله واستعداده، فليعمم الناس العلم وتهذيب الأخلاق.

(٨) لا يقوم العملة ببناء المنازل والحصون إلاَّ بعد تفكير المهندسين، ولا يظهر اختراع إلاَّ بعد فكر المخترعين، هكذا لا يكون هذا العالم ولا يبرز إلاَّ بعلم تقدم وجوده والله عليم حكيم، فالفكر مبدأ العمل والأعمال بالنيات التي تقدمتها وحال الإنسان في البرزخ مقدمة لحال أخرى بعدها، كما أن حاله في الدنيا مقدمة لحاله في البرزخ، وذلك نظير حال يوسف الصدّيق والملك إذ كانت حال كل منهما في يقظته مقدمة لحاله في رؤياه التي تشبه حال الناس في البرزخ بعد الوفاة، وحالهما في تلك الرؤيا مقدمة لما بعدها من ظهور مصداقها في الوجود الذي يشبه حال البعث للناس. فللناس حياة فبرزخ فبعث، وكلها متشابهة متلازمة كما تشابهت وتلازمت حالهما في يقظتهما ونومهما ومصداق رؤياهما والله عليم حكيم.

لطيفة في ذكر حالي في مبدأ حياتي

اعلم أني كنت وأنا في حال الطفولة أقول في نفسي: يا ليت شعري، لم لا يكون الناس كلهم أسرة واحدة يساعد بعضهم بعضاً. ثم إنني أجد في نفسي نزوعاً إلى أمر عظيم، فأحسّ بأن هناك مجداً أو ملكاً قد فقده قومي وأريد إرجاعه، وهذا كان أمراً مبهماً جداً في النفس، ولكن الخاطر كان شديداً

والباعث قويّ الهجوم. وأتذكر أني مرة نظرت حولي وقلت أين ذلك الملك الذي أرجعه وأنا لا أرى في قريتنا ولا في أسرتنا أثراً لهذا الملك، وكنت أعجب من هذه الخواطر الهاجمة القوية التي لا تستند على شيء أراه في قريتنا ولا في أسرتنا، إذ لا أرى إلاَّ المحاريث والفؤوس والبهائم والزرع والشجر ولا ملك ولا دولة أرى أثرهما.

فلما قرأت في الأزهر علم النحو والفقه ـ وأنا لا علم لي بأن في القرآن الذي أحفظه بلا فهم أيّ أثر للعلم ـ أخذت أنظر إلى ما بقرب قريتنا من الطرق الحديدية والتلغراف، وأقول: يا ليت شعري لماذا اختص بهذه الصناعات أمم النصارى، ولماذا لم يتعلمها المسلمون، وإذا كان هؤلاء أرقى صناعة وعلماً، فيا ليت شعري، ما رأيهم في صانع العالم، أنا لا بد لي من الوقوف على آرائهم في ذلك.

وأقول أيضاً: إذا كان الله هو الذي أنزل القرآن وهو نفسه الذي خلق هذه المزارع التي أراها في القرى، فلماذا لا نسمع في ديننا أثراً لذكرها، وإذا كان صانع العالم هو منزل الكتاب فكيف يذكر الصلاة والصيام والبيوع ويعرض عن ذكر المزارع والأشجار مع أن المتكلم ينطق بما يعمل وبما يصنع، كل هذا لأني كنت أتصور ديننا على حسب ما تعلمت، لأن الإنسان أول ما يتعلم إنَّما يقرأ الفقه، فأما جمال الله وحكمه وبدائعه فهذه في القرآن والمسلمون مستغنون عنها، وهذا المقام وضحته في كتابي «التاج المرصع».

ولقد ظهر أثر الفكرة الأولى، وهي أن العالم يكون أسرة واحدة في كتاب «أين الإنسان»، أما فكرة إرجاع المجد ومسألة تقصير المسلمين في العلوم، فهي مقاصد أكثر كتبي وأهمها هذا التفسير، هذه هي الخواطر.

أما الرؤى التي رأيتها فقد ذكرت بعضها في أول سورة «الأنعام»، وأكثرها وهو الأهم الأكثر لا أجد محلاً لذكره الآن، وعسى أن ينشرح صدري لذكره في آخر هذا التفسير، وقد كانت هذه الرؤى سبباً في تأليف هذا التفسير، ولولاها لم يكن له وجود، وكان ابتداؤها في نحو سن الخامسة والعشرين وأهمها كان ما بين الخامسة والثلاثين والخامسة والأربعين. انتهى.

الجوهرة الثانية

في البلاغة والاعتبار بالقصص عند العرب

وموازنته بقوله تعالى: ﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ الخ

من كتابي «المذكرات في أدبيات اللغة العربية» صفحة ٨٠، وهذا نصه:

كانت العرب تضرب أمثالها على ألسنة الهوام، قال المفضل الضبي: يقال امتنعت بلدة على أهلها بسبب حية غلبت عليها، فخرج أخوان يريدانها فوثبت على أحدهما فقتلته، فتمكن لها أخوه بالسلاح، فقالت له: هل لك أن تؤمنني فأعطيك كل يوم ديناراً، فأجابها إلى ذلك حتى أثرى، ثم ذكر أخاه فقال: كيف يهنأ العيش بعد أخي؟ فأخذ فأساً وسار إلى جحرها فكمن لها، فلما خرجت ضربها على رأسها فأثر فيه ولم يمعن، فطلب الدينار حين فاته قتلها، فقالت له: ما دام هذا القبر بفنائي وهذه الضربة برأسي فلست آمنك على نفسي. فقال النابغة الذبياني في ذلك:

تذكر أني يحدث الله فرصة ... فيصبح ذا مال ويقتل واتره
فلما وقاها الله ضربة فأسه ... وللبر عين لا تغمض ناظره
فقالت معاذ الله أعطيك إنني ... رأيتك غداراً يمينك فاجره
أبى لي قبر لا يزال مقابلي ... وضربة فأس فوق رأسي فاقره

وقال الله تعالى: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[يوسف: ٦٤]، وقال في هذا المعنى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾[الأنعام: ٢٧-٢٨]، وقال أيضاً: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾[المؤمنون: ٧٥-٧٦] انتهى.

وهذه الأبيات كنت خمستها منذ بضع عشرة سنة وهاهي ذه:

سعت حية يوماً لتسكن قرية ... فأودت سري القوم باللدغ بغتة
فنادى أخوه للمشورة فتية ... تذكر أني يحدث الله فرصة
فيصبح ذا مال ويقتل واتره

فأعطته مالاً تتقي شر بأسه ... وأفضل مال المرء فدية نفسه
ففاجأها بالفأس بعد لنحسه ... فلما وقاها الله ضربة فأسه
وللبر عين لا تغمض ناظره

أتى طامعاً في المال يعدو ولم ين ... فقالت نقضت العهد ظلماً وخنتني
فقال وربي لا أسيء لمحسن ... فقالت معاذ الله أعطيك إنني
رأيتك غداراً يمينك فاجره

أما كان يغني أن حبوتك نائلي ... أليس جزائي أنك اليوم قاتلي
وهل يحسن الإنسان يوماً لصائل ... أبى لي قبر لا يزال مقابلي
وضربة فأس فوق رأسي فاقره

الجوهرة الثالثة: في قوله تعالى
﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾
إلى قوله: ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾

اعلم أن هذه الآيات قد جاء فيها ملخص السورة وملخص حياة الإنسان ومماته وعلومه، ذلك أن الإنسان في هذه الدنيا يسعى لإصلاح الجسد وإصلاح النفس.

ثم إن جميع العوالم التي تحيط به إما علوية وإما سفلية، والعلوم إنما هي شرح لهذه العوالم، والأحوال لا تعدو أمرين: إما دنيا وإما أخرى.

وبعبارة أخرى: (١) الجسم والروح. (٢) والعالم العلوي والسفلي. (٣) والدنيا والآخرة.

فأشار للأول بقوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾، فالأول للجسم والثاني للروح.

وأشار إلى الثاني بقوله تعالى: ﴿فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

وإلى الثالث بقوله: ﴿أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

ثم إن قوله: ﴿قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ هو ملخص حياته، فإن أيام الحب وأيام السجن كانت محنة تخللها علمه بتأويل الأحاديث، ويلي ذلك أنه أعطي الملك. فهاتان الجملتان ألمتا بتاريخ حياته.

فأما قوله تعالى: ﴿فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ فما هو إلا ملخص سورة «الفاتحة».

أليست الفاتحة ثناء ودعاء، وثناء الفاتحة حمد الله على نعمه التي أنعم بها على جميع العوالم العلوية والسفلية. أفليس نداء الله بأنه فاطر السماوات والأرض هو عين الحمد، وما الحمد إلا ثناء بجميل لأجل جميل حصل من المحمود راجعاً إلى الحامد أو غيره، وهاهنا ينادي ربه أنه فطر السماوات والأرض.

وهذه الجملة يدخل فيها جميع العلوم، فإن العلوم الرياضية والإلهية لا تخرج عن هذه الجملة إذ العلوم كلها ترجع للسماوات والأرض، فهذا هو الثناء، أما الدعاء في الفاتحة فهو طلب الهداية إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم، وهاهنا يقول: ﴿أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾، فالولاية لله عليه في الدنيا والآخرة، وطلبه من الله أن يتوفاه مسلماً راجع إلى طلب هداية الصراط المستقيم، وقوله: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ يقابل: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾[الفاتحة: ٧] الخ.

مقاصد الدعاء والثناء في دين الإسلام

الأمم الإسلامية أمرت بالثناء في أول الفاتحة وفي أول التشهد، فيثني المسلم على ربه أنه هو الذي ربى العالمين، وفي تشهده بأن التحيات والتعظيمات والمباركات والصلوات والطيبات خاصة بالله، وفي ركوعه فينزه الله ويصفه بالعظمة ويظهر له الخشوع في سمعه وبصره ومخه وعظمه وعصبه وما استقلت به قدمه، وفي رفعه واعتداله فيصف الله بأنه محمود حمداً يملأ السماوات والأرض ويملأ ما بينهما ما يشاء الله بعد ذلك، حتى يشمل العوالم السديمية التي ظهر كشفها والتي لم تعلم بعد، وهكذا في سجوده فينزه ربه الأعلى ويقول المؤمن إن وجهه سجد للذي خلقه وصوّره وشق سمعه وبصره.

هذه أهم أنواع الثناء التي يقولها المسلم في صلاته، وكل هذه ترجع إلى قول يوسف: ﴿فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وأما دعاء المسلم فهو طلبه الهداية إلى الصراط المستقيم، وهكذا في قنوت الصبح فإنه يطلب الهداية والمعافاة وأن يتولاه الله ويبارك له فيما أعطاه ويصرف عنه الشر الخ، وهكذا في الجلوس بين السجدتين فهو يطلب المغفرة والرحمة والرزق والهداية والعافية، فهاهنا أمران في كلام يوسف: ثناء، ودعاء، وأمران في صلاة المسلم: ثناء ودعاء.

وانظر وتعجب ثناء يوسف أكثر من دعائه، وثناء المسلم أكثر من دعائه. أثنى يوسف بست عشرة كلمة ودعا بأربع كلمات، فثناؤه ربع دعائه. وهكذا المسلم ثناؤه أكثر من دعائه، فهو يثني في

الفاتحة وفي الركوع وفي الرفع وفي السجود الأول وفي السجود الثاني، إنَّما يدعو في بقية الفاتحة وفي الجلوس بين السجدتين وفي القنوت، إذن الثناء أكثر من الدعاء نتيجة هذا المقال.

العبادة جسم روحها العلوم

من تتبع هذا التفسير أدرك أن جميع أنواع العبادات إنَّما جعلت لبعث الهمم إلى العلوم، والعلوم هي المقصودة من وجود هذا الإنسان فلا دنيا إلاَّ بالعلوم ولا آخرة إلاَّ بالعلوم.

لذلك كثر الثناء في قول يوسف، وكثر في صلاة المسلم، ولا معنى للثناء إلاَّ على نعمة، ولا ثناء على نعمة إلاَّ إذا عرفها المثني، فالمسلم الذي يحمد ربه لأنه ربّ العالمين، والذي يتكلم عن السماوات والأرض وما بينهما وعن أعضاء جسمه من سمع وبصر ومخ وعظم الخ، هذا المسلم إذا ظن أن تكرار هذه الألفاظ هو الذي يرقيه عند ربه ويقرّبه منه فإنه مخطئ.

نعم هذه الألفاظ أنطق بها عباده مع استحضار الخالق فذلك فيه ثواب العبادة وثواب العبادة أشبه بجسم، ولكن التحقق من المعنى هو الروح ولا يتحقق المعنى إلاَّ بالدراسة والأمل والتفكر.

الله أكبر؛ جلّ العلم وجلّ الدين. اللهم إنك أنت الذي أوحيت بدين الإسلام، وأنت الذي خلقت أوروبا وأمريكا واليابان والصين والدول المحيطة بنا، وأنت الذي أنزلت في القرآن مئات الآيات للحث على العلوم جميعها، ولكني أرى أنك أتيت لنا بأمر أعجب، أمرتنا بالصلوات فكررناها صباحاً ومساء، والصلوات فيها ملخص علوم الأمم التي تحيط بنا، وفيها ملخص علوم القرآن؛ يثني المسلم على ربه بخلق العالم العلوي والعالم السفلي، ويثني عليه بأنه خشع له سمعه وبصره الخ، وأنه سجدت له جميع الأعضاء التي للحس والتي للحركة.

كل ذلك يقوله المسلم في صلاته والمسلم غافل لا يقرأ تلك العلوم، تلك العلوم التي ملأت أوروبا وأمريكا واليابان والصين، وهي التي يكررها في صلواته صباحاً ومساءً، ويكررها في القرآن، والله يقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤] ومن القرآن ما يقرأ في الصلاة.

اللهم إن الصلاة عبادة، والعبادة روحها الفكر، والفكر في الصلاة يهدي إلى العلم، وكيف يكون حمد المسلم وثناؤه على ربه مجدياً حياً إلاَّ إذا هداه لدراسة مصنوعاته وجمال خلقه في هذه الدنيا، إذن يكون حمده مستنداً إلى حقائق علمية ومشاهد طبيعية جميلة وإلى بدائع هذا الوجود الذي درسته الأمم حولنا ونحن ساهون لاهون.

فيا ليت شعري، هل يظن المسلم أن كلمات يكررها صباحاً ومساء بلا عقل ولا هدى ترفعه في الدنيا والآخرة. اللهم إن ما حلّ بالمسلمين اليوم هو عين ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤-٥]، فالمسلمون اليوم يصلون وهم عن صلاتهم ساهون سهوا عن الصلاة فلم يتدبروها، ولو تدبروها لأدركوا أن الثناء على الله بلا علم بما في العوالم العلوية والسفلية من العلوم كَلَا ثناء، فالويل اليوم حلّ بالمجموع الإسلامي لجهالته بما تفيده الصلاة من تضمنها دراسة العلوم جميعها، وليس معنى هذا أن كل امرئ يعرف جميع العلوم فهذا مستحيل، بل القصد أن تكون العلوم العامة في الأمة بحيث يدرس كل امرئ ما يقدر عليه، فالعامة يعرفون ظواهر العجائب بالتعليم الأوليّ، وبعد ذلك تكون درجات العلماء، هذا ما عنّ لي في هذا المقام، والحمد لله رب العالمين.

الجوهرة الرابعة: في نفس هذه الآية، وهي: ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي ﴾ الخ وذلك بهجة العلم وبرد اليقين

ما أعجب الحكمة والعلم وما أبهجهما! انظر إلى أوائل سورة «يوسف» وأواخرها، الأول هو الآخر، فيها ما يشبه رد العجز على الصدر عند علماء البديع، أول ما خطر ليوسف في حياته وقت النوم إشراق الشمس والقمر والكواكب، وقد أوّل ذلك بما يناسب هذه الدار من الأنساب الإنسانية، فأما في الحياة الأخرى فقد ضرب القمر والشمس مثلين لله عزّ وجلّ، انظر في حديث الرؤية المذكور في سورة «الأنفال»؛ إذ جاء فيه أن الله يُرى كالشمس ليس دونها سحاب، في حديث أبي داود، وأنه يُرى كالقمر، في حديث أبي رزين، الشمس أشرقت والقمر ليوسف في أول حياته مناماً، فلما أن ختم الحياة خاطب الله قائلاً: يا فاطر السماوات والأرض، فذكر السماوات، والسماوات موضع إشراق الشمس والقمر والكواكب المذكرات بالله كما كان شمسها وقمرها مذكرين بالوالدين في أول الحياة. ففي الحديث: «اليوم أضع نسبكم وأرفع نسبي»، وهذه الذكرى هي التي يقولها المسلم في كل صلاة: ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٩]، يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فنحن من باب أولى، فكان صلى الله عليه وسلم يقوم في آخر الليل ويقرأ الآيات من آخر سورة «آل عمران»، وهي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الآية: ١٩٠] الخ.

إن المسلم في هذه الحياة الدنيا مأمور أن يتجه قلبه لله، ولكن الله لا يرى له هنا فكيف يتجه لمن لا يراه، إنّما يتجه الإنسان لمن يحبه والمحبوب في الدنيا يرى، والله لا يرى في الدنيا، فتوجهت العناية إلى صفاته وصفاته تعرف بآثاره، وآثاره أجلها المشرقات العلوية، لهذا قال يوسف: يا فاطر السماوات والأرض، وقال المسلم: ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ﴾ [الأنعام: ٧٩] الخ.

إن ذلك داع حثيث لمعرفة العلوم كلها، السماوات إجمالاً والأرض إجمالاً لا يهيجان القلوب إلى خالقهما، وإنّما التفصيل بالحكمة والعلم هما الشائقان لمبدعهما. إن ذكر السماوات والأرض على لسان المسلم في كل صلاة على طريق العبادة فتح لباب العلم، الله أكبر، العبادة في الإسلام دروس علمية جهلها أكثر المسلمين.

الله والشمس

جلّ الله صانع الشمس، إذا كان الله عزّ وجلّ لا نراه فقد فتح حديث الرؤيا لنا باب المثال، إذ مثل بالشمس ومثل بالقمر، الشمس تصبح كل يوم ولديها خزائن النور فتنشرها على سياراتها وأرضها والأقمار الدائرات حول تلك السيارات، ولا يحظى بذلك النور إلاّ ما يقابل وجهها، أما الذي لا يقابل من الأرض ومن السيارات ومن الأقمار ومن المذنبات، فليس له حظ من النور، بل هو في ظلام حالك النور الذي تنشره الشمس على هذه السيارات وعلى توابعها يجري في فضاء شاسع وما هو إلاّ حركات في عالم الأثير لا إشراق لها بل هو ظلمات.

إن الجو الذي بين أرضنا وبين الشمس البالغ بسير قلة المدفع ١٢ سنة، وبسير القطار البخاري ٣٦٥ سنة تقريباً مظلم كله، فالنور الذي قذفته الشمس لا يرى في تلك المسافة وما هو هناك إلاّ

حركات في ظلمات حالكات، وتلك الحركات تنقلب على الأرض فجأة نوراً ساطعاً مشرقاً، هكذا الله عزّ وجلّ يرسل الإدراك والغرائز والمواهب العقلية من عالم قدسه ومهابط وحيه لا يحجب عنها أحداً فهو دائماً وهاب لتلك القوى السامية، كما أن الشمس وهابة للنور دائماً، فكما أن الشمس لا يحظى بنورها إلاّ ما اتجه لوجهها من المخلوقات الأرضية مثلاً، هكذا لا يحظى بالكمال الإدراكي من هذه العوالم الحية من حيوان وإنسان أحد إلاّ على مقدار استعداده، الله بذر في العوالم بذور الإدراك، وبثها فيها فليس بمانع عطاءه عن أحد، كما أن الشمس أرسلت أضواءها لم تحجب عنها أحداً من توابعها، فأخذ كل حيوان منه على مقدار طاقته، فنظم النمل جمهوريته، والنحل مملكة قفيرة، والغربان جمهوريتها، وهكذا كل حيوان، هكذا الإنسان قبل من ذلك النور العقلي على مقدار ما استعد له، فلم يتنزل إلى درجات البهائم، ولم يتعال حتى يدبر العوالم العلوية والسفلية، بل أخذ على مقدار استعداده.

الله ضرب بفعله الشمس مثلاً لنوره، وبهذا المثل أدركنا أن عطاءه دائم وذلك من دوام إشراق نور الشمس، وكما أن إظلام ناحية من نواحي الأرض والقمر والسيارات لم يكن من نفس الشمس وإنّما كان من انحراف تلك الناحية عن وجه الشمس، هكذا نقول هنا: ليس حجب العلم والحكمة عن المعادن وعن النبات وعن الحيوان لإمساك وبخل من الله، بل ذلك لعدم استعداد هذه المخلوقات لتلك النعم، فلم يمنع النمل عن علم الأنبياء ولا الأسد عن عمل خلايا النحل، ولا النمل عن بناء القصور الإنسانية إلاّ أن ذلك ليس من مصلحتها في شيء، والمصالح تابعة للاستعداد كما كان من منافع الأرض أن تظلم أوجهها تارة وتضيء أخرى، ولو دام أحدهما لهلك من عليها، فقول المسلم: ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [الأنعام: ٧٩] ليس يراد به الوجه الجسمي، لأن الله ليس بجسم، وإنّما التوجه الجسمي يصح في توجه الأرض والسيارات والأقمار للشمس، فهذه إذا توجهت نحوها استضاءت بنورها.

إذن هذا التوجه روحي عقلي، فالتوجه في كل شيء بحسبه في الأجسام جسمي، وفي الأرواح روحي، والتوجه الروحي يحصر الفكر، وحصر الفكر له مقدمات ومقويات، فالركوع والسجود والقراءة وما أشبه ذلك كلها مساعدات على ذلك التوجه، والتفكر في ملكوت السماوات والأرض الذي كان صلى الله عليه وسلم يفعله في سحر كل ليلة، إذ يقوم ويقرأ آية: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠] من أهم أسباب التوجه لله، ونحن الذين لسنا أنبياء لا تكفينا تلك النظرة في السحر، بل علينا دراسة العلوم كلها في السماوات والأرض على سبيل فرض الكفاية من جهة، وهكذا يدرس كل مسلم من تلك العلوم متى كان قادراً عليها، كل ما يزيده شكراً لربه ومعرفة لقوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤]، ولقوله تعالى أيضاً: ﴿ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة: ١٥٢] ويوضح ذلك قوله هنا بعد آيات: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٥]، فهذه الآية تعرفنا معنى: ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ﴾ [الأنعام: ٧٩]، فليس توجيه وجهنا لله من حيث نفس ذاته لأنه ليس في طاقتنا، بل ذلك للنظر في آياته التي وبخنا على إعراضنا عنها في هذا المقام، فيوسف توجه لله بآياته في السماوات والأرض،

ورسول الله توجه له بذلك، وهكذا المسلم. إذن الصلاة في الإسلام مفتاح العلوم، لهذا تأخر المسلمون عن الأمم لأنهم لم يفهموا صلاتهم، يصلون وأكثرهم لا يعقلون ما يقولون، يتوجه المسلم في الصلاة ويقول: ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾[الأنعام: ٧٩]، وهو في الوقت نفسه معرض عن السماوات والأرض، والله تعالى يوبخه قائلاً: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾[يوسف: ١٠٥].

خطاب للمسلمين

أيها المسلمون، هل يعجبكم هذا؟ هل يعجبكم أنكم عشتم قروناً وقروناً وأنتم تصلون وتقولون باللفظ: إنكم وجهتم وجوهكم للذي فطر السماوات والأرض، وفي الوقت نفسه يقال لأكثرنا: إنكم معرضون عن الآيات في السماوات وفي الأرض.

اللهم إليك المشتكى، دين تكون صلاته مذكرة بجميع العلوم، بل فيها مفاتيحها، وما مفاتيحها إلاّ عجائب السماوات والأرض التي اندمجت في سورة الحمد، إذ الحمد على النعم، والنعم هي جميع هذه العوالم، فكيف يكون تابعوه أجهل الأمم بعلومه المذكورة في سورة «الفاتحة».

ولما علم الله أن الناس ربما لا يفطنون لهذه العلوم من سورة الحمد أنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم؛ وأوحى إليه أن يقرأ: ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِىَ ﴾ الخ، في أول كل صلاة، وأنزل في هذه السورة أن يوسف قال: ﴿ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[يوسف: ١٠١]، وأتبعه بما يشبه التفسير له؛ إذ ذمّ القوم الذين أعرضوا عن الآيات التي في السماوات والأرض، فكأنه بهذا يبيّن قول يوسف: ﴿ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، وأنه ليس معرضاً عنهما، فهو مقبل عليهما وبهما يتوجه لله، فإذا قال المسلم: ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾[الأنعام: ٧٩]، ثم هو في الحال معرض عن الآيات في السماوات والأرض. وبعبارة أخرى يجهل هذه العوالم التي تعيش فيها، فهذا هو باب غضب الله عزّ وجلّ، لأنه صار كاذباً في قوله، فهو يقول: إنه وجه وجهه لفاطر السماوات والأرض، ولا معنى لهذا التوجه إلاّ بالإقبال على الآيات فيهما وهو لم يقبل، إذن نحن في هذا كالكاذبين أو كالساخرين وإن كنا لا نقصد لذلك تأخر المسلمون وانحطوا وتقهقروا لأنهم أعرضوا عن الآيات في السماوات والأرض فكأنهم استهزؤوا بآيات الله لإعراضهم عنها، لأنهم اتجهوا لفظاً ولم يتجهوا فعلاً بالعلم.

هذا هو الذي فتح الله به في هذا المقام، ولعل هذا من أسباب أن هذه السورة أحسن القصص، ذلك لأنها أبانت حال المسلمين الآن، إذ تبيّن أن السورة بأكملها رجعت إلى إشراق المشرقات في منام يوسف، وانتهى ذلك بصدق الرؤيا، ثم انتقل الأمر إلى التوجه لله بالنظر في آياته المشرقات في السماوات والأرض، والمسلم هكذا توجهه كما توجه الصدّيق، وتبع ذلك ذمّ المعرضين عن آيات السماوات والأرض، والمسلم اليوم اتجه لفظاً في الصلاة ولم يتجه عقلاً، فحرم من ميراث الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض، فأرسل الله عليه الأمم فأذلته.

المسلم اليوم جاهل والله يعاقبه في الدنيا بتألب الأمم عليه، وهاهو ذا الآن أخذ يقبل على العلوم جميعها، وهذا التفسير من مقدمات تلك النهضة، وسيرقى المسلمون قريباً ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾[الحج: ٤٠].

تذكرة بهية في الخليل عليه السلام وقوله:
﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ الخ

لقد تبيّن لك أن توجه يوسف للذي فطر السماوات والأرض الخ؛ موافق لتوجه المسلم في صلاته كذلك، وأزيد الآن أنه قد تقدم في سورة «الأنعام» قول الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾[الأنعام: ٧٥]، هنالك أخذ الخليل يدرس النجم والقمر والشمس، ولما أتم ذلك قال: ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ ﴾، أليس ذلك معناه أن اليقين إنَّما يكون برؤية ملكوت السماوات والأرض؟ أوَلست ترى أنه لا يمكن رؤية ملكوت السماوات والأرض إلاَّ بدراسة العلوم في هذه الأرض التي نسكنها، ولذلك الإشارة بدراسة الخليل هذه الكواكب. أوَلست ترى أن الخليل عليه السلام لم يقل: ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾[الأنعام: ٧٩] إلاَّ بعد دراسة ملكوت السماوات والأرض بحسب طريقته.

هاهنا تبيّن لك أيها الذكي أن ما ذكرته في هذا المقام استنتاجاً جاء في قصة الخليل صريحاً، فإنه نظر فأيقن فوجه وجهه للذي فطر السماوات والأرض. وبهذا توقن أن قول المسلم: ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ ﴾ الخ لا يتم له إذا كان قادراً على التعليم إلاَّ بدراسة هذه الدنيا التي نعيش فيها، فبهذا يكون المسلم متوجهاً لربه لأنه درس السماوات والأرض، فأما التوجه اللفظي فهو قليل الجدوى عديم الفائدة، هذه هي المسألة التي تخطتها الأمم الإسلامية فجمدت قرائحها فبارت تجارتها وضلت طريقها وكانت غالباً من الغافلين.

ولما كان هذا المقام من أهم ما في القرآن ورد بعد ذلك في الأنعام ما يؤيد ذلك مثل: (١) قول إبراهيم: ﴿ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ﴾[الأنعام: ٨٠]. ومثل: (٢) ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾[الأنعام: ٨٣]. (٣) وفي آية أخرى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾[المجادلة: ١١]، فهذه الدرجات المذكورة هنا كالتطبيق على ذكر درجات أولي العلم، لأن الخليل علم نظام الكواكب والشمس فارتقى. ومثل (٤) أنه ذكر ذرية الخليل وهم الأنبياء، وختم المقال بقوله: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ ﴾[الأنعام: ٩٠]، ولم يجئ في القرآن جملة بهذا النص إلاَّ في هذا المقام للإشارة إلى أن الإيقان وقراءة علوم هذه الدنيا وعلوم الفلك وغيرها ذات مقام سام ومنزلة رفيعة، فلذلك أمره بالاقتداء بالأنبياء من ذرية إبراهيم وبأبيهم إبراهيم. بهذا تفهم أن قول المسلم في الصلاة: ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾[الأنعام: ٧٩] الخ لا يكون تاماً إلاَّ بعلمه بهذا النظام الذي نعيش فيه كما فعل الخليل، نظر فدرس فتوجه، والحمد لله رب العالمين. انتهى.

الجوهرة الخامسة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ ﴾

اعلم أن لطف الله عزَّ وجلَّ سار في كل مخلوق، ولكن الإجمال شيء والتفصيل شيء آخر. إن معرفة هذا إجمالاً لا تفيد، فالناس يحيط بهم اللطف ولكنهم لا يفطنون، والتفطن لبعض المخلوقات يفتح باباً واسعاً للناس، وإني مورد لك الآن بعض ما ستقرؤه في سورة «النحل» عند قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾[الآية: ١٤]،

فسترى هناك أن اللؤلؤ ثلاثة أنواع : طبيعي ومولد وصناعي ، فلا أطيل الآن في بيان هذا لأنك ستقرؤه هناك . وأنا أذكر لك كيف ظهر لطف الله في هذا ، ذلك أولاً أن الجير والفحم إنَّما هما مادتان حقيرتان معروفتان ، ولكن حسن الوضع وجمال الصنيع هما اللذان جعلا هذا المنبوذ المحقور جوهرة بديعة ، فإن اللؤلؤة إنَّما هي كربونات الجير فالجير معروف ، والكربون هو مادة فحمية ، والمادة الفحمية منها وقودنا وسير قطرنا وإدارة آلاتنا للطحن والخبز وبقية أنواع الحياة ، ومنها دهننا ودهن الحيوان . فانظر كيف ظهر لطف الله بحسن الصنعة حتى صار الفحم تارة دهناً ، وأخرى نوراً في شوارع القاهرة مثلاً ، وأخرى أنواعاً من الصباغة ، وآونة يظهر بهيئة جميلة في أجياد الغادات الحسان . إن هذا العالم الذي نعيش فيه يرجع أوله وآخره إلى اللطف وحسن الصنعة والتفنن ، وهذا هو السحر الحلال .

انظر إلى هذا اللطف في اللؤلؤ الطبيعي ، واللطف في اللؤلؤ الصناعي الذي ستقرؤه في سورة « النحل » أيضاً ، فسترى هناك أن مادة لماعة خلقها الله على جرم السمك لأجل أن يكون نورها الفضي المنعكس من فوق بطن السمكة مغشياً على أعين أعدائها فيكون ذلك وقاية للسمكة .

فانظر كيف عرف رجل فرنسي هذه الخاصية فاستخرجها من فوق جلد السمكة ، وطلا بها الزجاج ، فصار ذلك الزجاج أشبه باللؤلؤ الطبيعي ، ذلك كله باللطف وحسن الصنعة . فالله أعطى السمكة في البحر هذه المادة لتحفظها من أعدائها بقوة شعاعها ، والإنسان استعملها لتكون بهجة وجمالاً للغادات الحسان . هذا من معنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ﴾[يوسف : ١٠٠] ، فقد ظهر لطفه في الفحم المتنوع استعماله ، وفي هذه المادة السمكية التي تحفظ السمكة من عدوها ، وتجلب للغادات الحسان من يعشقها ، فتلد منه البنين والبنات حفظاً وبقاء لنوع الإنسان . هاأنت ذا رأيت بعض لطف الله في اللؤلؤ ، فانظر في سورة « يوسف » التي نحن بصدد الكلام عليها ، فإنك تجد اللطف فيها كاللطف في خلق اللؤلؤ ، وهاك البيان :

ألم تر أنه اشتق من بلوى يوسف وذله بحسد إخوته ورميهم له في غيابات الجب نعمته وعزّه بإدارة ملك مصر ، ولولا هذه البلوى وهذا الذل لم ينل هذا المجد والشرف ، واشتق من سجنه ٧ سنين قربه من الملك وتمام النعمة بالملك ، أليس ذلك هو عين ما رأيت في اللؤلؤة الطبيعية ، فإن الجير والكربون أي : الفحم ، مادتان حقيرتان ، فهما في حقارتهما أشبه بما أحاط بيوسف من حسد إخوته ورميه ، ثم سجن العزيز له ، ثم اشتق من ذلك الذل عزة الملك ، كما اشتق من هاتين المادتين الجمال والبهاء وغلو الثمن والمجد في اللؤلؤ ، فكما ظهر لطف الله في قصة يوسف ظهر لطفه في جميع المخلوقات الطبيعية ، فكلها إنَّما ترجع إلى اللطف ، فهذا فتح باب لفهم معنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ﴾ .

واعلم أن اللطف محبوب عند عقول النوع الإنساني ، فترى الجاهل والعالم كلاهما مغرم بإدراك أسرار اللطف ، ولذلك ترى الجهال والمتوسطين من هذا النوع الإنساني جميعاً مغرمين بقراءة الروايات التي يخترعها الناس لما يرون فيها من حسن التلطف والتحيل وإدخال العجائب في وقائعها ، وذلك لأن هؤلاء يعجزون عن إدراك اللطف في الطبيعة التي يعيشون فيها ، فلذلك يلجؤون إلى ما يتخيله الناس في الروايات حتى يعرفوا شيئاً من اللطف الذي جبلوا على حبه وهم لا يشعرون .

واعلم أن الأرواح الإنسانية إنَّما هي لطائف نورية سماوية، فلذلك تهشّ وتفرح بتلك العجائب اللطيفة، وبينها وبين خالق هذا العالم صلة، وإن كانت محجوبة عن تلك الصلة، والدليل على ذلك أن الإنسان متى سمع قولاً أو تكلم هو دخلت معاني ذلك الكلام بهيئة صور ترسم في النفس فيشعر الإنسان بتلك الصور ولا يعرف كيف رسمت ولا من أين جاءت، فإذا سمع لفظ شمس أو قمر أو شجر أو سماء أو أراضي، رسمت الصور حالاً في نفس الإنسان، فكأننا نحن في هذه الأرض عالم كبير، فإذا كان الله يخلق الخلق بحيث إذا قال له كن كان، أي: حصل ووجد فعلاً بحيث نراه ونلمسه ونعقله، فهكذا أرواحنا التي هي في أصل نشأتها من نور إلهي لها قدرة عظيمة جداً وإن كنا لا نشعر بتلك القدرة المستمدة من موجد نورنا الممدّ لنا، وهو الله سبحانه وتعالى، فإذا سمعنا قولاً أو تكلمنا به رأينا نفوسنا قد أظهرته في ألواحها، إذن نحن مملكة واسعة الأطراف وكل روح من أرواحنا توجد بأسرع من لمح البصر عوالم وعوالم في خيالنا، ونحن لا نفهم هذا السر، بل نحقره ونقول إنه خيال. نعم هو خيال ولكن هذا الخيال أمر عجيب، إن هذا الخيال وسرعته ونقش الصور التي لا نهاية لها في أدمغتنا كل ذلك من لطف الله المذكور في هذه الآية: ﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[يوسف: ١٠٠]، فهو لطيف وعليم وحكيم، ومن لطفه وعلمه وحكمته أن فطرنا جميعاً على هيئة متجانسة من حيث إننا نرسم في نفوسنا صوراً سريعة ثم نرسم أخرى وأخرى، وهذا هو عين ما نشاهد في هذا العالم فهو صور تتلوها صور، وهكذا إلى الأبد ونفوسنا نقرأ فيها فنرى فيها نفس هذا العالم المشاهد كله، ونحن نمحوه ثم نجدده ونمحوه ثم نجدده مشاكلة لما يفعله الله تعالى كأن هذا رمز إلى أن هناك بينكم وبين صانع هذا العالم صلة خفية، والفرق بين قدرتكم وقدرته كالفرق بين عوالم الخيال وعوالم الحقيقة، فالعوالم التي نعيش فيها حقيقية، والعوالم التي في خيالنا مجازية، فتكون النسبة أشبه بنسبة الوجود إلى ما يشبه العدم، وهذا هو المذكور في قصة الخضر وموسى عليهما السلام؛ إذ قال الخضر ما معناه: «ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في جانب علم الله إلاّ كمقدار ما أخذ هذا الطائر من ماء البحر»، وإذا كنا نرى ربنا يوم القيامة فمبدأ الرؤية موجود في الدنيا، وهو الاستعداد العظيم الكامن في نفوسنا، فهي بهذه القدرة العجيبة الخيالية قادرة أن تسرع في التعلم والتعقل حتى يقوى علمها، فتخلق لها في الآخرة أعين روحية بها تعاين الله، وهذا كله من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾، فقد ظهر لطفه في المادة فاستخرج من موتها حياة للإنسان وعلماً، حتى صار كأنه عالم يشبه العالم الكبير وهو يوماً سيرى ربه، وهذا أعجب اللطف فهو لطف أجمل وأبدع من لطف الله في اللؤلؤ الطبيعي واللؤلؤ الصناعي، لأن ذلك اللطف في المحسوسات استخرجه من الفحم ومن الجير ومن مواد أخرى، ولكن اللطف في استخراج العقول الكاملة التي تستخرج من بواطنها عوالم مثل هذا العالم الذي نعيش فيه، فهذا ألطف وأعجب وأكمل وأجمل، ذلك كله من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

جوهرة السورة كلها

أيها الذكي ها أنت ذا قرأت سورة «يوسف» وعرفت تفسيرها، ولكن لم يكن فيها من العناية بعجائب الكون ما كان فيما قبلها من السور.

لقد ازدانت السور السابقة بجواهر الكون ودرر النظام وجمال العالم ومحاسن الطبيعة وبهجة الدنيا وزخرف النبات وسعادة الحيوان برحمة ربه، أما هذه السورة فلم يكن فيها حظ من ذلك، اللهم إلاّ ما استنتج من جمال يوسف والبحث في جمال الوجوه وجمال النغمات وجمال الشعر وجمال الفلك ودقة حسابه، فإذا خطر ببالك ما ذكر فهاأنا ذا سألقي عليك قولاً يبين إجمال ما فيها، ثم أردفه بالجوهرة التي أضاءت فيها فكانت زينة تاجها وقرة لعين قارئها وبهجة للمفكرين، فقامت مقام الآيات الطوال في السور الأخرى وجمعت من العجائب أعلاها، ومن المحاسن أبهاها في هذه الكائنات، فهاأنا ذا أتلو عليك ما وعدت، وأقصّ عليك ما قدمت، فأقول:

سياسة النفس

لقد عرفت من قصص يوسف أحسن القصص وآثاره وعالم الرؤيا والعبارة والحسد وأخباره، والعشق والجمال والعفة والكمال، وكيد الغانيات وعدم الغيرة في البيوتات، وذلك في علم الحكمة هو تهذيب الشخص المسمى بسياسة النفس.

سياسة المنزل

ثم إن آدابه مع أصحاب السجن، وصدق قوله، وما أسدى إليهم من النصائح، وأورد لهم من الدرر الغوالي في الدين، وما بدا لهم من كماله، وبهجة جماله، وفصيح مقاله، وإعلامهم بما يأكلون، وتفسير ما كانوا يرون في المنام، كل ذلك أشبه بعلم تدبير المنزل ونظامه.

سياسة المدينة

ثم إن حسن سيرته مع الرعية ألزمت الملك بالإقبال عليه وتسليم مقاليد الأمور إليه، وأصبح الجميع له لا عليه، فلقد شهدن له بعد أن تناهين في ضلال القيل والقال، ونظم الدواوين، وأراح الرعية ودبر الأمور، وأفرح الجمهور، فرضي الله عليه وأرسل إخوته وأبويه إليه، وخرّوا له ساجدين، وارتدّ بصر أبيه إليه، كل ذلك لتحقيق رؤياه.

خاتمة القصة

ثم إنه نظر نظرة إلى العالم الأعلى، وخاطب ربه ناظراً في أرضه وسماواته قائلاً: ﴿ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أولي الفضل الأنبياء الأعلام. هذا ملخص قصص يوسف أمليته عليك إجمالاً بعد أن ذكرته تفصيلاً.

المقصود من هذه القصة

هاهنا أخذ يخاطب نبينا صلى الله عليه وسلم، وهذا هو بيت القصيد، فقال له: إنك لم تحضر يوسف وأباه، ولم تدرس ما ذكرناه، فأنت وقومك نشأتم أميين، فالعلم عنكم عازب، والدين من داركم نازح، فكيف يلقى هذا إلاّ ما أوحيناه أو يفصله إلاّ ما بيناه، وهاهنا آن أن أريك الجوهرة النفيسة، تلك هي قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾[يوسف: ١٠٥]، فكأن الله يقول: أيها الناس، هاهو ذا نبيّ قصّ عليكم أحسن القصص، فإذا لم تعملوا بنصائحه الغالية ودرره الثمينة وعجائبه البديعة، فليس ذلك بدعاً منكم ولا خارجاً عن مألوفكم، فإن في السماوات والأرض التي تشاهدونهما من العجائب ما تخرّ له العقلاء سجداً، وأنتم

عنها غافلون، فلا بدع إذا لم تعيروا قصصاً من قصص أنبيائي الذين هم كزهرات في بستان الأرض نظرة، ومن جهل جمال النجوم وبهجة الشمس والقمر، فما أحراه أن يجهل بعض ما في هذا العلم كالقصص الذي أنزلناه، فبهذه الجوهرة في السورة جمعت كل يابسة وخضراء، وناطقة وبكماء، من عجائب الأرض والسماء.

وهاأنا الآن لا أدري أأكتب كل علم وكل فن وكل نجم وكل شمس وكل قمر، أم أدع الكتابة جانباً في هذه الآية. فأما القسم الأول فهو محال لأن هذا العالم كله عجائب، وعلم العلماء والأنبياء لا نحصيه، وإنّما يحصيه مبدعه وخالقه وهو الحكيم العليم.

علم الذرّة

ولأذكر لك الكلام على الذرة، فإن ذرة واحدة من ذرات هذا الكون حار فيها العلماء والحكماء وتاهت عقولهم، ولم يصلوا لمنتهى العلم، فكيف بالعالم كله.

ألم تر إلى ما حققه العلامة «لوبون» فيها، وهو أن كل مادة تتحول إلى قوة، والقوة تتنوّع إلى ضوء وحرارة وحركة، وهي وتنوعاتها ترجع إلى الأثير، فأصبح الرأي الحديث أن المادة تفنى ولا يكون لها وزن، ومتى صارت قوة أمكن أن تصير أثيراً، وهذا أمر فرضت العقول وجوده تسبح فيه جميع الكائنات. ويقول: إن الذرة الواحدة العلمية التي لا نستطيع رؤيتها ولا وزنها إلاّ بطريق المباحث العلمية الاستنتاجية تنحل انحلالاً بطيئاً، ويزيد انحلالها تسليط النور أو الحرارة أو الضوء عليها دهوراً ودهوراً، فحينئذ تفنى، وأسرع المواد إلى الانحلال «الراديوم» فإن جزءاً من ألف جزء من جرام «الراديوم» يبقى دهراً وهو يشعّ ملايين وملايين من تلك الذرات إلى أن تتلاشى مادته أخيراً، أي: تتحول إلى قوة، وهذا الانحلال والتحول لا يمكن إلاّ بقوة عظيمة جداً، فإن هذه الذرات تقذفها أجزاؤها المنحلة المتحولة إلى نور سرعته ٢٠٠,٠٠٠ كيلومتر في الثانية، فإذن هي مستودع قوة مدهشة، وهي أشد القوى المعروفة اليوم، ولو أمكن العلماء تحليل المادة لنالوا قوة خارقة للعادة، فلو انحل جرام من الحديد بحيث ينحلّ في ثانية واحدة لوجدوا أن هذا الجرام يتحول إلى قوة تعادل ستة آلاف وثمانمائة مليون حصان، وهذا المقدار كاف لأن يجرّ قطاراً حديدياً حول الكرة الأرضية أربع مرات. وقرر العلامة المذكور أن الكهرباء والحرارة والنور ما هي إلاّ انحلال للمادة، فهي تتحول إلى تلك الأعراض، فما ضوء الشمس ولا كهرباء البطاريات ولا حرارة النار إلاّ أعراض قد تحوّل الجسم إليها، فما المادة إلاّ قوة متكاثفة، والأثير تكاثف في الأزمان الغابرة فصار مادة كما تتكاثف المواد الدخانية الغازية.

والعلم الآن يريد أن ينال استخدام القوة التي في المادة، فإنها لا حد لها متى انحلت ومتى نلناها كانت للناس سعادة لا آخر لها، وإذا كان الراديوم يشعّ فهكذا جميع المواد ستصير شعاعاً، ولكنه هو أسرع منها، وما المسك ورائحته العبقة الزكية إلاّ كالراديوم ينحل إلى ما هو ألطف فيصير رائحة، وهذه تنحل إلى ما هو ألطف فتصير ضوءاً، والضوء يرجع إلى الأثير، والأثير هو الأصل الذي فرضوه أرقّ من الهواء ومن الحرارة ومن الضوء. هذا هو المبحث الذي يدور فيه بحث العلماء الآن، فإذا كان الجرام الواحد وذراته في الأرض وفي السماء قد حوى كل هذه العجائب والقوى وانحلّ فصار

حركات وحرارات وأضواء، تفنى أمم الأرض بأسرها وتحمل أثقالهم وتوسع ثرواتهم، فكيف يتسنى للناس أن يعرفوا جميع العجائب، وأنى لهم ذلك؟ فإذا قال الله هنا: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا ﴾[يوسف: ١٠٥] الخ، فإن المباحث في العجائب لا آخر لها ولا قوة لمخلوق على استقصائها. وخير ما أقول في هذا المقام قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[لقمان: ٢٧]، فهذا هو التعبير العام في أمر العجائب ولا مطمع في استقصائه، هذا ما ينبغي في هذا المقام.

بيان تقصير المسلمين في هذه السورة

أفليست هذه الآية ناطقة بأن آيات السماوات والأرض التي لا تتناهى، والعجائب التي لا حصر لها، من آيات الله.

جاء في أول السورة: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾، وفي آخرها آيات الأرض والسماوات، وقد ذمّ الله المعرضين عن الآيتين، فإذا حللنا الآيات في سورة «يوسف» وعرفنا معانيها وحللنا ألفاظها واستفدنا فوائدها، فبالأحرى نحلل آيات الأرض والسماوات، ونستجلي فوائدها ونستخرج حكمها هذا هو الذي جاء له القرآن، فبأيّ حق يقتصر المسلمون على جزء من ٣٦ من القرآن، وهي الآيات المختصة بعلم الفقه، ويذرون بقية القرآن كقصص الأنبياء وعجائب الكون والأخلاق، فلا يؤلفون فيها استنتاجاً وتعليماً كما ألفوا في كتب الفقه، وكيف يتركون بقية آيات الله التي هي آيات الأرض والسماوات، أفليس هذا هو القرآن، أفليس هذا كلام الله؟ والله هو الذي خلق السماوات والأرض، وأنزل القرآن، وطلب في سورة «يوسف» قراءة آيات السماوات والأرض، فبأيّ حق ساغ للمسلمين أن يناموا ويسبقهم الفرنجة إلى آيات الله. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ ﴾ من الذلة والانتكاس ﴿ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[الرعد: ١١] من الوسواس والوقوف عند الحواس، إن هذه الآية الكريمة بيت القصيد في سورة «يوسف» ومحك العقول ومهبط الحكمة، فإذا قال يوسف بعد أن حظي بما كان يتمناه: يا فاطر السماوات والأرض، ملتجئاً إليه، مشيراً إلى منهج الأنبياء والعلماء من المقصد العلوي والمنهج الحكمي في العلم ومعرفة حقائق الكون وأن ذلك هو نهاية المطالب وحقيقة الحقائق، فقد خاطب الله نبينا ووضح له الأمر إيضاحاً وشرحه شرحاً وافياً، فذمّ قوماً أعرضوا عما ذرأ في الأرض والسماوات.

والحق أن كل قصص وكل علم فإنّما هي مقدمات للمقاصد العليا من علوم العوالم العلوية والسفلية، والله يهدي من يشاء.

تمَّ تفسير سورة «يوسف» عليه السلام.

سورة الرعد هي مدنية
وقيل مكية إلَّا قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ الآية
وهي خمس وأربعون آية

هذه السورة قسمان:

القسم الأول: من أول السورة إلى قوله: ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾[الآية: ١٧] في العلوم الطبيعية وعلم التوحيد.

القسم الثاني: في الأخلاق والثواب والعقاب، من قوله تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الآية: ١٨] إلى آخر السورة.

القسم الأول

﴿ الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ

ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾

في هذا القسم علم الشمس والقمر والأرض والجبال والأنهار والأشجار والأزهار والنخيل والأعناب، واختلاف الثمرات، وتنوع الحاصلات، مع اتفاق العناصر والأنوار والهواء والماء، وعلم الأجنة في البطون، واختصاصها بعلمه المكنون، واستواء السر والعلن عند الله، ونظام البرق والسحاب والرعد في الجو، وسجود العالم لله طوعاً وكرهاً، وظلالهم غدواً وعشياً، وكيف كان الحق يخفى أمداً طويلاً، ويغشيه الباطل، ويحجبه عن الناظرين، ثم يتجلى سناه ويظهر في الخافقين منفعته، وذلك كما في المطر إذا سقى الأرض فامتلأ الوادي به امتلاء وغطاه الزبد ثم زال الغطاء وبقي المكان، فكان للزرع نماء ولصاحبه ثراء، هكذا كان العلم والدين.

تفسير الكلمات تفسيراً لفظياً

قال تعالى: ﴿عَمَدٍ﴾ أساطين ﴿تَرَوْنَهَا﴾ صفة عمد، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ الخ، تقدم بإيضاح في سورة «هود» وسورة «يونس»، فالله استولى على ملكه ونفذ فيه أمره. ﴿رَوَٰسِيَ﴾ جبالاً ثوابت، من: رسا الشيء، إذا ثبت، جمع راسية، ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ جعلت بعدها لأنها منها تنشأ ﴿زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ جعل فيها من كل أصناف الثمرات زوجين اثنين ذكراً وأنثى في أزهارها عند تكونها، فقد أظهر الكشف الحديث أن كل شجر وزرع لا يتولد ثمره وحبه إلاّ من بين اثنين ذكر وأنثى، فعضو الذكر قد يكون من عضو الأنثى في شجرة واحدة كأغلب الأشجار، وقد يكون عضو الذكر في شجرة والآخر في شجرة أخرى كالنخل، وما كان العضوان فيه في شجرة واحدة إما أن يكونا معاً في زهرة واحدة وإما أن يكون كل منهما في زهرة واحدة، والثاني كالقرع، والأول كشجر القطن، فإن عضو التذكير مع عضو التأنيث في زهرة واحدة، وسيأتي تفصيل هذا المقام في

سورة « الحجر » . ﴿ يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ ﴾ يلبس النهار ظلمة الليل فيصير الجو مظلماً بعد ما كان مضيئاً ، فكأنه وضع عليه لباساً من الظلمة . ﴿ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ ﴾ بعضها طيبة وبعضها سبخة وبعضها رخوة وبعضها صلبة وبعضها تصلح للزرع وأخرى لا تصلح وهكذا . ﴿صِنۡوَانٌ﴾ نخلات أصلها واحد ﴿ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٍ ﴾ متفرقات مختلفات الأصول ، ﴿ فِى ٱلۡأُكُلِ ﴾ في الثمر شكلاً وقدراً ورائحة وطعماً وخواص . ﴿ فَعَجَبٌ قَوۡلُهُمۡ ﴾ حقيق بأن تتعجب منه ﴿ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا ﴾ الخ بدل من « قولهم » ، ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِىٓ أَعۡنَاقِهِمۡ ﴾ مقيدون بالضلالة لا يرجى خلاصهم . ﴿ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ ﴾ بالعقوبة قبل العافية إذ كان كفار مكة يطلبون العقوبة استهزاء إذ يقولون : ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[الأنفال : ٣٢] ، ﴿ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُ ﴾ عقوبات الأمم أمثالهم من المكذبين ، أي : وقد مضت من قبلهم في الأمم المكذبة العقوبات بسبب تكذيبهم رسلهم ، و« المثلة » ـ بفتح الميم وضم الثاء وفتحها ـ نقمة تنزل بالإنسان فيجعل مثلاً ليرتدع به غيره ، وجمعه مثلات ـ بفتح الميم وضمها مع الثاء فيهما ـ ، ﴿ لَذُو مَغۡفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡ ﴾ تجاوز عن المشركين منهم إذا آمنوا ، ﴿ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ للمصرّين . ﴿ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ﴾ كعصى موسى وناقة صالح « لولا » أي : هلا . ﴿ مُنذِرٌ ﴾ أي : ليس عليك إلاّ الإنذار والتخويف والنصح متى ثبت أنك نبي بأيّ آية فقد كفى ، وأما اتباع اقتراحهم كأن تفجر لهم من الأرض ينبوعاً أو تسقط السماء كسفاً فذلك ليس عليك ، ﴿ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ﴾ قائد يقودهم إلى الخير جبله الله عليه باستعداده كالأنبياء والحكماء والمجتهدين والصالحين ، وأنت هاد لهؤلاء .

ولما كانت الآيات المقترحات لا تصلح الأمم وفوائدها وقتية وفوائد العوالم كلها ونظامها ودراستها تورث اليقين ، أعقبه بآيات نظام الكائنات فقال : ﴿ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ ﴾ يعلم الذي تحمله الأنثى أذكر هو أم أنثى ، وحسن هو أم قبيح ، وطويل أم قصير ، وفقير أم غني ، وشقي أم سعيد ، ﴿ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُ ﴾ يقال : غاض الماء وغضته ، أي : نقص ونقصته ، وازداد الشيء وازددته ، المعنى : ويعلم الذي تنقصه الأرحام وتزداد . (١) من عدد الولد فقد يكون واحدا أو اثنين أو ثلاثة أو أربعة . (٢) ومن جسده ، وقد يكون تاماً ، وقد يكون ناقص الخلق وهو المخدج . (٣) ومن مدة الحمل ، فقد تكون أقل من تسعة أشهر ، وقد تكون أكثر ، فتكون سنتين وأربعاً وخمساً ، الأول عند أبي حنيفة والثاني عند الشافعي والثالث عند مالك ، وقد تكون أكثر من ذلك كما ظهر في الكشف الحديث . (٤) ومن دم الحيض ، فإذا حاضت المرأة نقص غذاء الولد لأن الدم هو الذي يغذيه ، وإذا لم تحض يتم الولد ولا ينقص ، فقوله : ﴿ تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُ ﴾ أي : في عدد الولد وفي جسد الولد وفي مدة الحمل وفي دم الحيض زمن الحمل ، ﴿ وَكُلُّ شَىۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴾ أي : كل شيء في السماء والأرض له وقت معين وحال معينة ، فلا فرق بين شيء وشيء حتى نقص الولد والجسد ومدة الحمل والدم وتمام ذلك كله ، فليس هذا بالمصادفة العمياء بل هو بقدر . ﴿ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ﴾ العظيم الشأن المستعلي على كل شيء بقدرته . ﴿ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفٍۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾ طالب للخفاء في مخبأ بالليل وبارز بالنهار يراه كل واحد ، من سرب سروباً : برز ، أو ذاهب في سربه ظاهر ، والسرب بوزن النصر : الطريق ، ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾ معقبات : جماعات يعقب

بعضها بعضاً ، من عقبه إذا جاء على عقبه ، ومنهم الملائكة لأنهم يعقب بعضهم بعضاً في حفظه وفي كتابة أقواله وأفعاله ، فهؤلاء وغيرهم يكونون من جميع جوانبه يحفظونه من المضار ويراقبون أحواله ، وهؤلاء المعقبات أنفسها من أمر الله لأنها حصلت بكلمة « كن » ، أو هي تحفظ من أمر الله كالمهلكات والممرضات العامة في الكون ، فهذه من أمر الله فالحفظ منها حفظ من أمر الله تعالى وسيأتي إيضاحه ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ ﴾ من العافية والنعمة والعز والاستقلال ﴿ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ من العلم والكمال والإخلاص والأخلاق الجميلة ﴿ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ من دون الله من وال يلي أمرهم فيدفع عنهم السوء ، وهذا المعنى قد تقدم الكلام عليه مطولاً في سورة « الأنفال » . ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ « البرق » : لمعان يظهر من خلال السحاب ، يريه الله لنا للإخافة والإطماع فهو يشبه النعم والنقم ، نخاف من الصواعق ، ويخاف من المطر المسافر ، ومن في جرينه ، أي : بيدره ، وفيه التمر أو الزبيب أو القمح ، وكذلك نخاف من المطر إذا نزل في غير مكانه أو زمانه ، ﴿ وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴾ أي : بالمطر ، يقال : أنشأ الله السحاب فنشأت ، والسحاب : جمع سحابة ، وهو الغيم المنسحب في الهواء ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ أي : يسبح سامعوه من العباد الراجين للمطر ، فيصيحون بسبحان الله والحمد لله ، أي : يسبحون متلبسين بحمد الله ؛ أو الرعد نفسه يدل على وحدانية الله وتنزيهه متلبساً بالدلالة على فضله ونزول رحمته ، ﴿ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ ﴾ أي : الله ، ﴿ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ ﴾ الصاعقة : نار تسقط من السماء ، ﴿ وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ ﴾ أي : الذين كذبوا رسول الله يجادلون في الله أو ينكرون على النبي وما يصفه به من القدرة على البعث ، وينكرون الوحدانية باتخاذ الشركاء ، وذلك بالمغالبة والمنازعة في الخصومات ، وهذه الجملة حالية .

روي أن عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة أخا لبيد وفدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قاصدين قتله ، فأخذه عامر بالمجادلة ، ودار أربد من خلفه ليضربه بالسيف ، فتنبه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : اللهم اكفنيهما بما شئت ، فأرسل الله على أربد صاعقة فقتلته ، ورمى عامراً بغدة فمات في بيت سلولية ، وكان يقول : غدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية .

وقوله : ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾ أي : المماحلة والمكايدة لأعدائه ، يقال : محل فلان بفلان ، إذا كايده وعرّضه للهلاك ، ومنه : تمحّل ، إذا تكلف في استعمال الحيلة ، ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ﴾ أي : الدعوة المجابة ، فإن من دعاه أجاب ، أو دعوة الصدق والتوحيد ، وهي : شهادة أن لا إله إلاّ الله ، ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ أي : والأصنام الذين يدعوهم المشركين ﴿ مِن دُونِهِۦ ﴾ أي : من دون الله ﴿ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ ﴾ لا يجيبونهم بشيء يريدونه من جلب نفع أو دفع ضر ﴿ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ ﴾ أي : إلاّ استجابة الماء لمن بسط كفيه إليه يطلب منه أن يبلغ فاه ، والماء جماد لا شعور له ببسط الكفين ولا قبضهما ، فكيف يجيب دعاءه؟ هكذا أصنامهم يدعونها فلا تحير جواباً ، ﴿ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴾ في ضياع لا منفعة فيه ، فإن دعوا الله لم يجبهم ، وإن دعوا الأصنام لم تستطع إجابتهم . ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ أي : يسجد الملائكة والمؤمنون من الثقلين طوعاً في الشدة والرخاء ، والكفرة كرهاً في حال الشدة ، كما مرّ في آيات كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء : ٦٧] ، وكذلك يسجد جميع ما

في السماوات والأرض سجود انقياد، ﴿ وَظِلَٰلُهُم ﴾ فإنها تنقاد تبعاً لانقياد الأجسام التي تشرق عليها الشمس فيصرفها الله بالمد والتقلص، وسيأتي شرحه، ﴿ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾ حال من الظلال لظهور الامتداد والتقلص فيها أكثر في هذين الوقتين، و«الغدو»: جمع غداة، و«الآصال»: جمع أصيل، والغداة: أول النهار، والأصيل: ما بين العصر والمغرب، ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ خالقهما ومتولي أمورهما ﴿ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ أي: أبعد أن علمتموه رب السماوات والأرض اتخذتم من دونه آلهة ﴿ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ لا يستطيعون لأنفسهم أن ينفعوها أو يدفعوا ضرراً عنها، فكيف يستطيعون لغيرهم وقد آثرتموهم على موجد الأحياء مقدّر الآجال والأرزاق، وهذا ضلال بيّن، ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ الكافر والمؤمن، أو من لا يبصر شيئاً ومن لا يخفى عليه شيء ﴿ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ﴾ الشرك والتوحيد ﴿ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ﴾ بل أجعلوا، والهمزة للإنكار؛ ﴿ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ ﴾ أي: خلقوا مثل خلقه، والجملة صفة «شركاء»، فهم إذن لم يتخذوا لله شركاء قد خلقوا مثل خلق الله ﴿ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: فاشتبه عليهم مخلوق الله بمخلوق الشركاء، أي: ليس الأمر ذلك حتى يشتبه عليهم الأمر، بل إذا تفكروا بعقولهم وجدوا الله تعالى هو المنفرد بخلق سائر الأشياء، والشركاء أنفسهم مخلوقون له أيضاً فلم يخلقوا شيئاً حتى يشتبه خلق الله بخلق الشركاء، فالحجة إذن قد لزمت المجادلين، ﴿ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ المتوحد بالألوهية الغالب على كل شيء، ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ من السحاب مطراً ﴿ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ ﴾ أنهار جمع واد، وهو الموضع الذي يسيل فيه الماء بكثرة، ثم استعمل في الماء الجاري فيه مجازاً، ﴿ بِقَدَرِهَا ﴾ بمقدارها على ما تقتضيه المصلحة، ﴿ فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا ﴾ الزبد ما يعلو على وجه الماء عند الزيادة كالحبب، وهكذا ما يعلو على القدر عند غليانها، والمعنى: فاحتمل السيل الذي حدث من ذلك الماء زبداً ﴿ رَّابِيًا ﴾ أي: عالياً مرتفعاً فوق الماء طافياً عليه، هذا مثل أول. المثل الثاني: أن الناس يطرحون الذهب والفضة وسائر الفلزات كالحديد والنحاس والرصاص في الحرارة النارية، فيكون منها زبد راب، كما أن الماء في الأودية يطفو عليه زبد، ويتخذ من الذهب والفضة الحلية، ومن الرصاص والحديد والنحاس وما أشبهها متاع، وهو ما يتمتع به الناس كالأواني من طبق وقدر وغيرها وما تحرث به الأرض أو يدفع به في الحرب أو غيرها، فهذه الفلزات يعلوها زبد وهي تذوب بحرارة النار كما يعلو الماء، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ﴾ فـ«زبد» مبتدأ، و«مما يوقدون» خبر، ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ﴾ فالحق هو الجوهر الصافي الثابت، والباطل هو الزبد الطافي الذي لا ينتفع به، ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ﴾ أي: ضائعاً باطلاً، والجفاء ما رمي به الوادي من الزبد إلى جوانبه، والجفاء أيضاً المتفرّق، والمعنى أن الباطل وإن علا في وقت فإنه يضمحل ويذهب، ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ ﴾ وهو الماء الصافي والجوهر الجيد من الأجسام التي تذوب وهي الفلزات كالذهب والحديد ﴿ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: يثبت ويبقى ولا يذهب ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ أي: ليوضح بها المشتبهات. انتهى التفسير اللفظي للقسم الأول من السورة.

اعلم أن الله لما ذكر في سورة «يوسف» تلك الدرّة اليتيمة والجوهرة البديعة ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾، وقد ذكرنا هناك أن هذه وأمثالها أهم مقاصد القرآن، فلعمر الله أن من عرف هذا الجمال وتغلغل في علم الطبيعة اعتلت نفسه أفق الفضائل وعلا في أفق الجمال، واستوى إلى سماء الكمال، وارتقى فكره ونما عقله وعرف ربه ونفسه، وأيقن أن الخرافات التي يبتدعها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها لا قيمة لها، وأقبل على الله ونبذ البدع، فهذه الكائنات كلفنا بها لارتقاء عقولنا.

كان علماء الفلسفة قديماً يقولون: ليس يعرف الناس ربهم إلاّ إذا عرفوا علوم الرياضيات والطبيعيات، حتى إذا أتموها عرفوا ربهم، هكذا القرآن كتاب الله تعالى يكلف المسلمين أن يعرفوا ما في السماوات والأرض وألا يغفلوا عنها ابتغاء ارتقاء عقولهم وإكمال صناعاتهم، ومتى كملوا عقلاً وجسماً أدركوا خالقهم وعرفوا ما وراء الطبيعة.

أقول: لما كان هذا شأن العلوم الطبيعية وقد أشار لها فيما تقدم قبلاً، شرع في هذه السورة يفصل بعض تلك العجائب تفصيلاً، ويأمرنا أن نشرحها شرحاً طويلاً في هذا التفسير، بقول الله: ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٩] وبيان القرآن على أنحاء شتى، ومنه ما نحن بصدده، وأن الله عزّ وجلّ قد خلق وسيخلق أناساً يتكفلون ببيان العلوم الطبيعية لارتقاء العقول أولاً ثم معرفة الله.

فأما من ظن من المسلمين أنه متى زعم أنه عرف الله جاز له أن ينام على المهاد ويظل خائر القوى عديم النفع، فأولئك هم الكاسلون النائمون وكثير ما هم، ولقد ضلّ كثير من الصوفية بهذا القول، وهم لا يعلمون أن الله أوجب تقوية الجسم وتقوية العقل لمعرفة الله تعالى. فانظر كيف قال في هذه السورة: إني نظمت هذا العالم وفصلته شموساً، فدارت ثم دارت ثم دارت فانفصلت من الشموس سيارات، ومن السيارات أقمار، وكلها دائرات في مدارات، وأنتم على أرضكم هذه ترون ما فوقكم، وهي تلك العوالم المحيطة بكم الملونة بالزرقة الحاملة لتلك الشموس لا تقع عليكم لحفظها في أماكنها بنواميس عامة تسمونا الجاذبية ونحن أعلم بها، فنحن نمسك السماوات والأرض أن تزولا، وهذا الذي أحاط بكم وعلا فوقكم من جميع الجهات، وهو المسمى سماء فلا عمد به رفعناها، ولا قائمة بها ثبتناها، ولما أتممتها في مداراتها، ونظمتها على أفلاكها، كان ذلك استيلاء عليها وإقامة لأمرها وتمكناً منها، فاستويت على عرشها بالحفظ والتدبير، وأقمت قسطها بلا تقصير، ولها حساب معلوم ونظام مرسوم وقانون مكنون، فلا تجري شمس خارج مدارها ولا أقمار في غير شمسها، وجميعها تجري إلى أجل ضربته وموعد أثبته حين تبدّل الأرض غير الأرض والسماوات غير السماوات وتمزق كل ممزق، وترجع إلى عالم الهباء، ثم يدور عليها الدور، ويتم لها الأمر، وأنظمها من جديد، وأستوي على عرشها في عالم غير عالمكم، فأنا أدبر الأمر في العالم العلوي تدبيراً، وأفصل الآيات تفصيلاً، فلئن دبرت ملكي وأحكمت نظامه وأقمت بنيانه، لقد بينت ذلك في كتابي وفصلته في تبياني، نظمت الملك والملكوت وأوحيت به ورسمته في العقول، فالأفلاك منتظمة والعقول بعلومها مرتسمة، فليَ الخلق في الأول والأمر في الثاني، وإذا كان نظامي قضى أن تعرف العقول بعض ما دبرته، وتعقل بعض ما خلقته، فهل يكون ذلك عبثاً؟ كلا، بل إن العقول متى أدركت الجمال طلبت الجميل، ومتى

أحسنت بالحسن والبهاء والنظام الذي عرفه العلماء وفهمه الحكماء وأوحي إلى الأنبياء، طلبت الوصول إلى ذلك المقام وفرحت بالوصول إليه، وهذا قوله: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾[الرعد: ٢]، والإيقان هنا مسبب من ذلك الجمال المرسوم في العقول، فهل مثل هذا يخلق في عقولنا عبثاً.

ولما فرغ من عالم السماء وعلومه شرع يفصل ما على الأرض، فقال: بسطت الأرض وأوسعتها وثبتّ الأقدام عليها، وجعلت فيها الجبال الثوابت والأنهار الجارية من الجبال، وجعلت الثمار مختلفة الأصول عند ازدواجها، بحيث دبرت الذكور والإناث في العنب والتين والزيتون والنخل والزرع وسائر ما ينبت على الأرض، وليس يعرف هذا إلاّ من درسوا علم النبات دراسة واسعة، وجعلت الليل والنهار يتناوبان على تلك الثمرات والزروع وغيرها فيتم نظامها. فهذه دلائل للمتفكرين وحكم للعاقلين ونعمة للمؤمنين وقوة على الحياة للعاملين، ومن الأرض ما هي سبخة وطية ورخوة وصلبة، وفي الأرض حدائق غناء ومزارع وأصناف شتى، ففي ذلك تجول العقول فتفهم منها الفروع والأصول، وينظمون مدنهم كما يعرفون ربهم، ولعمري كيف يعرف الله أو يحبه من عمي عن منافع الثمرات وغفل عن هذه الآيات.

فلئن تعجب يا محمد من إنكارهم البعث فحقيق بأن تتعجب منه، فإن من قدر على إنشاء ما قصّ عليك كانت الإعادة أيسر شيء عليه، فإن هذا المبدأ الوطيد إذا لم يكن الميعاد فهو قليل الثمرة، إن أولئك مقيدون بالضلالة مخلدون في النار، هم يستهزئون ويقولون: أنزل بنا العذاب الذي أوعدتنا به، فلم يستعجلونك بالعقوبة؟ أوَما علموا كيف أهلكنا الأمم قبلهم وجعلنا ذلك مثلاً لهم ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ﴾ بالإمهال والستر كما أمهلنا هؤلاء لننظر ماذا يصنعون ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[الرعد: ٦] لهم إذا لم يؤمنوا وهم متمادون في الضلالة، وإذا كان ما في السماوات والأرض مما ذكرناه لم يكفهم في الدلالة على الله واليوم الآخر، فإنهم لا يؤمنون بغيره ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[إبراهيم: ٣٤] يمرّ على آيات الأرض والسماوات ولا تكفيه، ولا يؤمن بها لغفلته وبلاهته، ويتجاوزها فيقول: هل من آية كناقة صالح وعصا موسى وما أشبه ذلك، فدع قولهم ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾[الرعد: ٧] وأنت الهادي لهذه الأمة.

ولما ذكر السماوات وأتبعها بالزرع والشجر الذي لا يقوم إلاّ بضياء النيرات وحركات الأفلاك وصلاحية الأرض أتبعه بما هو المقصود في العالم الأرضي؛ وهو العالم الإنساني المنتفع بالثمرات وبالأضواء وبحركات الأفلاك، فأبان أنه تعالى يعلم ما تحمل الإناث من ذكور وإناث الخ، ثم أبان أن كل شيء عنده بمقدار، وهو عالم بما غاب وما شوهد وهو الكبير المتعال، يعلم ما يسرّ الناس وما يعلنون، وقد جعل لهم جماعات يحفظونهم من سائر العوالم المشاهدة والغائبة يكتبون أعمالهم وأحوالهم، وأن كل ما يتصفون به من الضعة والشرف، والخفض والرفع، تابع لما في النفوس من الصفات، كما يتبع الظل الشبح، فالأحوال الظاهرة شبح الأحوال الباطنة.

ولما شرح العالم النباتي والإنساني أتبعه بعالم الجو من البرق والسحاب والرعد والصواعق، وأخذ يذم الأصنام وتابعيها، ثم أتبع ذلك كله بجملة تشمل جميع ما تقدم في الأرض والسماء، إذ

أبان طاعة كل مخلوق في الأرض والسماء، فكلها ساجدة سجود تسخير، وهكذا ظلالها التابعات لها، وذلك يشمل السحاب والإنسان والنبات والأرض والسماوات، فهذه كلها ساجدات، وظلال المظلمات منها ساجدات بالغدو والآصال.

ثم ختم ذلك بأن من لم يفهم هذا فهو في عمى وضلال، ومن فهمه فهو على نور من ربه، وأتبعه بمثل أتمّ وأكمل وأبيَن، فذكر الأودية والماء والزبد والمعادن، ومثل للحق بصافيها، وللباطل بالزبد فوقها، والزبد ذاهب والجوهر باق. هذا ملخص هذه الآيات مع تبيان المناسبات وتناسق العبارات. وفي هذا القسم لطائف:

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾[الآية: ٢].

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾[الآية: ٢].

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ ﴾[الآية: ٤].

اللطيفة الرابعة: في قوله تعالى: ﴿ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ﴾[الآية: ٤].

اللطيفة الخامسة: في قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾[الآية: ٧].

اللطيفة السادسة: في قوله تعالى: ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾[الآية: ٨].

اللطيفة السابعة: في قوله تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾[الآية: ١١].

اللطيفة الثامنة: في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[الآية: ١١].

اللطيفة التاسعة: في البرق والسحاب والرعد.

اللطيفة العاشرة: في الصواعق.

اللطيفة الحادية عشرة: في الظلال.

اللطيفة الثانية عشرة: في قوله تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾[الآية: ١٧].

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى
﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾

وهذه تقدمت في سورة «البقرة»، وقد شرح هناك أمر السماوات وعددها ووجودها وما أشبه ذلك، ويكفي الذكي الاطلاع عليه، وهكذا ما تقدم في سورة «الأنعام» عند قصة الخليل عليه السلام وفي سورة «يونس» عند قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً ﴾[الآية: ٥] الخ، ولكن نذكر هنا جوهرتين:

الجوهرة الأولى

موازنة بين وصف العرب ووصف القرآن

من كتابي «مذكرات في أدبيات اللغة العربية» صفحة ٣٨

قال الحارث بن حلزة في معلقته يصف ناقته:

وإني إذا اشتد الخطب أستعين على إمضاء همي وقضاء وطري «إذا خفّ» أي: ذهب بالرجل المقيم بلا عمل «النجاء» أي الانكماش، بناقة سريعة كأنها نعامة طويلة الساقين ذات أولاد ملازمة

للدوّ؛ أي: الوادي الواسع؛ ذات خف محدوب، سمعت صوتاً خفيفاً فخافت على نفسها الصياد وقت العصر، وقد قرب المساء فتراها ترجع قوائمها وتوقعها على الأرض فيثور غبار دقيق كأنه الأهباء ـ أي ما يرى في شعاع الشمس النافذ من الكوّات ـ جمع كوّة وهي الطاقة، وترى أطباقاً من أخفافها خلفها أطباق أخرى سقطت من وعر الصحراء، فهذه الناقة أتلهى بالركوب عليها وقت الهجير من ألم يعييني وهمّ يلحقني إذ يكون كل ذي همّ كالناقة البلية أي العمياء التي ربطت على قبر صاحبها حتى تموت، وهذا معنى قوله:

غَيْرَ أَنِّي قَدْ أَسْتَعِينُ عَلَى الهَمْـ ـمِ إِذَا خَفَّ بِالثَّوِيِّ النَّجَاءُ
بِزَفُوفٍ كَأَنَّهَا هِقْلَةٌ أُمُّ رِئَالٍ دَوِّيَّةٌ سَقْفَاءُ
آنَسَتْ نَبْأَةً وأَفْزَعَهَا الـ ـقَنَّاصُ عَصْراً وقَدْ دَنَا الإِمْسَاءُ
فَتَرَى خَلْفَهَا مِنَ الرَّجْعِ والوَقْـ ـعِ مَنِيناً كَأَنَّهُ أَهْبَاءُ
وطِرَاقاً مِنْ خَلْفِهِنَّ طِرَاقٌ سَاقِطَاتٌ أَلْوَتْ بِهَا الصَّحْرَاءُ
أَتَلَهَّى بِهَا الهَوَاجِرَ إِذْ كُلْـ ـلُ ابْنِ هَمٍّ بَلِيَّةٌ عَمْيَاءُ

أقول: ولما كان القرآن لا يتنزل لمثل هذه الأوصاف وجب أن نذكر وصفاً ما كقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٢ ـ ٤].

فانظر كيف وصف الشاعر الناقة وسرعتها، وشبهها بالنعامة الخائفة من القانص، وذكر الغبار، وضعف خفّ الناقة.

ووصف الله في القرآن السماوات بلا عمد، والأرض، وتسخير الشمس والقمر وجريهما إلى انقضاء العالم، ثم ذكر تدبير العالم وتفصيل كل شيء، ثم استنتج لقاء الله المدبر لهذا العالم، ثم ذكر مدّ الأرض وأنهارها وثباتها بالجبال وما فيها من أنهار، وأبان كيف كانت قطع الأرض متجاورة ثم هي مختلفة، فمنها الحدائق الجميلة والجنات ذات الأعناب وذات المزارع والنخيل الذي نشأ من أصل واحد وغيره، وكيف سقيت كلها بماء واحد وفضل بعضها على بعض في الطعم واللون والذوق. اهـ.

الجوهرة الثانية

إشراق النفس، ببهجة السماء وجمالها من كتابي «سوانح الجوهري»

أذكر أني ليلة خرجت من القاهرة مساء لزيارة صديق، فجلست في حقله، وكان ذلك وقت الترويض، والظلام حالك والليل قد أرخى سدوله وأحاط ظلامه بكل حي، فنظرت السماء إذا هي ذات بهجة للناظرين، هي بحر من نور تتلألأ ثواقب الزهر في مائه، وتسطع شوارق الأنوار في أرجائه، خيّل لي أن نور جمال الكواكب قد ملأ الجو وأحاط بما حولي من العوالم، وتأملت نفسي والعوالم حولي إذ أنا في عالم عظيم كبير، أصغر كوكب في نظري قد يفوق الشمس حجماً ونوراً، والشمس

تفوق الأرض آلافاً مؤلفة، وهذه النجمة القطبية تبعد عنا خمسين سنة مقدرة بسير ضوئها مع أن الشمس يخترق نورها الآفاق في ٨ دقائق و١٨ ثانية، فكيف يكون مقدار ذلك الكوكب وكيف حال المجرة، وهي جميعها كواكب تضامّت في نظر الإنسان وأصبحت بالنسبة لنا ذرات تكاد تشبه اللبن، وكل واحدة من تلك الذرات شمس كشمسنا، عالم واسع وملك كبير، ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾[الإنسان: ٢٠]، فما الأرض ومن عليها، وما الدول والملوك والحروب والسياسات، وما الأرض إلاّ ذرة لا قيمة لها ولا وزن، فمن الناس ومن أمراؤهم وخزائنهم؟ ما أصغر الأرض وما أضعف الناس وما أوسع العالم وما أكبره!.

الله أكبر كبيراً، لقد صغرت في عيني هذه الدول والملوك وسياساتهم وممالكهم، وأيقنت أن هناك حالة لنفس الإنسان سينسى فيها الأرض وما عليها، والأحقاد لما يغشيه من العلم وما يوحى إليه من الحكمة، الناس يخضعون للجمال والقدرة والعلم، فأرباب الأموال وذوو النفوذ والجاه ذوو قدرة الأولى مالية، والثانية جاهية، وذوو الجمال يجذبون النفوس إليهم، وذوو العلم يتبعهم السامعون والفاهمون، فإذا زجّ بهم في بحر من نور العلم وأشرقت على قلوبهم شموس الحكمة واطلعوا على سعة العوالم ونظامها وجمالها، فبهرهم الجمال وأدهشهم العلم وغشي على أفئدتهم سعة تلك المخلوقات الهائلة، أنساهم ذلك ما كانوا فيه من العيش واللذة والألم، ولكن متى يخلص الإنسان من ذنوبه القواطع فيحاط بتلك الأنوار.

قال أرسطاطاليس: «إن هذه البهجة لا تدوم أكثر من لحظة»، وتبعه الإمام الغزالي في ذلك، وأكبرها ابن سينا في آخر الإشارات، وأتى فيها بمقامات تبلغ العشرين؛ أما أنا فأتخذ ما أجده منها دليلاً على جمال وبهاء سيصل إليه المرء بعد التجرد من عالم الطبيعة كما استنتجه الأقدمون من أحوال نفوسهم.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾

انظره في سورة «يونس» وسورة «هود».

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ ﴾

تقدم بعضه في سورة «البقرة»، ونكر هنا زيادة عليه فنقول:

يذكر الله في هذه السورة ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ ﴾[الآية: ٤] من جملة ما فصل فيها تبياناً لقوله في سورة «يوسف»: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[الآية: ١٠٥] الخ أفلا يعجب المسلمون كيف كانت عناية الله بالعجائب الأرضية والسماوية، فإنه لما أجملها في سورة «يوسف» فصلها في سورة «الرعد» ورمز إلى أغلب علم الطبيعة، وهل هذه العناية وجهت إلى الوضوء مثلاً وإلى البيع ونحوهما؟ كلا، فالعناية هنا أتمّ، ويا ليت شعري، ما هذا التقصور وما هذا القصير وما هذا الغرور، أمة هذا شأن كتابها في العناية بالعجائب الكونية، ثم هي تفصل القول تفصيلاً في فروض الوضوء والماء المستعمل وغيره، وتؤلف في هذا وتوسع الدائرة، حتى إذا وصلت إلى ما توجه إليه عناية الله في العوالم نكص الناس على أعقابهم، فلماذا؟ لم تسوّوا أيها المسلمون بين آية وآية، هل هذه الآيات ليست من القرآن؟ أراكم تقيسون الوجه طولاً وعرضاً في كتب الفقه لما سمعتم

قوله تعالى: ﴿ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ ﴾[المائدة:٦] الخ، وكذلك بينتم كل عضو وحدوده، وأحسنتم إحساناً عظيماً في هذا، ولكن هلا فعلتم ذلك وأمثاله في مسألة القطع المتجاورات، وكيف كان فعل الله فيها، وإذا كان هذا هو الذي سيكون في مستقبل الإسلام والأمة الإسلامية ستأخذ حظها من العلوم، فلأبيّن هذا المقام فأقول نقلاً من كتاب لي في الفلسفة ملخصاً: إن سطح الأرض جبال وبحار وبراري ومزارع.

والجبال أربعة أقسام:

القسم الأول: الجبال الصخرية كجبال تهامة، فما هي إلاَّ صخور صلدة وأحجار صلبة لا ينبت عليها إلاَّ يسير.

والقسم الثاني منها: جبال ذات نبات لأنها صخور رخوة وطين لين وتراب ورمل وحصيات ملس متلبدات ساف فوق ساف متماسكة الأجزاء كثيرة النبات والأشجار والحشائش، مثل جبال فلسطين وجبال لكام وطبرستان.

والقسم الثالث منها: جبال النار، فإنه يرى في أعاليها ليلاً ونهاراً دخان معتكر ساطع في الهواء مرتفع في الجو، وكان القدماء يعللون ذلك بأن في باطن الأرض كهوفاً ومغارات وأهوية حارة تجري إليها مياه كبريتية أو نفطية دهنية، فتكون مادة لها دائماً مثل التي بجزيرة «صقلية» وبجبل «زمهر» من خورستان. أما علماء العصر الحاضر فإنهم يقولون: إن الأرض كرة نارية وقشرتها لا تزيد عن قشرة البطيخة بالنسبة لكرة الأرض، وقد تقدم شرح ذلك في تفسير سورة «آل عمران».

والقسم الرابع: جبال ذات هواء لطيف يهبّ دائماً أو في بعض الأوقات، مثل جبل الثلج الذي بدمشق، والذي ببلاد «داور» من جبال «غور» وجبل «دماوند»، فهذه الجبال لما كان الثلج فوقها فإنه عند ذوبانه يتحلل إلى أجزاء بخارية لطيفة فيرتفع في الجو ويلطف الهواء.

الأنهار:

ثم إن الأنهار تتبع الجبال لأنها منها نشأتها وإلى البحار نهايتها، فمنها ما يجري من الشرق إلى الغرب كنهر «ماوند»، ومنها ما يجري من الغرب إلى الشرق كنهرين ببلاد «أذربيجان»، ومنها ما يجري من الجنوب إلى الشمال كنيل مصر، ومنها ما يجري من الشمال إلى الجنوب كدجلة.

وأما البحار: فإنها جميعها ملحة، وذلك لتلطف أبخرتها الجو وتختلط بالهواء وتتموج معه يميناً وشمالاً وشرقاً وغرباً فتدبغه وتملحه وتمنعه من التغير والفساد والتعفن، ولولا ذلك لمات الحيوان المستنشق للهواء دفعة، وأيضاً لولا الملح المستكنّ في الماء الممتزج به لصار الماء آسناً وتغير ومات الحيوان الذي فيه جملة واحدة، فتعجب من الملح كيف صار نعمة في البحر ونعمة في البر.

فأما البراري والقفار:

فإنها تدخل فيما سنذكره من خصائص الأماكن لأنها مناطق يتنازعها النبات والحيوان.

(١) الفيلة لا تتولد إلاَّ في جزائر البحار الجنوبية تحت مدار برج الحمل.

(٢) الزرافة لا تتولد إلاَّ في الحبشة.

(٣) السمور وغزال المسك والسنجاب لا تتولد إلاَّ في البراري والقفار.

(٤) الصقور والبزاة والنسور وأمثالها لا تفرخ إلاّ في رؤوس الجبال الشاهقة .
(٥) القطا والنعام لا تفرخ إلاّ في البراري والفلوات .
(٦) البط والطيطوي وأمثالهما لا تفرخ إلاّ على شطوط الأنهار .
(٧) العصافير والفواخت والقماري وأمثالها لا تفرخ إلاّ بين الأشجار والدحال والقرى والبساتين .

أماكن النبات :

(١) النخل والموز لا ينبتان إلاّ في البلاد الحارة والأرض اللينة .
(٢) الجوز واللوز والفستق والبندق وأمثالها لا تنبت إلاّ في البلاد الباردة .
(٣) الحلبة والدلب وأم غيلان لا تنبت إلاّ في البراري والقفار .
(٤) القصب والصفصاف لا ينبتان إلاّ على شطوط الأنهار .

المعادن :

(١) الذهب لا يتكون إلاّ في البراري الرملية والجبال الصخرية .
(٢) الفضة والنحاس والحديد والرصاص وأمثالها لا تكون إلاّ في الجبال والأحجار المختلطة بالتربة اللينة .
(٣) الكبريت لا يكون إلاّ في الأرض الندية والرطوبات الدهنية .
(٤) الجص والإسفيذاج لا يكونان إلاّ في الأراضي الرملية المختلطة بالجص .
(٥) الزاج والشبّ لا يتكونان إلاّ في التراب العفص .
(٦) الدرّ والمرجان لا يتكونان إلاّ في البحار في أحوال خاصة .

عجائب هذه الدنيا

فانظر كيف رأيت الجبل فوقه النسر والباز والصقر والثلج والنار ، ورأيت في باطنه ماء وزئبقاً ورصاصاً وحديداً وذهباً وفضة ، وفيه عيون نابعات وقير ونفط وملح وكبريت ، ثم إذا نزلت من الجبل رأيت القطا والنعام في الفلوات والبط على شط النهر ، والعصفور في المرج والنخل والموز في الأرض الحارة ، والجوز في الباردة ، والحلبة في القفر والقصب على الماء .

فانظر للعجب العجاب في هذه الأرض التي نحن راحلون عنها إلى عالم أعلى منها كيف جملت وحسنت وظهرت وبهرت وازينت للناظرين ، فما أجمل أرضنا وما أبهج حسنها وما أعظم شكلها وما أبدع إتقانها . هذا هو الذي يكون أمثاله في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ ﴾ الخ .

حكايات عجيبة

في أيام تأليف هذا التفسير وردت حكايات عن نباتات عجيبة في الجرائد والمجلات العلمية ، فرأيت أن أذكرها هنا تفكهة وتبصرة لمناسبة هذه الآية إذ جاء فيها ﴿ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ ﴾ الخ .

الحكاية الأولى : الضوء من الأشجار

تمكن عالم فرنسي من كشف طريقة استخراج الضوء من نفس الأشجار ، إذ وصل لوحاً نحاسياً مدفوناً في الأرض بآخر ربطه في الشجرة بجهاز « جلفانومتر » وهو جهاز يقيس التيارات الكهربائية الصغيرة ، ثم زاد القوة بجمع ثلاثة أشجار ، ثم أوصلها إلى عشرين شجرة ، ثم لوحين

نحاسيين في الأرض وبينهما ستة أقدام، وتمكن بواسطة التيار الكهربائي الذي حصل عليه من إضاءة لمبة كهربائية صغيرة، وهذه المسألة الآن تحت التجربة. انتهت الحكاية الأولى.

الحكاية الثانية: النبات المضحك

لقد كنا نقرأ في أسفار السندباد البحري من الأساطير ما نظنه لا حقيقة له، كقوم رآهم في إحدى سفراته في جزيرة، وكان معه أصحابه فأطعموهم طعاماً نباتياً، فغير أخلاقهم وجعلهم شرهين على الطعام، وزالت قواهم العقلية وأخذوا يسمنون بسرعة، وأعدهم القوم للذبح كأنهم غنم، أما هو فإنه سلم بمرضه وضعفه فهرب إلى بلدان أخرى.

وما كنا نعلم ما جاء اليوم في الجرائد يوم ٢ أكتوبر سنة ١٩٢٤، إذ وصف أحد علماء الطبيعة لجمعية علمية بعد رجوعه من بلاد العرب نباتاً غريباً سماه «الضاحك»، وإنما سماه كذلك لأن كل من أكل من بذره يستمر مدة قصيرة في الضحك المفرط، وينتهي أخيراً بنوبة عصبية، والوطنيون هناك ينشفون أوراقه ويسحقون بذوره ويحفظون المسحوق للوقت المناسب فيقدمونه للذين يكرهونهم، وإذا ضوعف المقدار المأخوذ تؤدي النتيجة حتماً إلى الجنون، فيسقط الإنسان بعد تعاطي المقدار في نوم عميق وقد أضاع ذاكرته وتبدلت عاداته. انتهت الحكاية الثانية.

الحكاية الثالثة: زيت يستخرج من الجراد

ذكرناه في هذا المقام لأنه شارك النبات في إعطاء الزيت. جاء في المجلات والجرائد أن بلاد جنوب أفريقيا مصابة بالجراد الذي يأكل مزارعها، كما أصيبت مصر بدودة القطن، لكن الجراد وجدوا فيه زيتاً عجيباً به تدار آلات الطيارات؛ تلك البلاد تصدر الآن مقادير كبيرة لهذا الغرض.

وتقول جريدة أخبار مديري السكك الحديدية التي تصدر في «جوهانسبرج» بجنوب أفريقيا: إن ثمانية وثمانين بالة من الجراد تزن تقريباً ثمان عشرة «طونولاته» صدرت أخيراً من «كازين» إلى دربان لشحنها إلى هولاندا، وهذه المقادير من الجراد تستعمل بصفة طعام للدواجن وغيرها من الحيوانات المنزلية الأليفة بعد أن يستخرج منها زيت تدار به آلات الطيارات، وقد أذيع أن لهذا الزيت خواص نافعة جداً وأنه يبقى في أعلى طبقات الجو سائلاً كما هو على سطح الأرض. هذا ما جاء في الجرائد يوم ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٢٤ أثبته هنا، فهل يعلم المسلمون ذلك؟.

أفلا يعلم المسلمون أن هذه النعم خلقت لنا وللفرنجة معاً؟ أوَلا يعلم المسلمون أن الله ادخر الجراد وخزن فيه الزيت، ولما خلق الطيارات أفهم العقول أن زيت الحيوان الطائر يناسب الطيارات، فهو يمتاز عن زيت النبات لأنه مخلوق في طائر فليكن في الطيارات.

أليس هذا قوله تعالى فيما سيأتي: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾[الرعد: ٨]، فمن الأشياء هذا الزيت النافع للطيارات، ولم يعلمه الناس قبل الآن، لا بخلاً من الله ولكنه أبقاه لينتفع به الذين يرتفعون بالطيارات ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[الحجر: ٢١] وهلا يرى المسلمون أن ظهور عجائب القرآن في هذا التفسير وفي غيره بوضوح قد جاء مناسباً للزمن، وأن ظهور ذلك بهذا الوضوح قبل الآن لم يكن مناسباً للزمن، وأن الله خزن علوم القرآن كما خزن الزيت في الجراد، حتى إذا جاء أجله أبرزه. أوَليس لهذا القول حظ من قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾[يونس: ٣٩].

أفليس هذا بعض ما يؤول إليه القرآن من انكشاف حقائقه؟ أوَليس ظهور هذه العلوم في القرآن اليوم مناسباً للمسلمين المتعطشين للعلم كما ظهر الزيت لرجال الطيارات المتعطشين للطيارات، فليقرأ المسلمون العلوم فكفى جهلاً وخزياً وعاراً وشناراً وبعداً عن الله رب العالمين.

جوهرة مضيئة في

في قوله تعالى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ ﴾[الآية: ٤]

وفي قوله تعالى: ﴿ وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴾[الآية: ١٢]

وفي قوله تعالى: ﴿ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾[الآية: ٣]

اعلم أن الأجسام كلها لا تخلو؛ إما مضيئة وهي: ما يصدر عنها النور كالشمس والنار، وإما مظلمة وهي: ما لا يصدر عنه نور؛ بل ينعكس عنه نور غيره إذا وقع عليه، وهذه لا ترى إلاّ بنور مكتسب من غيرها كالقمر والحجر، ثم الأجسام من حيث نفوذ النور منها إما شفافة، أو شبيهة بالشفافة، أو ظليلة.

فالشفافة ما تعيق النور قليلاً عن سيره كالزجاج، فترى الأشباح من ورائه. والشبيهة بالشفافة هي التي تعيق النور كثيراً عن نفوذه كالورق المزيت ونحوه فلا نرى الأشباح من ورائها. والظليلة هي التي لا ينفذها النور كالحجر ونحوه وتلقي ظلاً كثيفاً على الأرض. وعلى ذلك نرى أن الهواء أشبه بالزجاج فهو شفاف، وهذا الماء واليابسة كالقارات أشبه بالظليل؛ ثم إن انعكاس الأنوار، أي: رجوعها عن الأجسام بعد وقوعها عليها من جسم منير على نوعين: نوع يسمى النور المستطير، إذا كان الجسم الذي قع عليه النور خشن السطوح، فإذن تتفرق الأشعة منه إلى كل مكان فيرى من كل جهة، ونوع يسمى النور المنعكس إذا وقع على سطح أملس صقيل فتندفع أشعة النور عنه إلى جهة واحدة أو إلى جهات معينة فلا نرى الأشباح منه إلاّ إذا وقفنا في تلك الجهات المعينة. ومثال الأول الجبال والأودية والمنازل فهذه نراها بالنور المنعكس من كل مكان، أي: نرى نفس الجبال الخ، ومثال الثاني المرآة مثلاً فإننا لا نراها وإنَّما نرى الصور التي ظهرت فيها، وإنَّما لا نراها لأنها صقيلة فنحن نرى المنزل ولا نرى المرآة الصقيلة، وإنَّما نرى ما فيها من الصور ولا نراها هي إلاّ إذا قلت صقالتها، ويكون ذلك بالنور المنتشر.

إذا علمت هذا فتعجب من العالم الذي نعيش فيه وابتهج بما ستسمع من حكمة وما ترى من جمال في العالم الذي خلقك الله فيه.

انظر أرضنا ففيها الأجسام الظليلة كالجبال، والأجسام الشفافة كالماء، ومثل الهواء، وكما نرى الهواء والماء ينفذ النور من خلالهما نرى الأحجار ظليلة؛ فالمباني مثلاً نورها مستطير، والبحار العظيمة إذا قرأنا العلوم الفلكية عرفنا أن نورها من نوع المنعكس، أي: إن النور منعكس عنها كما ينعكس عن المرآة.

إن للأرض نوراً منعكساً على القمر، إن الأرض قمر للقمر تلقي عليه نوراً إذا لم تضئه الشمس، يساوي النور الواصل منه إلى الأرض نحو ١٤ مرة، إذن البحار مرآة الأرض.

ألا ترى أن الماء أشبه بالزجاجة ووراءه من قاعه أرض يابسة ، فهو إذن يعكس النور كما تعكسه المرآة ، فالهواء زجاج والبحر مرآة واليابسة ظليلة ، وإذا أوقدنا ناراً على الأرض كان عندنا إذن الجسم المضيء . ضع شمعة متقدة وأمامها حائط ومرآة ولوح زجاج ، الشمعة كالشمس والحائط كاليابسة والبحر كالمرآة والهواء مثل لوح الزجاج .

نحن نعيش في وسط كامل مضيء ومستضيء وشفاف وعاكس لضوء منتشر وعاكس لضوء منعكس ، إن العالم الذي نعيش فيه جميل ، نور مشرق وأجسام لطيفة شفافة وأجسام أخرى مختلفة ، إن الله جعل هذه الأرض قطعاً متجاورات ليتم الانتفاع بها ، هل لك إذن أن أريك جمال تلك القطع المتجاورات أبين من هذا .

فصل في الفحم الحجري وفي البلور الصخري وفي الزجاج

الفحم الحجري

إن الفحم الحجري يستخرج من باطن الأرض ، كان قديماً غابات عظيمة غطت سطح الأرض قبل خلق الإنسان ، ثم دفنت وضغطت عليها طبقات أرضية فوقها .

وأكثرها كانت من نباتات خفية الزهر كأنواع السرخس التي كانت في ذلك الزمان مكونة لأشجار عظيمة .

وهذا شكل أوراق بعض الأنواع التي تكوّن عنها الفحم الحجري (شكل ١) .



وأنواع الفحم الحجري كثيرة الاستعمال ، فيها قوام كثير من الصنائع ، ولو فقد النوع الإنساني الفحم دفعة واحدة لاختل نظام الهيئة الاجتماعية اختلالاً تاماً ، ولقد ذكرت لك في أول سورة الأنعام أنواع الفحم ، وكيف استخرج الناس منه غازاً به تضاء الشوارع في المدن ، وهكذا أصباغ كثيرة تعدّ بالمئات ، ويفحم المعوجات أيضاً نور الكهرباء .

فيا عجباً هذا هو الفحم وهو في بعض قطع الأرض المذكورة في الآية . ومن هذا الفحم المظلم اشتقت الأنوار وانبعثت عنه كما انبعثت عن الشمس .

إن نور الشمس قد خزن في الفحم والناس يستخرجونه الآن بالطرق الصناعية ، فإذا رأينا شمسنا تضيء لنا من السماء فهاهي مخازن أنوارها حاصلة في الفحم الغائر في الأرض على بعد عظيم .

الفحم جسم ظليل معتم لا ينفذ النور منه ، وبالعمل فيه يصبح جسماً مضيئاً ، فهو جسم أرضي على حاله ، وبالعمل فيه يصير جسماً مضيئاً ، إن في الفحم الضدين : الظلمة والنور ، والماس الذي تكوّن منه جسم شفاف ، فقد جمعت مادة الفحم نور الشمس وكثافة الأرض وشفافية الهواء ، وإذا

وضع وراء قطعة من الماس جسم ظليل انعكس النور عنه فكان كالمرآة، هذه الدنيا عجب وكلها جمال وبهجة وحكمة وسعادة للمفكرين العاقلين، هذا هو وضع العالم الذي نعيش فيه. انظر ماذا ترى فيما بعده وهو:

البلور الصخري

اعلم أن من القطع المتجاورات في الأرض «الكورس» وهو المسمى عند العامة «الزلط والحصى»، والرمل منه فهو كورس على هيئة حبوب صغيرة، ويدخل في أعمال الزجاج والبلور، ومن أنواعه الصوّان وشظف البنادق.

ومنه نوع هو المقصود في هذا المقام يسمى «البلور الصخري» هو كورس عديم اللون شفاف منظره كالبلور متبلور بلورات منشورية مسدسة منتهية بهرمين كما في الشكل الآتي (شكل ٢).

وهذا النوع موجود في جبل الطور، وقد يكون متلوناً بأجسام مختلفة تشبه بعض الأحجار الكريمة وتسمى بأسمائها، فمنه «الكركهان» الملون بالنفسجية و«ياقوت بوهيم» وهو كورس وردي لطيف المنظر نادر جداً، و«الياقوت الأصفر الهندي» وهو كورس أصفر هندي.

انظر هذا النوع من الكورس وتأمل كيف كان مسدساً هرمياً. وتعجب كيف رأينا التسديس في بيوت النحل، وفي نظام الثلج، كما تراه مرسوماً في سورة «آل عمران»، وستراه قريباً، وهكذا هنا تسديس متقن وجمال باهر، ثم كيف ترى أن بعض القطع من الأرض كالطور برز فيها ما يشبه الأحجار الثمينة جمالاً وبهجة، وقد خرج عن حال الظلمة إلى حال الجسم الشفاف فكان كالماء وكالهواء ليفتح للناس باب العمل واستخراج الزجاج.

(شكل ٢)

الكلام على الزجاج

إننا نعيش في عالم عجيب، نظرنا فرأينا ماء شفافاً وهواء شفافاً. نحن محتاجون إلى الأجسام الشفافة لماذا؟ لنجعلها في نوافذنا فتمنع عنا الغبار والهواء وتدخل الضوء، والهواء والماء ليسا جامدين حتى نفعل بهما ذلك، والثلج في البلاد الباردة يذوب من حرارة الشمس فسلطانه في البرد، فماذا نفعل إذن؟ وأيضاً نحن في حاجة إلى أجسام زجاجية تكبر لنا الصغير عند الحاجة، وتقرّب البعيد، فبالأولى نريد أن نعرف خفايا النبات، ونكشف خبايا الأجسام فنرقي الطب والصناعات، وبالثانية نعرف الأجرام السماوية وندرس جبالها وأنهارها، ولا يكون ذلك كله إلاّ بالأجسام الشفافة، هكذا نحن في حاجة إلى ما يقوّي أبصارنا على عملها إذا ضعفت، ويكبر الحروف لنقرأها، كل ذلك يحتاج إلى جسم شفاف صلب لا سائل كالماء، ولا غاز كالهواء، لهذا خلق الله هذا البلور الصخري وكأنه يقول

أي عبادي انظروا إلى المادة الأرضية المعتمة، هاهو ذا البلور الصخري جسم شفاف، فهأنا ذا فتحت لكم الباب فادخلوه.

تاريخ الزجاج

قال المرحوم أستاذنا في هذا العلم أحمد أفندي عبد العزيز ما ملخصه:

إنه قبل الميلاد بنحو ثلاثة آلاف سنة كانت صناعته في مصر وفي فينيقيا متقدمة متقنة جداً، والمصريون هم الذين علموا اليونان والرومان صناعة الزجاج، والطريقة عند القدماء هي نفس الطريقة الحالية، والرومانيون نبغوا فيه.

وفي القرن الخامس حينما أغار البربر على الرومانيين ـ المراد بالبربر هم آباء الأوروبيين الحاليين ـ اضمحلت هذه الصناعة ومكثت أوروبا زماناً طويلاً لا تتقن هذه الصناعة، وكانت مزهرة في الشرق، ثم إن أهل البندقية تعلموها ومنهم انتشرت في أوروبا الحديثة.

الزجاج وكيف يصنع

الزجاج مادة شفافة قابلة للكسر، ومنه ألواح الشبابيك المعروف منفعتها، ومنه المرايا التي يسهل بها الاعتناء بالنظافة، وهي ألواح من الزجاج مغطى أحد سطحيها بطبقة من القصدير أو الفضة، وكالأواني الكثيرة الاستعمال والعدسات والأنابيب، ولولا هذه وما قبلها لم يصل علم الكيمياء والطبيعة والفلك والتاريخ الطبيعي وغيرها إلى حال التقدم والصلاح.

تحضير الزجاج

الزجاج يحضر من الرمل والجير، أو الطباشير والصودا أو البوتاسا، تمتزج المواد التي يجهز منها جيداً وتسخن فتصهر بتأثير الحرارة وتستحيل إلى عجينة يعطى لها الشكل المطلوب.

البللور

هو زجاج استبدل فيه الجير أو الطباشير بأوكسيد الرصاص، ويستعمل في تحضيره رمل أبيض، هذا قبس من نور قوله تعالى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ ﴾، هذه هي القطع المتجاورات أيها المسلمون، فقطعة فيها الفحم الذي يضيء منازلكم وشوارعكم ويولد الكهرباء، وقطعة فيها رمل، وأخرى فيها جير أو طباشير، وقد تقدم في سورة «آل عمران» كيف كان الطباشير متراكماً من حيوانات دقيقة لا تعدّ فأصبحنا نكتب به على السبورات لتعليم الأطفال، وقطعة فيها الصودا وأخرى فيها البوتاسا، هذه القطع منها أخذنا هذه المواد وصنعنا الزجاج فتعلمنا علوم السماء وعلوم الأرض وارتقينا، ولكن الذي عرف ذلك في زماننا غير المسلمين.

إن المسلمين يحتاجون لجيل واحد يتعلم ثم ترتقي الأجيال بعده، وسيكون هذا إن شاء الله قريباً، القطع المتجاورات أشبه بمخازن خزن الله فيها عناصر السعادة والحياة ودلنا عليها، لو لم تكن الأرض قطعاً متجاورات لكانت الحياة عليها لا تطاق، ولكنها قطع متجاورات فيها الأنواع المختلفة وكأنما هي أسواق تباع فيها جميع ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

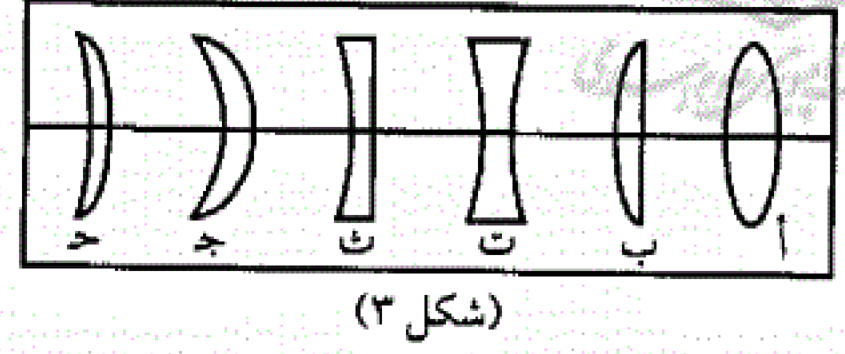
إن هذه الدنيا جميلة عند العلماء والحكماء مظلمة عند الجهلاء، إنهم لا يرون شيئاً مما نقول، بل هم من هذا يسخرون.

انظر ضوءاً منتشراً من الشمس وأجساماً ينفذ الضوء منها وأخرى ينعكس الضوء عنها، وهي الهواء والأرض، كيف جعل لنا في الأرض قطع متجاورات لنتخذ منها ما نشاء لما نشاء، يا سبحان الله رمل وجير وبوتاسا نجمعها من أماكن مختلفة ونكوّن منها تلك العدسات المختلفة الأشكال التي بها نجمع النور تارة ونفرّقه أخرى.

العدسات الآتي رسمها قسمان: قسم يجمع النور، وقسم يفرقه، وهي لا تخرج عن ستة أنواع ثلاثة للتفريق وثلاثة للجمع، أنواع العدسات ست، فهذه الأشكال مقسمة قسمين لا ثالث لهما: قسم للجمع، وقسم للتفريق.

يا سبحان الله، إن في هذه السورة قوله تعالى: ﴿ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾[الآية: ٣]، وفي آية أخرى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾[الذاريات: ٤٩]. ولقد علمت أن الكهرباء زوجان موجبة وسالبة، وفي النبات زوجان ذكر وأنثى، وهو واضح في سورة «الحجر» فيما سيأتي فيما ترجمته عن كتب «اللورد افبري»، فالزوجان كما كانا في النبات كانا أيضاً فيما صنعه الناس من العدسات الآتي بيانها، وهذا الحساب جمع وتفريق إذ علم الحساب كله لا يخرج عن الأمرين، فالجمع والضرب للجمع، والطرح والقسمة للتفريق، وليس الحساب كله إلاّ هذين، هكذا هنا جمع للنور بزجاجات ثلاث، وتفريق بزجاجات ثلاث، وهذه صورتها (شكل ٣).

هذه هي العدسيات، والعدسية في الأصل بلورة بشكل العدسة، ثم توسعوا فيها فأطلقوها على كل جسم شفاف له سطح واحد منحن على الأقل.



(شكل ٣)

والعدسيات قسمان: محدبة ومقعرة، وكلها تندرج تحت ستة أشكال:

أ ـ مزدوجة التحديب. ب ـ مفردة التحديب. ت ـ مزدوجة التقعير. ث ـ مفردة التقعير. جـ ـ هلالية. حـ ـ مقعرة محدبة.

فالأولى والثانية والخامسة تضم أشعة النور، والبواقي تفرّجها.

هاهي ذه صنع الإنسان وذلك صنع الله، صنع الله لنا الصخر البلوري والهواء والماء ووضع لنا في القطع المتجاورات في أرضه مخازن منها تتخذ ما نصنع، فصنعنا تلك العدسيات لمنفعتنا، فماذا جرى؟ رأينا أن المزدوجة التحديب هي التي وضعها الله في أعيننا، اختار الله هذه العدسية المزدوجة ووضعها في أعيننا، لماذا؟ لأنها تجمع النور، وكلما قرب الشبح منها بعدت بؤرتها المنضمة، والبؤرة هنا مجمع النور الداخل من العدسية، وكلما بعد عنها قربت صورته منها، ولكن رأيناه صنع في أعيننا ما لا نقدر على صنعه نحن، ألم تر أن العدسية التي نضعها في ثقب الخزانة المظلمة التي نستعملها لتصوير ما أمامنا لا نرسم الصور بواسطتها إلاّ على بعد مخصوص، ولكننا نحن نرى الأشياء على أبعاد مختلفة، ولو كانت بلورية عيوننا جامدة كالتي نصنعها لم يمكننا أن نرى الأشياء إلاّ على بعد واحد.

إن العين لو بقيت على تحدب واحد لوقعت الصورة تارة على الشبكية وتارة أمامها وتارة وراءها، إن الشبكية ـ التي يمكن أن تعرفها في سورة «آل عمران» هناك موضحة ـ بمنزلة الحاجز تلقى

الصور عليه في الخزانة المظلمة في يد المصور، وإذن لا ينظر الرائي صورة نظراً صحيحاً إلاَّ على بعد مخصوص، ولكننا نرى أن الصور جلية على أبعاد مختلفة لأن الإنسان يكيف العدسية فيزيد تحديبها وينقصه كما يشاء، فنحن نزيد تحدّب البلورية في النظر إلى البعيد ونقلل التحدب في النظر إلى القريب بحيث تقع بؤرتها على الشبكية في الحالين.

قصر النظر وطوله

ويقال للإنسان إنه قصير النظر إذا كان لا يرى الكتابة الصغيرة الحروف ونحوها إلاَّ على بعد ينقص عن عشرة قراريط أو اثني عشر تقريباً، ويقال له طويل النظر إذا كان لا يرى هذه الحروف ونحوها إلاَّ على أبعد من ذلك.

إن قصر البصر من زيادة التحدب في القرنية والبلورية ـ انظرهما في «آل عمران» ـ وطول البصر يحصل من تسطح البلورية بعكس قصر النظر، ولقصر النظر توضع عدسات مقعرة أمام العين، ويصلح طول البصر بوضع عدسات محدبة أمام العين، فالأولى تفرج الأشعة أمام العين والثانية تضمها قبل انكسارها في البلورية.

جمال هذا المقام

إني أحمد الله عزَّ وجلَّ إذ انتهيت في هذا المقام إلى نتيجة بهجة جميلة تحتاج إلى درس طويل في علم الضوء وعلم المعادن وعلم الكهرباء وغيرها من العلوم والصناعات، وقد غصت لك على الجوهر، واجتزيت من العقد بدرة واحدة أهديتها لك جميلة بهجة تسر الناظرين، العلم جمال والعالم جمال، نظرنا في النور ونفوذه في الأجسام الشفافة كالهواء وانعكاسه عنها مستطيراً تارة كاليوت، وغير مستطير تارة أخرى كالمرآة، وجلنا جولة في العوالم فرأينا الصخر البلوري مسدساً جميلاً شفافاً، فانفتح للناس طريق عمل الزجاج، فماذا حصل؟ أخذوا الرمل مصحوباً بالجير والصودا أو الطباشير والبوتاسا، فصنعوا أنواع الزجاج فكان منها أنواع العدسات، وهي لم تخرج عن جامعة للنور ومفرقة له. ثم انتهينا إلى أن العدسة الموضوعة في أعيننا أحسن صنعاً وأتقن وضعاً وأعجب من البلورية التي نحن نصنعها، فماذا جرى؟ رأينا أن أنواع العدسات التي صنعناها المنقسمة إلى القسمين قد ساعدتنا، فكان قسم منها مساعداً لنا في قصر النظر والقسم الآخر مساعداً في طوله.

يا عجباً، جاء في أول السورة ﴿ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ﴾ [الآية: ٣] فالليل والنهار زوجان، والنبات كما قدمنا زوجان، والعدسات المفرّقة والجامعة للنور زوجان، والكهرباء زوجان موجبة وسالبة، وأعيننا يقصر نظرها ويطول، وذلك زوجان، وقد جعل الزوجان في العدسات على مقتضى الزوجين في القصر والطول في أعيننا ﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [يوسف: ١٠٠]، فهذا هو اللطف وهذه هي الحكمة، اللطف في خلق بلوريتنا أعجب من بلورية الخزانة المظلمة، والحكمة في أنه هيأ لنا الأسباب حتى صنعنا عدسات تقصر النظر وتطوله عند الحاجة.

وجوب درس هذه العلوم

ذكرت في سورة «المائدة» في قصة ابني آدم والغراب أن هذه العلوم كلها واجبة على سبيل فرض الكفاية، أعني أن يكون في الأمة قائمون بها جميعها ويكفونها عن أوروبا وغيرها، وقد ذكرت

هناك نص الإمام الغزالي إذ قال: إن علماء الإسلام في زمانه شر من الشياطين لأنهم لما عكفوا على علم الفقه وحده، وزينوا للناس ذلك، صرفوهم عن العلوم الأخرى. أقول لك: وهذا هو الذي أوقع المسلمين في المذلة والهوان، لهذا ألفت هذا التفسير، وبأمثاله أرجو أن تنقذ العقول الكبيرة من هذا الجهل وبهم تستنير هذه الأمة.

ثم إني أقول الآن: إن هذه المباحث التي أقولها الآن ليست علماً خاصاً، بل تجدها من علوم مختلفة، لأن هذا هو الذي يجب على من يتصدون لقيادة المجموع، ومعنى هذا أن الذين يتصدون لقيادة الأمة الإسلامية من علماء وملوك وأمراء يجب أن يتعلموا من كل فن طرفاً صالحاً جميلاً أشبه بما كتب في هذا التفسير، أقول: هذا فرض عين على القادرين والخواصّ من الأمة كما يؤخذ من كلام الأئمة الأعلام.

فأما النبوغ في علم أو صناعة فذلك فرض كفاية، كمسألة العدسات المتقدمة، فإنني وأنا أكتب هذا لست طبيباً حتى أتقنها؛ فالطب مثلاً فرض كفاية، ولكن معرفة الأشياء العامة أمثال ما ذكرته لك فرض عين على الخاصة وقواد الأمة، ومن العار أن يكون رؤساء الدين في الإسلام يجهلون هذه العلوم العامة، فانظر لعلم تفرّعت عنه صناعة كصناعة العدسات، وهكذا كل العلوم يتفرع منها الصناعات كالطب والزراعة والتشريح وعلم النبات، وقبل أن أترك هذا المقام أريد أن أريك جمال العدسات وبهجتها في الأنوار وتحليلها للضوء وكذلك السحاب.

الطيف الشمسي، لون ضوء الشمس البياض

فإذا وقع على منشور أو عدسية ونفذه فإنه فضلاً عن أنه ينكسر ويميل عن استقامته ـ كما مرّ ـ ينحلّ أيضاً إلى أضواء سبعة، وهي: البنفسجي، والنيلي، والأزرق، والأخضر، والأصفر، والبرتقالي، والأحمر، على هذا الترتيب. وقد نظمها بعضهم فقال:

بنفسجي ثم نيلي يلي ... وأزرق يليه ثم الأخضر
وأصفر وبرتقالي كذا ... وفي ختام الكل يأتي الأحمر

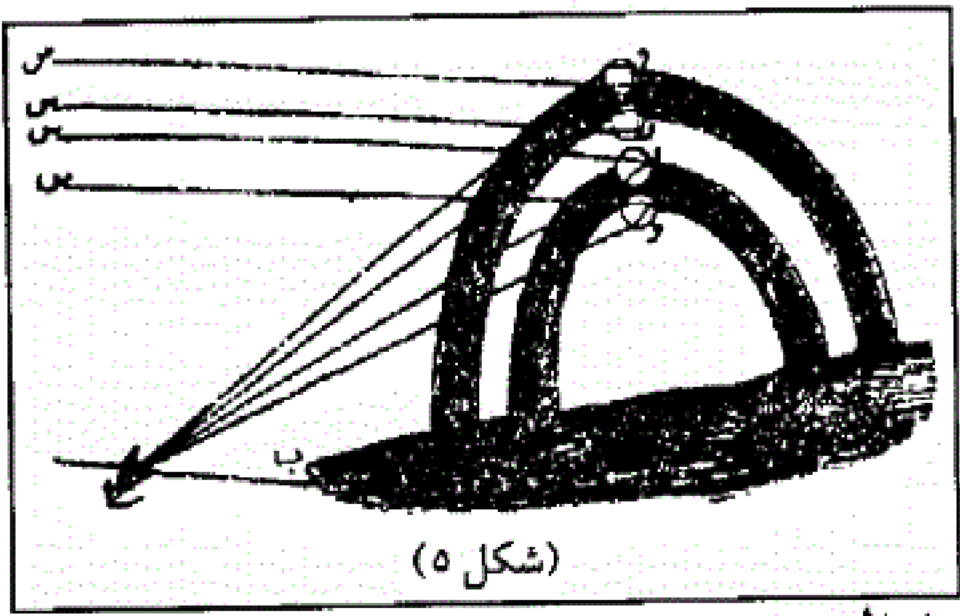


وهذه نعرفها بإحدى حالين:

الحال الأولى: أن تدخل حبلاً من ضوء الشمس من خرق في الحائط إلى غرفة مظلمة وتلقيه على منشور ثم تستقبل النور بعد نفوذه منه بقرطاس أو ما أشبهه، فإنا نجد الألوان سبعة مرتبة كما سمعت، وهذه صورته (شكل ٤).

الحال الثانية: أن ننظر نفس هذا العمل في السحاب المذكور في الآية التي نحن في الكلام عليها، فنجد ذلك في قوس قزح، قوس قزح منطقة مستديرة ملونة بألوان الطيف الشمسي من الأحمر إلى البنفسجي كما تقدم، وهذا القوس

يقابل الشمس عند وقوع المطر وسبب ذلك انكسار ضوء الشمس وانعكاسه عن نقط المطر، فينحل إلى ألوانه السبعة، وقد يرى قوسان معاً إحداهما واضحة وهي الداخلية وتسمى القوس الأصلية، والأخرى أقل وضوحاً منها وهي الخارجية وتسمى القوس الفرعية، وتخالف الأصلية في مواقع ألوانها فلون الحمرة في الأصلية فوق البقية وفي الفرعية تحتها، وهذه صورته.



(شكل ٥)

ما أجمل العلم وأبدع الحكمة وأبهج هذه الأنوار، أضاءت الشمس فأشرقت بنورها الأرض فأثارت بحرارتها بخاراً من الماء واستخرجته من البحار والأنهار والآجام وسائر الرطوبات في الأرض أي من جميع القطع المتجاورات، فحملته الرياح فكان سحاباً مبتعداً عن الأرض لئلا تبتل منه الأمتعة والناس والحيوان، ولم يكن بعيد جداً فلا تراه العيون لئلا ينزل على الناس وهم لا يشعرون فيستضرون ولا يزيد بعده عن ١٦ ستة عشر ألف ذراع تقريباً، وجعل له برق ليستعدّ الحيوان ويتأهب فلا يؤخذ على غرة، وهكذا الرعد ثم يمطر، وقد يكون من ذلك البخار المنعقد ثلج وبرد، ومنه صقيع وجليد وغيرهما. قلنا إن الشمس هي التي أثارته بحرارتها، والرياح هي التي رفعته، فماذا جرى بعد ذلك؟ أرسلت الشمس نورها على قطرات الماء في السحاب، فحلت تلك القطرات الضوء إلى ألوانه السبعة البسيطة، فالشمس أثارت السحاب والهواء حمله، وهي بضوئها زوقته. ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

الآلات البصرية

هذه الآلات أصبحت كأنها حاسة سادسة، وهي ثلاثة أقسام:

القسم الأول: آلات مكبرة «مكروسكوب» وهو الذي نرى به دقائق الأشياء، وهو لم يخترع قبل غرة القرن السابع عشر، قد كشف به علماء النبات النسيج الخلوي في النبات ودوران العصارة فيه ووظيفته وأوراقه. وكشف علماء الحيوان عجائب جمة مثل أن القطرة من الماء الراكد فيها ألوف ألوف من الحيوانات المختلفة الأصناف، ومثل أن العفن الذي نراه على الخبز مؤلف من نبات كما تتألف الغابة من القصب. هذا هو المكروسكوب.

القسم الثاني: الآلات المقربة للأشياء البعيدة سماوية كانت أو أرضية، يروى أن أولاد رجل فلمنكي كانوا ينظرون بعدسيات إلى برج كنيسة، فاتفق أن أحدهم وضع عدسة محدبة في مقعرة ونظر بها شبحاً فرآه كبيراً وقريباً، فأخبر والده مندهشاً فوضع والده العدسيتين في أنبوبتين ينزل أحدهما في الآخر، فصنع التلسكوب.

القسم الثالث: آلات شتى لإلقاء صور الأشباح مكبرة أو مصغرة على حجاب أو نحوه تسهيلاً لتصويرها أو كشف دقائقها الخ.

ثم إن القسمين الأولين غالباً لا بد فيهما من عدسيتين، واحدة يقطع النور عليها من الشبح وتسمى بلورة الشبح، وأخرى تنظر بها العين الصورة، وهذه الآلات كلها لم تخرج عن تنوعات في وضع العدسيات المتقدم ذكرها، وهذا آخر ما وصل إليه الناس. استخدموا الرمل والجير والصودا وأمثالها في توسيع نطاق العلم والاطلاع على خفايا الأجسام وتقريب ما بعد من الإجرام، والمسلمون غافلون ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور: ٤٦].

لِمَ خلق الله الصحراء والأرض القفراء

هذا هو السؤال الذي كان يجيش بخاطري حينما أخلو بنفسي وأتفكر في نظام هذه الدنيا، ولطالما هجس بالقلب هذا الخاطر أيام زيارتي لحلوان القريبة من القاهرة، وأذكر أني ذات مرة زرتها وبت فيها ليلة وقد خرجت إلى الصحراء المحيطة بها من كل جانب في الهواء الطلق، وقد أحسست في نفسي بانشراح وبهجة في ذلك الهواء النقي الصافي الجاف، وصرت أقول: أهكذا تكون جبال وصحاري وأودية لا أنيس فيها ولا جليس ولا ديار ولا نافخ نار، إذن لم خلقت ثم أجبت نفسي بنفسي وقلت: إن الله إذا فعل ذلك فقد خلق لنا اللسان والحواس وأنامها طول الليل، فإذا كان اللسان لا ينطق ليلاً فليس معناه أنه لا حكمة له بل أبقاه لينطق بالنهار وإن لم تظهر حكمته بالليل، وقد كان هذا وأمثاله جواباً عن أكثر ما أجهله في هذا الوجود، وبينما أنا كذلك إذ سمعت حشرات لها طنين موسيقي في غاية العجب، فقلت: أليس هذا من المخلوقات التي تطرب في هذه القفار، فهذا بعض حكم الصحراء.

هذا ما كان في الأيام الخالية، ولكنك الآن قد رأيت ما هو أبدع وأجمل من المنافع العجيبة التي شرحتها لك تارة بالصور وتارة بالعبارة، وأزيدك الآن بياناً وتفصيلاً وحكمة وجمالاً.

حيا الله العلم وحيا الله العلماء، هاأنا ذا أريك من آيات الله العجب في الصحراء كما اطلعت عليه اليوم في كتب الفرنجة، والمسلمون نائمون، انظر رعاك الله إلى عجائب الحكمة في الصحراء: (١) حرارتها. (٢) رياحها. (٣) تنقيتها للهواء. (٤) تجفيفه. (٥) ولولاها لم يعش حيوان ولا إنسان فيما جاورها من البلدان.

١ و٢: إن الله عزّ وجلّ خلق الصحراء لغير ما كنا نعلم، وحجبه عن أكثر الناس، وهو لا يعطي العلم إلاّ لطالبيه، ولا الحكمة إلاّ لمن يشتاق إليها؛ احتجب الله بجماله وتعالى في كماله، وخبأ العلم عن العقول والمعلوم حاضر منظور، نحن نسير في الصحراء ونسافر كثيراً في الخلاء ولكننا ننظر ولا نعلم، فهاك البيان: إن الصحاري تتقد حرارة بما ترسله لها الشمس من الأشعة النورية، فيخفّ هواؤها ويعلو في طبقات جوها كما رأيت في الكلام على الرياح في سورة الأعراف وغيرها فيحل الهواء البارد محل ما ارتفع بالحرارة، ولا معنى للرياح إلاّ هذا، ما الرياح إلاّ هواء تحرك ولا حركة إلاّ بباعث، والباعث تلك الحرارة في هذه المواضع التي خلت من الرطوبة، تجري الرياح إذن وتحمل السحب وتمطر على ما جاورها من البلدان فتنعش الأبدان وتحرك ما سكن وترفع البخار من البحار إلى الحقول في القرى والأمصار.

٣ و٤: ثم إنها خاليات من المزارع، فهواؤها لا رطوبة فيه ولا عفونة، فإذن هي مجففة له ملطفة ومنقية من الجراثيم القاتلة الفاتكة بالإنسان.

٥ : إذن لولا الصحاري والقفار ما كان العمران، ولم يعش إنسان ولا حيوان بجانبها لترادف الرطوبات وتكاثر العفونات، وقد ضربوا لذلك مثلاً نهرين: نهر النيل ونهر الكنج.

إن نهر النيل في بلادنا المصرية ينتهي بالوجه البحري المشتمل على ما يسمى الدلتا. إن هذه البلاد تحيط بها الصحراء من كل جانب، يقولون: فلولا الصحراء بقربها ما عاش حيوان فيها ولا إنسان لأن الصحراء لها تبعث الرياح وتجففها وتنقيها، بخلاف دلتا نهر الكنج، هذا ما قرأته اليوم، ألست بهذا تفهم قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ﴾[يوسف: ١٠٠]، أليس من اللطف أن يخلق صحراء لا أنيس بها وتكون هي السبب في الأنس والحياة لجيرانها، إذن الغامر جعل تنوراً للعامر من الأرض، فالتنور يجفف الخبز وهذا يجفف الهواء، وجعل مخزناً للحياة تنبعث منه على العامر.

إن العلم يعكس قضايا الجهل، فبينما الجاهل يقول لا حكمة في خلق الصحراء، إذا بالعلم يقول: «كل الصيد في جوف الفرا»، ويقول: «أطرق كرا إن النعامة في القرى»، ومن أنت حتى تعلم؟ اللهم إنك أنت الذي حكمت على الأمم الإسلامية أن تنام آماداً وآماداً، وقضيت على الخلف أن يتبعوا السلف، وأنت الذي جعلت الليل والنهار آيتين يخلف كل منهما الآخر، فأرنا آية نهار العلم في هذه الأمم باستيقاظها بعد أن أريتنا آية ليل الجهل بنومها ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[آل عمران: ٢٦]. واجعل هذا الكتاب من موقظاتها ومرشداتها واملأ أقطارهم بنور العلم والعدل كما ملئت بظلمة الجهل والجور ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[البقرة: ١٢٧]. انتهى.

إن الصحراء منبع الحياة، فالحياة تحتاج إلى منبعين:

أحدهما: يكون من الجبال فيعطي الماء لسقي الزرع والحيوان.

وثانيهما: يكون من الهواء فوق القفار ليعطي الجفاف والصفاء، فلولا الأنهار لم تكن حياة، ولولا الهواء ونقاوته وهبوبه لم تدم الحياة، تحتاج إلى منبع ماء ومنبع هواء، فمنبع الماء من المطر النازل على الجبال وما والاها ونحو ذلك، ومنبع الهواء تلك الصحاري والقفار.

وهناك دواع أخرى للصحراء كأن تكون مأوى المظلومين في المدن ومباءة الذين يحبون أن يعيشوا أحراراً فارّين بدينهم أو بعرضهم كما كان يفعل الرهبان، وكما ستراه في سورة «الحديد» في قوله تعالى: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا ﴾[الآية: ٢٧]، وكما نشاهد العرب في صحراء مصر أصح أبداناً وأقوى أجساماً وأقرب للفضيلة ـ كما يقول ابن خلدون ـ من سكان الحضر، ثم هي أيضاً حرم آمن فاصل بين الممالك ليمنع بعضها عن بعض حتى تستقر كل أمة في مأمنها عاكفة على عملها آمنة مطمئنة لا ترهب غزو جاراتها إلاَّ في الأزمنة النادرة، هذا ما عنّ لي في هذا المقام، وهذا ما حضر في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ ﴾. انتهى.

اللطيفة الرابعة: في قوله تعالى

﴿ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ﴾

يقول الله تعالى: ﴿ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ ﴾[الآية: ٤] ولم يقل يتغذى بغذاء واحد، علم الله عزّ وجلّ أننا معاشر المسلمين ستمر علينا القرون تلو القرون ونحن لاهون عن عجائب النبات كما أننا

لاهون عن غيره، وعلم أننا لا نصدر ولا نرد إلاَّ عن القرآن، وعلم أن هناك طائفة من المسلمين قليلة تتعلم العلوم لذات العلوم، وهي تظن أن الدين لا يطلبها أو يعاديها ولا يلائمها، فأشار في هذا المقام بقوله: ﴿ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ ﴾ إلى معنى عجيب دقيق يهدي جميع طوائف المسلمين إلى النبوغ في علم الحيوان والترقي فيه لنظام هذه الحياة ولنظام العقول ورقيها بالحكمة، ولعلك تقول: ولماذا تشير هذه الجملة في الآية؟.

أقول: لقد أظهر الكشف الحديث أمراً عجباً، أظهر ما لا يخطر ببال ولا يتصوره خيال بل لا تسيغه الأحلام ولا خطرات الأوهام. اللهم إن فضلك علينا عظيم، اللهم لو لم يكن في هذا التفسير، بل لو لم يكن في العلوم كلها سوى ما سأذكره في هذه المقالة لكفى الأمم كلها سعادة علمية وجمالاً حكمياً وكمالاً عقلياً.

ولو أن امرأ قيل له إن في النبات ما يفترس الحيوان ويفعل ما تفعله الوحوش والأسود والنمور في اقتناص الغزلان والأنعام، أو قيل له إن النبات له من الحيل ما للإنسان في استغفاله واحتياله على الآساد، يحفر حفرة في طريقه حتى إذا مر عليها وهو لا يشعر وقع فيها الأسد وهو أسير، أو كما تفعل دول أوروبا مع أهل الشرق إذ تغدق النعم على عظماء الشرق، وبذلك تستدرجهم إلى احتلال بلادهم وابتلاع ثروتهم، إذا قيل ذلك عدّ قائله غير عاقل يهرف بما لا يعرف، ولكن هذه أصبحت اليوم حقائق ثابتة لا تقبل الشك كما ستراه وسترى صور هذه النباتات في هذا المقال.

أقسام النبات ثلاثة

اعلم أن النبات ثلاثة أقسام: قسم يتغذى بالمواد الأرضية ممزوجة بالماء وبالمواد الأولية. وقسم يتغذى بجسم نبات آخر كما تتغذى البراغيث والقمل والحيوانات الضارة من جسم الإنسان مثل الميكروبات اللاتي تحدث الأمراض المختلفة كالحمى والجدري الخ. وقسم لا يكون غذاؤه إلاَّ من الحيوان.

فالقسم الأول من النبات هو المعروف. والقسم الثاني من النبات هو المسمى «الكشوثى» وهو نبات يعيش على غيره لا جذر له في الأرض بل يمتص من جسم نبات آخر، وقد رأيت بعيني نوعاً منه في حديقة مصرية في بعض الدواوين عندنا. والقسم الثالث هو الذي أفردت له هذا المقال ولم أره إلاَّ في كتاب «الموسوعات» بالإنجليزية، الجزء الأول من صفحة ٢٤٠ إلى صفحة ٢٤٨، ولعمر الله لم يكن ليخطر لي قبل هذه الأيام أن أطلع على موضوع شائق جميل مثل هذا، فأحمد الله على توفيقه وأشكره على أن أراني هذا، وفوق ذلك وفقني لإيضاحه لأذكياء المسلمين.

وقبل أن أترجم هذا الموضوع من الكتاب المذكور أبيّن مناسبته لقوله تعالى في الآية: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ كما وعدت من قبل.

ذكر الله عزّ وجلّ أنه يسقي النبات بماء واحد، ولم يذكر التغذي، لأن كل نبات لا بد له من الماء، والماء واحد، ولكن ليس غذاء النبات واحداً، ولم يقل هو غذاء واحد ولم يقل هو متعدد، أي أنه ترك هذا لنا لندرسه، فهانحن ندرسه الآن، فوجدنا الغذاء ثلاثة أقسام: قسم معدني وهو الذي يتغذى به النبات المعروف، وقسم نباتي وهو الكشوثى، وقسم حيواني وهو ما سأبينه فأقول:

هذا ملخص ما في ذلك الكتاب المسمى « علوم للجميع » للعلامة « روبرت براون » قال :
معلوم أن جمهور النبات من الطوائف العليا إنّما يجتذب غذاءه من الطين بواسطة عروقه الضاربة في الأرض ، وإذا كان يعيش في الماء كالأعشاب البحرية التي تنبت في الطين اجتذب غذاءه من الماء الذي يعيش فيه . ثم قال : إننا نعلم أن العروق النباتية الضاربة في الأرض لا يتسنى لها أن تمتص المواد الجامدة وأنها لا تمتص غذاءها إلاَّ على هيئة مواد سائلة أو مواد غازية ، وهناك قاعدة وهي : أن الجذور ليس لديها طريقة كيميائية بها تحوّل الجوامد إلى حال السوائل أو الغازات ، كلا ، إن في النبات عدداً محصوراً لا غذاء له إلاَّ من الحيوان بطرق تخالف ما عليه سائر النبات ، وأهم أغذية هذا النبات هي الحشرات وحيوانات أخرى صغيرة ، ولذلك تسمى هذه الأنواع « ممزقة الحشرات » أو « آكلة اللحوم » ، وهاهنا أحضر الكاتب نوعين من النبات وهما « ندى الشمس ذو الورق الملتف » و« بترورد » وصورتهما ستأتي في (شكل ٦ و٧) . فلنلخص الأول الآن بالكلام .

وصف ندى الشمس ذي الورق الملتف

ورقه فيه حمرة له زهر أبيض ، يظهر في شهري يوليو وأغسطس من كل سنة ، والأوراق مدوّرة وهي أشبه شيء بالملعقة المفرطحة ، وسطح الورقة الأعلى يشبه الشعر ، وهو منته برؤوس مغطاة بسائل لزج ، وأحسن ما تسمى به أن يقال « قرون الحشرات » ، إن هذه القرون التي تغطي رؤوسها بسائل لزج صمغي إذا نحن لمسناها بطرف قلم الكتابة رأينا بعضها يمتد امتداداً عظيماً ، وهو يحمل ما يشبه الصمغ الذائب أو الدبس ، فإذا وقع على تلم المادة اللزجة حشرة أو حب أو شيء صغير ، فإن ذلك القرن ينقبض ويمسك بذلك الواقع عليه ، كما يحصل للطائر الصغير إذا وقع على غصن مغطى بمادة لزجة معدّة لصيده ، أو كما يحصل للذبابة إذا وقعت بجهالة وغرور على دبس ، إذا نحن نظرنا إلى أوراق « ندى الشمس » المذكور فإننا نشاهد أن كل ورقة قد حصل في جسمها أجسام صغيرة معطلة فيها بواسطة تلك القرون كالذباب والحبوب والأوراق الصغيرة وما أشبه ذلك ، وبينما نحن نبحث في تلك الأوراق قد نجد ذبابة وقعت على ورقة وقد اشتبكت أرجلها في تلك القرون ، أو نجد حباً أو ورقاً عصفت به الريح . ثم قال الكاتب : إن الإنسان عادة لا يحتمل البقاء في المستنقع الذي فيه النبات المذكور ، فإذن يمكن للإنسان أن يحفر عليه ويأخذه إلى منزله ويزرعه هناك ويجعله فيما يماثل ما كان فيه من المستنقع الذي لا يثبت عادة إلاَّ فيه ، وإذن ندرسه في حال فراغنا ، فإذا شرع الإنسان في استخراج ذلك النبات لاحظ أن جذوره ضعيفة جداً وتغذيته قليلة ، فإذا استوى ذلك النبات في منازلنا هنالك نأخذ في امتحانه ، فنبتدئ أولاً فنضع ذبابة فوق رأس « قرن صمغي » من تلك القرون ونلاحظ نتيجة ذلك ، فيكون ما يأتي :

(١) إن ذلك القرن الذي وقعت عليه الذبابة لا تمضي عليه دقيقة حتى يبتدئ يحني نفسه نحو مركز الورقة ، ويستمر في ذلك الانحناء حتى يصل إلى المركز .

(٢) وبعد انحناء ذلك القرن تسرع القرون التي تجاوزه في الأخذ بيده ، كأنها عرفت حديث « يد الله مع الجماعة » ، أو كأنها جميعها تريد الاشتراك في الغنيمة فتنحني جميعها لاغتنام هذه الفرصة وأخذ القنيصة .

(٣) السائل اللزج الـذي يصبه رأس ذلك القرن يأخذ في زيادة المقدار حتى يغطي الذبابة جميعها، وهذا يكون سبباً في موتها، لأن هذا السائل يسدّ مسام جسمها، ولا جرم أن المسام في الحشرات بها التنفس، فمتى سدّت المسامّ انقطع التنفس فمات الحيوان.

(٤) إن هذه الذبابة التي أصبحت أسيرة في قبضة تلك القرون تتدحرج نحو مركز الورقة بتحريك القرون الطويلة التي في الأمام وتسليمها إلى القرون القصيرة التي جهة المركز.

(٥) إن حافة الورقة تكون منحنية كثيراً أو قليلاً، حتى إن حواشيها تكوّن هيئة حوض عند قاعها الذي استقرت فيه الذبابة وغمرها ذلك السائل اللزج الذي أفرزته تلك القرون.

(٦) وبعد بقاء الذبابة في هذا الوضع ساعات؛ بل ربّما كان ذلك أياماً معدودات، نرى تلك القرون تأخذ في الانتصاب والاعتدال كرة أخرى وترجع بالتدريج إلى سيرتها الأولى ووضعها المعتدل المستقيم، وترجع الورقة كما كانت مفرطحة كالملعقة مثل عادتها، ويقلّ فرز القرون لسوائلها، بل ربما نراها جفت، وإذا نحن بحثنا عما بقي من تلك الضحية وجدنا أنه لم يبق منها إلاّ ما ينفع للغذاء كالجلد والأطراف والأجنحة، وما عدا ذلك فلا وجود له، وهذا تمام التجربة الأولى.

التجربة الثانية: نضع بدل الذبابة أيّ طعام آخر مقبول، كقطعة من اللحم والجبن وبياض البيض والحبوب الصغيرة، وهكذا كل شيء يؤكل، فإذا فعلنا ذلك وجدنا ما يفعله النبات هنا هو عين ما فعله مع الذبابة. غاية الأمر أن الانهماك والإسراع يكون أقل أو أكثر على حسب المادة الموضوعة، فترى اللحم وكل طعام آخر للحيوان أقوى وأسرع تأثيراً من غيرها.

التجربة الثالثة: أن نضع بدل ما تقدم شيئاً لا يصلح للطعام، كشيء من الشعر أو الخبط أو العظم أو الزجاج أو ما أشبه ذلك، إذا وضعنا هذه رأينا القرن المذكور ينعطف، ولكنه ليس بالسرعة التي سبقت مع غيره، والسائل يكون إفرازه بطيئاً وقليلاً، والقرون بعد انعطافها زمناً قليلاً ترجع إلى سيرتها الأولى.

التجربة الرابعة: أن نلمس بإبرة مثلاً الرأس المدوّر لقرن من تلك القرون مرة أو مرتين، فإننا نلاحظ أنه لا يكون لذلك أثر ما، فأما إذا كررنا ذلك اللمس مراراً أو اتخذنا الضغط بذلك سبيلاً، فإن القرن يأخذ في الانعطاف كما في الأحوال المتقدمة، فمن هذا ينتج أن اللمس مرة أو مرتين لا أثر لهما كما في حال حفيف الأوراق المجاورات لذلك النبات إذا هبت الرياح فلمست تلك القرون فذلك لا أثر له، هكذا هطول الأمطار وما أشبهه.

مسألة من الكيمياء في هذا المقام

اعلم أن هذه المادة ليست من الأحماض، كلا وليست تكون من الأحماض إلاّ إذا أفرزت في حال التهيج كما يتأثر ريق الإنسان ويفرز عند شهوة الطعام وحضوره، وكما تفرز المعدة مادة حمضية عند مقابلة الطعام، وقد جرب العلماء لذلك تجاريب فوضعوا على ذلك السائل ورقة كيميائية تسمى «ورقة ليتمس»، ومن شأنها أنها إذا غمست في خلّ أو أيّ حامض آخر فإنها تلوّن باللون الأحمر، فلما غمسوها في ذلك السائل وهو على حاله لم يلون باللون الأحمر، فلما أن قرّبوا لتلك القرون قطعة لحم وتحركت نحوها بانعطاف هنالك غمسوا الورقة الكيميائية في السائل فصار لونها أحمر،

فاستدلوا من ذلك على أنها عند تقريب الطعام منها تفرز حامضاً كما تفرز المعدة، فأما إذا لم يقرب الطعام فذلك السائل ليس من الحوامض، فدل ذلك على أن هذه النباتات تهضم بهذه الحوامض طعامها ولا تفرز إلاَّ عند تعاطي الطعام، وهنا أتى المؤلف بهذا المحصل، فقال:

(١) إن قرون أوراق « ندى الشمس » لها قدرة على القبض على الذباب وصغار الأشياء والاستحواذ عليها متى لامست المادة اللزجة على رأس تلك القرون.

(٢) إن القرون وأطراف الأوراق لها قوة على الحركة بحيث تنعطف على ما تصطاده بأطراف القرون المذكورة وتدحرجه إلى مركز الورقة.

(٣) هذه الحركة إنَّما تحصل برأس ما سميناه « قرون الحشرات » إما بتكرار اللمس أو بدوامه.

(٤) القرون يدوم انعطافها وانحناؤها على الفريسة وهي مطمئنة ساكنة زماناً طويلاً إذا كانت الفريسة صالحة للأكل وقليلاً في عكس ذلك.

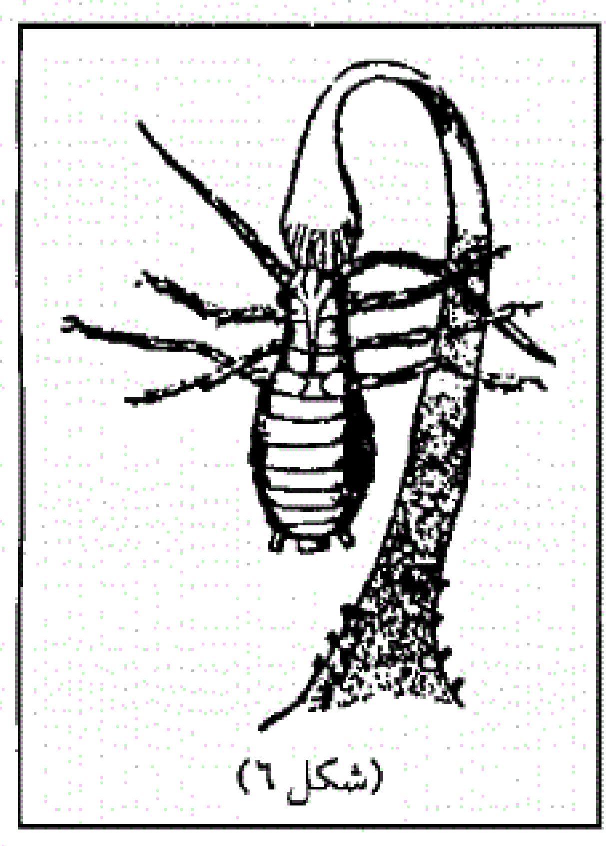
(٥) المواد العضوية سيما المواد الحيوانية القابلة للهضم أسرع تأثيراً مما لا تصلح للأكل، فالأول كاللحم والثاني كالعظم، وبقاء انحناء القرن على الفريسة يطول في الأول ويقصر جداً في الثاني.

(٦) إن حركات القرون يصحبها إفراز سوائل من رؤوسها لا سيما إذا كان مسبب الحركات مادة تصلح للأكل.

(٧) إن نتيجة افتراس مادة صالحة للأكل بهذه القرون أن يعمها ذلك السائل المفروز وأن الأجزاء الصالحة للتغذية لا تظهر بعد ذلك، وما لا تؤكل لا يقع عليها أثر ما.

(٨) المادة المفروزة من تلك القرون ليست تكون من الأحماض إلاَّ عند ملامسة ما يهيجها من المواد المأكولة، هذا، واعلم أنهم قد تحققوا أنه لا فرق بين المادة الهاضمة في معدة الإنسان المسماة « ببسين » وبين المادة الحامضة في النبات، فهما سواء، وهذا الحامض الذي في النبات يكثر عند ملامسة مواد خاصة.

فائدة جذور هذا النبات


(شكل ٦)

سؤال: علمت أن هذا النبات يتغذى من الحشرات وغيرها، فما فائدة جذوره في الأرض؟.

الجواب: إن فائدة هذه الجذور أمران:

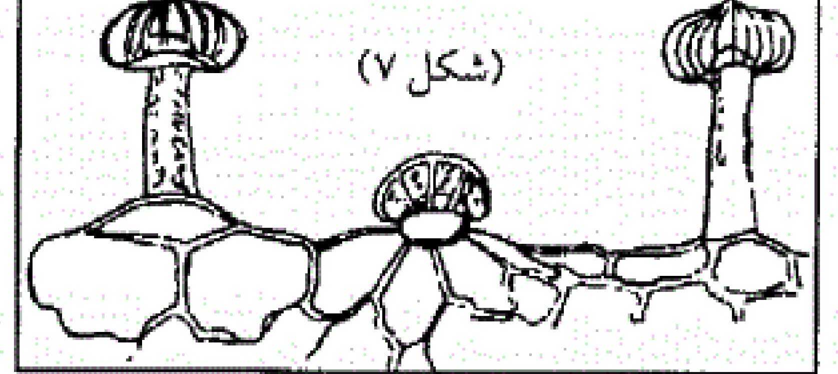
الأول: أنها لتثبيت النبات في الأرض.

الثاني: أنها تجلب له الماء الصاعد في أوراقه، فأما جلب الغذاء فلا. انتهى الكلام على نبات « ندى الشمس » المذكور (شكل ٦).

عدد النباتات المفترسة هي تبلغ مائة ونيفاً

قال المؤلف: إن عدد النباتات التي تأكل الحيوان في بلاد الإنجليز غير هذا الذي شرحناه وهو « ندى الشمس الملتف الورق » نوعان فقط، فأما الموجود في العالم من ذلك

فهو نحو مائة نبات، وكلها من غير استثناء تصطاد الحشرات كالذي شرحناه سواء بسواء، وكل غذائها منها.



(شكل ٧)

وإذ فرغنا من الكلام على النبات الأول، وهو «ندى الشمس الملتف الأوراق» فلنبيّن حال الثاني وهو «بترورد» شكل ٧.

ولقد أخذ الكاتب يشرح هذا النبات ويذكر التجارب التي صنعت فيه كما كان ذلك مع النبات الأول فلا نطيل به.

(شكل ٨)

هذه النباتات الست قد وصف الكاتب بعضها ، وهاأنا ذا أوجز القول فيها فأقول :

النبات نمرة (١) فهذا يسمونه « النبات الجزار » وهو نحو ٣٦ نوعاً ، وليس من الأشجار بل هو من نوع الأنجم ؛ أي التي لا ساق لها ؛ وينبت في البلاد الحارة ، والذي كشفه هو المستر « هوكر » ، انظر إلى ورق هذا النبات في الركن الأعلى من اللوحة في جهة الشمال ، فإنك ترى الجزار فيه على شكل الآلة الموسيقية أو على هيئة آنية بأحجام مختلفة يتصل به ساق قد يطول جداً وهو عند أعلى الورقة ، وهذا الجزار قد يطول من عقدة وعقدتين إلى أكثر من قدم ، ويقوّيه غطاء ذو فتحة صغيرة أو كبيرة .

واعلم أن فم ذلك النبات والسطح الداخل منه جميلان بلون بديع وهيئة جميلة ، وقد يفرز أيضاً مادة عسلية ، فهاهنا اجتمع جمال المنظر وحلاوة العسل فهذان يغران الحشرات المسكينات فيدخلن ذلك النبات .

وهنا أخذ الكاتب يفرض أن أحدنا لو كان مكان الحشرة ورأى ذلك المنظر والمذاق الحلو لكان حقاً يسرع إلى ذلك الجمال والحلاوة ويهجم على المكان هجوماً شديداً فندخل أولاً باب ذلك الجزار ، قال : وقد نجد ما يغرّنا من جمال الداخل فنزيد في التوغل في الداخل حتى ندخل في الأنبوبة التي تشبه المدخنة ، ولسوء طالع الداخل يرى أنه يتعذر عليه الرجوع فيزيد في التوغل داخلاً ، فماذا نرى ؟ نرى هناك سطحاً أشبه بالزجاج لا تستقر الرجل عليه ، فإذن تنزلق عليه وحينئذ يجد هذا الداخل أنه قد غرق في ذلك السائل الذي يعم جسمه ، فيقطع أنفاسه ويكون طعاماً سائغاً مهضوماً ، وهنا نرى العجب ، نرى أن هذا النبات الجزار لم يصطد فريسته بقوة ولا بثقله ، وإنما اعتمد على خطة الغش والخداع بجمال الألوان وبالعسل أولاً وباستدراج الفريسة إلى الدخول في الأنبوبة السهلة الدخول المانعة من الخروج ، ثم يكون الاستقرار في المكان الذي يشبه الزجاج في نعومته ثم يكون الموت والهضم . وهذه التجربة كانت بمعرفة الأستاذ « هوكر » ، وقدمها للجمعية البريطانية في اجتماع « بلفاست » سنة ١٨٧٤ .

ووصف الكاتب النبات الثاني « نمرة ٢ » الذي تحت الأول ، أي في الركن الذي جهة الشمال من الأسفل في اللوحة فقال : إنه ينبت في شمال بلاد « كردولينا » وهو مثل النباتين المذكورين أولاً هنا ، قال : وهو ينبت في أرض المستنقعات مثلهما ، والورقة ذات فصين يكوّنان مع بعضهما زاوية أقل من القائمة ، وترى عند مركز كل فص من الفصين ثلاث شعرات تشبه الأسنان ، ومن العجب أننا إذا لمسنا واحداً من هذه الشعرات بإبرة مثلاً أسرع الفصان فانطبقا معاً حالاً ويبقيان هكذا معاً فيعسر فصلهما إلاّ بتمزيقهما ، وإذا نحن نجحنا في فصلهما رجعا فاتحدا ثانياً ويبقيان نحو يوم لا يريدان الانفصال ، وإذا لمسنا جزءاً آخر بإبرة مثلاً من الورقة غير تلك الشعرات لا تتحرك الورقة ، وهكذا لا حراك لها بهبوب النسيم ولا بنزول قطرات المطر على تلك الشعرات التي تشبه الأسنان كما قلنا سابقاً ، ولو أننا وضعنا على الورقة ذبابة مقطوعة مثلاً أو قطعة من لحم لرأينا أن رأس الشعرات التي كالقرون التي مستها الذبابة أو قطعة اللحم أخذت تفرز سائلاً لزجاً وأخذ الفصان اللذان انقسمت إليهما الورقة يقتربان وينطبقان .

وهذه التجربة قد حصلت في كل ما يصح أكله ، فكانت النتيجة ما حصل في اللحم والذباب ، فهناك إفراز وهناك انطباق الفصين أو مصراعي الورقة ، أما ما لا غذاء فيه كالزجاج ونحوه فلا يتحرك

له الفصان ولا يفرز النبات له سائلاً، وإذا انطبق الفصان على الفريسة فإنهما لا يفترقان نحو ثلاثين يوماً، ثم إذا انفصلا فإنهما تقلّ قوتهما بعد ذلك وتصعب عليهما الفريسة الكبيرة التي قدرا عليها في أول مرة، ومتى فتح الفصان بعد انقضاء عدة الأيام للانطباق فإننا لا نرى للفريسة أثراً إلاّ ما صعب هضمه كالجلد والرجلين ونحوهما.

ثم وصف الثمرة الثالثة وهي الموضوعة في أسفل اللوحة، فلم يطل الوصف فيها اتكالاً على ما سبق.

ووصف الثمرة الرابعة التي في الجانب الأيمن من الأصل باللوحة، فقال: إن ورقتها ملتفة ولها قرون وهي من نوع «ندى الشمس» المتقدم، ولم يطل فيه ولا في الخامس ولا في السادس لأن أوصاف هذه النباتات متقاربة.

ثم ختم المقال بقوله: إن اقتناص النبات للحيوان كان موضع شك من العقلاء، ولكن ما ذكرناه الآن أثبت هذه الفكرة وأن بعض النباتات مفترسة كما يفترس الحيوان. انتهى ملخص هذا المقال مترجماً يوم الأحد ٢١ أغسطس سنة ١٩٢٧.

جوهرة

هاأنت أيها الذكي اطلعت على عجائب ما كان ليخطر لأحد أنها حقة، اطلعت على عجائب تدهش العقول، الناس عرفوا النبات بأنه يتغذى وينمو ويلد ويموت، وعرفوا الحيوان بأنه متصف بذلك كله ويمتاز بالحس والحركة، ولكن بعد هذا البيان أصبح الحيوان لا يمتاز عن النبات، فإذا قلنا النبات لا يحس ولا يتحرك، فما بالنا نرى بعض الذي رسمناه ووصفناه في هذا المقام يتحرك لأدنى لمس للشعرات الثلاث اللاتي خلقت في مركز الفصين المتقدمين في أحد النباتات التي في اللوحة المذكورة، وما بالنا نراها كلها تتحرك عند حصول ذباب أو غير ذباب عليها. أليست هذه حركة؟ أليس هذا هو الحس بعينه؟. اللهم إنك بهذا فتحت البصائر وأنرت القلوب.

ولما وصلت إلى هذا المقام حضر أحد أصدقائي الفضلاء واطلع على هذا، فقال: يا عجباً لك، أباختلاط الحقائق فتحت البصائر؟ أنت تقول: إن النبات والحيوان قد اختلطا وأصبح أمرهما غير مضبوط، فالنبات حيوان، فهل هذا انفتاح البصائر؟ كلا، بل هذا هو إظهار جهل أهل الأرض قاطبة بهذا الوجود، فأوضح هذا المقام وإلا فالقول غير مقبول. فقلت: لماذا عجلت عليّ؟ فلأوضح المقام الآن فأقول: إني قصدت بانفتاح البصائر هنا خمسة أمور:

الأول: أن هذه النباتات أرتنا سرّ قوله تعالى: ﴿يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ﴾[الرعد: ٤].

الثاني: أنها أرتنا لطف الله في الإماتة كلطفه في الإحياء.

الثالث: أنها أرتنا كيف تتنوع الأرزاق بتنوع المخلوقات، مع عجائب التدبير والإحكام والنظام الغريب.

الرابع: أنها أرتنا معنى قوله تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[هود: ٥٦].

الخامس: أنها أرتنا أن تحريم اللحم لأجل الرحمة لا برهان عليه.

فقال: فما إيضاح الأمر الأول؟. فقلت: إن الله يقول: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ كما قدمت سابقاً ولم يقل يتغذى بغذاء واحد، وهاهنا ظهر السر، ظهر هنا بأعظم وضوح فتعجب. ألم تر أن جذر بعض تلك النباتات المفترسة لم يكن له عمل إلاَّ جذب الماء وتثبيت النبات في الأرض، فأما جلب الغذاء فلا، لأنه يتغذى من الحشرات وغيرها، إذن الماء هو المادة العامة لكل نبات وليس الطين كذلك، فهذا سر قوله: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾، ولم يكن الناس يعلمون ذلك قبل زماننا هذا، ولم يكن أحد ليعقل أن النبات لا يتغذى من المواد الأرضية وإنَّما يتغذى من نفس الحيوان، فهذا سر قوله تعالى: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ ولم يقل يتغذى بماء واحد، أليس هذا من عجائب القرآن!.

ومن عجب أنك سترى في هذه السورة صور الثلج أنواعاً كثيرة، وترى أنه قد ظهر بأساليب عدة وهو محلى بما يشبه ورق الأشجار وبهجتها. فهذه الأشكال النباتية التي ستراها في الثلج دليل على أن نظام النبات أسه من الماء، ولذلك كان منه ما يأكل جماداً وما يأكل حيواناً، فكانت جميعها كأشكال الثلج التي ستراها. اهـ.

أما إيضاح الأمر الثاني وهو لطف الله عند إماتة الحيوان: فانظر وتعجب. أليس الناس على الأرض يموتون بالمرض تارة وبالحرب والقتال تارة أخرى؟ فيا للعجب يموت الناس غالباً وهم فزعون من الموت، أما هذه الحشرات فإن الله عزَّ وجلَّ قد مهد لها السبيل إلى الموت في راحة وسعادة، ألم تر إلى العمل الذي أعدّ لها، وإلى الأنبوبة الليفة التي تدخلها، وإلى المنزل الذي يشبه الزجاج في نعومته، أعد الله ذلك للحشرة وزين لها ظاهر الورق وباطنه ومدخله لترى جمالاً فتسرع إليه، وقد فعل الله معها ما فعله مع هذا الإنسان إذ قال له: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس: ٢٤] الخ، فهذه الحشرات التي تدخل النبات المفترس يغرّها الجمال الفتان في الورق والعسل الحلو في داخله والمزالق اللطيفة، حتى إذا اطمأنت جاء لها السائل الذي تفرزه تلك القرون من رؤوسها فتموت حالاً، فهذا موت لا ألم فيه بل أخذها الموت في حال لا تحس بها.

وأما إيضاح الأمر الثالث وهو تنوع أسباب الأرزاق بتنوع الحيوان: فهو ظاهر واضح، فإنك ترى بعض هذه النباتات يقتنص الفريسة بالخداع وإظهار الجمال والعسل، فتخدع الحشرات، وبعضها يعتمد على حركته وإخراج السائل فيقبض بشعرة من شعراته على القنيصة ثم يتبعها بأخرى ويفرز السائل الذي يقتل الحشرة، فهذا اعتمد على قوة بطشه وعلى آلة قتله كما يفعل الإنسان، وأما ما قبله فقد اعتمد على الحيلة والدهاء والمكر كما يفعل السياسيون، وكما يفعل الإنسان مع السباع.

أما إيضاح الأمر الرابع وهو قوله تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود: ٥٦] الخ، فاعلم أن ذلك تقدم في سورة «هود» مفصلاً، ولكن هنا نذكر ما يناسب هذا المقام، انظر إلى هذه العجائب، نبات لا ينتقل من مكانه وقد حكم عليه أن لا يأكل إلاَّ من حيوان، فماذا فعل الله له؟ خلق له الحشرات وأكثرها ولم يغفل عن خلقها، وخلق هذه النباتات وقال لها: أيتها النباتات إنني حكمت عليك بالبقاء في المكان، ولكني سهلت لك السبيل ومهدت الطريق وجعلت من الحشرات أفئدة تهوي إليك، فرزقتك من اللحوم وغيرها، أنا الذي حكمت عليك بالبقاء، وأنا الذي أنعمت عليك بالحشرات

الطائفات لتتغذي بها غذاء تاماً. هذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٧]، فهذا هو الأخذ بناصية الدواب، وهذا منها.

أما إيضاح الأمر الخامس فإن تحريم اللحم لأجل رحمة الحيوان لا برهان عليه، لأننا رأينا الحيوان يقتنصه الحيوان ويقتنصه النبات، وهاهي ذه النباتات حرم عليها أن تأكل غالباً إلاّ من حيوان وهكذا الأسود والنمور حرم عليها أكل النبات ووجب عليها أكل الحيوان، فعلمت أن نظام هذه الدنيا راجع إلى أمرين: الموت والحياة، والموت مقصود في هذه الأرض والحياة أيضاً مقصودة، فهما أمران كل منهما واجب وجوده، وعليه لا معنى لتحريم أكل الحيوان الذي نريحه بقتله وإخراجه من ضيق الأرض إلى فسيح الفضاء.

هذه جنة العارفين. إن العلم بهذه الحكم والعجائب جنة العارفين ونعمة الحكماء وبهجة الأولياء. واعلم أن علم الله لا حدّ له وفضله لا نهاية له. ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[طه: ١١٤]. اهـ.

منظر جميل في قصر منيف
أحقيقة أم خيال

لما كتبت هذا الموضوع كان ذلك في صباح ليلة الأحد، وقد كنت قبل الكتابة مشغوفاً به شغفاً لا حدّ له، فما كدت أتمه حتى أحببت أن أستريح مقاوماً ما يساورني من المعاني التي تحوم حول هذا الموضوع مكتفياً بما كتبت، ولكني في ليلة ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ خطر لي وقت الصباح خاطر لم أقدر على مدافعته، وظلّ يملك عليّ وجداني وأنا به ثمل، فقد خيلت لي هذه الدنيا كأنها قصر جميل ذات بهجة وحسن، وكأن السماء جميعها مضيئة مشرقة تحيط بي من كل جانب، وكأني في حياة أسعد من حياة أهل الأرض التي أعيش فيها، فلم أر بدأ من كتابة ما ألاحظه في هذا المقام، وهنا أخذني ما يشبه سنة النوم، وكأن هذه السماء التي تبدت لخيالي مضيئة قد صارت قصراً جميلاً بهياً بديعاً، فأخذت أنظر في جوانبه وأتأمل عجائبه وأسرّح الطرف في محاسنه، هنالك تبدّت لي حيطانه الأربعة مصنوعة من الذهب مزخرفة باللآلئ البديعة والأحجار الثمينة وأنواع المرجان وكل ما هو جميل، وتخيلت أن في أركان القصر نوراً يشعّ، ثم أخذ يزداد شيئاً فشيئاً فأخذ بمجامع لبي لما تنوعت ألوانه وأشرقت صوره، فكنت أرى صوراً مشرقة بديعة بهيئة ألوان قوس قزح، وهنا رأيتني في عالم غريب عجيب فحرت في أمري وصرت أقول: يا ليت شعري أين أنا الآن؟ أنا أكتب في موضوع ذلك النبات الآكل اللحم الذي كشفه القوم، وهاهي ذه صورته مرسومة أمامي، فما هذا القصر وما هذا الجمال؟.

فبينما أنا على تلك الحال إذ رأيت شخصاً كأنه طيف خيال، فقال: أراك في حيرة فاسألني عما تريد. فقلت: ما هذا القصر ولمن هو؟ فقال: هذا القصر لك أنت ولأمثالك. فقلت: وكيف ذلك؟ فقال: قد حضر في خيالك ليمثل ما تكتبه الآن. فقلت: لم أفهم ما تقول. فقال: ألم تعلم أنك الآن في عالم الحيوان والنبات وقد أتيت بأعجب ما فيهما وهو النبات الذي يأكل اللحم؟ فقلت: بلى. قال: إن المعدن والنبات والحيوان والإنسان تمثل حيطان القصر الأربعة، فأما أركان القصر فهي الصلة بين كل حائط وما يجاوره، فركن يمثل اتصال المعدن بالمادة الأصلية كالجص والزاج وأمثالهما، فهذه معادن أقرب إلى المادة الأصلية، ومثل ذلك أنواع الشبوب وأوسط المعدن والرصاص والذهب ونحوهما

والركن الثاني يمثل اتصال المعدن بالنبات، وأعلى المعادن الياقوت والذهب ونحوهما، وأقل النبات ما يظهر بالغدوات أيام الربيع من نبات صغير ويجفّ في ضحوة النهار، وفي اليوم الثاني يطلع كعادته ويجفّ ضحى وهكذا، ويسمى « خضراء الدمن »، والركن الثالث يمثل اتصال النبات بالحيوان، والركن الرابع يمثل اتصال الحيوان بالإنسان وذلك في أنواع القردة والفيلة والخيل، فالقرد يقرب من الإنسان في تقليده، والفيل في ذكائه، والخيل في أدبه.

فأما الركن الثالث فهو الذي كنت تكتب فيه وأنا أبيّن لك ما في نفسك. لقد تبدّى لك في هذا الركن الذي يصل ما بين النبات والحيوان نور أولاً قليلاً ثم ازداد وتلألأ وتنوّع. فأما ظهور النور أولاً فهو ما كنت تقرؤه في كتب أسلافك من أن أعلى النبات النخل والكشوثى، أما النخل فلأنه يشبه النبات من حيث إنه إذا قطع رأسه مات كالحيوان، وأما الكشوثى فإنها تعيش على غيرها من النبات فنفسه حيوانية وشكله نباتي. فهذه أشبهت الحيوان من حيث إنها تأكل النبات، والنخل أشبهه من حيث انفصال الذكر عن الأنثى، ومن حيث إنه إذا قطع رأسه مات.

وأدنى الحيوان دودة في جوف أنبوبة تنبت على الصخر الذي في سواحل البحار وشطوط الأنهار.

هذه هي الأركان الأربعة وأمثالها، هذا هو معنى النور الذي ظهر لك أولاً في هذا الركن، فأما النور المتلألئ الذي ظهر بعد ذلك فإنه يمثل لك الجمال الذي ابتهج به قلبك والعلم الذي نلته بالاطلاع على نفس صور النباتات المفترسة، وكيف أدهشك ذلك النبات الجزار الذي قد رسم أمامك في أعلى اللوحة المتقدمة من جهة اليسار الذي كشفه الأستاذ « هوكر »، فإنك لما رأيت صورته ووجدت وصفه وأن فوهته وأسفل سطح الغطاء متلألئتان جميلان في غاية الحسن مزودان بالعمل.

أقول: إنك لما رأيت ذلك دهشت أشد الدهش لأنك تطلب الحقائق، وصارت نفسك تحدثك قائلة هذا نبات لا حراك له إلاّ قليلاً، فما هذا الجمال وما هذا العسل. هذا الجمال وهذا العسل خلق ليغش بهما الحيوان فيقدم عليهما ليموت، فأخذت نفسك تحدثك قائلة أيضاً إن الذباب وكثيراً من الحشرات عمرها قصير، فأكثرها يموت في أوائل الشتاء، والحكمة قضت أن لا معطل في الوجود فلذلك أعدت هذه المذابح ووضعت هذه الأعاجيب بلطف وحيلة حتى يكون لموت هذا الذباب فائدة لأنه إذا مات في العراء فلا فائدة منه، فأما إذا التهمه هذا النبات فقد أصبح غذاء له، وإذن الموت مطلوب والحياة مطلوبة، كلاهما مقصود ولكن موت الحشرات على هذا النمط أجلّ حكمة وأشراف مقصداً.

وهكذا لما رأيت النباتين اللذين رسما في جهة اليمين من اللوحة المتقدمة وعرفت وصفهما، بحيث إن الفم وأسفل الغطاء شكلهما ولونهما جميل، وقد وجد فيهما العسل كما تقدم أيضاً، وهذا العسل قد يسيل إلى الأرض ليغرّ الحشرة ويهديها إلى طريق الموت بسهولة، فإذا جاءت لتشربه فرحت بالمنظر فسارعت لتدخل فيقابلها دهليز أملس، ثم تمر على ممر زجاجي لا تستقر الأرجل عليه ثم يقضى عليها، فتكون طعاماً مهضوماً سائغاً للآكلين.

فهذه المناظر البديعة التي رأيتها في علم الحيوان زادتك علماً وأنارت بصيرتك، فانتعشت قوتك العلمية، فبعد أن كانت معارفك في هذا لا تعدو النخلة ونبات الكشوثى المتقدم، وهكذا تلك الدودة التي تنبت على شطوط الأنهار، وكنت تقرأ في كتب المتقدمين أن تلك الدودة حيوان نباتي لأنها

أعطيت الحركة وحاسة اللمس، وذلك لأنها تمتد لأكل الرطوبات المناسبة لها، فهي إذن شاركت الحيوان في حاسة اللمس وفي الحركة، وأيضاً إن كل نبات في الأرض يحس بالضوء، وبرهان ذلك أنه إذا وضع في مكان مظلم وذلك المكان دخله نور من نافذة، فإن ذلك النبات يميل للنور، فدل ذلك على أنه يحس بالنور، وهو أيضاً يمد عروقه للمواضع الندية وفروعه إلى جهة العلو، فهو إذن يعرف جهة العلو وجهة السفل، وترى النبات إذا امتد على حبل فإنه لا يتعداه ولا يميل عنه. هذا ما كنت تقرؤه في كتب المتقدمين فلما أن رأيت عجائب الأحكام وتبدى لك ما كنت تجهله من قبل إذ رأيت الحكمة العالية القدسية لم تذر هذا النبات مهملاً، بل جعلت له عدة وقوة وسهلت له السبل، وأغرت الحشرات بطرق تخدعها وتستدرجها حتى تقع في فخ هذا النبات فيقتنصها، فهالك الأمر ورأيت تدبيراً محكماً وقصداً ظاهراً، وليس هذا أمراً اتفاقياً ولا حادثاً جاء مصادفة، وإنَّما الذي فعل هذا يقصده ويدبره. هذا هو الذي خطر لك؛ فبعد أن كان النبات يتحرك حركات بسيطة ظهر لك الآن أنه له مملكة منظمة وسلاح، وكما أن الأمم لها مدارس للحرب ومعامل للسلاح لتسطو على غيرها، هكذا هذا النبات له سلاح وجنود، وسلاحه الجمال وجنوده العسل، كما في قول معاوية رضي الله عنه: «إن لله جنداً من عسل»، قالها لما دسّ السم إلى الأشتر بعض قواد سيدنا علي من قتله بالعسل المسموم، فهذا السلاح العسلي هو الذي استعمله النبات. هذا هو الذي هالك وأدهشك فانشرح قلبك فتمثل لك ذلك بالألوان البديعة والصور المشتبكة المتداخلة التي تتموج بألوان قوس قزح.

ثم قال: فهذا القصر الذي رأيته وأركانه مثال خيالي للعلم الذي درسته الآن، وقد قام بذهنك أن ما تكتبه الآن سيقرؤه كثير من شبان المسلمين في حياتك وبعد موتك، فزاد سرورك لأنك اعتقدت وأنت على حق أن شبان المسلمين حين يقرؤون هذا يكونون قد وقفوا بغتة على آخر ما وصل إليه العلم فيتعاطونه شراباً لذيذاً سائغاً للشاربين، ويكون هناك جيل جديد لم تحلم به الأوائل، لأن المسلمين قد حرموا من هذه العلوم حرماناً تاماً، وليس لهم ملجأ يلجؤون إليه، فإذا عرفوا أن القرآن يطلبه كما تكتبه أنت انحلت العقدة وانطلقوا سراعاً إلى العلوم وفتح لهم الباب على مصراعيه فيتعلمون وهم مجدون. هذا هو النور الذي رأيته لامعاً ثم ازداد حتى صار سروراً للناظرين.

فقلت: أوضح لي مسألة الخيال والحقيقة إيضاحاً أتم. فقال: لكل امرئ من الناس قوة ترسم فيها الصور كهيئة الآلة يقال لها المخيلة، وقوة أخرى تدرك المعاني الكلية وهي تسمى المفكرة، فالمفكرة تفهم المعاني والقوة المخيلة تجاورها. فالمعاني الجميلة التي في القوة المفكرة تصور لها في المخيلة صوراً تماثلها وتكون مشاكلة لها. فهذا القصر وهذا النور يمثلان ما في قوتك العاقلة من المعاني.

فقلت له: وهل لهذا نظير في القرآن؟ قال: نعم، ألم تقرأ سورة «الواقعة»، ألم يذكر هناك هذه الحيطان الأربعة لهذا القصر وهذا النور الذي ابتدأ صغيراً ثم تلألأ. فقلت: وكيف ذلك؟ قال: ذكر الله أولاً خلق الإنسان فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾[الواقعة: ٥٨] الخ، وهذا يتضمن خلق الإنسان والحيوان لأنهما معاً مخلوقان من ماء مهين، فهذان حائطان من حيطان القصر. ثم ذكر الزرع والماء، والأول هو عالم النبات والثاني يعبر عما ليس نباتاً ولا حيواناً، ومن ذلك المعادن، فهذه هي الحيطان الأربعة وأركانها فيها.

إن الذي يطلع على هذه الحيطان الأربعة وأركانها يدهش إذا عرف حقائقها، فلذلك تراه أخر ذكر النار، فقال: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴾ [الواقعة: ٧١]، ولا جرم أن النار لا تختص بالشجر المذكور في الآية، بل النار تكون في دهن الحيوان وفي المعادن وما أشبهها، كالسائل المسمى بالبترول، وكذلك يحترق بها بعض الناس يوم القيامة، والأحجار كما قال تعالى: ﴿ وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ [التحريم: ٦]، فالنار عامة لذلك أخرها، وهذه النار الحسية يقابلها نار الشوق للعلم والعشق للحكمة التي ظهرت لك أولاً في الاتصال بين سلسلة النبات والحيوان في كلام المتقدمين قليلاً، وشأن العلم أن يكون أولاً قليلاً فإذا ثابر صاحبه عليه أنار الله قلبه وزاده علماً، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ [محمد: ١٧]، فمن فتح الله عليه بعلم استنارت بصيرته أولاً بقدر ما علم، وعند المثابرة تفتح له أبواب العلم من عند العليم الحكيم. ونظيره في سورة «الواقعة» أنه ذكر النار بعد ذلك فقال: ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ۝٧٣ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة: ٧٣-٧٤]، فذكر النار وأتبعها بالتسبيح، ثم أشار إلى الفتوح السماوي فأقسم بالنجوم وأبان أن هذا القسم عظيم وأنه لا يعرف عظمة هذا القسم إلا العالم بالمقسم به.

فهاهو ذا ابتدأ بالحيطان الأربعة وهي المخلوقات الأرضية التي تحيط بكم، ثم ذكر النار التي تتقد بها كما يشرق قلب الإنسان بعلمها، ثم أبدع فذكر النجوم وأفاد أن أمرها عظيم لمن يعلمون، فأما الجهال فليس لهم حظ من هذا الجمال.

ففي «الواقعة» ذكر العوالم الأرضية وختم بنارها ثم بالكواكب، وفي هذه السورة ذكر أنه رفع السماوات بغير عمد ثم استوى على العرش، وذكر تسخير الشمس والقمر ثم تدبير الأمر إجمالاً ثم تفصيله، ثم أتبع ذلك بعجائب الأرض في قطعها المتجاورات والجنات من الأعناب. إذن المذكور هنا العالم العلوي أولاً ثم السفلي، وفي سورة «الواقعة» السفلي ثم العلوي، إشارة إلى أن كلاً منهما مرتبط بالآخر، فذا درستم النجوم فلتدرسوا ما أثرت فيه بالمنافع والنمو، وإذا درستم النبات والحيوان فلتدرسوا ما أفاد فيهما، إذن إذا درستم السبب فادرسوا المسبب والعكس بالعكس. فهذا إيضاح ما تمثل لك في خيالك وما يطابقه من القرآن، فإذا قال الله هنا: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ [الرعد: ٢] فهاهو ذا تدبير الأمر، وأيّ تدبير أعجب من هذا؟ يعمد إلى نبات لا قوة له ولا قدرة فيزينه ويعطيه عسلاً ويرسل له الحشرات فيختطفها النبات.

إن هذا تدبير عجيب يسر الحكماء، وإن ما رسمته في هذه المقالات من الصور التي عرفها أهل أوروبا من تفصيل الآيات الذي ورد في القرآن فهو الذي ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ وهو الذي ﴿ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ﴾ فآيات الله التي تظهر على هذه الأرض كلها مفصلات بعلمه، وأتبع ذلك بقوله: ﴿ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ [الرعد: ٢] عبّر عنها بالإيقان، كما عبّر في سورة «الأنعام» في قصة الخليل إذ قال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ۝٧٥ ﴾، فبهذا التفصيل الذي ذكرته أنت في هذا التفسير وبالعجائب التي اخترتها ووضحتها فيه يكون الإيقان، أما الإيمان فلا يكفي الأمم الآن، ولا يكون اليقين إلا بمثل العلوم التي أخذت تشرحها، فبهذا يكون اليقين، والمسلمون إن لم يسعوا إلى هذا اليقين فهم هالكون.

فقلت له : إن الآيات هي آيات القرآن . فقال : والقرآن معناه هو هذه المخلوقات ؛ فالمخلوقات آياته والقرآن آياته ، فإذا قال : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾[يونس : ١] فقد قال : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾[فصلت : ٣٧] ، وهكذا غيرها في مواضع كثيرة من القرآن ، وإن تفسيرك للقرآن اليوم هو نفس العلوم التي انتفع بها الناس في الأمم الراقية ، فأصبحت جميع هذه الدنيا ونظمها مقصودة للقرآن بهذا التفسير ، وإذن كل من برع في علم من هذه العلوم وهو مؤمن بالقرآن يكون موقناً ، وكما أن كتاب الله للناس قاطبة هكذا تفسيرك سيقرؤه كثير من عقلاء الأمم ، لأنهم يجدونه فسر القرآن بهذا العالم الذي يعيشون فيه ، وليس أحد من أهل الأرض يشك في هذه الدنيا ونظامها وأنها موجودة ، فإذا اطلع على هذا الجمال وانتظام العلم مع الدين دهش أشد الدهش .

فقلت له : إن ما كتبته في هذا المقام منقول عن أهل أوروبا كما تعلم ، فكيف يقرؤونه ؟ فقال : إنك تنقل مثل هذا المقال عن الكتب العالية عندهم ، وليس كل امرئ مطلع عليها ، ثم إن القوم هناك بالنسبة لحكماء الشرق أشبه بالفلاحين عندكم بالنسبة لنساجي القطن . قلت : فما معنى هذا ؟ قال : معناه أن الفلاحين في مصر يزرعون القطن ، ولكن الذي ينتفع به أهل الصناعة في أوروبا ، فهكذا علماء أوروبا الذين تعلموا من آبائكم الأولين وفاقوهم ورقوا العلوم .

هاأنتم أولاء أخذتم تنقلون آخر ما وصل إليه العلم عندهم ثم تجعلونه في أصل الدين وهو القرآن ، فسيظهر في الشرق رجال يفعلون بعلوم أوروبا ما فعله صناعهم بقطنكم ؛ فكما غزل صناع أوروبا ونسجوا قطنكم لأنهم أعلم بالصناعات .

هكذا سيظهر بعد هذا التفسير وأمثاله في السويداء رجال ويتخذون علوم القوم قاعدة لهم ويتفننون فيها كما تفنن صناعهم في قطنكم ، لأن العقول الشرقية النائمة الآن هي التي ستنتفع بعلوم القوم وترجع لسابق عهدها في التفكير والتنظيم ، وتحدث آراؤها رجة في الشرق والغرب وسيكون ذلك بعد تمام هذا التفسير وأمثال هذا التفسير .

فسألته قائلاً : لم أزل لا أفهم ماذا تعني بقولك إن هذا القصر لي ولأمثالي ؟ فقال : كان ينبغي لك أن تكتفي بما قلته ، ففي ذلك مقنع للإجابة ، ولكني أزيدك إيضاحاً فأقول بضرب مثل :

مثل الناس مع ربهم كمثل صبية أنجبهم حكيم وبنى لهم قصراً وزينه بأحسن زينة وملأه بالخيرات وأعطاهم الحرية فيما يختارون ، فأخذ كل يبحث في القصر عما يلائم طبعه ، فمن منكب على لذاته ، ومن عاكف على زخارفه ، ومن مستريض في حدائقه ، وهكذا أخذ كل منهم يتخذ لنفسه ما يناسبها ، هكذا حال الناس مع ربهم ، وله المثل الأعلى .

لقد زين الله هذه الأرض بأحسن زينة وملأها بكل خير ولم يدخر عن عباده شيئاً ، إن من أمثال هذه الدنيا ما صنعه قدماء المصريين من بناء الهرم الأكبر ، لقد أحسنوا صنعه وجعلوه منظماً بحيث يشاكل العالم العلوي من حيث هندسته وحسابه ، ويفيد أهل الأرض في موازينهم ومكاييلهم كما سبق في سورة « يونس » موضحاً ، فجلَّ الله وجلَّ العلم ، أبدع قدماء المصريين هرمهم بحيث نقل نظام السماوات فأعطاه لأهل الأرض كما تقدم ، وهذا ضرب مثل لحال هذه الدنيا وإن كان الممثل له أجمل وأكمل .

فيا ليت شعري، ماذا يفعل الله للناس بعد ما خلق، لم يذر ضرباً من ضروب الحكمة والعلم إلاَّ أبدعها، ولا فناً من فنون الإبداع إلاَّ أحدثه، ولا حكمة من روائع الحكمة إلاَّ أودعها في أرضكم هذه، وأيّ إبداع أجلّ مما رأيناه في هذا المقام؟

نبات لا قوة له ولا حول، يعطى قدرة وقوة وحكمة، ويخضع الحيوان لغذائه فيتخطى عالم النبات وعالم الأنعام والبهائم، ويشارك الآساد والنمور في افتراسها، إن هذا لشيء عجيب! ذلك هو الإبداع، ماذا يريد الله بذلك؟ يريد أن يصطفي من الناس أقواماً في كل أمة ويقول: ﴿ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ﴾[الحاقة: ١٩] هذا كتابي كتبته بيدي، لمن كتبه الله؟ كتبه للناس قاطبة، ولكن لا يفرح به ولا يعقله إلاَّ الأقلون.

هؤلاء هم الذين كنز الله لهم هذه الكنوز، كنزها لهم وألهمهم أن يستخرجوها، الله أكبر، هؤلاء هم خلفاؤه في الأرض، هؤلاء هم الهداة الحكماء الفضلاء، هؤلاء الذين يفرحون بهذا النظام ويعقلونه ويسكرهم ويبهجهم، هم الذين يبينونه للناس، هم الذين يهدون الناس السبيل وتنشرح صدورهم لذلك، ويبثون في قلوب الناس حباً وغراماً وعشقاً وهياماً لهذا الوجود.

الله أكبر، ما هذه النباتات الجزارة المتقدمة، وأيّ شيء هو ذلك النبات المسمى «ندى الشمس» إن بعض هذه النباتات إنَّما تنبت في المستنقعات، لماذا؟ لأن الله يعلم أن هذا النبات لا يفيد الناس غذاء ولا كساء، وإنَّما يفيدهم حكمة وعلماً فوضعه في أحسن الأماكن، لماذا؟ ليبحث عنه المغرمون به، هؤلاء المغرمون لا تعاف أنفسهم شيئاً فيرون الجمال والحكمة أينما تكون، لا يفرقون بين حال وحال، ثم ماذا يرون؟ يرون في النبات الجزار مثلاً المتقدم رسمه عسلاً سائغاً للشاربين وجمالاً وبهجة وألواناً منظمة أشكالها فماذا يفعلون؟ يقفون مبهوتين ويقولون: إن السوائل كثيرة كالزيت والمياه المعدنية وهكذا مما لا حد له، وهكذا الجوامد والغازات، فلم اختير العسل خاصة لهذا النبات؟ نعم اختير العسل لأنه هو الجاذب للحشرات، حينئذ يقولون: هذا معنى قوله تعالى: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ ﴾ [هود: ٥٦]، ويقولون: هذا معنى قوله: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[طه: ٥٠] فهاهو ذا أعطى هذا النبات الجزار هذا العسل، ثم هدى إليه الحشرات لتكون فريسة له، ويقولون أيضاً: هذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ ﴾[النمل: ٩٣]، ويقولون أيضاً: هذا هو حق اليقين، ويقولون أيضاً: إذا كان هذا النظام على هذا المنوال كما نشاهده فمستحيل أن يكون بلا عقل يدبره، وإلا فما هذا الإحكام؟ فما هذا الذي خصص هذا النبات بالعسل، وهذا العقل هو الذي كان يقوله القدماء، إنه هو العقل الكلي المدبر للعالم، خلقه الله لذلك ومنه اشتقت العقول كلها، كما أن الشمس منها اشتقت السيارات حولها وهذه السيارات تستمد من الشمس.

فهذه النفوس الأرضية من نباتية وحيوانية وإنسانية كأنها أشعة من العقل العام الذي نظم السماوات والأرض، وذلك العقل العام خلق من خلق الله يسمى بلسان الشرع «ملك»، وبلسان الحكمة «عقل» كما علمت، ثم أخذ يقول لي:

إن أمثال هذه العلوم عند المغرمين بها هي الجنة الحقيقية، والقائم بها اليوم يحسّ في نفسه بسعادة يجهلها أكثر الناس في الأرض، فأما قولي لك: إن هذا القصر لك ولأمثالك، فمعناه أنك في

حال إشراق نفسك بهذه المعاني تكون في حال تحجبك عن رذائل هذه الدنيا ومشاغلها، فتنسى هموم الدنيا ما دمت على هذه الحال، وتحسّ أنت بسعادة يجهلها أكثر المتعلمين، فهذا الشعور ليس يفقهه ولا يصدقه إلاّ من رزقه.

هذا معنى كون هذا القصر لك ولأمثالك، وإلاّ فهذه الحال يصغر في جانبها أهل الأرض وقصورهم وصورهم، لأن العقل المتصرف في الأمور العامة يتعالى عن هذه المحسوسات ويستغرق في أنوار الجمال وبهجة الكمال.

فلما سمعت ذلك وعيته وفتحت عيني وكتبته، فأنا الآن لا أدري أكنت في أحلام، أم كان ذلك حديث نفسي في اليقظة، أم هو إلهام. والله هو الولي الحميد. اهـ.

أسمعت النغمات في الأحجار كما تسمعها من الأوتار؟

مقدمة لفهم هذا العنوان

ربما يظن العقلاء أن هذا العنوان في هذا المقام من المبالغات أو الأمور الشاذة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾[الرعد: ٤] الخ. ليس من السهل على جميع الناس إدراك الجمال في هذا الوجود، إن هذه الدنيا دار جمال وهذا الجمال لا يدركه حق إدراكه إلاّ قليل.

إن الله عزّ وجلّ أبرز للناس في هذه الدنيا بعض الجمال ليعرفه العامة والخاصة، ثم أخذ يصطفي طائفة وراء طائفة لإدراك خبايا الجمال والبهاء والحسن والبهجة والكمال، وذلك في حسن النغمات وجمال الوجوه وبهجة النجوم وحكمة التشريع وعجائب الجبال وأحجارها ومعادنها، اصطفى الله أحسن الأشكال والأوضاع لهذه الدنيا، فلنبدأ بالنغمات المشهورة فنقول:

كل بني آدم يفرحون بالنغمات المطربات، ويعشقون الوجوه الجميلات، ذلك أمر يستوي فيه الجهال والعالمون والحكماء والمدعون، فترى جميع الناس يصبون للنغمات المطربات وللوجوه ذات المحاسن والأشكال البهجة وانتظام العينين والفم والأنف والخدين، هذا هو الأمر العام في سائر الأمم والأجناس.

وإنّما استلذوا بالنغمات في العيدان وأوتارها لما هناك من النسب المنظمة التي لا يسعها هذا المقام، ولنكتف بوصف أوتار العود لا لنضرب عليه؛ وإنّما لنريك معنى الجمال الذي عشقه الإنسان في العود، ولماذا يهتزّ طرباً؟ أكثر الناس يطربون للعود وهم لا يعلمون سبب الطرب كما يستلذون بالمأكل ويجهلون سبب تلك اللذات، فأقول:

إنه لا معنى للجمال ولا للحسن إلاّ النسب والوزن وإتقان الحساب أو نظام الهندسة أو نحوهما فكلما كان الوجود أكثر نظاماً كان أوفق لحواسنا، وكلما قل النظام كان أبعد عن ذوقنا، والعود لم تستلذه الآذان إلاّ لما فيه من حسن الإتقان في وضعه.

انظر إلى أوتاره عند قدماء المصريين، فقد جعلوها أربعة، وزاد المتأخرون عليها غيرها، ولكنا نكتفي بهذه الأربعة لتدلك على سير هذا العلم، والأوتار الأربعة هي: «البم والمثلث والمثنى والزير» فالبم ٦٤ طاقة حرير إبريسم، والمثلث ٤٨ طاقة، والمثنى ٣٦ طاقة، والزير ٢٧ طاقة، هذه هي الأوتار الأربعة تمد على وجه العود، مشدودة أسافلها في المشط ورؤوسها في الملاوي فوق عنق العود.

فهذه الأوتار الأربعة بعضها أغلظ من بعض على النسبة الأفضل، فغلظ البم مثل غلظ المثلث ومثل ثلثه، وغلظ المثلث مثل غلظ المثنى ومثل ثلثه، وغلظ المثنى مثل غلظ الزير ومثله ثلثه، وهذه عندهم نسبة فاضلة، فهذه الأوتار الأربعة لها هناك تقسيمات أخرى ذكرها ابن سينا وإخوان الصفا وغيرهما، وزاد المتأخرون كثيراً. ولسنا من علماء هذه الصناعة ولكننا طلاب حقائق، والحقائق هنا أن هذه الأوتار لما وضعت على نسب فاضلة تقدم بعضها في سورة «آل عمران» في أوائلها، استلذتها النفوس لأنها قد امتزجت فيها نغمات غليظات ثقال بنغمات حادات خفيفات، فالغليظات كالأجساد والحادّات كالأرواح، وعلى قدر الانتظام يكون الامتزاج، فيحصل للنفس طرب وهي لا تدري من أين جاءها.

إن النفس مولعة بالنظام عاشقة للإتقان، وأقرب الأشياء إليها النغمات، لأنها سهلة سريعة فتدركها النفس وتعرف متنافرها وموزونها، لذلك كان الناس على الأرض غالباً يدركون هذه المزية، ولكل قوم معان تخصهم وموازين تناسبهم، وإنَّما جعل الله هذا عاماً ليعطي للناس جميعاً نموذجاً لحكمته وذكرى لصنعته، فنغمات العود الموزونات يألفها الناس، بل الطيور والحيوانات والسمك كما هو معروف متداول.

نغمات الأشجار والحشائش وأنواع الرياح

ومن الناس من يطربون لما يسمعون في الحقول والحدائق والمروج وأعشابها وفي الغابات وملتف الشجر وأصوات الرياح المختلفات وغوير الأعشاب وحنين الطير وتغريدها، ويطربون لترنح الأغصان كأنها الولهان وترنّم الزان وأوراق الشجر المختلفات وتفتح لهم معان ومدارك يجهلها سواهم والناس حولهم غافلون لا يعلمون.

علم الفلك

وما عجائب علم الفلك وحركاته الموزونات وطرائق نجومه وحسن نظامه إلاّ كأوتار العيدان ونغماتها، فاقرأ ما مرّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الخ في سورة «البقرة: ١٦٤» وفي «آل عمران: ١٩٠»، تر كيف كان الفلك حساب منظم يشابه في نظامه انتظام حركات العيدان.

إن الناس طربوا لنغمات العود لما فيها من النظام والحساب المتقن، ولكن الخاصة أوتوا علماً أعلى فأدركوا نظام الفلك وألفوه متقناً، فابتهجوا أكثر من ابتهاج العامة بالعيدان، فالعامة بالعيدان يطربون والخاصة يزيدون عليهم بنظام حركات الشموس والأقمار والسيارات، ويرون الشتاء والصيف والربيع والخريف والليل والنهار نغمات لحركات الأفلاك؛ فحركة الأرض حول نفسها وحركتها حول الشمس أحدثتا ظلاماً وضياء وحراً وبرداً مع النظام في البدء والنهاية؛ فأيّ فرق بين العود وبين نظام الأفلاك؟ العود نظمت حركاته وجعلت هناك نسب، هاهنا نظمت الحركات وصحت النسب، هذه نغمات لا يعقلها إلاّ العالمون.

جمال الوجوه

إن جميع الناس يدركون جمال الوجوه، وما جمال الوجوه إلاّ بالتناسب بين العينين والخدين والأنف والفم، هذه أربعة كلما اعتدلت كان الجمال أتم، وكلما اختلفت كان القبح، وعلى قدر

التوافق والاختلاف يكون اشتداد الحسن والوسامة أو القبح والدمامة، إنَّما أظهر الله هذا للناس لأمرين:

أولاً: ليستدلوا بالظاهر على الباطن غالباً، فعلى قدر جمال الظاهر يكون جمال الباطن، وقد يعكس الأمر.

ثانياً: ليفتح لأناس اصطفاهم لقربه، فيبحثون عن جمال أتم ومعان أكمل في تشريح الأجسام ونظام أعضائها.

لقد مر في سورة «آل عمران» نموذج من جمال الأعضاء ونموذج من الوضع الموسيقي الحسن، وأن للأعضاء مقاييس خاصة متى صحت مقاييسها كان الجمال، ومتى لم تصح كان القبح، فلا نعيده هنا.

الجمال في التشريح

وإنَّما نريد هنا أن نبين أن تناسب الباطن أجمل وأوسع مدى، والباطن قسمان: قسم خلقي وقسم جسمي، فالقسم الخلقي هو أربعة: العفة، والشجاعة، والحكمة، والعدل.

هذه أربعة تقابل الأربعة التي في ا لوجه، فمتى كان الإنسان عفيفاً في الشهوات، شجاعاً في القوة الغضبية، حكيماً بالقوة العقلية، معتدلاً في هذه الثلاثة، فهو الحسن الخلق، وللخلق جمال كما للوجه، وهذا هو الجمال الحقيقي في الإنسان، والقسم الجسمي هو نظام الأعضاء، ولن يعرف إلاَّ بالتشريح، وقد تقدم في سورة «آل عمران» في أوائلها.

يا ليت شعري، أليس من العجب أن نرى صدراً حوى رئتين وقلباً بينهما ولم يختلط ذلك القلب بالأمعاء والمعدة، إذ لا تجانس بين العضوين: المعدة والأمعاء خاصتان بالطعام، أما القلب فخاص بالدم، فجعلت الرئة بجانبه لتصفي له الدم فيسير في الدورة، ولم يجعل في هذا الصندوق كبد ولا معدة ولا أمعاء ولا كليتان، لماذا هذا؟ لأن هذه الأعضاء كلها عاملات في الطعام حتى تجهزه وتصفيه ليكونا دماً؛ فالمعدة تطبخه والأمعاء تخلصه من الفضلة الغليظة، والكليتان تصفيانه من الماء، وعضو الكبد له عمل في الدم، والصفراء تنقي الدم من خلطها والطحال كذلك.

فكل هذه الأعضاء جعلت في مقام أدنى حتى تحضر الدم، ويرسل للقلب والرئة بجانبه، وجعل بين الطائفتين حجاب حاجز، إن ذوي العقول السليمة يطربون لهذا النظام والتناسب طرباً لا تبلغه نغمات الموسيقار، كلا.

الحكماء والمغنون

تباركت يا الله، وجمل فعلك وحسن وصنعك وبهر نظامك، أحييت عبادك وأبرزت لهم مكنون فعلك وجوهر صنعك، يا الله، خلقت في كل أمة من هم أحسن وجوهاً وأبهج جمالاً، وأرقّ أصواتاً، وأحسن نغمات لتدل الناس على جمال صنعك حتى يظهر الجمال للحكيم والجاهل والذكي والغافل والعالم والبليد.

أراك اصطفيت في كل جيل وكل قبيل فتياناً وفتيات جملت أصواتهم وحكمت عليهم بالفقر ليسمعوا الناس جمال نغماتهم، لتتم حكمتك وتعم نعمتك، ثم لم تشأ أن تدع الخاصة بلا جمال

يرونه، فاصطفيت في كل أمم أناساً للبحث في الحكمة والعلم حتى يسمعوا نغمات العوالم العلوية والسفلية فيخبروا الناس بما يسمعون ويحببوهم فيما يحبون، فهؤلاء يدركون في الأحجار ونظامها وأنواعها ما يدركه غيرهم في الأجسام ونظامها والنغمات وأوتارها والأفلاك وحركاتها والوجوه وإشراقها.

النغمات في الأحجار كالنغمات في الأوتار

هاهنا قد وصلت إلى المقصود من المقال بعد المقدمات فأقول:

يا عجباً لهذه الدنيا، ويا عجباً لهؤلاء الناس الذين خلقنا فيهم، اللهم إننا جئنا إلى هذه الأرض ونحن راحلون عنها، خلقتنا مسافرين فيها، حكمت علينا بهذا السفر الطويل وأريتنا جمال صنعك وإتقانه، وحكمت علينا ألا نصل إلى مقام القدس والبهاء الأسنى إلاّ بعد أن نمر على الأوضاع الأرضية وندرسها، وحينئذ نستحق أن ندرس ما هو أجمل من صنعك العالي الذي هو أبدع إتقاناً وأحسن نظاماً في عوالم أخرى بعد موتنا.

هذه أرضنا التي تجلى فيها نورك وظهر حسنك وخلقت منا أناساً يعيشون ويموتون وهم لا يعقلون، نعم يعقلون أن هذه الأجسام تطلب الغذاء والشراب والنساء والبنين، ويموتون وهم لا يعلمون كيف ركبت ولا لماذا خلقوا، وإذا نظروا إلى هذه الأرض وما عليها لم يعنهم منها إلاّ أن يسيروا فيها ليالي وأياماً آمنين، ليحظوا بالغانيات القاصرات في القصور، أو ليقتحموا الأخطار ويتجشموا الأسفار لطلب الربح والمال بالتجارة، أو ليكونوا سفراء للدولة، أو ليقابلوا الملوك، أو تضرب لهم المدافع وتصطفّ لهم الجنود وترفع لهم الأعلام والبنود، ثم يموتون ولا هم يذّكرون، ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[البقرة: ١٧١].

هذه هي حال أغلب أهل الأرض التي خلقنا عليها، فأهل أوروبا اليوم قد برعوا في كل العلوم وأكثر من يشار إليهم بالبنان إنّما يهتم بما ينفع الأمم من هذه المواد، أما جمالها ونظامها فلا يدركه إلاّ خواصهم وقليل ما هم ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾[سبأ: ١٣].

اللهم إنا خلقنا في الدنيا للعلم والعمل، ونحن إذا اقتصرنا على العمل كنا كالنحل أو كالنمل، ولكن علينا العلم وعلينا العمل. والعلم الآن هو ما جاء في آية: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ ﴾[الرعد: ٤] فلنذكر كيف كانت الأحجار وأنواعها، نغماتها عند الحكماء أبهج وأدوم من نغمات الأوتار في العيدان لحسن النظام والعدل والبهجة والإتقان.

ولأذكر لك أيها الذكي قلاً من كل من المخلوقات، وإني إذا أتقنت القليل في هذا المقال كفاك عن الكثير، ولأقتصر على ما يكثر وجوده.

الأرض والماء والهواء والبخار والملح الجبلي والحجر الجيري والحجر الرملي والرخام والجرانيت وحجر الرصف، هذه أربع مخلوقات كلية وستة أنواع جزئية من الحجارة بمصر اختلفت أحوالها ومنافعها، فكانت منفعة الغافلين ولذة المفكرين، إن هذا الموضوع يعوزه بحث في أمرين:

أولاً: الجاذبية العامة.

وثانياً: قوة التلاصق.

اعلم أن الأرض والشمس والكواكب كلها متجاذبات متحابات، ولولا ذلك لم نعش يوماً واحداً، فلولا أن الأرض تجذب من عليها لطاح الحيوان والإنسان وكل مخلوق عليها، فهذه الجاذبية نعمة أنعم الله بها على المخلوقات فاستقرت، ولولا هذه الجاذبية لطاحت أرضنا وغابت عن الشمس وتاهت، فمتنا في أقرب زمن، ولكن جذب الشمس لها أبقاها في أمان وسلام. أما قوة التلاصق وهي المقصودة هنا فاعلم أنها من أعجب النعم وأبدع الأحكام، فهذه القوة تختلف في المخلوقات اختلافاً بيناً، وهذا الاختلاف لمصالح المخلوقات.

انظر إلى الماء وإلى الهواء، إن الهواء تباعدت أجزاؤه ولم يشتد التصاقها، فكان أخفّ من الماء ٨٠٠ مرة، أي أن الرطل من الماء يوازنه من الهواء ما يملأ مقدار الحيز الذي يشغله ثمانمائة مرة، ثم إن الماء إذا صار بخاراً بالغليان مثلاً أو بحرارة الشمس، فإن الماء إذ ذاك يأخذ حيزاً أوسع من حيزه وهو ماء ١٧٢٨ مرة، إذن البخار أبعد تلاصقاً من الماء ومن الهواء، فانظر لتلاصق الماء ولتلاصق الهواء ولتلاصق البخار الذي كان أصله ماء، فتجد الماء أشد التصاقاً والهواء أقل التصاقاً والبخار أقل من الجميع، ولهذا رأينا الهواء يعلو على الماء، ورأينا البخار طائراً في الجو وارتفع كما يرتفع المنطاد وعلا علواً عظيماً ثم صار سحاباً.

هذا ما نراه في الماء والهواء والبخار، وهذا وضع عجيب عند الحكماء، أما الجهال وأنصاف المتعلمين في الأمم الإسلامية وغيرها فهم لا يهتمون بمثل هذا النظام، ويكونون في نظر هذا أشبه بالجهال في كل أمة إذ يعيشون في أجسامهم ويتركونها للدود وهم لا يعرفون نظام هياكلها ولا يدرسون عجائبها، ولا هم يعقلون ولا يذكرون.

أفلا ترى أن هذه أوتار أرسلها الله في الطبيعة لخواصّ الأمم، فيرون للبخار وللماء وللهواء من الخصائص ما كان يراه العامة والخاصة في أوتار العود من الاختلاف المنظم الذي أنتج حسن النغم؟ فكما كان البم والمثلث والمثنى كل واحد أثقل مما بعده وأخف مما قبله بنسب خاصة، كذلك هنا كان للماء وللهواء وللبخار وللأرض خواص في التلاصق، اختلافها أوجب حسن النظام والائتلاف، فجرى السحاب في أعلى الجو وزين بقوس قزح، وأرسل المطر، وكان الهواء فوق الماء، فكما ترى في العود البم والمثلث والمثنى والزير، هكذا ترى في الطبيعة الأرض والماء والهواء والبخار؛ فالأرض كالبم، والماء كالمثنى، والهواء كالمثلث، والبخار كالزير، هذا هو الوجود عند الحكماء، وهذا هو النغم عند عامة الناس وعند خواصهم، الخاصة يشاركون العامة في النغم المعروف ولكنهم يختصون بعجائب هذه الدنيا، وكما انتظمت الأرض وما فوقها إجمالاً انتظمت الأحجار تفصيلاً. البم أغلظ من المثلث، والأرض أثقل من الماء، والمثلث أغلظ من المثنى، والماء أغلظ من الهواء والمثنى أغلظ من الزير، والهواء أغلظ من البخار، ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

سبحانك خلقتنا في جو من الموسيقى والجمال، خلقتنا في نغمات عقلية ولكن أكثر الناس لا يسمعون، أبرزت تلك النغمات لنا في العود وأكثر الناس لا يفهمون الأحجار وجمالها ونظامها.

انظر إلى الملح إنه يكون في الجبال كما يكون في البحار كما قدمناه في آخر سورة «آل عمران»، تعجب من ذلك، انظر إليه، إننا نأكله لأنه يدخل في تركيب عظامنا، قد احتجنا إليه فخلقه الله لنا وجعل

قوة التلاصق فيه ضعيفة جداً وإلا لم نقدر على فصله من الجبل ولا على هضمه في معداتنا.

حجر الجير: الحجر الجيري لونه البياض المائل إلى الاصفرار، وهو حبات صغيرات التصق بعضها ببعض، يكسر بسرعة ويخدش بالسكين بسهولة، إذن هو سهل النحت والكسر، لذلك استعمله الناس في البناء، ومتى سخن عدة أيام مع الفحم في «قمين» تحوّل إلى جير، وهذا الجير يجعل «ملاطاً» ويسمى في مصر «المونة» تطلى به الجدران، ويحضر منه ماء الجير للاستعمال في الطب، ويكون مطهراً ونحو ذلك.

الحجر الرملي: ألوانه مختلفة السمرة أو الصفرة أو الحمرة، وهو حبات مستديرة من الرمل التصق بعضها ببعض فكونت طبقات رقيقة، وهو أيضاً سهل الكسر والنحت، يستعمله الناس في البناء وفي أساس الأبنية، ومنه نوع اختلط به حبوب من حجر الصوان، وهذا يجعل أحجار الرحى، ويجعل في أساس المنازل ودعامات القناطر.

الرخام: والرخام من الحجر المذكور قد اشتدت صلابته ولذلك يقبل الصقل، فإذا عاملناه بالرمل صار سطحه صقيلاً جميلاً، وكلما زدناه حكاً بالرمل زاد رونقاً وجمالاً ولمعاناً وبهجة، وهو أبيض أو أخضر أو أحمر أو أسود فيه عروق سود، وقد تكون فيه بقع ذوات ألوان جميلة بهية تسر الناظرين، ومن هذا ما يسمونه المرمر، وإذا أردت أن ترى الرخام فادخل المساجد والكنائس وانظر الأعمدة، وتأمل البهوات الواسعة عند أهل الثراء والغنى، وكذلك السلالم والمغاسل والمناضد والتماثيل التي تصنع من الذي لونه البياض الناصع.

الجرانيت: الجرانيت أشد صلابة وأصعب كسراً ونحتاً، يغلو ثمنه فلذلك جعله قدماء المصريين في معابدهم وتماثيلهم ومسلاتهم التي تراها في «المطرية»، وهي في بلاد الإنجليز والفرنسيين وغيرهم، إن الجرانيت فيه البياض والصفرة الضاربة إلى الحمرة والبياض اللامع كما تلمع الفضة.

الصوّان: هو أصلب وأمتَن من كل ما سبق لا يؤثر فيه الحديد الصلب، ولونه إما البياض وإما الصفرة وإما السواد.

ولقد شاهدنا هذا الحجر في أيدي الزراع من بلادنا المصرية أيام الشباب وهم يشعلون به النار، فيأتون منه بحجرين يضربون أحدهما على الآخر فيخرج من بينهما شرر يتلقونه بمادة تسمى «الصوفان»، وهذا يسمى «الزناد»، وهذا الحجر يستعمل في رصف الشوارع. هذه هي الأحجار الشائعة في مصر، ويقاس عليها البلاد الأخرى.

علم الله قبل أن يخلق السماوات والأرض أننا في حاجة إلى مآكل والمآكل لا بد لها من الملح فخلقه لتتكون منه العظام، وسلطنا عليه وسهل لنا تذويبه في الماء وهضمه، ولو أنه فعل به ما فعل بالصوان أو بالجرانيت لم ننتفع به، فهو جعله موافقاً لأمزجتنا وسهله لنا وأكثره، فكان أقل التصاقاً حتى نستعمله، ثم هو يعلم أننا نعيش على الأرض، فماذا فعل؟ خلق حجر الجير وصوّره قابلاً للنحت والكسر، وسلطنا عليه فأوقدنا عليه النار واستخلصنا منه ما نشاء لنظام منازلنا، وجعل الحجر الرملي قريباً منه حتى نستعمله في أساس منازلنا، وجعل من هذا الحجر نوعاً قوياً لما فيه من حبب صوّانية لنطحن به حبوبنا «أنواع الغلال»، ويساعدنا على سهولة الغذاء، وليكون من مقويات القناطر

وعلم أننا نحتاج إلى إقامة أماكن عظيمة للعبادة أو للدولة فخلق الرخام وحلاه بألوانه الجميلة. وجعل الجرانيت أصعب مكسراً وأقوى وأمتن حتى حفظ به القدماء العلوم لمن بعدهم، وصنعوا التماثيل التي كانت جائزة عندهم، ولم نجد في زماننا اصلح لبناء سد خزان أسوان منه، فاستعمله المهندسون المصريون ومن معهم فيه، فهل يسد الحجر الجيري أو الرملي مسدّه ؟ كلا، ولو أنهم وضعوهما في مكانه لغرقت البلاد ولحقها الفساد.

نعم في الأرض قطع متجاورات فيها الملح والرخام والمرمر والجرانيت والجير والصوان والحجر الرملي، اختلفت قوة التصاقها فتباينت نتائجها، لا يسدّ الصوّان مسدّ الجير ولا الملح، ولا يسدّ الملح مسدّ الجير، كل له عمل لا يصلح له الآخر. لولا الجرانيت لم نطلع على المسلات التي نحتها المصريون، ولولا الجير لم نطهر بيوتنا من كل ما يكون سبب الوباء والأمراض، نعم في الأرض قطع متجاورات، هذا هو تفسير الآيات.

اختلف الماء والهواء والبخار، والأرض اختلفت في قوة الالتصاق، فأشبهت أوتار العود البم والمثلث والمثنى والزير، هكذا اختلفت الأحجار في الجبال وهي متفرقات في أركانها متعاونات في نتائجها، اعتزل الجير والحجر الرملي والجرانيت والصوان، اختلفت أماكنها وقوة صلابتها واتّحدت وجهة غاياتها، فغاياتها نظام هذا الإنسان، فمنها ما يدوم لأجل بقاء علومه في رسومه، ومنها ما لا يدوم إلاّ أزماناً على قدر الحاجة. إن اختلاف حجر الجير والجرانيت والملح والصوان مثلاً أشبه باختلاف الأرض والماء والهواء وأمرها عجب ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾[الحجر: ٨٦].

نغمات الأحجار والأشجار

تبارك الله، ما أجمل صنعه! اختلفت النفوس وعواطفها كاختلاف الأحجار والأشجار ومنابتها، فمن النفوس من لا تعقل من النغمات إلاّ ما تسمعه من الأوتار ولا من الجمال إلاّ ما تراه في الوجوه الحسان، ومنها من صفت سرائرها وارتاحت وعلت على هذه المادة وتخلصت من قيود الذلة فرأت ما لا تراه العيون، وسمعت ما لا يسمعه الغافلون، فصرير الأقلام وحفيف الأشجار ونغمات الطير وخفة الهواء وارتفاع البخار وبهجة السحاب وألوان قوس قزح، كل ذلك لأسماعهم طرب، ولعيونهم جمال، ولقلوبهم بهجة وبهاء.

فإذا ترنحت العذبات في أشجار البان، أو غرّد القمري على الأفنان، أو سمعوا غوير الأعشاب أو أصوات الرياح في الفجاج، أو صوت أحجار الرحى دائرات في ظلمات الدجنات، فهموا معاني مطربات وتجلت لهم من المعاني آيات، وأدركوا نبأ من قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾اهـ.

فائدة: جاء في بعض المجلات العلمية في شهر إبريل سنة ١٩٢٧م ما يأتي:

شجرة تأكل الناس

عادت مؤخراً من جزيرة «مدغشكر» بعثة علمية إنكليزية أمريكية سافرت إليها تحت رئاسة «يونغ» العلامة الشهير، وأكدت للصحف تلك الأسطورة القائلة بأن في تلك الجزيرة شجرة تأكل الإنسان والحيوان، وقبل ثلاث سنين نشرت صحف ومجلات أوروبا مقالات ضافية عن هذه الشجرة الغريبة التي تتغذى بلحوم الإنسان والحيوان.

وأول من أذاع هذه الفكرة الدكتور « سولمون أسبورن » وهو من علماء الجغرافيا المبرزين، سافر إلى « مدغشكر » فسمع تلك الإشاعة، ولم يتمكن من رؤيتها لأنها في الغابات الموحشة، وقد قال هو إنه لا مانع يمنع من وجودها، لأن هناك نباتات تأكل الحشرات.

وفي حديقة النباتات بلندن نبات يأكل الفيران، والصحف الإنكليزية كتبت عنه كثيراً، والذي أكد ذلك العالم النباتي « ليكسيه » الذي وصف الحفلات الدينية التي يقيمها الأهالي حول تلك الشجرة ويقدمون لها وقتاً دون وقت ضحايا بشرية، وقال أيضاً في رسالة للدكتور « فريدلوف »: إن تلك الشجرة كشجرة الصنوبر باسقة وجذرها ذا عقد كثيرة ناتئة، وعليها أربع ورقات فقط، يبلغ طول الورقة أربعة أمتار وعرضها في الوسط ٨٠ سنتيمتراً، وثخنها ٤٠ سنتيمتراً، وهي تتدلى من رأس الشجرة إلى أسفلها وتشبه جلد الجاموس الثخين، وأطراف الأوراق مسننة، وتوجد أزهار على رأس الشجرة تشبه الأقداح تتصاعد منها رائحة كريهة إذا شمها إنسان اعتراه دوار شديد، وتسيل منها نقط مادة مسكرة.

والأهالي في احتفالهم الديني يقترعون على من يقدم ضحية، وقد أصابت القرعة امرأة فأرغموها على أن تتسلق الشجرة وتشرب من المادة المسكرة، وما كادت شفتاها تمسان الزهرة حتى ارتفعت الأوراق المتدلية وأطبقت عليها من كل جهة ولبثت ملتفة عليها مدة أسبوعين وعادت بعدها إلى ما كانت عليه، ولم يبق من جثتها غير رأسها المسلوخ المعلق، وقال « ليكسيه » إنه رآها بعيني رأسه ورفع بشأنها تقريراً مسهباً إلى الجمعية النباتية في لندن. اهـ.

اللطيفة الخامسة: في قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾

اعلم أن هذا المقام قد اتضح في كتابي « أين الإنسان »، ولكن لأقل قلاً من كل:

اعلم أن هذه الدنيا منتظمة عند الحكماء مختلة عند صغار المتعلمين، فانظر تجد الذكور والإناث في الأرض عدداً واحداً تقريباً في كل أمم الأرض متوحشين ومتمدينين، كأن الحكمة قضت أن يكون لكل ذكر أنثى، وهذه القاعدة لم تختل قط في هذا العالم، وقد يحصل جرب أو نحوه فيموت رجال، فيقلون ويكثر النساء، ولكن هذا أمر عارض لا عبرة به، وإذا ظهر هذا في الذكورة والأنوثة فانظره فإنه عام في سائر الأعمال من صناعة وإمارة وتجارة، فإن النبوغ في كل منها مخبوء في العقول محفوظ في النفوس، ولو علمت الأمم تعليماً صحيحاً لخرج من كل أمة هداة على مقدار حاجتهم، وصناع وسوّاس، وهكذا على مقدار الأمم، هذا هو الذي يستخرج من هذه الآية وهو المشاهد في العالم، ولكن يعوزه التدقيق، وفي كتابنا « أين الإنسان » شفاء للمقام.

اللطيفة السادسة: في قوله تعالى: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين. اللهم إنك محمود على نعمك العامة وحكمك التامة في عالمنا الذي نعيش فيه. اللهم إنك أنت أنعمت علينا بنعمة العلم، وأحييت قلوبنا بالحكمة، وأريتنا من عجائب ملكك وغرائب حكمك ما جعل قلوبنا فرحة بك، مستبشرة مبتهجة بالنظام التام والإحكام العجيب، ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١١٥] نحن أينما اتجهنا وقلبنا وجوهنا وفكرنا رأينا إتقاناً مبناه العلم وتنوعاً كثيراً مبناه سعة القدرة والعلم.

هانحن أولاء سمعنا قولك: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾[الرعد: ٨]، وقولك: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴾[القمر: ٤٩]، وقولك: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر: ٢١] وقولك: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾[آل عمران: ١٩٩]، وقولك: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾[الأعلى: ٢-٣]، وقولك: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢]، وقولك: ﴿ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَـٰسِبِينَ ﴾[الأنعام: ٦٢]، وقولك: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ ﴾[الملك: ٣]، وقولك: ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴾[المؤمنون: ١٧]، وقولك: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ ﴾[المؤمنون: ١٨]، وقولك: ﴿ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًۢا ﴾[الجن: ٢٨]، وقولك: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾[يس: ١٢].

اللهم إن هذا هو مناط الحكمة والعلم والسعادة في هذه الدنيا. الناس على هذه الأرض لا حظ لهم من العلم في دين ولا دنيا إلاّ إذا أيقنوا بما في هذه الآيات ونظروها بعقولهم التي أودعتها فيهم، وهذه الأمم الإسلامية مضى لها ١٣ قرناً كان أكثرها في غفلة عن ذلك وقليل منهم هم العارفون بهذه الحقائق ولكن كانوا في زوايا الإهمال.

اللهم إنك اليوم أذنت لأمة الإسلام بالرقي والاطلاع على عجائبك والتحلي بمحاسن العلوم في السماوات والأرض، فهاأنا ذا اللهم أكتب لهم في تفسير كتابك نظرة في عالمك الذي خلقتنا فيه قبل أن أغادره، وأسألك أن تهدي به أمماً وتشرح به قلوباً وتنقذ به أناساً من الجهل والذل وترفعهم إلى غاية الحكمة والمجد والسلام. أيتها الأمم الإسلامية اسمعي، فليت شعري، أيّ الأشياء أذكر لنعرف نظامه، ولقد مضى في هذا التفسير، وسيأتي إن شاء الله ما فيه غنية لذي لبّ.

(١) أأذكر الجسم الإنساني وقد مضى في سورة «آل عمران» من نظامه وبديع أحكامه ما يدهش اللبّ ويثير الإعجاب من ترتيب أعضائه ونظام هيكله ودقة عينه وحكمة أذنه، فهذه هناك مفصلة أي تفصيل، وهل أزيد أمراً يشاهده الناس ولا يعبؤون به، وهو: «المحل الهندسي»، إن الإنسان إذا توهمنا أن هناك فيه سطحاً مستوياً قسمه من فوق رأسه إلى أسفل قدمه قسمين مستويين، فهذا السطح الموهوم نسميه «المحل الهندسي»، ومعنى هذا أنك تجد الأذنين والعينين والخدين والصدغين والترقوتين واليدين والثديين والفخذين والركبتين والساقين والقدمين، كل هذه على أبعاد متساوية من هذا السطح الذي توهمنا أنه قسم الإنسان. فيا عجباً! نحن نعيش ونموت ولا ندري أن هناك نظاماً فينا، بحيث يتساوى بعد العينين والأذنين الخ عن ذلك السطح الذي يقسم الجسم، وهذا جمال نتج عن الإتقان وحسن النظام، كما نشاهد نظيره في المباني المنظمة، بحيث نشاهد شباكين أو نافذتين على بعدين متساويين من باب البناية.

(٢) أم أذكر نظام الأحجار الساقطة من أعلى الجبل إلى أسفل البئر، وقد مر ذلك في أول سورة «آل عمران»، بحيث ترى هناك عجباً عجاباً، وأن نظام أعضاء الجسم وحسنها الموزون بالأشكال الهندسية له نظير في حركات الأحجار الساقطة، بحيث ترى الحجر يقطع في نزوله المسافة بطريق التربيع فلا أطيل به هنا لئلا يكون التكرار المعيب، فاقرأه هناك، واعجب من حجر مجذوب إلى الأرض تزداد سرعته في الثواني الزمنية المتوالية على طريق التربيع بحيث ينزل الحجر في الثانية الأولى ١٦ قدماً مثلاً وفي الثانية التي بعدها ١٦ في مربع اثنين وهو أربع، وهكذا. ولأذكر هنا لطيفتين تناسبان المقام.

اللطيفة الأولى: في معرفة عمق الآبار: إذا رمينا حجراً في بئر وعددنا الثواني التي تمر قبل أن نسمع صوته عند وقوعه في أسفله، فلنربع عدد الثواني ونضربها في ١٦ قدماً، يكون الناتج عمق البئر أقداماً، وتعدّ الثواني إما بساعة وإما بدقات النبض فنحسب كل دقة ثانية.

اللطيفة الثانية: إن النور يقطع ١٩٢ ألف ميل في الثانية، ولعظم سرعته لا يشعر به على الأرض فيظهر للناس جميعاً في لحظة واحدة، ولو دار حول الأرض لأكمل دورته أسرع من لمح البصر، وسرعة الصوت في الهواء هي ١٠٩٠ قدماً في الثانية، فإذا رأينا البرق ثم سمعنا الرعد بعده بخمس ثوان علمنا أن البرق لمع على بعد ٥ في ١٠٩٠ أو ٥٤٥٠، وتعرف الثواني إما بالساعة وإما بضربات القلب.

فاعجب لنظام بهيج، حركة تمر حول الأرض في أقل من لمح البصر وأخرى ألف قدم وتسعون. إن الصوت بالنسبة للضوء كالسلحفاة بالنسبة للأرنب، والصوت بالنسبة للجياد من الخيل أشبه بتلك النسبة معكوسة، وهكذا ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ [القصص: ٦٨]. لذلك يرى البرق قبل الرعد، ولهذا قدم الله البرق على الرعد في الآية.

(٣) أم أذكر جنة العرفان في تفسير القرآن وهي:

أ ـ إن شدة الصوت تقل بمقدار ما يزيد مربع البعد عن الجسم الصائت، كما إذا أتينا بأربعة أجراس بحجم واحد ووضعناها على بعد ٤٠ ذراعاً ووضعنا جرساً آخر بحجمها أيضاً على بعد ٢٠ ذراعاً فإنا نجد صوت الأربعة كصوت الواحد لأن بعدها كبعده مرتين، و٢ في ٢ تساوي ٤، فإذن يكون كل واحد من الأربعة صوته كربع صوت الجرس القريب، فأصواتها كلها كصوته وهو المطلوب.

ب ـ شدة النور تقل بمقدار ما يزيد مربع بعده عن الجسم المنير، فاستبدل المصابيح بالأجراس في المثال فيكون نور المصباح القريب مساوياً لنور الأربعة البعيدة بالمقادير المتقدمة.

ج ـ إن شدة الحرارة تقل بمقدار ما يزيد مربع بعدها عن الجسم المتقد ناراً، فاستبدل المواقد بالمصابيح والأجراس، وفي تلك المواقد نيران متساوية، فإن الموقد القريب تساوي حرارته حرارة الأربعة البعيدة بالمقادير المتقدمة.

د ـ الجاذبية: وهاك نظام الجسمين الخفيفين كالفلّين، السابحين على سطح الماء كما تقدم في «آل عمران»، وكيف يجري أحدهما ليلاقي الآخر بطريق الجذب على عكس التربيع، بحيث يكون إسراعهما إذا كان بينهما ذراعان مثلاً أقل مما لو كان بينهما ذراع واحد، فإذا كانت السرعة في الحال الأولى متراً في الثانية فإنها في الحال الثانية تكون أربعة أمتار، أي أن بعد الذراعين أخذ مربع الواحد وهو واحد، وبعد الذراع أخذ مربع الذراعين وهو أربعة.

هذه مسائل أربع: الجاذبية والصوت والنور والحرارة. انظر وتعجب، هذه كلها قاعدة واحدة تزداد في القرب وتنقص في البعد بعكس التربيع. فيا ليت شعري، كيف يفسر القرآن في هذا الزمان؟ تالله هذا هو التفسير، هذا هو الدين الإسلامي. كيف يقول الله: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد: ٨]، ويقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩٩]، ويقول: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ [الملك: ٣]، فأيّ تفاوت وجدناه بين الضوء والحرارة والجاذبية والصوت، لم نجد تفاوتاً بل وجدنا اتحاداً، وهذه الأربعة عليها مدار حياتنا، فأصول حياتنا متحدة نظاماً عجباً، هذه نبضات القلب كيف

كانت كدقات الساعة في الثواني، كيف يكون القلب ونبضات العروق على نظام تقريبي أشبه بنظام الساعة من حيث الثواني، حتى أمكننا أن نقيس بها عمق البئر، ثم كيف ربعنا الثواني حين ضربها في الأقدام كما ربعنا أبعاد الضوء والصوت والجاذبية العامة والحرارة.

هذا هو علم دين الإسلام، والمسلمون اليوم هم الذين يدرسونه، هذا هو علم التوحيد، وهذا هو شكر الله، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[طه: ١١٤]، فليزداد المسلمون علماً في مثل هذا اقتداء بالخليل عليه السلام ونبينا صلى الله عليه وسلم، وشكراً لله وتوحيداً ورقياً في دنيانا وآخرتنا والحمد لله رب العالمين.

(٤) أم أذكر نظام رقاصي الساعة اللذين قصر أحدهما وطال الآخر وهما في مكان واحد، فإن بينهما نسبة التربيع كما هنا، وكذلك ذراعا ميزان القبان أي ذراع القوة وذراع المقاومة، وبعبارة أخرى: الذراع الطويل الذي فيه الرمانة والذراع القصير الذي يعلق فيه الموزون، فهناك بينهما نسبة منظمة لا محل لإطالة شرحها هنا لئلا نخرج عن المقصود.

(٥) أم اذكر نظام الكواكب السيارة بالنسبة للشمس، أم نظام السنين الكبيسة والبسيطة، إني إذا ذكرت ذينك النظامين هنا أخرج عن المقصود ولكن أقول قولاً وجيزاً فيهما. أما أبعاد السيارات عن الشمس فهو أمر سهل بسيط تفهمه بما يأتي:

إذا حفرنا مكاناً أثرياً فوجدنا فيه تماثيل، والتمثال الثاني يبعد عن الأول ثلاثة أذرع، والثالث يبعد عن الثاني ستة أذرع، والرابع يبعد ١٢ ذراعاً، والخامس ٢٤، والسادس ٤٨، والسابع ٩٦ ذراعاً، إذا عثرنا على التماثيل على هذا النظام لم نشك أن واضع التماثيل حكيم ومهندس ماهر، وقد جعل كل تمثال في البعد ضعف ما قبله من التماثيل، هذه هي الحال في السيارات بالنسبة للشمس، فإذا جعلنا لعطارد صفراً، والزهرة ٣، والأرض ٦، والمريخ١٢، وكوكب مجهول عرفت آثاره ٢٤، والمشتري ٤٨ وزحل ٩٦، إذا فعلنا ذلك نكون قد عرفنا أبعاد السيارات عن الشمس مع إضافات لكل منها مذكورة في محالها، فإذن تكون هذه السيارات التي نراها موضوعة في أماكنها بقوانين ترجع إلى النسبة الهندسية فإن نسبة ٣ إلى ٦ كنسبة ٦ إلى ١٢، وحاصل ضرب الطرفين يساوي حاصل ضرب الوسطين، أي أن ٣ في ١٢ يساوي ٦ في ٦، وهذا من العجب أن ترى كواكب موضوعة بنظام هندسي بديع وهو المسمى «المتوالية الهندسية»، والناظر بالعين لا يعرف شيئاً من ذلك، والناظر بالعلم يعرف هذا النظام. اللهم إنك أدهشتنا بأحجارك وحركاتها، وأدهشتنا بنظام كواكبك ونظام أجسامنا وكل نظام.

(٦) أم أذكر حساب السنة الكبيسة والبسيطة العربية لأبيّن حركات الكواكب كما بيّنت وضع أماكنها، أعني أني أذكر حساب حركات الأرض حول الشمس في السنة لتعرف أن هذه الحركات لها حساب منظم، كما أن بعد السيارات عنها بحساب منظم، ولكني لا أذكر هذا هنا لأنه تقدم في آخر سورة «آل عمران»، وفيه أن السنة القمرية ٣٥٤ يوماً وسدس يوم وخمس يوم، وهذا السدس وهذا الخمس بتكرارهما كل سنة يزيدان١١ يوماً في مدة ثلاثين سنة، فترى كل ثلاثين سنة تكون منها ١١ سنة كل منها ٣٥٥ يوماً، و١٩ سنة كل منها ٣٥٤ يوماً، فالأولى هي الكبيسة والثانية هي البسيطة، ولا أذكر لك الحساب هنا لأنه تقدم هناك ولئلا نخرج عن المقصود من النظام التام، فكما رأينا أبعاد الكواكب

بنظام هندسي هكذا رأينا حساب سير كل كوكب بحساب محتم، فأولهما هندسة في المكان وثانيهما حساب في الزمان. هذا هو النظام التام.

(٧) أم أذكر لك نظام الشعر العربي ونحوه والموسيقى، إن ذلك يطول شرحه ولكني أبيّن لك أن الشعر حسابه كحساب الفلك والنجوم زماناً ومكاناً، وأبيّن لك ذلك بغاية الاختصار مع الوضوح. اقرأ البيت المشهور الآتي:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل

هذا البيت من بحر الطويل، ولا معنى لبحر الطويل إلاّ هذا الوزن، وهو: فعولن مفاعيلن ٤ مرات، ومعنى ذلك أنه ٤٨ حرفاً إذا لم تدخل عليه علل تحذف بعض الحروف، وهذه الثمانية والأربعون منها ما هو أوتاد ومنها ما هو أسباب، ومعنى الوتد: حرفان متحركان وحرف ساكن، ومعنى السبب: حرف متحرك وحرف ساكن، فالأول مثل «على»، والثاني مثل «من» و«عن» وهكذا. فهذا البحر فيه ١٢ سبباً وفيه ٨ أوتاد، فالمجموع ٤٨ حرفاً من ضرب ١٢ في ٢ ومن ضرب ٨ في ٣، فقولك: «فعولن» فيه وتد وفيه سبب، وقولك: «مفاعيلن» فيه وتد واحد وسببان، وبتكرارهما أربع مرات يكون عندك ١٢ سبباً وثمانية أوتاد، وربع البيت من الطويل فيه٧ متحركات وخمس سواكن، ونسبة ٧ إلى ٥ كنسبة ١٤ إلى ١٠ كنسبة ٢٨ إلى ٢٠، وحاصل ضرب الطرفين يساوي حاصل ضرب الوسطين.

الله أكبر، جلّ الله وجلّ العلم وجلت الحكمة. اللهم إنك أريتنا جمالك في أجسامنا ونظامها وترتيب أعضائها وفيما يتحرك من أعلى إلى أسفل، وفي أبعاد كواكبك وفي حركاتها وفيما ننطق به من الأشعار مشاكلة لما أتقنت أنت من حركات الأفلاك وأبعادها. اللهم إن هذا هو الجمال الذي من حرم منه فقد حرم من مقصود هذه الحياة ومن جمال الحياة الأخرى.

فيا عجباً بما هو منظم كنظام الأحجار الساقطة والموازين المنصوبة والكواكب الجارية، كل ذلك بحساب ونظام بحيث تكون أبيات الشعر حاملة جمال النسبة وبهائها إذ يكون حاصل ضرب الطرفين كحاصل ضرب الوسطين، مثل ما تقدم في أبعاد الكواكب عن الشمس، فالنسبة المتقدمة هنا فيها ضرب ٧ في ١٠ يساوي ضرب ٥ في ١٤ كما ضربنا سابقاً أبعاد الكواكب.

اللهم إن العلم هو السعادة التي بها رأينا ما تنطق به الأطيار من الأسجاع، وما ينطق به الإنسان من الأشعار على أوزان نظام أبعاد الكواكب ونظام حركاتها. هذا هو الجمال وهذه هي السعادة النفسية الباقية الأبدية التي بها يستعد الإنسان لحال أرفع مما عليه أهل الأرض الآن الذين يدرسون هذه العلوم وأكثرهم لا يفكرون في أمثال هذا، وسيكثر في المسلمين بعد ظهور هذا التفسير رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، بل يتحلون بعلومهم عن سفاسف هذه الدنيا، ويقرؤون حكم ربهم، ويشاهدون آثاره في خطرات الأفكار وحركات الأشجار ونغمات الأوتار ورنات المثاني والمثالث والأشعار.

(٨) أم أذكر نظام الماء المركب من غازين خفيفين وهما الأكسوجين والأودروجين، ونسبة أولهما إلى ثانيهما كنسبة ٨ إلى ١، فكل ١٦ جزءاً من الأكسوجين بحسب الوزن يكون معهما جزءان اثنان من الأودروجين، وإياك أن يصعب عليك أمر هذين العنصرين، فما هما إلاّ عنصران أشبه بالهواء

الذي نعيش فيه، فالماء يحلل إليهما تحليلاً حقيقياً وقد حلل أمامي في مدرسة دار العلوم، وهاهو الآن يحلل في مدارس العالم قاطبة، فترى هذا الماء الذي تشربه ما هو إلاّ نوعان من شيء لا نراه، فإذا اجتمع هذان النوعان معاً حصل الماء فرأيناه وشربناه، وهو سائل وهما غازان.

الله أكبر، هذان العنصران لهما أيضاً نسبة شريفة، فنسبة ٨ إلى ١ كنسبة ١٦ إلى ٢، وضرب ٨ في ٢ يساوي ضرب ١ في ١٦، وهذا عجب عجاب.

أصبح الماء والحجر والكوكب والشعر وجسم الإنسان جميعها بنسب هندسية، ولولاها لاختل النظام ولم يكن ماء ولا شمس ولا كوكب ولا إنسان؛ ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾[الرعد: ٨]، إن الله أذن للمسلمين اليوم أن يتبوؤوا مكانتهم بين أهل الأرض.

ومن أبى قبول ما أكتبه اليوم من أمم الإسلام فإنهم سيكونون في الأسفلين في هذه الدنيا وفي الآخرة، لأن الله أذن للأمم كلها أن ترتقي، فإذا نامت أمة ما فلا تلوم إلاّ نفسها، وإني بهذا الكتاب أنذر المسلمين، أنذرهم الطامة الكبرى في هذه الحياة وفي الآخرة إذا جهلوا جمال ربهم الذي أبرزه في الأرض وفي السماوات.

(٩) أم أذكر نظام النبات والعناصر الداخلة فيه المذكورة الموضحة في سورة «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ ﴾[البقرة: ٢٥٩] الخ، وكيف كانت العناصر داخلة في كل نبات بنسب محددة كما حددت الكواكب وأبعادها ونظام جسم الإنسان من حيث المقادير المذكورة في أوائل سورة «آل عمران»، إذ ترى مثلاً طول قدم الإنسان كطول ما بين أذنيه وكلاهما شبر وربع، وبعد ما بين ثدييه وما بين سرته وعانته كل منهما شبر واحد، وهكذا فانظره هناك.

(١٠) أنا لا أطيل لك في شرح ما تقدم لأنك تكتفي بما ذكرته لك لا سيما إذا راجعت ما أشرت إليه في هذا التفسير، إنّما الذي أردت أن أشرحه اليوم شرحاً وافياً حتى تبتهج بنور الحكمة والعلم وتقف على جمال الله عزّ وجلّ الذي أبرزه على أيدي علماء أوروبا، وأهل الشرق نائمون جاهلون غافلون مع أن القوم كان ابتداء تعلمهم من آثار آبائنا الأولين.

فانظر رعاك الله تنوع الماء، فإنه يكون بخاراً في الجو وثلجاً، ويكون سائلاً على الأرض وجليداً أنا لا أريد اليوم أن أذكر تنوعه في باطن الأرض، فيكون أنواعاً مختلفة تنفع لأمراض شتى، ولا أطيل في جمال تكونه في الجو بخاراً تارة ومطراً أخرى وثلجاً آونة، ولا أسهب في عجائب ألوانه في البحار العظيمة ولا في أنواع حيوانه ونباته، وإنما أكتفي بشيء واحد وهو الآتي بيانه:

أشكال الثلج المسدسة

أمامي الآن كتاب إنجليزي اسمه «كل العلوم»، في هذا الكتاب ضروب من العلم، وقد وقع نظري فيه على مقال ممتع في نظام الثلج، وأنا وإن كنت رسمت أشكال الثلج في أوائل سورة «آل عمران» فإني لم أكن إذ ذاك قد اطلعت على محاسن جمال تلك الأشكال ولا بهجتها.

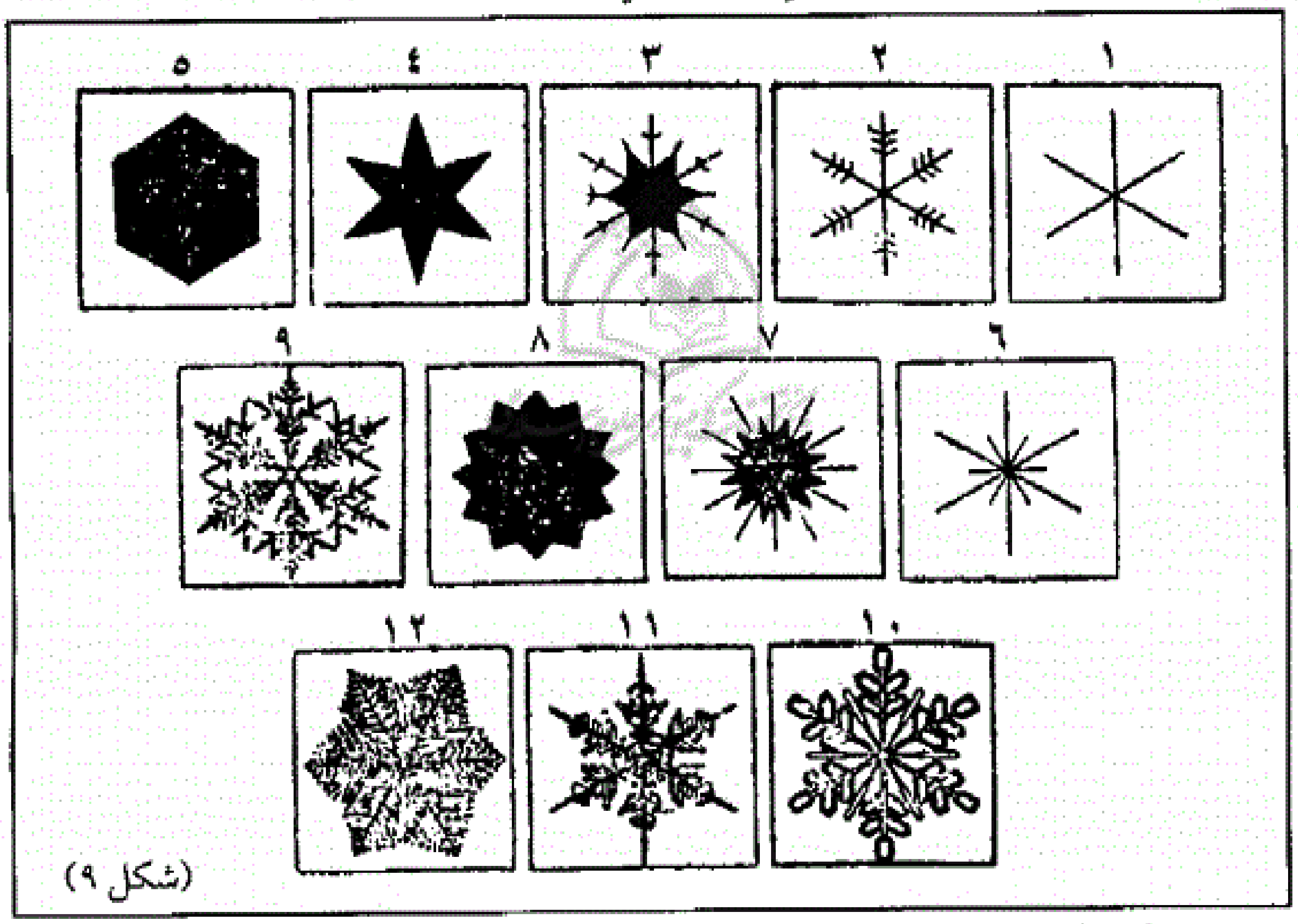
اللهم إن النظر الظاهر لا يكتفي به إلاّ الغافلون والجاهلون.

اللهم إنك أودعت فينا غرائز لا تقف عند حد فنحن نشتهي الطعام والشراب والتزاوج والمال والصيت وجمال الوجوه وجمال الأشكال، ولكن توغلنا في ذلك ضارّ بنا لأنه يعود بالوبال، وإنّما

ذلك كله كشبكة صائد وكلوح يقرؤه التلاميذ، وإنّما الفطرة العظمى الباقية المودعة فينا التي هي المقصودة بالذات هي فطرة الحقائق العلمية.

إن فطرنا كلها على نمط واحد وهو أن تقول هل من مزيد، ولكن المزيد في الأمور المادية المحسوسة وحدها إنّما هي سبيل الحيوان، فالجاهل يكتفي بجمع المال أو الجمال أو الذكر أو الصيت، ولكن الحكيم العالم بل المؤمن الحقيقي هو الذي يكتفي من الأمور المحسوسة بأقلها، ويبحث في البواطن، فهاك أشكال الثلج المسدسة التي كتبت في ذلك الكتاب بقلم الأستاذ «روبرت جيمس»، فقد رسم في صفحة ١٧٨ من المجلد الثالث من الكتاب المذكور ١٢ شكلاً، واصطفى هذه الأشكال من ١٥١ شكلاً رسمها وحفرها وطبعها الأستاذ «جاشر» في عام ١٨٥٥، ورفعت مع تقرير رسمي إلى الجمعية البريطانية العلمية، وقد لاحظ تلك الأشكال في ثمانية أيام من شهر فبراير ومارس من تلك السنة.

قلت لك إن هذه الأشكال أمامي الآن وهاهي ذه مرسومة أمامك.



(شكل ٩)

فهاأنا ذا أريتك الأشكال الاثني عشر المسدسات التي انتخبها ذلك الكاتب من ١٥١ شكلاً، ويقول: إن الأشكال المسدسة الثلجية التي عرفها الناس إلى الآن تبلغ نحو ألف شكل كلهن مسدسات ولكل واحد منها أضلاع إبرية الشكل شعاعية، والتنوع الذي لا نهاية له لا يخرج الشكل عن التسديس ولا عن الأضلاع الستة.

ويقول: إن بين كل ضلعين شعاعيين من هذه الأضلاع ٦٠ درجة، فمعنى هذا أن مجموع الزوايا ٣٦٠ من ضرب ٦٠ في ٦، وهذه الدرجات تقاس بها الدائرة التي ترسم فوق هذه الأضلاع، وإنّما ترسم الأشكال على هذا النمط في الجو حيث تكون درجة الحرارة ٣٢ بميزان «فارنهيت» وذلك أن ذرات الماء

الطائرات المسميات بخاراً إذا ضربها البرد على تلك الدرجة اجتمعت على شكل منظم كما رأيته، وأبسط الأشكال الشكل الأول وهو الذي حوى ستة أضلاع إبرية الشكل شعاعية. ويليه الثاني وهو الذي ترى تلك الأضلاع فيه قد حليت من جانبها بأشعة إبرية كأنها أوراقها. ويليه الثالث والرابع والخامس؛ ففي الثالث ترى الأضلاع الشعاعية قد حليت بأجنحة أو أغشية في داخل زواياها. وفي الرابع كانت تلك الأجنحة قد صارت أتمّ. أما في الخامس فقد صار الشكل كله منشوراً سداسياً له ستة أضلاع وستة رؤوس. وفي الشكل السادس حصل أمر جديد وهي إبر أخرى شعاعية تدخلت بين الأضلاع الأولى الطويلة. أما السابع فإن هذه الأضلاع الشعاعية الحديثة قد ساوت الأضلاع الشعاعية الأولى وحليت جميعها بأجنحة أو أغشية إلى أنصاف الأضلاع تقريباً. أما الثامن فإن تلك الأغشية قد ملأت جميع الفراغ في ذلك الشكل. أما الشكل التاسع فقد حاز الجمال والحسن كله والبهجة والرواء وباهر الطلعة، فما أجمله وما أعجبه! ففيه ترى الأضلاع الشعاعية الأولى قد حليت بأغشية لطيفة منتظمة كثيرة كأنهار روض باهر حسن بهيج، أوراقه مشتبكة خمائله مهندمة أيّما هندام. أما الشكل العاشر، والحادي عشر والثاني عشر فهي كالعاشر حسناً وجمالاً ونضرة، فالأضلاع الشعاعية مزدانة بزينة الجواهر اللؤلؤية التي تشبه أوراق الأشجار، وأبدعها وأبعدها مرمى هو الشكل الثاني عشر.

هذا ملخص ما وصفت به هذه الأشكال مع تصرف يناسب جمال المقام، هذا بالإجمال فحوى ما يقوله ذلك الكاتب الإنجليزي مع زيادة وملح يبتهج بها المفكرون.

وأنا أقول أيها الذكي: اعلم أن عالمنا الذي نعيش فيه قد قسم الله فيه العقول والأرزاق والأخلاق والملكات والفضائل، وجعل لكل من الناس مقاماً، ولكل مقام مقال، ومقام ذلك الكاتب الإنجليزي في علم الطبيعة المشاهدة، وقد وصف هذه الأشكال بما يلائم علم الطبيعة، فوصف ما يشاهده الناس بأبصارهم، ولم يتعرض لما في علم الرياضيات إلاّ بكلمات قليلة لإيضاح المقام. أما أنا في هذا التفسير فإنني أسير مع القرآن، والقرآن يقول الله فيه: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[الرعد: ٨]، فلم يخص المقدار بعلم من العلوم، فعليّ إذن أن أفسر الآية بما يفتح به عليّ من العلوم، مع مراعاة ذوق الأذكياء من قرّاء هذا التفسير.

إن علم التفسير يرجع إلى النظام العام وهو المسمى «العلم الأعلى»، ويسمى أيضاً «علم ما وراء الطبيعة»، وإياك أن تظن كما يظن كثير ممن لا علم عندهم أن علم ما وراء الطبيعة فوق مدارك الناس، كلا، وإنّما هو العلم الذي يشمل جميع العلوم الرياضية والطبيعية، فهو إذن وراء الطبيعة ليس قاصراً عليها، وأيضاً هو يدرس بعد علم الطبيعة، لأن الأمم عادة تدرس الرياضيات ثم الطبيعيات ثم تقرأ الإلهيات وما الإلهيات إلاّ العلوم التي هي أعم منْ هذين. فمعرفة الله ومعرفة الروح وما أشبه ذلك، كل ذلك لا يختص بعلم واحد، فإذن العلم الرياضي والطبيعي داخلان في العلم الإلهي وهو الذي نريد التكلم عنه الآن، فنقول مستمدين من الرياضي والطبيعي معاً. انظر رعاك الله إلى هذه الأشكال من وجهين:

الوجه الأول: أن نظام الشكل المسدس في الثلج في الأقطار العلوية الباردة قد تقدم أنه ملازم للتسديس وللأضلاع الستة وزواياها الستة المنظمة، وهذه الأشكال تتنوع إلى ما لا نهاية له مع

المحافظة على الأساس، رسم الله ذلك الشكل من قطرات البخار المائي الذي احتجنا إليه حينما صار ثلجاً، أحوجنا الله إلى الماء وكذلك الحيوان والنبات بحيث لا يعيش حي إلاّ به، ونرى أننا بجبلتنا نحرص عليه، ويقول الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾[الواقعة: ٦٨-٦٩]، يمتنّ الله بالماء ويحوجنا إليه، ويؤلمنا بالعطش إذا لم نشربه، لم هذا كله؟ وكان يكفي أن نعيش على حال غير هذه، ولكنه ربطنا بالماء وملأه علماً وحكمة، وقال: انظروا في ملكوت السماوات والأرض، وقال في الماء على أحد تفسيرين: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾[الفرقان: ٥٠]، وعبر عن القرآن والعلم بالماء.

فهانحن أولاء نتذكر في الماء لمّا صار ثلجاً، فوجدنا أنه بتنوعه الذي لا يتناهى صار مضاهياً لما يتكون منه من النبات والحيوان، فالنبات كله ينمو ويلد ويموت، وهو متنوع فوق مائتي ألف نوع، والحيوان يحس ويتحرك، وتنوعه يعدّ بآلاف الآلاف، وهذا نوع الحشرات قد قالوا إنها ستبلغ المليونين، إذن تنوع الماء صار أشبه بتنوع ما تركب منه، دلالة على وحدة هذا العالم ووحدة صانعه، ودلالة على اتّحاد موضوع هذه الدنيا.

ألا ترى أن الكواكب كلها من مادة واحدة ولا اختلاف بينها إلاّ بالتنوع، وهذه المجرة التي نعيش فيها قد أحصوا ما فيها من الشموس الكبيرة فوجدوه فوق مائتين وأربعين مليوناً من الشموس الكبيرة، وهناك ما لم يعلم للآن، وهناك مجرات أخرى ولها شموس كهذه الشموس.

ويقول العلماء: إن تركيب الكواكب متقارب من عناصر بعضها معلوم وبعضها مجهول، وكلها دائرات وكلها منظمات، فإذن صار تنوع الماء كتنوع النبات والحيوان، وكتنوع الشموس والكواكب والتوابع والأراضي والأقمار، وهذا قوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣]، وهذا معنى وحدة العالم الدالة على وحدة الصانع الذي نوّع الوحدة فجعلها سارية مع الكثرة، فبينما نحن نقول حيوان واحد نراه متنوعاً آلافاً وآلافاً وجميعها يطلق عليها اسم الحيوان، فالوحدة إذن سارية في الكثرة، هكذا الأعداد المركبة كلها من الواحد الذي بتكراره جاءت الأعداد كلها، ومع ذلك نقول مائة واحدة وألفاً واحداً، بل نقول في العدد الذي لا يتناهى إنه واحد، إذن الوحدة سارت مع الكثرة لم تفارقها، وهذا تمام الكلام على الوجه الأول.

الوجه الثاني: ننظر نظرة رياضية في هذه الأشكال المسدسة فإننا نرى عجائب، ذلك أنك تعلم أن هناك إبراً شعاعية ستة لا تفارق شكلاً من الأشكال التي علمت للناس، وهذه الإبر الشعاعية أنصاف أقطار الشكل المسدس. إن من يعرف مبادئ علم الهندسة يعلم أن كل ضلع من أضلاع الشكل المسدس المنتظم كالذي هنا يساوي نصف القطر، فأنصاف الأقطار الستة هنا تساوي أضلاع المسدس، وعليه إذا رسمت خطاً فوق كل خطين متجاورين فإنك تحصل على مثلث متساوي الأضلاع متساوي الزوايا. إذن هنا عندنا ٦ مثلثات متساويات و١٢ ضلعاً متساويات و١٨ زاوية متساويات، لأن كل مثلث فيه ثلاث زوايا وهي كلها متساويات والأضلاع متساويات، وكل زاوية ٦٠ درجة، والزوايا الثلاث ١٨٠ درجة. ومعلوم أن زوايا المثلث الثلاث تساوي قائمتين، والقائمتان ١٨٠ كل منهما ٩٠؛ هذا في أبسط الأشكال، وإذا كانت الزوايا التي حول المركز ٦ فبضربها في ٦٠ يكون المجموع ٣٦٠.

ألا تعجب معي أيها الذكي من هذا الجمال ؟ خلقنا الله وأحوجنا إلى الماء، وجعل لعقولنا فيه مجالاً حينما يكتب به في صفحات الهواء، خلقنا الله في الأرض ولكنه خلق لنا عقولاً أوسع من الأرض، وهي عقول تعجب وتفرح بالنظام، هذا النظام الباهر العجيب جعل العلماء الجمال في التساوي ونحوه، فالمساواة والتنصيف والتربيع والأثمان والأثلاث كلها فيها الجمال، وقالوا: إن أحسن الأشكال الدائرة، ولذلك ترى جميع هذه العوالم دوائر، وإنما كانت الدائرة أحسن الأشكال لأن المساواة فيها لا نهاية لها، فأنصاف أقطارها التي لا تتناهى متساويات، وكذلك الأقطار وهكذا الدوائر التي ترسم على محيطها كلها متساويات، وهذه أجمع الأشكال وأوسعها، وهكذا الشكل المكعب فانظره تجد أن له ٦ وجوه متوازيات، كل اثنين متقابلين متوازيان، و٨ زوايا مجسمات متساويات، و١٢ ضلعاً متساويات، كل اثنين منها متوازيان، و٢٤ زاوية مسطحة متساويات، فإذن فيه ٥٠ من المتماثلات، وهي: ٦ و٧ و١٢ و٢٤ فهذه خمسون، فإذن كلما كان التساوي في الشيء أكثر كان أجمل، ولذلك نرى جمال الشجر والزرع كل ذلك لتساوي الأوراق والأغصان والأزهار الخ.

وهذا الشكل المسدس الذي رسمه الله بالثلج من قطرات الماء نرى فيه ٣٦ من المتساويات: المثلثات ٦، والزوايا ١٨، والأضلاع ١٢، وهذا كله في الشكل البسيط، فما بالك بما هو أكمل وأتم كالشكل ١٠ المتقدم، ففيه فوق ما تقدم ٦ زوايا أخرى وبها يتضاعف عدد التساوي فيكون ٧٢، وإذا أضفنا إليه الأوراق التي تنبت على الأضلاع الشعاعية الأصلية وهي في كل واحد ٥ تصير كلها ٣٠، فيكون المجموع ١٠٢، فإذن هذا الشكل فاق المكعب وصار أكثر من ضعفه. أما الشكل الثاني عشر فقد بلغ نحو المائتين.

هذا هو سبب الجمال الظاهر في هذه الأشكال، فالجمال في هذه راجع إلى كثرة التساوي، ولذلك يقول علماء الأرواح وعلماء الحكمة: إن الأرواح بعد الموت تفرح بأمثالها من كل روح شريفة كاملة، فتزيد أخواتها أفراحاً وتزداد لذات أهل الجنة بازدياد الأرواح الواصلة إليهم، لأن في تلاصق الأشكال زيادة الجمال وزيادة الجمال هي المسرّة والفرح والبهجة والكمال.

نظرة أخرى في عدد ٦

قد تقدم في أول «آل عمران» أن عدد (٦) يسمى عدداً تاماً، وبيانه كما هناك أن العدد إما ناقص وإما تام وإما زائد، فجميع الأعداد إما زائدة وإما ناقصة ولا تام فيها إلاّ النادر، وذلك النادر هو (٦) في الآحاد و(٢٨) في العشرات. أما الأعداد من مائة إلى ألف فليس فيها إلاّ عدد واحد هو التام، فالعدد الزائد هو الذي إذا جمعنا أجزاءه كانت زائدة عنه، والناقص هو الذي تنقص أجزاؤه عنه، والتام هو الذي تساويه. مثال ذلك: عدد (٨) وعدد (٤) وعدد (١٢)، فعدد (٨) أجزاؤه (٢و٤و١) فالجميع (٧)، ومعنى هذا أن مضاريبه مضافاً إليها واحد من (٨) مجموعها (٧)، وعدد (١٢) أجزاؤه (٣و٤و٢و٦و١) فهي إذن (١٦)، وعدد (٤) أجزاؤه (٢و٢و١) الجميع (٥)، فإذن (٤و١٢) عددان زائدان و(٨) عدد ناقص، أما عدد (٦) فأجزاؤه (٢و٣و١) تساوي (٦) فهو تام. ومثله عدد (٢٨) فإنه مركب من (١٤و٢و٧و٤و١) لأنه مركب من (١٤في ٢)، ومن (٧ في ٤)، ومن (١ في ٢٨)، ولا شريك لهذا العدد في الأعداد من عشرة إلى مائة.

وقد بحث العلماء في هذه الأعداد التامة فوجدوها نادرة فربما تمر عشرات آلاف ولا تجد فيها إلاّ عدداً واحداً كما هو موضح في محله.

ثم إنني لما قرأت هذا العلم وهو المسمى خواص الأعداد، قلت في نفسي: هل الأعداد مثل التام قلّ منها كما قلّ الكاملون من بني آدم، وبعد سنين اطلعت على كتاب علم خواص الأعداد لأستاذنا المرحوم علي مبارك باشا، فرأيته ذكر هذا، فقال: إن ندرة العدد التام يشبه ندرة الحكماء والأنبياء في الناس، أقول: وهذا حق، لأن الناس جميعاً مقلدون والنادر هم المفكرون الذين يسوقون الأمم إلى مجدهم، وعليه يكون عدد (٦) من الأعداد التي لها شأن أعظم وهي نادرة الوجود كما ندر الحكماء، وعليه اختاره الله حين صنع المسدسات الثلجية فجعلها مسدسة الشكل ونوع من التسديس كأنه يقول للناس: هاهو ذا نظامي جعلته على أتقن وأندر ما يكون من الحكمة، إن الحكيم يجعل نظامه على أحسن الصور، ويتجافى عن الصور الرديئة، والصور المنحرفة لا نهاية لها بزيادة أو نقص، فأما التامة فهي التي لا نقص فيها ولا زيادة، وهذا هو النظام الموضوع لهذا العالم أصالة كنظام مسدسات الأشكال الثلجية فإني رأيتها منتظمة غاية النظام، فتسديسها النادر الوجود مناسب لنظامها التام، ولا جرم أن الله بنى عرشه ونظام ملكه على العلم والحكمة وتمام الأمر، فقال في سورة «هود»: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ [هود: ٦-٧] الخ، وقال في سورة أخرى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ [يونس: ٣]، فمرة يقول: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾، ومرة يقول: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾، ولا جرم أن الماء على حقيقته فيه حياة الحيوان المذكور في نفس الآيات، وفيه عند إرادة مجازه الإشارة للعلم والإتقان، فملك الله كله قائم بالحكمة المعبر عنها بالماء، والحيوان خاصة المذكور في الآية السابقة قائم بالماء على حقيقته، فإذا كان عرش الله على الماء فذلك لتدبير الكائنات عامة، ولتدبير الحيوان مع النبات خاصة، فإذن صارت الآية الأولى والثانية في معنى واحد، فإذا كان العرش في الأولى على الماء فهو في الثانية للتدبير، ولا تدبير إلاّ بعلم والعلم لا يكون إلاّ بحقائق ثابتة، ومن أعجب الحقائق المسدس الذي ظهر سرّه في الثلج الذي هو تنوع في الماء الحقيقي، فبيّن الماء باعتبار حقيقته، وباعتبار مجازه مناسبة بالماء الحقيقي منظم الأشكال عند تجمده، والعلم مبني على حقائق ثابتة بديعة، والعلم به يحيا العالم، والماء به يحيا الحيوان والنبات.

فسبحانك اللهم أبدعت الماء بتسديس أشكاله، وأبدعت نظام الأفلاك فجعلت أبعاد الكواكب عن الشمس كما تقدم راجعة إلى عدد ٦ و١٢ و٢٤ و٤٨ و٩٦، فإذن هذه الأبعاد مبنية على عدد (٦) وهو العدد التام.

فهانحن أولاء ننظر في هذا الوجود فنرى عدد (٦) الذي هو نادر الوجود لأنه تام قد سرى في أشكال الماء وفي إبعاد الكواكب عن الشمس، وهكذا مما ذكره الله في الآية السابقة في عدد أيام خلق السماوات والأرض فجعلهما في ستة أيام، ولعل هذا من حكم تخصيص عدد الأيام بعدد (٦) لأنه تام، فكأنه يقول: إن ملكي مبني على أتم نظام، وإلا فلماذا خصص عدد الأيام بعدد (٦) مع أن الأيام ليست كأيامنا، فقد يكون اليوم نحو ألف سنة أو خمسين ألف سنة أو أكثر أو أقل، فإن الكواكب العليا

لها أيام لا نعرفها، ودورات عظيمات، فلا حدّ لليوم عند الله، فلم خصه بهذا العدد إلاّ أن يكون لنحو ما ذكرناه، والحمد لله رب العالمين.

شكر المؤلف لله

اللهم إني أحمدك، فقد علمتني على مقدار طاقتي. أذكر لك أيها الذكي نعمة الله عليّ: طالما جلست على شاطئ نهر أبي الأخضر الذي هو بقرب قريتنا «كفر عوض الله حجازي»، وأنا أفكر في أمر هذا الوجود، وذلك منذ نحو ٤٥ سنة قبل تأليف هذا الكتاب، وقد كانت سني إذ ذاك حوالي ٢٠ سنة، ولم يكن لي علم إلاّ بكتب النحو والفقه وبعض علم التوحيد الذي هو بريق جدلي لا يفيد، فتارة أصلي وأدعو الله بعد الصلاة أن يعلمني نظام هذا الوجود الذي أراه في نظري لا نظام له، وتارة أبحث عسى أن أجد حيواناً فيه شبه نظام هندسي أستدل به على أن للعالم صانعاً، وإني أذكر الآن أني مرة وجدت حشرة عليها خطوط هندسية متقاطعة بيض وحمر، فكان ذلك لي أعظم سرور مع أني لا أعرف هندسة ولا حساباً إذ ذاك، فهاأنا أحمد الله عزّ وجلّ، مضت سنون وأنا أطلب من الله أن يعلمني، وكأن اليأس قد تغلب عليّ، ولكن الدعاء مستمر، فأجاب الله الدعاء وحقق طلبي بعد اليأس والله يقول: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾[الأنبياء: ٣٧]. سبحانك اللهم وبحمدك، أجبت دعائي فلأعلنن شكري.

وأبشرك أيها الذكي فاعلم علماً يقينياً أنك إذا رأيت شيئاً مما أذكره في هذا الكتاب قد عسر عليك فهمه، ووجدت في صدرك حرجاً واشتقت أن تعرف أصل العلوم التي ذكرت منها ما اشتقت إليه، فإياك أن يخامرك شك في أن الله سيعلمك.

واعلم أنك كلما اشتد شوقك للعلم كان ذلك دلالة على أنك ستنال مطلوبك، فانظر لما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لولا أن الشياطين يحومون حول قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماوات والأرض»، فهاأنا ذا حين كنت على شاطئ النهر أفكر في نظام هذا الوجود كيف كنت غافلاً عن نظام عيني وبقية المحل الهندسي الذي شرحته في أوائل هذه المقالة، وكيف كنت أغفل عن نظام النبات والحيوان وكلاهما حاضر لديّ، وكيف كان الثلج يمر فوق رأسي على بعد ربما كان ١٥ ألف قدم أو أقل أو أكثر.

ألم تر إلى ما جاء في الكتاب الإنجليزي السابق أن الثلج يكون دائماً عند القطبين فوق الأرض مسافة ١٢٠٠ ميل، ويكون الثلج الدائم مرتفعاً في الجو أعلى فأعلى كلما اتجهنا جهة المدارين، ففي بلاد «اسوبزرلند» فوق ٩٠٠٠ قدم، وفي «البرنيس» كذلك، وفي «أررات» ١٤٠٠٠ قدم، و١٦ ألف قدم فوق بعض جبال «همالايا»، قال: وقد يتكون الثلج في منطقة الاعتدالين على بعد ١١ و١٢ ألف قدم، ولكن هذا ليس من الثلج الدائم، والدائم هناك يكون أعلى من هذا البعد. فإذن حينما أنا كنت على شاطئ أبي الأخضر أبحث عن نظام وجمال في الطبيعة قد كان يحيط بي الجمال وأنا غافل عنه، فالنظام في جسمي وفي النبات حولي وهكذا الحيوان وهكذا ماء نهر أبي الأخضر الذي يصير بخاراً ويعلو في الجو ومعلوم أن بلادنا في عرض ٣٠ درجة، فالثلج يكون دائماً أو غير دائم في الطبقات العليا في الجو التي تبلغ فوق عشرة آلاف قدم، إذن النظام كان يحيط بي ولكن الجهل هو الذي حال بيني وبين هذا الجمال.

أيها المسلمون إياكم أن تناموا عن هذا الجمال واعلموا أن في هذا الوجود من الجمال والبهاء ما هو مستور عنا جميعاً ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾[يوسف: ٧٦] والحمد لله رب العالمين.

ثلاث زهرات زاهرات باهرات ناضرات بهجات
ازينت بها هذه المقالات المنشآت في رياض العلوم

الزهرة الأولى

تبيّن من هذه المباحث السابقة في الأشكال المسدسة الثلجية أن الشكل الأول منها ساذج لا حلية فيه ولا زيادة على ما كان من المثلثات الستة وزواياها المتساويات الخ، ويزيد عليه الثاني بتلك الزيادات القائمات على أنصاف الأقطار للشكل المسدس، وهكذا لا تزال الأشكال تتزايد درجة فدرجة وجمالاً فجمالاً حتى انتهت إلى أجملها شكلاً وأبهاها حسناً وأبدعها نظماً، مما قد حوى ما يشبه الأوراق المتناسقة المترادفة المتساوية المبدعة بغاية الإحسان والجمال، فهذا الإبداع الذي ظهر في الأشكال الثلجية في الأقطار الجوية الباردة فوق رؤوسنا قد فتح لنا باباً من العلم نلج منه إلى مكنونه، ونوازن ما بين هذا وما بين السلسلة الحيوانية والنباتية ونقول: لقد رأى الناس السلسلة الحيوانية لها أدنى ولها أعلى ولها وسط، فهي مسلسلة أدناها أقرب إلى عالم النبات وأعلاها أقرب إلى الإنسان، ونرى الأسود والنمور أرقى من عالم البهائم، وعالم البهائم أرقى مما هو أحط منه، حتى نصل إلى أدنى الحيوان مما يدب على العود من الدود وما يكون منهن في بطون الحيوانات الكبيرة، فنرى تلك السلسلة متناسقة متناسبة لها أدنى ولها أعلى.

الله أكبر الله أكبر، ظهر العلم وبهر، وازدهرت به الأجيال المقبلة، وأشرقت شمسه وغاب ليله. يا عجباً للأمم التي نعيش فيها، قال الشاعر:

فقل لمن يدّعي علماً ومعرفة   عرفت شيئاً وغابت عنك أشياء

نظر الناس قديماً وحديثاً هذه السلسلة فقال قائل منهم: إن هذه جاءت بطريق النشوّ والارتقاء، ومعنى هذا أن الحيوانات العليا كانت في الأصل حيوانات أقل منها، ثم تولاها التغير والتبدل بالوسط والبيئة والانتخاب الطبيعي والحوادث الطبيعية فارتقت طائفة وبقيت أخرى مكانها، فكان أعلاها القرد وعلا عنه الإنسان بهذه الوسائط.

هذه آراء علماء القرن التاسع عشر، أما علماء القرن العشرين فقد قالوا: كلا إن هذه القضية كاذبة، واستدلوا بحشرة أبي دقيق، وقالوا: إنها تكون دودة ففيلجة، أي شرنقة، وهي عبارة عن كرة منسوجة من خيوط كتلك التي ترى في دودة الحرير، ثم تكون حشرة كاملة، فهاهي ذه هذه الحشرة لم تحتج إلى آلاف آلاف من السنين لتنتقل من حال الدودة إلى حال الحشرة، بل كان انتقالها في زمان قليل يعدّ بالأيام. إذن ليس يلزم في نظام الحيوان أن يكون أعلاه مشتقاً ومرتقياً عن أدناه، وقالوا أيضاً إن الذي نراه في غرائز الحيوان من الرأفة والرحمة ودقة الصنع يعجزنا أن نحير جواباً، فكيف يتسنى لنا أن نقول إن الانتخاب الطبيعي هو الذي أوجب هذه المراتب الحيوانية، ونجد هذا المقام مذكوراً في سورة «آل عمران» في أولها عند مبحث المحكم والمتشابه في الطبيعة في بيان قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾[آل عمران: ٦].

إن النظر في هذه الأشكال المسدسة الثلجية التي كلامنا فيها يؤيد أقوال علماء القرن العشرين في مسألة السلسلة الحيوانية الذين ذكرنا منهم ٢٠ عالماً في هذا المقام الذي ذكرناه لك في سورة «آل عمران».

إن هؤلاء العلماء يقولون: إن البط يعوم لأنه وجد لنفسه أرجلاً مغشاة تصلح للعوم، وإن هذه الحيوانات أعدّت قبل للعوم، وهذا كلام أحدهم العلامة «أدمون بربيه» في مجلة «العالم الحي» سنة ١٩١٢. ولا جرم أن مسدسات الأشكال الثلجية لم يكن ارتقاء أعلاها عن أدناها بطريق النشء، بل وجد أعلاها ووجد أدناها من غير أن يكون الأعلى كان أدنى، ثم أخذ يرتقي عنه تدريجاً؛ بل هي سريعة التركيب سريعة الزوال، إذن هذه الأشكال تؤيد قول علماء القرن العشرين وتوضح برهانهم وتزيده حسناً. انتهى الكلام على الزهرة الأولى.

الزهرة الثانية: في الكلام على حسن النظام وعمومه

اعلم أن جمال هذه المسدسات يأخذ بالألباب ويبهج العقول، ولذلك ترى العلماء يجدّون للبحث عنه ويجدّون، لماذا؟ لما فيه من دقة الصنع، وأنت خبير أن هذا الجمال الذي رأيته في الأشكال نشاهد نحن مثله في سفرنا وحضرنا وشبابنا وشيبنا، ألم تر إلى ما هو أجمل من هذه الأشكال، فإنه لم يزد عن أوراق الشجر في الحسن والكمال، ترى أوراق الشجر صباحاً ومساء، وكل غصن من شجرة عبارة عن محل هندسي تساوت أبعاد نهايات الأوراق المتقابلة عنه، حتى يمكننا وصفه بالمحل الهندسي تجوزاً، فلئن ظهر المحل الهندسي الذي شرحته لك في جسم الإنسان، لقد ظهر في أوراق الشجرة المحلية لأغصانها النابتات على جوانبها، المتناسبات الأبعاد عنها كتناسب العينين والأذنين فيما قدّمناه، إذن نحن مغمورون في الجمال، فالجاهل والعالم يحييان ويموتان وهما يشاهدان نظام الكواكب جميعها، والشمس والقمر وهي تجري بنظام، ويشاهدان المحالّ الهندسية في أجسامهم وأجسام حيواناتهم وحشراتها، وفي الأعشاب وأوراق الأشجار، وأجهل الناس يرى ذلك النظام في الأبنية التي يبنيها الناس ليعيشوا فيها، وإذا كان الأمر كذلك فيقال: لماذا إذن اهتم الناس بالأشكال المسدسة في الثلج؟.

الجواب: اعلم أن الناس على مقدار ما غمروا ودفنوا في الجمال قد حجبوا عنه، فالناس يغدون ويروحون في وسط البهجة والنور، ولكنهم جميعاً عنه محجوبون إلاّ قليلاً منهم، وإنّما حجبوا عنه لأنه مألوف فإنهم يخلقون صغاراً وهم يشاهدون ذلك الجمال ولا عقل عندهم ولا تمييز، فإذا كبروا كبروا وهم يألفون هذه المناظر، فسقط اعتبارها عندهم فلم يكترثوا لها وإنّما يفرحون بما غاب عنهم وندر كمسألة الأشكال الثلجية، فتلك الأشكال يرونها برهة ثم تغيب عنهم، ثم من ذا الذي يراها، إنّما يراها الذين في الأقطار الباردة وقليل منهم من يفكر فيها ويصورها، فأشكال الثلج أشبه بالكلمات التي يكتبها المعلم لتلميذه في اللوح يقرؤها ثم يمحوها. هكذا فعل الله لنا، رآنا على الأرض كالصبيان الذين لا علم عندهم، فرسم لنا الثلج بأشكاله المنظمة، وقال لنا: هذا هو عملي، نظام بديع وترتيب سريع وتناسق غريب، ودرس لكم حديث، ثم يمحوه وهكذا.

هذا ما ينطق به لسان حال الأشكال الهندسية الثلجية النادرة الوجود، وإلاّ فنحن خلقنا في عالم كله نظام وأجسام مهندمة مجندرة مسواة مهندسة، حتى إنك لترى المسلم في صلاته لشدة إتقان

الأجسام الإنسانية يمثل في قيامه الخط المستقيم، ويقرأ في فاتحة الكتاب وهو على هذه الحال ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾، فهذا الدعاء مناسب للاستقامة في الوقوف، ويمثل في ركوعه الزاوية القائمة، وفي سجوده تكون له مثلثات مثل ما بين ساقيه، فذلك مثلث متساوي الساقين، ومثل ما بين ساقيه وقدميه والأرض فهما مثلثان أيضاً متساويا الساقين، ساق هو الساق الإنساني، وساق آخر خط وهمي على الأرض والقدم تمثل الخط الثالث، هذا ما أردت ذكره في الزهرة الثانية.

الزهرة الثالثة: حكمة الجمال في هذا الوجود

اعلم أن الجمال البارع في هذا الوجود على قسمين: جمال للعموم وجمال للخصوص، أما الجمال الذي للعموم فهو الجمال الذي أبدعه الله في الوجوه الجميلة النادرة المنال، والأصوات البهجة الشجية العليلة النظير.

إن الله عزَّ وجلَّ لم يذر أمة من الأمم إلاَّ هيأ لها من الصور الجميلة والأصوات البديعة ما به يصبو حليمهم ويوقظ نائمهم وتحيا قواهم الحيوية الكامنة فيهم، فيهيجها في الغالب لتحاب الجنسين وإنجاب الذرية والسعي لما يؤدي لذلك، وما الصور الجميلة ولا الأصوات البديعة إلاَّ نتائج الهندسة والحساب والنظام.

فلعمرك لم يكن البارعون والبارعات في جمال الوجوه إلاَّ لتناسب الخدّين والأنف والعينين والفم، فمتى كمل التناسب بين هذه الأربعة كان الجمال بارعاً، ومتى نقص كان القبح على مقدار النقص ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ﴾[القصص:٦٨]، فإذا رأيت وجهاً فاق الوجوه فاعلم أن عينك قد نقلت صورة ذلك التناسب التام إلى المخ فأدركته النفس وعدّته جميلاً فعشقته، لأنها من عالم الجمال، وكيف أدركت هي الجمال إلاَّ إذا كانت قد فهمت دروسه في عالم غير عالمها، فأيّ هندسة وأيّ حساب قرأه كثير عزة ومجنون ليلى وقيس لبنى، وهم لا يسمعون باسم الهندسة ولا يعقلون علم الحساب، هكذا ترى الجهال والعلماء جميعاً يسمعون الألحان والمغني يضرب على العود فيطربون وأكثرهم لا يعقلون لم يطربون، وهم لا يعلمون أن المغني والضارب على العود قد أتيا بحركات وسكنات موزونات متناسبات مثل ما بيناه في بيت من الشعر سابقاً في هذا المقام.

ليس يعلم سامعو ضارب العود أن بين أوتاره في الثقل والخفة نسبة معلومة مطردة، كما لا يعلمون أن بين الحركات والسكنات نسبة هندسية مثل التي ذكرتها لك في بحر الطويل.

لقد تقرر في علم الموسيقى أن كل النغمات في جميع العالم من عرب وعجم ترجع إلى النسب كما قرره إخوان الصفاء، فإذا جاء في النوع من الغناء المسمى بـ «الماخوري» الذي يشبه في حركاته وسكناته بحر البسيط أن نسبة متحركاته إلى سواكنه كنسبة ٧ إلى ٥، و١٤ إلى ١٠، و٢٨ إلى ٢٠، وهذه أشبه بما تقدم في بحر الطويل، وحاصل ضرب (٥ في ١٤) يساوي حاصل ضرب (٧ في ١٠)، فإنه يتبين لك كيف يكون السامع في طرب من أمر محسوب منظم، وهو يجهل ذلك الحساب، كما يجهل الناظرون للجمال حساب الأعضاء في الوجه والنسب بينها.

فالناس جميعاً يحبون الوجوه الجميلة والأصوات البديعة المشجية والنغمات الموزونة، وهم يجهلون لماذا ابتهجوا بجمال الوجوه، ولماذا أسكرهم جمال الصوت، والحقيقة أنه لا فضل لجسم ولا

لصوت، لأن الأجسام والأصوات في حد ذاتها لا بهجة فيها، وإنَّما البهجة والجمال لدقة الحساب والنظام والنسب.

رجع الأمر أوله وآخره إلى أن قوله تعالى: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾[الرعد: ٨] هو سر جمال هذه الدنيا، سواء أكان في الثلج المسدس، أم في بيوت النحل المسدسات، أم في نظام السيارات الجاريات حول الشمس التي قدرها العلماء كالعلامة «يود» في أوائل القرن التاسع عشر بأنها تبعد (٣و٦و١٢و٢٤) وهكذا كما تقدم، فهي إذن راجعة إلى نظام التسديس الذي اعتبره علماء قدماء المصريين في حساب الفدان وفي حساب الأرطال وفي حساب المكيال، فقالوا: الرطل (١٤٤) درهماً وهو (١٢) أوقية كل منها (١٢) درهماً، فكأنهم نظروا للتسديس في أبعاد الكواكب التي عرفها علماء أوروبا اليوم، وقالوا: الأردب (١٢) كيلة و(٦) ويبات، وقالوا: الفدان (٢٤) قيراطاً والقيراط (٢٤) سهماً. فإذن نظم الناس مكاييلهم وموازينهم ومساحاتهم بنظام السماوات في أبعاد الكواكب مشاكلة لنظام ربهم.

وهكذا عدّت الأيام التي خلقت فيها العوالم ستاً مشاكلة لنظامها، كل ذلك يشمله قوله تعالى: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾[الرعد: ٨]، وقوله: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩]. وبهذا انتهى الكلام على الجمال العام وبيان أسبابه.

الجمال الخاص

أما الجمال الخاص فهو الذي اختصت به طائفة الحكماء، وهو الذي أبدعه الله في الطبيعة ونظام العوالم، وهو الذي اشتمل عليه هذا التفسير الذي جعله الله رياضاً من رياض الجنة يتربى فيها أناس لا يزالون في الأصلاب وفي الأرحام، ومنهم أحياء الآن يقرؤون فيطيرون شوقاً إلى جمال العلم وبهاء الحكمة، وبهم يكون في الشرق وفي أمم الإسلام رجال يقودون هذه الشعوب الإسلامية المتأخرة إلى سبيل النجاح، وهذا الجمال الخاص على نوعين: نوع هو أخلاق فاضلة في نفوس كريمة تكون نموذجاً للقدوة والسير الحسن وهم الصلحاء، ونوع هو الحكمة وجمال العلم ونظام هذا الوجود الذي ظهر بعض سره في هذا الكتاب.

إن لسان الحكمة أبلغ من لغة الألسنة، وإن تعجب مما ستسمعه من بلاغة اللسان فيما حكاه الأصمعي وغيره، فأعجب منه منطق لسان الحكمة المسموع لأولي الألباب في السماوات والأرض المرموز له بقوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾[الإسراء: ٤٤]، فإياك أن تقف على بلاغة اللسان فلا تفقه بلاغة لسان الحكمة في الأكوان، ولأذكر لك ما حكاه الأصمعي كما وعدتك من بلاغة اللسان، قال:

كنت أطوف بالبيت إذ سمعت فتاة في الرابعة عشرة متعلقة بأستار الكعبة وهي تقول: «اللهم اغفر لي ذنبي كله، قتلت قتيلاً لغير حله، كغزال في دله، وهلال في شكله، في منتصف الليل ولم أصل له». قال الأصمعي رحمه الله: ما أبلغ هذا الكلام. فقالت: أوَتعدّ هذا بلاغة بعد قول الله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[القصص: ٧]. ألم تر أن فيه أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين ؟! الأمران:

﴿أَرْضِعِيهِ﴾ و﴿أَلْقِيهِ﴾، والنهيان ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾، والخبران ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ و﴿خِفْتِ﴾، والبشارتان: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

وهكذا أذكر لك ما حكاه غيره قال: سمع أعرابي رجلاً يقرأ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ (والله غفور رحيم)﴾، فقال: ليس هذا كلام الله، كيف يغفر وقد قطع اليد؟ فتذكر القارئ وقال: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[المائدة: ٣٨]، فقال: هذا حق لأنه عزّ فحكم فقطع، ولو غفر ورحم لم يقطع.

هاتان القصتان نبذتان من بلاغة اللسان العربي في القرآن، وهذا جميل، ولكن الوقوف عند جمال اللفظ نقص لأن جمال اللفظ كجمال الثياب والحلي، والمقصد الأكبر جمال الأخلاق، فإذا دل ظاهر الإنسان وجمال ملابسه على ذوقه وحسن اختياره فليس الدليل بمساوٍ للمدلول عليه في القيمة، وليست المقدمة كالنتيجة، وإذا أحب الناس جمال الوجوه فما ذلك إلاَّ لأنها غالباً تدل على جمال البواطن والأخلاق، فالمقصود في العالم الإنساني أخلاقه ومواهبه؛ لا ملابسه وحلاه. قال الشاعر:

ليس الجمال بأثواب تزيننا إن الجمال جمال العلم والأدب

وقال السموءل:

ليس الجمال بمئزر فاعلم وإن رديت بردا
إن الجمال محاسن ومناقب أورثن مجدا

فإذا كان هذا في حال الإنسان فهكذا حال القرآن، فإن جمال اللفظ بحسن البلاغة لم يكن إلاَّ مقدمة، واللفظ لباس المعنى، والمعنى هو المقصود، فمن وقف على ظواهر البلاغة فهو من العامة والجهلاء؛ كمن يقف من الإنسان على ظواهر ملابسه ولا يدرك أخلاقه وعلومه، وما مثل الذين يضيعون حياتهم في ظواهر البلاغة إلاَّ كمثل الحاج يضيع زمانه في إعداد الزاد والراحلة مستكثراً من ذلك؛ وقد فاته الركب فلم ينل وطره من مقصده الأعظم وهو الحج.

وسيكثر أولئك الذين يدركون عجائب هذه الدنيا بعد نشر هذا التفسير في أمم الإسلام ويطيرون شوقاً إلى الحكمة ولا يكتفون بعلم البلاغة وحده الذي وقف عنده الأكثرون، وما جمال البلاغة إلاَّ حلية الألفاظ كتناسب الخبرين والبشارتين الخ فيما تقدم، وكمناسبة العزة والحكمة للقطع فيما تقدم أيضاً، وأي شيء هذه وما شاكلها بالنسبة لنظام الحكمة والإبداع فيما خطه الله في هذا الوجود من الحساب والإتقان الذي تضمنته آيات القرآن من العجائب التي لا تحصى كقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[الحجر: ٢١]، وقوله هنا: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[الرعد: ٨]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[الأعراف: ١٨٥] الخ فمن اكتفى من ملكوت السماوات والأرض بما ظهر من البلاغة في الألفاظ كما في الروايتين المتقدمتين فهو إذا كان ذكياً قادراً على الفهم ممن قال فيهم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[الكهف: ١٠٣-١٠٤].

إن الجمال الخاص كما قدمنا يمثله الصالحون بأخلاقهم والحكماء بمباحثهم في هذا الوجود، والأولون أشبه بمن جملت وجوههم، والآخرون أشبه بمن حسنت أصواتهم في الجمال الظاهري الذي

قدمناه . وحكماء الأمم الإسلامية الذين سيظهرون إن شاء الله بعد نشر هذا التفسير وأمثاله هم الناطقون بلسان الحكمة الذي هو أبلغ وأبدع ، وهم الناظرون في ملكوت السماوات والأرض ، وهم الذين يظهرون للمسلمين سر قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾[الإسراء : ٤٤] ، إن تسبيح المخلوقات لربهم لا يظهر إلاّ بدراسة جميع العلوم ، وفي هذا التفسير قبسة من نوره بها يعرف المسلمون بعض تسبيح المخلوقات .

إن أهل الحكمة هم الذين يسمعون الناس ألحاناً تبهرهم وتسحرهم أكثر ما تبهرهم ألحان الموسيقار ، وإذا بهر الناس أصحاب الأصوات الجميلة فإن أذكياءهم سيسحرهم بيان الحكماء وصوت المفكرين فيفيقون من غفلاتهم ويستيقظون من نومتهم ، وسترى أيها الذكي كيف يقوم في العالم الإسلامي من الحكماء من يوقظون هذه الأمم الإسلامية الغافلة ويحيون قواها العقلية أكثر مما تحيي وجوه البارعين في الجمال ونغمات الملحنين القوى الحيوية الإنسانية ، فكما تهيج القوى الحيوية في الأمم بالصور الجميلة والأنغام الشجية ، هكذا ستهيج القوى العاقلة في الأمم الإسلامية لدراسة العلوم وكمال النفوس والوقوف على الحقائق وإتقان الصناعات بسماع صوت الحكمة ولسان البيان العلمي ، ويفهم الناس قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾[الإسراء : ٤٤] ، فبهذه العلوم التي أشرنا إليها في هذا التفسير يكون بعض فهم التسبيح بحمد الله في الوجود ، ومتى فهم الناس بعض هذا التسبيح بالعلوم ارتقوا في أعمالهم كلها دنيوية وأخروية ، كيف لا والتسبيح بحمد الله يرجع لتنزيهه عن صفات النقص ، ووصفه بصفات الكمال وهي التي توجب الحمد ؟ وكيف يحمد الناس ربهم إلاّ على نعم عرفوها ، ولا معرفة لنعمة إلاّ بدراستها ، ومتى درسوها انتفعوا بها ، ومتى انتفعوا بها كان ذلك شكراً ، لأن الشكر صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه فيما خلق لأجله ، وكيف يصرفه فيه وهو يجهله .

إن الله عزّ وجلّ أذن للمسلمين بالارتقاء ، والارتقاء بالعلم ، وبالعلم يعرفون هذه الدنيا ، وهذا التفسير من مقدمات هذه النهضة المباركة إن شاء الله تعالى .

قلنا إن المفكرين يقلون في الأمم كما يقل ذوو الأصوات الجميلة ، والأولون يحيون القوى العقلية كما يحيي الآخرون القوى الحيوية ، وقلنا : إنهم سيكثرون في أمم الإسلام ، وقلنا : إن هذه الأمم ستحيا بعدما ماتت في زماننا وفيما قبله .

وأريد الآن أن أختم هذا المقام بحكاية ذكرتها في كتاب « جواهر العلوم » ، ذلك أنه قد أخبرني شاب مصري من أبناء بلادي كان حاكماً في بعض بلاد السودان ، قال : سمعت طائرين يتناوبان الغناء على الأشجار بنغمات موزونات كما توزن نغمات العيدان ، وهما زوجان فرحان بتلك النغمات ، قال : فأمرت الجند فاصطادوا أحد الزوجين ولم يتمكنوا من صيد الآخر ، وما طلع الفجر حتى رأيناه خرّ صريعاً في قفصه حزناً وكمداً ، فبحثنا عن أليفه فوجدناه أيضاً قضى نحبه في شجرته .

هذا ما ذكرته هناك . وأقول الآن : هذا مثل ضربته للحكيم وللحكمة فهما زوجان لا يفترقان ، فالحكيم يموت إذ لم تكن الحكمة ، والحكمة تموت إذا لم يكن حكيم كما مات أحد الزوجين الجميلي الصوت إذ فارقه أليفه وغاب عنه أنيسه .

إذا غابت الحكمة عن الأمم أظلمت شمسها وجنّ ليلها وأفل سعدها، كما غابت عن الأمم الإسلامية المتأخرة، وستشرق شمس العلوم والمعارف من الآن، وتسحر أصوات الحكماء والمفكرين قلوب النفوس الشريفة فيحيون الشرق بعد موته ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾[ص:٨٨] والحمد لله رب العالمين.

فائدة: جاء في بعض المجلات ما يأتي:

فوائد وفكاهات، عالمنا العجيب وبعض أخباره، أخبار علمية.

عرض الأرض أوسع من طولها ٢٧ ميلاً، وهي مغناطيس، أي: جسم جاذب لأنها تَجذِب وتُجذَب، وتكتسب جاذبيتها من الشمس التي هي نفسها مغناطيس أيضاً، أي: تَجذِب الأجرام للدوران حولها.

أعمق جبّ في الأرض يبلغ عمقه ٦٥٧٠ قدماً، عمر الأرض ١٥ مليون مليون سنة، وآخرون يقولون عمر الأرض مائة مليون.

إن الهواء يمتد ارتفاعاً إلى علو خمسمائة ميل فقط.

أعلى غيم يصل إلى نحو عشرة أميال فوق رؤوسنا.

أعلى علوّ استطاع أن يصل إليه الإنسان ٧ أميال فقط. يقول المؤلف: ولكن الطيارات ارتفعت أعلى من ذلك.

أبرد محل يسكن فيه الإنسان شمالي سيبيريا الشرقي.

أشد الأماكن حراً على الأرض صحراء أفريقيا حيث تصل درجة الحرارة إلى ١٢٢.

قد مضى على الإنسان وهو يسكن الأرض مدة مائة ألف سنة، وغيرهم يقول أقل.

عدد سكان الدنيا مليار ونصف، ويموت منهم كل سنة ٣٢ مليوناً، تقريباً مائة ألف كل يوم، وأكثر من أربعة آلاف كل ساعة، ولكن كل ٦٧ شخصاً يموت في كل دقيقة يولد بدلها سبعون طفلاً، فالحساب يكون كل ما ترفّ عينك مرة يفارق الدنيا واحد ويلاقيها ثان فسبحان الباقي.

أطول حياة في الدنيا حياة الفيل الذي يعمر قرنين.

أقصر حياة ذبابة آذار التي تولد وتنمو وتلد وتموت في ٢٤ ساعة فقط أو أقل.

معدّل حياة الإنسان ٣٣ سنة، وربع البشر يموتون قبل السنة السادسة، ونصفهم قبل ١٦، ولا يعيش ٦٥ سنة إلاّ إنسان واحد في المائة. انتهى.

اللطيفة السابعة: في قوله تعالى

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾

اعلم أن الآية ليست خاصة بشيء واحد مما خلق الله في هذا العالم، بل الحافظات للإنسان أنواع كثيرة، ولأضرب لك مثلاً بالنبات.

لقد ظهر في العلم الحديث أن النبات لا يمتص الأغذية من الأرض بلا مساعد، فإن هناك في تربته أنواعاً من الحيوانات الصغيرة المسماة «المكروبات» تجدّ في تفتيت الأغذية والعناصر الأرضية،

وتحت كل نبات منها ما لا يحصى من هذه المخلوقات الحية، فهذه تفتت الأغذية تفتيتاً دقيقاً لتصلح لامتصاص الجذور لها، وإذن ينمو النبات، وإذا كان هذا شأن النبات فكيف تكون حال الإنسان ؟.

إن الله جعل كل ما حولنا قسمين: ضاراً ونافعاً، ولا ثالث لهما، كما قال: ﴿ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ ﴾[الرعد: ٣]، فليس من نبات ولا حيوان ولا حجر ولا شجر إلاّ وهو بالنسبة لنا على هذا المنوال، فترى الحيوانات الدنيئة في أجسامنا قسمين: قسماً يسمى الكرات الحمراء، وآخر يسمى الكرات البيضاء.

فأما الكرات الحمراء: فهي حيوانات تعد بالملايين، بها نرى دمنا محمراً، وهي فيه عائمة لإصلاحنا وبقاء حياتنا.

فأما الكرات البيضاء: فهي كثيرة العدد قد أعدّت لتلافي الخطر ودرء الهلاك، فإذا أقبلت على الجسم مكروبات ضارة في حمى أو نحوها أخذت هذه البيضاء تقاتلها وتهجم عليها، فإذا ماتت هذه خلفت جنداً وراءها، وهكذا نسل بعد نسل وجيل بعد جيل، وكلما تناسلت الأجيال كان الأخير منها بما ورثه عن آبائه أقوى شكيمة وأرفع قيمة وأرقى عزيمة في إخراج الحيوانات المهلكة الضارة، فلا تزال في نضال وقتال أجيالاً وأجيالاً، ولذلك ترى الأطباء يحقنون المريض بالجدري وغيره، وهذه الحقن تبعث في الجسم الغارة الشعواء، ويحتدم القتال، فتقوى تلك الجيوش البيضاء المدربة على القتال، فإذا هاجمتها جيوش أخرى بعد ذلك كانت أقوى على غلبتها، وما مثل التلقيح لأجسامنا ولأجسام حيواناتنا إلاّ كمثل تعليم الجندية، أو كمثل فتح مدارس الحربية وإعداد الوقائع العملية في المناورات الحربية ليشتد ساعد المقاتلين وتقوى قلوب المجاهدين، فهذا مثل ضربته لك من أمثال الجنود المجندة المتعاقبة على صيانة الإنسان وحفظ حياته.

وترى حواسنا كالسمع والبصر والشم والذوق قد ميزت الضار من النافع، فترى أهداب العين تمنع التراب وتدخل الضوء، وترى شعرات الأنف تمنع البرودة أن تصل إلى الخياشيم فيكون الزكسام. وقد نص الأطباء في زماننا أنه لا يجوز نتف هذا الشعر. وهكذا ترى حاسة الذوق تعرف ما يلائم من الأطعمة وتنفر مما لا يلائم، وهكذا حاسة الشم. أفليس هذا كله من نوع الحراسة والحفظ ؟ وإذا قال الله: ﴿ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ﴾[الطارق: ٤]، وقال هنا: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ ﴾ [الرعد: ١١]، فهذا مثل من أمثال الحفظ والحراسة.

وترى أن من الحيوانات ما يذيقنا الموت، كالحشرات المؤذية ببلاد السودان، فإن لها قوة سمية تنوّم الإنسان، ولكن لا تكون إلاّ في نادر منها، فقد أخبرني طبيب أن هذه القوة لا تكون إلاّ في واحدة من خمسمائة وعملها كعمل الفيران والناموس. فهذان النوعان ينقلان الأمراض المعدية من جهة إلى جهة، فتجد الناموس يمتص الدم من زيد ومتى جثم على عمرو اختلط الدم بالدم فمرض الثاني بمرض الأول.

هكذا هذه الحشرة تنقل مرض النوم من رجل لآخر، وهذا المرض يبقى كامناً في الإنسان أياماً وشهوراً وأعواماً، ومتى ظهرت أعراضه نام أياماً وأياماً ثم يعتريه الانحلال. هذه جنود الإهلاك أشبه بالحيوانات المؤذية في الجسم، فإذا رأيت الكرات البيضاء في الدم قد ساعدت الكرات الحمراء على قتال

الحيوانات المحدثة لأنواع الحمى والجدري وجميع الأمراض الفاتكة، وحدث هناك وطيس الحرب الذي ينتج منه الحرارة القوية في الجسم من شدة النضال، فهكذا هنا قد سلط الله جنوداً على هذه الجنود الحيوانية فعلم الناس كيف يفتكون بالناموس بأن يصلحوا البلاد ويردموا المستنقعات والبرك، وألهمهم في أيام الوباء الناجم من حيوانات صغيرة أن يستعينوا ببعض الأدوية بشرائط خاصة كالنظافة واستعمال الزيت ولا سيما المتخذ من الزيتون بشرائط خاصة، فهذا قاتل لتلك المكروبات، وهكذا مما لا مجال له إلاّ علم الطب الواسع، ولن تجد ما حولنا من سامّ أو ضارّ إلاّ وله دواء يمنع فعله، فهذه الأدوية جيوش وجنود معقبات للجيوش الموقعة بنا ضراً، هذه نبذة من العالم المحسوس.

الأحاديث النبوية

فإذا سمعت قوله صلى الله عليه وسلم كما في البخاري ومسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون».

وإذا سمعت أن لنا ملكين: ملكاً عن اليمين وهو صاحب الحسنات، وملكاً عن الشمال وهو كاتب السيئات.

وإذا سمعت في أقوال علمائنا أن ملكاً موكلاً بعيني العبد يحفظهما من الأذى، وملكاً موكلاً بفيه لا يدعه يدخل في فيه شيء من الهوام يؤذيه، وأمثال ذلك. فاعلم أن ذلك من هذا الباب.

وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم ذكر لنا ملائكة النهار وملائكة الليل فقد فتح الباب لدرس العالم المحيط بنا، ومن العار أن يعيش الإنسان في هذه الدنيا ولا يدرسها.

إن العلوم الطبيعية كلها دراسة دينية، فإذا أسمعنا النبي صلى الله عليه وسلم أن الملائكة يكتبون أعمالنا فكأنه يقول لنا: إن لكم عوالم لا ترونها ترتقب أحوالكم، وهو قد ترك لنا العالم المشاهد لنبحث فيه، فكأنه يقول لنا: ادرسوا بعقولكم ولا تكونوا عالة على غيركم، فأنبياؤكم لم يرسلوا لإخماد عقولكم، ولكن أرسلوا ليوقظوكم، فإذا قالوا لكم كل شيء فقد تركوكم بلهاء جهلاء، ونحن علينا أن نلمح لكم ونرمز لكم، وعليكم أنتم الجد والاجتهاد، وما أعمال ملائكة الليل والنهار إلاّ إحصاء الأعمال حسنة وسيئة، وهذا له نظير مشاهد في العالم حولنا، فإن الأمم في المدن العظيمة اليوم قد أصبحت ولا قطرة ماء يشربونها ولا كهرباء يوقدون بها ويضيئون بها منازلهم إلاّ ولها آلة تعدها كما تعد الدراهم والدنانير، وهانحن أولاء نشاهده في بيوتنا، ونرى الجهاز المعد لحساب الكهرباء والماء وغيرهما يفعل ما يفعله عقرب الساعة في حساب الزمان، فإذا ورد أن الملائكة يحسبون أخلاقنا وأعمالنا ويحصونها فليس شيئاً بدعاً بل نحن نشاهد نظيره، وهذا سر قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ ومن عجب أن تكون آية المعقبات بعد آية: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[الرعد: ٨]، إيضاحاً لها وتفسيراً وتطبيقاً.

فهذه الآيات أنزلت لتسوق المسلمين إلى دراسة ما يحيط بنا من العجائب والجنود المجندة، وليس يعرف المسلمون سرها إلاّ إذا توغلوا في جميع العلوم فعرفوا مضار الإنسان ومنافعه، والجماعات

المتعاقبة على حفظه المهلكة لضدها، أما عالم الملائكة الذي ورد في الحديث فإن الكشف الحديث قد دخل في هذا المضمار.

ألا ترى أن علماء الأرواح كاللورد «أوليفر لودج» يقولون: إن الأرواح تحيط بنا من كل جانب يلهموننا الخير، وقد قال هذا العلامة كما نقلناه عنه في كتاب «الأرواح»: إني أصبحت موقناً أننا تحيط بنا عوالم عالية نحن بالنسبة لها أشبه بالنمل بالنسبة للإنسان، وأيقنت أنها من فوقنا ومن تحتنا وهي تهتم بنا أشد الاهتمام.

فيا عجباً لدين الإسلام وأمة الإسلام! يقول الله: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ ﴾[الرعد: ١١]، ويقول النبي صلى الله عليه وسلم الذي أمر أن يفسر القرآن: «إن ملائكة يتعاقبون فيكم»، ثم يجيء علماء أوروبا فيقولون: نحن قد كشفنا عوالم تهتم بنا، أفلم يكن الأحق بهذا كله الأمة الإسلامية؟

إن دين الإسلام هو الذي يطلب هذه العلوم، إن دين الإسلام مظلوم في الأمم التي اعتنقته، إن من يقرأ هذا الكتاب ولا يذيع هذه الآراء مطالب بين يدي الله تعالى.

إن الله يحاسب كل من اطلع على مثل هذا في هذا التفسير أو في غيره من كتب العلماء ولا يذيعه.

إن الله حكم أن لا يبقى في هذه الأرض إلاّ النافعون، فإذا لم يصلح هؤلاء المسلمون للخلافة في الأرض أزالهم من أرضه واستبدل بهم قوماً آخرين، وهاهو ذا يسلط عليهم الأمم كما سلط الناموس على البلاد التي لم يصلح أهلها ما حولها من البرك والمستنقعات، وكما سلط الذباب على عيني من لم ينظفهما، وكما سلط الحيات على قوم لم ينظفوا بيوتهم من القاذورات والأبنية الخربات، فإن لم يفقه المسلمون هذا الوجود طردهم الله منه وأسكن فيه قوماً آخرين، كما أهلك سكان أمريكا الأصليين وحلّ محلهم أهل أوروبا فعمروها وهم لها مصلحون.

فهأنا ذا أقول ليعلم ذلك كل قارئ ولينشر الفكرة، وإلاّ فالله هو الذي يعاقب المقصر الذي يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو شديد العقاب للظالمين.

اللطيفة الثامنة: في قوله تعالى

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ﴾

واللطيفة التاسعة: في البرق والسحاب والرعد

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ﴾ لا يغيرها من العافية التي هم عليها حتى يغيروا ما بأنفسهم من الحال الجميلة؛ بكثرة المعاصي. ومعلوم أن العكس كذلك، فلن تغير الأمة من الفساد إلى الصلاح إلاّ بالتربية العامة في الأمة، وليس لأمة سعادة إلاّ بعموم فكرة الإصلاح فيها، وأن يشملها نظام تام وآداب شاملة.

فأما إذا ارتقى فيها قوم وتركوا المجموع فذلك المجموع يصبح مفكك العرى لعدم التئام الأخلاق، ولذلك عولت الأمم اليوم على تعميم التعليم الابتدائي شاء الناس أم أبوا، ومن لم يتعلم أكرهوه على ذلك لعلمهم أن المجموع مرتبط، فإذا اختلّ بعضه فالباقي آيل للاختلال والزوال.

فليقم المصلحون ومن آتاهم الله علماً، فلينبهوا الأمة وليخطبوا بالإصلاح، وليكن تعليم ليلي للعامة، وليقم كل بما قدر عليه لإصلاح المجموع، فليس يغيِّر الله حال المسلمين من الانحطاط الذي اعتراها إلاَّ بتحويل العقول عن مجراها وتنويرها بالخطب والجرائد والمجلات، وتفسير الآيات تفسيراً يطابق الإصلاح فينهض المجموع.

فأما إذا بقي المسلمون على ما هم عليه فإن جمعهم يتداعى ووحدتهم تتصدع، فالأمر كله من القلب، فإن تنوّر نشطت الأعضاء للعمل، وإن أظلم ماتت الأعضاء وكسلت، ويعكس ذلك إذا كانت الأمة راقية، وقيض لها مفسدون، ففتحوا لها باب الترف والنعيم، واحتقار عادات الأمة، وآدابها وأخلاقها، انحطت الأمة وساء مصيرها، ﴿ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾[الرعد: ١١]، ومن أعظم الآثار في النفس التفاؤل والتشاؤم، وعلى ذكر التفاؤل والتشاؤم نذكر هنا المقال الآتي وهاهو ذه:

التفاؤل والتشاؤم

للكاتب الأمريكاني الأشهر امرسون، عرَّبه بعض أدباء المصريين

إن الدنيا بحذافيرها تنساق إلى المتفائل المستبشر، إذا كان التفاؤل مبعث العزيمة الماضية والهمة الثاقبة التي كأنها تخلق للمرء عينين جديدتين يرى بهما من ضروب الحيل والتدابير ما لم يكن رآه من قبل.

إن المتشائم يسكن الجنة فيصيرها من جراء سخطه وضجره جحيماً، ويسكن المتفائل النار فيصيرها بفضل انشراحه وعزمه وسعة تدبيره فردوساً. والمتشائم إذا لبس جلد الفيل وفروة الدب لم يجده ذلك نفعاً ويظل في ثوبه الدفيء يرتعد ويرتعش، بينما الإسكيمو ساكن القطب الشمالي يظل لحسن تفاؤله وانشراحه فرحاً طروباً مملوءاً نشاطاً ومرحاً، يصنع لنفسه من الثلج والزمهرير ثياباً دفيئة.

إن الإنسان بفطرته وطبيعته متفائل ميال إلى الانشراح والنشاط، وهذا التفاؤل هو الذي يجعله صالحاً لسكنى هذه الأرض التي لا تهب الإنسان أدنى شيء من ثمارها وفوائدها إذا لزم خطة السخط والتبرم وفتور الهمة والعزيمة، وتسخر له كل شيء إذا استشعر الابتهاج والتفاؤل وما يورثانه من سعة التدبير والحيلة، ومن ثم ترى الرجل المتفائل النشط وكأنه جعبة مملوءة بالكفاءات والقوى، وكأنه قضيب مغناطيس فوق كرة من الحديد يجذبها إليه ويتداولها كما شاء، ومن كان هذا شأنه أصبح وكأنه مخترع ومستكشف قد أبحر في سياحة ميمونة مباركة يسترشد فيها بخريطة ذهنه، ويظل وكأن هذا العالم الأرضي في نظره كله منافذ وأبواب مفتحة ومسالك وفرص ومغانم، وكأنه جوهر حساس في كل موضع منه وتر موسيقي يجاوب أقل لمسة منه بنغمة مطربة، ويقابل كل جسة بفيض سيال من الروح والشعور.

وهذا العالم الأرضي الحي الحساس حاضر الخير سريع السخاء للرجل المتفائل، فسواء طرقته بمحراث آدم أو بسيف قيصر أو بقارب كولومبو أو بمرصد غاليلو أو بمنطاد زبلين، فلا بد أن يجيبك على كل واحدة من هذه التجارب بأبدع جواب وأروعه، وإنَّما بفضل التفاؤل وما يورثه من القوة والقدرة العجيبة استطاع الإنسان أن يفجر بالخيرات والبركات صخرة هذه الأرض الصلدة، ويسخر

الطبيعة الهائلة في قضاء مآربه وأوطاره ويتغلب وينتصر على المادة ويسيطر ويهيمن على العناصر، ويؤلف من شتاتها نظاماً، ومن فوضاها ناموساً، ومن فسادها صلاحاً، وعلى الضد من ذلك ترى التشاؤم مصدر الوهن والعجز والفتور والتبلد، يفقأ الأعين ويشلّ الأيدي ويطفئ سراج البصائر. وأيّ خير في التشاؤم ومنظاره الأسود الذي يكسو عروس الطبيعة ثوب الحداد، ويحيل مهرجانها مأتماً وبشيرها نعياً، وصفوها كدراً، وحلاوتها مراراً، ويطلع في وجنة الشمس الصقيلة بقعة سوداء، ويجري فلك السعود نحساً.

هذا العالم الذي نعيش فيه ونتقلب بين أعطافه إنّما هو مصنع هائل مفعم بقوة الخصب والإنتاج التي تؤتي كل شيء بإذن القادر على كل شيء، وهل ترى لذخائر الطبيعة من نفاد ؟ وهل حاولت مرة أن تزن بالقناطير مياه الجدول الصغير المنسكب في مزرعتك ؟ هذا على أن الطبيعة لا تبدي لنا من ذخائرها الهائلة سوى القشور، وإنها من تحت ذلك بعيدة الأغوار تقدر أعماق كنوزها بالملايين من الفراسخ.

ولقد يروق طائفة المتشائمين ويلذهم أن يسخروا من مذهب التفاؤل، تظاهراً منهم بالفلسفة وادّعاءاً باطلاً للذكاء والفطنة، على أن مآل المتفائلين البراقة وما تشيد خيالهم من قصور الهواء المزخرفة أحسن ألف مرة وأعود بالمنفعة على الناس مما لا يزال المتشائمون يحفرونه من جحور الهم والنكد وسجون الغم والشقاء، وماذا يستفيد الناس من المتشائمين الذين لا يبرحون ينصبون فوق رؤوسهم في كبد السماء كوكباً أسود يشوهون به لألاء الضياء وجمال السحب البهيجة الأصباغ والألوان، وأيّ الرجلين أنفع للمجتمع وأصلح ؟ من يحرّك فيك نسيم الأمل ويشعر قلبك روح الثقة وبرد اليقين ؟ أم من يسقيك كأس الجزع والأسى ويجرعك غصص الكرب والشجن ويذيقك كأس الخوف والقنوط؟.

لقد جعل الله للطبيعة روحاً، وما روحها إلاّ الفرح والجذل، ولعلك إذا استطعت أن تنفذ إلى سر الكون ولباب الوجود ألفيت قلباً خفاقاً بالسرور، يدفع لدى كل نبضة من نبضاته تياراً متدفقاً من الحبور والطرب. ولن ترى في أنحاء الكون موضعاً تخاله قفراً مجدباً إلاّ كان في الحقيقة مفعماً بالخير والبركة؛ فأقفر الأمكنة في نظرك يحتوي من الثروة ما لا يكاد يحصى ولا يعدّ، وأجدب محل في وهمك لا تنفذ حاصلاته ولا تفنى ثمراته. وكل صوت من أصوات الطبيعة يبدأ بلحن وينتهي بنغمة، وكل صفحة من صفحاتها قد زخرف البارئ المصوّر حواشيها بأبدع الصبغ وأبهج الألوان.

لا تعلق على جدران غرفتك الصور المحزنة، ولا تشوّه أحاديثك بسواد الشكوى وظلمة التشاؤم، ولا تكثرن من الأنين والحنين والتلهف والتأفف، وكن على أن تظلّ صداحة تطرب الملأ بموسيقى الأفراح، أحرص منك على أن تظل نواحة تبكيه بمراثي الأتراح، ولا يصدرن عنك من المقال والفعال إلاّ ما جدد من أمل أو حفز إلى عمل أو استنفر همة أو استنهض عزمة.

لقد جاء في حكمة الندماء أنه لن يستطيع مسرة الجلساء من كانت نفسه عارية من المسرة، فإن الحديث الحافل بغرور الأفكار ودرر المعاني إذا صدر عن لسان رجل متشائم متبرم كان جديراً أن يبهرك ويروعك، ولكنه لن يسرك ولن يفرحك. ولا عجب، فإن الذي يدخل عليك السرور والطرب

ليس هو براعة الحديث في ذاته، ولكن حلاوة أنس المحدّث ورقة شمائله، وهذه الرقة والحلاوة لن تكون للرجل المظلم الهواء الموحش الجناب، وما ذلك إلاّ لأن الذهن شيء والروح شيء آخر، وغير ممكن ولا منتظر أن يستطيع امرؤ ببراعة الذهن وحدها اجتذاب الأرواح واستصباء النفوس دون أن يكون له ذلك الظرف الذي ليس إلاّ من معينه يفيض الطرب والمسرة، وكيف يفرح الناس من أقفرت نفسه من الفرح، ومن ثم كان أعاظم كتاب الفكاهة الذين قدّموا إلى أبناء البشر أشهى ألوان السرور والضحك على مائدة الفنون والآداب، كلهم من ذوي الطبائع الفرحة المبتهجة، والأمزجة الرطبة الندية، أمثال شكسبير وموليير وسرفنتير الإسباني صاحب كتاب « دون كيشوت » وأديسون ودكنز ورابيليه وواضع كتاب « ألف ليلة وليلة »، وكل هؤلاء على الضد من كتاب الفكاهة المتشائمين أمثال فولتير وبيرون وسويفت صاحب كتاب « أسفار جاليفار » وبوّب صاحب كتاب « السفهاء » وهايني، أولئك الذين قد مزجوا فكاهاتهم بعلقم الهجاء والسخرية وحنظل النقمة والنكال وسموم القذف والإقذاع، فخرجت مؤلفاتهم أدنى إلى الإيجاع منها إلى الإطراب، وأجلب للإيلام منها للإعجاب، وللإيحاش منها للإيناس، بل جاءت أنكى شباة من إبرة العقرب وناب الأفعوان، ذلك إلى الجم العديد من مساوي تلك المؤلفات التشاؤمية وسوء أثرها في المجتمع، مما يضؤل إزاءه كل ما حوت من مزايا وحسنات، حتى ذهب فريق من رجالات الأدب وجهابذة النقد وأعيان الفلسفة إلى اعتبار مؤلفيها ضمن عوامل الفساد والشر، فقال لنا الفيلسوف « نيتشه »: أغلقوا بيرون وافتحوا جوت.

والسر في مساوي هذه المؤلفات يرجع كما أسلفنا إلى ما قد ركب في غرائز مؤلفيها من مرارة الطبع وحرافة المزاج وحموضة السليقة وما يتبع ذلك من قسوة الفؤاد وغلظة الأكباد.

إن من أقوى مبررات التفاؤل وأقطع البراهين على صوابه ووجب الأخذ به، هو أن الطبيعة التي أوجدت آفات الحياة وعللها أوجدت معها أدويتها ووسائل شفائها، وما ذلك إلاّ لأن روح الطبيعة إنّما هو العدل وأساسها هو النظام، وما غايتها إلاّ الصلاح والرقي، فإذا رأيت الطبيعة أحدثت آفة فاعلم أنها لم ترم بذلك إلى التلف والبوار ولا إلى الفساد والفوضى.

والحقيقة أن هذه الآفات والعلل ليست في الواقع إلاّ أسباباً متنكرة ترمي في النهاية إلى الإصلاح وما هي إلاّ عقبات ضرورية لا بد أن يقتحمها المجتمع ليصل على جسرها المخوف إلى ما قد هيئ له من درجات الفلاح والرقي، فإذا شئت مثالاً على ذلك فانظر إلى أوراق الشجر وأجزاء النبات، ألا تراها تسقط فتذبل فتعفن ثم تتحلل وتبلى، ويخيل إليك أنها قد فسدت وتلفت وهلكت، وهي في الحقيقة لم تمت ولم تفسد، إذ لا موت ولا فساد في الطبيعة، وكل ما تراه بلىً وموتاً إنّما هو تطور وانتقال من حال إلى أخرى أرقى وأكمل، فهذه المواد النباتية التي تخالها قد بليت وماتت لن تلبث أن تستعيد حياتها وقوتها وتجدد بهجتها ونضرتها، بل قد تستحيل على التطوّر والتحوّل إلى صنف أسمى وأسنى.

تلك سنة التطوّر والارتقاء التي تجري عليها الطبيعة في جميع أركانها من الذرة إلى الهباء إلى النظام الشمسي والدورة الفلكية، وذلك ناموس النمو والإصلاح الذي هو أسّ الوجود وروح الطبيعة ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾[الفتح: ٢٣]. ومن أعظم الآثار في النفس أيضاً المخاوف والأوهام.

مخاوفنا وأوهامنا، وأسبابها وعلاجها

لا نريد بالمخاوف والأوهام تلك التي تستثيرها المشروبات الروحية أو الحميات التي يتخيل فيها المدمن أو المريض وجود عمالقة من الشياطين في طريقه أو في غرفته يطاردونه ويضايقونه، حتى لقد يقذف بنفسه من نافذة هرباً منهم، أو يتوهم أنه يرى حيوانات تطير في الهواء أو حشرات تنسل بين ملابسه، لأن كل هذه ترجع إلى حالات مرضية وقتية، يفقد فيها الشخص ذاكرته وقدرته على التفكير المنطقي، وإنَّما نعني تلك المخاوف والأوهام التي تساور الإنسان في أحوال عادية، فتؤثر في سلوكه في المجتمع من حيث علاقاته مع الناس وطريقة تأديته لعمله، كما تؤثر في صحته من حيث سوء تأدية عمليات التمثيل والتغذية واستفحال الأمراض التي يكون مصاباً بها. وقد قدر أحد علماء النفس أن تسعة من بين كل عشرة أشخاص يصابون بهذه المخاوف والأوهام التي تشتد وقت الليل، حيث يضعف نشاط الإنسان عن مقاومتها بعد مجهوده اليومي.

ومن أهم المخاوف الشائعة بين الناس عامة والسيدات بوجه خاص الخوف من الأمراض ولا سيما «السل»، إذ تجد السيدة تخاف من القذارة والميكروبات خوفاً يقرب من الجنون، فتبالغ في النظافة وتدقق في اختيار المأكولات والمشروبات الموافقة، حتى لقد حكي عن سيدة ـ وأمثالها كثيرات ـ أنها كانت تحتم النظر إلى ما تأكله أو تشربه بمنظار مكبر قبل أن تمد يدها إليه حتى تطمئن إلى نظافته وخلوه من جراثيم الأمراض، وتأبى إلاَّ أن تغسل الأغطية والملابس وتطهرها عدة مرات يومياً كلما لامستها يد زائر غريب خوفاً على نفسها وأولادها من القذارة التي تسبب الأمراض.

وقد أظهر البحث العلمي في كثير من الأحوال المشابهة أن السبب في حدوثها هو ذلك الاهتمام الشديد الذي يظهره كثير من الوالدين بحياة أطفالهم من حيث الملبس والمأكل والمشرب، والشغف الكبير الذي يبدونه بسلامة جسمهم وحفظهم من شر الأمراض القتالة، مما يجعل تلك الخواطر الضارة تنحدر إلى غيابات اللاشعور من نفس الطفل، ثم تزداد قوة بما يسمعه في حياته من الروايات التي تحكيها السيدات في اجتماعاتهن عما قاسينه أو قاساه غيرهن أثناء مرضهن من آلام كثيراً ما يبالغ في شدتها، فيشب الطفل وقد استولى عليه هذا الخوف من الأمراض، وملك ناصية نفسه الباطنة، ولا يلبث أن يتجلى في وقت من أوقات حياته في سلوكه وأعماله بالطريقة السابقة.

ولقد يتوهم بعض الناس أنه مريض حقاً، وعلى الخصوص إذا فارق منزله أو بلدته ليعيش في أخرى، فإذا به مغموم النفس هزيل الجسم فاقد الشهية، يتألم من صداع مستديم ويتعب من أقل مجهود ويثور لأيّ مضايقة، وما ذلك أيضاً إلاَّ نتيجة لما تعود أن يلاقيه من والديه أثناء طفولته من حنان زائد وحماية مستمرة، واهتمام بصحته، وعناية بالمحافظة عليه، وتدقيق في اختيار ما يوافقه حتى ينشأ جباناً مدللاً يخشى الابتعاد عن منزل أسرته، ويتوجس خيفة من جراثيم الأمراض التي تهدد حياته التي عرف أنها غالية عزيزة، ويعتقد أن هذا الشيء يتعب معدته إذا أكله، وذلك يؤذي أمعاءه إذا ابتلعه، أو يجلب له المرض إذا اقترب منه، فإذا حدث عفواً أو اضطراراً أن تناول أو لامس ما يعتقد خطأ ضرره منذ الطفولة استهوى نفسه إلى المرض فمرض وجنى على نفسه بذلك شر جناية.

وإلى جانب ذلك يوجد الخوف من اللوم والنقد الذي يستولي على كثير من الناس، فيجعل الشخص يشعر بأنه أقل من غيره ثروة أو كفاية أو جمالاً، وإن كان الواقع عكس ذلك، فهو يخشى الظهور أو التكلم أمام شخصية بارزة أو جمع حافل، وإذا اضطر لذلك امتقع لونه وجفّ لعابه واضطربت حركاته، وعجز عن إخراج المقاطع إخراجاً صحيحاً خوفاً منه من نقد الغير، وشعوراً بعدم كفايته.

وقد لاحظ علماء النفس كذلك أن عدداً كبيراً من الناس إذا حادثهم الإنسان أو تحدثوا إليه أتوا بحركة صغيرة لا فائدة منها ولا معنى لها، تكون على الوجه دائماً، كأن يمر بيده على شعره إلى الخلف، أو يحك ذقنه، أو يمسح جوانب فمه بمنديله من حين إلى آخر، أو يقبض على وجنتيه باستمرار وعللوا ذلك بأن الخوف من اللوم والنقد يتسلط على هؤلاء الناس في الباطن، فيدفعهم إلى محاولة إخفاء وجوههم في الظاهر، وبما أن التقاليد الاجتماعية لا تسمح بذلك، فإن الطاقة العصبية تنصرف إلى الإتيان بهذه الحركات الصغيرة.

كما أنه ظهر بعد البحث أن الخوف ينشأ من تلك الملاحظات التي يسمعها الأطفال من والديهم ومن يجالسونهم، عن نقد مظهر، أو سلوك أقربائهم، أو جيرانهم، مما يغرس في نفوسهم أنهم لا بد سينتقدون بدورهم في كل أعمالهم وأقوالهم إذا بلغوا تلك السن، ويزيد خوفهم من النقد رسوخاً إذا سمعوا من إخوتهم أو والديهم لوماً وتقريعاً مستمراً لهم أنفسهم على ثقل في الحركة أو خلط في الكلام، فهم لذلك إذا شبوا ووصلوا إلى سن النقد تجلى خوفهم الباطن في حركاتهم وأعمالهم التي كثيراً ما تكون مضحكة.

وقد يرتبط الخوف بأنواعه أحياناً بحادثة خاصة، كما في أمثال حالة تلك البنت التي لم تكن قد بلغت من العمر إلاَّ ست سنوات فقط، والتي كانت جالسة أمام منزلها في الأرياف وحيدة في هدوء وسكينة، وإذا بعربة تمر مسرعة محدثة ضوضاء عظيمة انزعجت لها البنت وهبت تجري داخل المنزل، فما كان من والديها وإخوتها إلاَّ أن انتقدوها نقداً مراً وعنفوها على سلوكها أمام الناس، ذلك السلوك المعيب الذي لا مبرر له، واستمروا يعيرونها بتسرعها وطيشها، حتى إنها نشأت خجولة تخشى الظهور أمام الناس وتخاف أن تبارح المنزل، وتظن إذا سارت أو تكلمت أنها هدف للوم والنقد وإن لم يكن هناك ما يستحق ذلك.

ولا يقل الخوف من الأرواح الشريرة والأشباح الغريبة أهمية عن المخاوف السابقة، إذ يعكر صفو حياة الإنسان ويؤذي صحته أذى كبيراً، فهو كلما وجد في الظلام تخيل أشباحاً مزعجة ماثلة أمامه تهدده وتشاكسه، فيضطرب قلبه ويقف شعر رأسه ويعجز عن الحركة، وتكثر هذه المخاوف حيث ينتشر الاعتقاد في الخرابة والسحر والعرافة التي تقوم بها قوى خفيفة، إذ يشب الطفل وقد وعى عقله الباطن الشيء الكثير من أخبار الجن والمردة والشياطين، يتجلى وقت اضطرابه أو وقت نومه في الأحلام برؤيا الأشباح الغريبة، ومن الغريب أن هذا النوع من الخوف لا يمكن انتزاعه غالباً من نفس الشخص وإن زال عنه الاعتقاد في الخرافة والسحر، كما أثبت ذلك التحليل النفساني الدقيق لآلاف من الأشخاص.

ويبدي بعض الناس خوفاً من البحار، فهم لا يتجاسرون على السفر بحراً أو نهراً مهما قيل لهم عن وسائل الراحة والطمأنينة والأمان الموجودة في السفن.

وقد أظهر التحليل النفساني أيضاً أن تلك الحالة تنشأ إما عن الأهمية الكبيرة التي تعلقها الأم حول استحمام الطفل؛ والمضايقة والخوف اللذان يرتبطان به وقت الطفولة، وإما إلى تعرض الشخص نفسه للغرق أو رؤيته شخصاً يغرق به في وقت من أوقات حياته، وانفعاله واضطرابه للحادث مما يحدث أثراً عميقاً في نفسه الباطنة يزيده قوة ما يسمعه عن مخاطر البحار، فيتجلى كل ذلك بعدئذ في خوفه من الاقتراب من الأنهار أو البحار أو السفر بطريقها طول حياته.

وهكذا تجد المخاوف بأنواعها إما ترجع إلى أحاديث وملاحظات بريئة غير مقصودة يسمعها الشخص ممن حوله وقت الطفولة، أو إلى تجارب قاسية ماضية تتجلى كلها في حياة الإنسان المستقبلة، ولذا يجب أن لا يسمع الأطفال من الأحاديث ما يثير خوفاً من حيوان أو شيطان أو مظهر طبيعي أو شخص غريب أو مرض قتّال، وأن لا نوجه إليهم ألفاظ النقد المر المتكرر، وأن لا يؤخذوا في التربية باللين الشديد، وأن لا يواجهوا من المخاطر ما يثير عواطفهم، لأن كل ذلك خطر على حياة الطفل الذي هو أبو الرجل.

وقد أحصى العلامة «ستانلي» هول أربعة آلاف من أصحاب المخاوف، فوجد أن ١٤٤٦ شخصاً يخافون من الحيوانات والحشرات، و٧٩٩ من الظلام والأشباح الشريرة، و٦٢٦ من المظاهر الطبيعية كالرعد والبرق والزلازل والبراكين، و٥٨٩ يخافون من اللصوص والغرباء، و٥٤٠ يخافون من الموت والمرض، وقد تختلف هذه النسبة باختلاف الوسط.

وقد أوجدت الحرب الكبرى ميداناً واسعاً لعلماء النفس والأطباء لدراسة مخاوف الجنود وطرق علاجها، وكانت أهم وسائل العلاج إثارة خوف مضاد للخوف الموجود يزول ما زال الخوف الأول، فالخوف من الموت ومن التقدم إلى ميدان القتال عولج بنجاح في كثير من الأحيان بإثارة الخوف من العار والفضيحة، وكذلك نجحت إثارة عواطف قوية مضادة مثل عاطفة الوطنية والدفاع عن الوطن المهان التي حولت انتباه الجنود عن الخوف من الحرب وشوقتهم إلى الجهاد والمغالبة ثم النصر، أما في الأحوال التي يربط فيها الخوف بحادثة خاصة أو تجربة ماضية مجهولة، فإن العلاج الوحيد له هو أن يدرك الشخص سبب خوفه بكثرة التأمل الباطني وبالالتفات إلى تفسير أحلامه تفسيراً علمياً صحيحاً، حتى يصل إلى تذكر الحادثة التي كانت أصل خوفه وقت الطفولة، ثم يستهوي نفسه إلى احتقار مخاوفه وتركها استهواء ذاتياً مستمراً. انتهى الكلام على آية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ الخ، ولنبدأ بالكلام على الرعد والبرق ونحوهما، فنقول:

الكلام على الرعد والبرق ونحوهما

اعلم أن أعظم الأشياء أثراً في النفوس حوادث الجو من مطر ورعد وبرق، فكم فيها من نعمة وكم فيها من إهلاك، وذلك بالكهرباء المحدثة للصواعق، كما سترى شرحه، وأن كل ورقة من أوراق العشب الدقيقة تفرغ كهربائية أكثر مما تفرغه الإبرة، وكذلك البراعيم فإنها أحسن من مانعة الصواعق التي صنعها الإنسان.

وإذن يكون كثير من الأوراق والبراعيم والأشجار بمثابة مانعة الصواعق، فالنبات والورق والشجر كما يغذينا وينفعنا كثيراً يمنع فوق ذلك عنا الصواعق، فإذا كان الإنسان صنع مانعة الصواعق فإن الله سبقه بها وملأ بها عالمنا في أشجاره وأوراقه وزرعه، وهذه بعض المعقبات الحافظات للإنسان، ولذلك أردف ما تقدم بهذه الآيات التي وردت في البرق والسحاب والصواعق.

السحاب تقدم الكلام عليه في سورة «البقرة»، فأما الرعد والبرق فلا يمكن معرفتهما إلاّ بعد فهم نوعي الكهربائية.

اعلم أن الكهربائية نوعان: زجاجية «إيجابية» وراتنجية «سلبية»، ومعنى هذا أنك إذا دلكت أنبوبة من الزجاج بالحرير فظهرت فيها الكهرباء من الدلك ثم قرّبت تلك الأنبوبة من لبّ «السيسان» فإنها تجذبه حتى تكهربه ثم تدفعه ولا تجذبه. ثم إذا أتيت بشمع الختم وهو صمغ راتنجي ودلكته بصوف فتكهرب وقرّبته من لبّ «السيسان» المكهرب من الزجاج، فإنه يجذبه حالاً حتى يكهربه ثم يدفعه ولا يجذبه بعد ذلك، فلو أعدت أنبوبة الزجاج على اللبّ جذبته إليها حتى تكهربه ثانياً فتدفعه فإذا أعدت قضيب الختم عليه جذبه حالاً، وهكذا ما يجذبه هذا يدفعه ذاك وبالعكس، فهما حينئذ قسمان: كهربائية سالبة وهي الراتنجية، وأخرى موجبة وهي الزجاجية، وقد عرفت الحقيقة والتسمية اصطلاحية لمجرد التمييز.

والأجسام المتشابهة كهربائيتها تتدافع، والتي تخالفت كهربائيتها تتجاذب، فلو كهربت كرتين من لبّ «السيسان» بكهربائية الزجاج وأخريين بكهربائية شمع الختم، لتدافعت الأوليان معاً والأخريان معاً لأنهما متشابهتان في الكهرباء، ولكنك إذا قربت كل واحدة من الأوليين مع واحدة من الأخريين تجاذبتا، هذا إيضاح القاعدتين.

ثم إن الأجسام إما موصلة للكهرباء وإما غير موصلة للكهرباء.

الموصلة للكهرباء	غير الموصلة للكهرباء ويسمونها عازلة أو فاصلة أو موصلة غير جيدة
المعادن	الهواء
الحوامض	البخارات الجافة
الفحم	الشمع، والورق الجاف
النباتات	الكبريت، والحرير والزجاج
الحيوانات	الماس
الماء	الحجارة الكريمة واللك
الثلج	

كهربائية الجلد والهواء والغيوم

إذا ثبت أن حك الأنبوبة من الزجاج يهيج الكهربائية فيها، وشمع الختم كذلك بالدلك، فلا يكون كذلك الهواء مكهرباً دائماً إلاّ نادراً جداً. أفليست الرياح تتحاك ويعارض بعضها بعضاً، وهي أيضاً تصادم وجه الأرض وما عليها، والغيوم والسحب تحتك ببعضها وبالهواء، وهكذا ترى الحرارة كما تقدم تحول الماء إلى بخار والبخار إلى ماء.

وهناك أعمال كيمائية ذات تحليل وتركيب فتحوّل كهربائية الأرض السالبة إلى كهربائية الهواء وتكون كهربائية الجلد إيجابية، وقد تتغير فتصير سالبة في أوقات الاضطراب، فمن هذا نفهم حدوث البرق والرعد، فالبرق يحدث من تقارب سحابتين مختلفتي الكهربائية حتى يصير ميل الكهربائية الواحدة للاقتراب من كهربائية الأخرى أشد من قوة الهواء على فصلهما، فتهجم كل منهما على الأخرى بنور زاهر وصوت قوي شديد، فالنور هو البرق والصوت هو الرعد؛ فالرعد يحدث من تصادم دقائق الهواء الذي تطرده كهربائية البرق أمامها، وأما دويه فيحدث من انعكاسه من الغيوم البعيدة والجبال والتلال والأودية ونحوها.

وإذا عرفت ذلك فاسمع الحديث وإن لم يكن في الصحيحين ولكنه في الترمذي: لما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرعد، قال: «ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوقه بها حيث يشاء الله». قال السائلون: فما هذا الصوت الذي يسمع منه؟ قال: «زجره السحاب حتى تنتهي حيث أمرت». قالوا: صدقت. وفي حديث آخر: «هو صوت من نور تزجر به الملائكة السحاب». فهذان الحديثان إذا صحا كانا من علامات النبوة، لأن المخاريق في الأصل أثواب تلف ويضرب بها الصبيان بعضهم بعضاً. والمراد هنا آلة يزجر بها السحاب، فهذه المخاريق التي من نار لا شيء سوى الكهرباء. وقد بينا أن كل واحدة من السحابتين تهجم على الأخرى، ولا معنى للهجوم إلاّ بالإسراع، وهذا الإسراع بالكهربائية، فالكهربائية هي التي زجر بها السحاب زجراً، فقوله صلى الله عليه وسلم «من نار»، أي: من كهرباء، والملك ذكر ليرجع العالم الجسمي إلى مبادئه الأولى، فإن هذه العوالم كلها تتصرف فيها عوالم تحفظ كيانها.

اللطيفة العاشرة: في الصواعق

قد تمتلئ السحب بكهربائية والأرض بكهربائية أخرى والهواء فاصل بينهما، فمتى قاربت السحب وجه الأرض تنقضّ الشرارة الكهربائية منها فتنزل صاعقة تهلك الحرث والنسل.

وقد اخترع «فرنكلن» لمنع الصواعق قضيباً من معدن، كالحديد والنحاس دقيق الرأس متصلاً مصنوعاً رأسه من معدن لا يصدأ ولا يتحات، كالذهب والفضة والبلاتين، ويمتد طرفه إلى حوض ماء أو تربة رطبة لا تجفّ، ويكون طرفه الأعلى عالياً عن الدار، ويجب أن يكون على كل بناء في تلك المنازل المعرضة للصواعق قضيب للصاعقة، وأن توصل المداخن التي فيها إما بأرض رطبة وإما بقضيب الصاعقة، وأن تصل ميازيب الماء المعدنية وسطوح التوتياء ونحوها بأرض رطبة كذلك، أو بقضيب الصاعقة، لشدة تعرضها للصواعق، وهذا القضيب يراد به موازنة الكهربائية في السحاب والأرض مع السلامة من الخطر، والأسلم لمن لم يكن في بيته قضيب كذلك أن يكون في وسط الغرفة، وإذا كان في الفلاة وجب أن لا يلتصق بالأشجار العالية ولا يبتعد عنها كثيراً، لأنها تقيه كما يقيه قضيب الصاعقة في حال بعده المتوسط.

ثم إن كل ورقة من أوراق العشب الدقيقة الرأس تفرغ من كهربائية الماء أكثر من ثلاثة أضعاف ما تفرغه أدق الإبر، وكل برعوم دقيق الرأس يفرغ من الكهربائية أكثر من أحسن القضبان التي جعلها الناس للصواعق، وكل نقطة من المطر وكل قطعة من الثلج تنزل إلى الأرض محملة كهربائية تسلبها

من الجلد والسحاب، وقد يرى لهب ناري على رؤوس السواري وأسنة الرماح وآذان الخيل، وما ذلك إلا كهربائية أفلتت من الأرض إفلاتاً. اهـ.

جوهرة في قوله تعالى:

﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾

ذكر الله في هذه السورة البرق والرعد والصواعق، الرعد صوت والبرق نور والصواعق نار، فلنشرح هذا المقام شرحاً يسر المفكرين.

اعلم أيها الذكي أن العالم الذي نعيش فيه مملوء جمالاً وبهاء وحكمة وصنعة مدهشة باهرة ترقرق سناء وبهجة للناظرين، ما هي الحرارة وما هو الضوء؟ ما هم إلاَّ أمر واحد.

ضع قطعة من البلاتين في النار، فإنك تحس أولاً بحرارتها ولا لون لها، ثم تشاهد لون الحمرة فالبرتقالية فالخضرة وهكذا إلى لون البنفسجية، هذا ما يحصل في البلاتين إذا وضع في النار، وهكذا الحديد وغيره عجب عجاب. حرارة تكون أولاً، فضوء يتدرج من الأدنى إلى الأعلى، فالأحمر أدنى والبنفسجي أعلى، هذا هو قوس قزح بعينه، وهذا هو قوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾[الملك: ٣] التي سيأتي تفسيرها في سورة «الملك»، والبرهان العملي الطبيعي هناك على أن عناصر الأرض وعناصر الشمس وغيرها واحدة بسبب الخطوط السوداء التي كشفها «فرنهوفر»، تلك الخطوط التي تظهر في طيف الشمس وتظهر في طيف المعادن الملتهبة، فكل معدن تشابه خطه بما يرى في الطيف الشمسي، فذلك المعدن في الشمس وهكذا بقية الأجرام العلوية.

هذا هو الذي ستراه إن شاء الله في سورة تبارك «الملك» مع العملية المبرهنة عليه، وترى أثر ذلك أيضاً في سورة «الإسراء» عند ذكر المعراج، وأنه صلى الله عليه وسلم بإسرائه وعروجه إلى الملأ الأعلى ونظره في عوالم عند سدرة المنتهى لا يقدر أحد من خلق الله أن يصفها، قد سنّ للمسلمين الذين سيكونون بعدنا سنة حسنة، وهي أن يدرسوا هذا الوجود مفكرين كما كان يدرس العوالم في إسرائه ومعراجه مفكراً باحثاً منقباً، وكيف يقطع نبي أمة عوالم السماء معراجاً؛ وتابعوه ساهون لاهون لا يدرسون ما عرفته الأمم حولهم من تلك العوالم العالية، فضلاً عن أنهم يفوقون سائر الأمم في ذلك. نبي يقطع السماوات سفراً في عروجه، والأمم التابعة له لاصقون بالأرض لا ينظرون ما فوقهم ولا ما حولهم، هذا عجب عجاب، فهاهنا هذه المسألة وهي الحرارة، انظر وتعجب من حديدة محماة كيف كانت حرارة أولاً، فنوراً ثانياً متدرجاً من الحمرة إلى البنفسجية.

جلَّ الله، هذا قوس قزح أقلّ ألوانه الحمرة وأعلاها البنفسجية، أي إن اهتزاز الأثير المالئ لهذا الوجود إن تحرك نيفاً و٧٠٠ ألف ألف ألف ألف مرة في الثانية يكون هو اللون البنفسجي، واهتزاز ذلك الأثير في الثانية نيفاً و٤٠٠ ألف ألف ألف ألف مرة يكون لون الحمرة، وما بينهما النيلي والأزرق والأخضر والأصفر والبرتقالي.

هاهو ذا اللون قد تشابه في الحديدة المحماة وغيرها وفي قوس قزح. خلق الله قوس قزح في السماء وبسط فيه الألوان السبعة، وقال للناس هذا كتابي فاقرؤوه، كتاب كتبته بيدي وشرحته وبسطته هاأنا ذا أيها المسلمون أبنت لكم الألوان السبعة في هذا القوس وجعلت ما تزاولونه من أعمال الحرارة

جارياً على هذا النمط لتفهموا ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ [الملك : ٣] ، فالعالم كله على وتيرة واحدة ، أعلاه كأدناه وصغيره ككبيره ، ألا ترون أن الذرة الواحدة مركبة من جزئيات تدور حول بعضها دوران السيارات حول الشمس ؟ .

الصوت والحرارة والنور

هذه الثلاثة ترجع إلى الحركات ، فحركات الهواء إذا اشتدت صارت عواصف ، وحركات الأثير إذا اشتدت كانت لون البنفسجي ، وإذا قلت كانت لون الحمرة ؛ وإذا اشتدت الحرارة كانت محرقة أو انخفضت كانت هادئة .

إذن ما عندنا من صوت ومن نار ومن لون كل ذلك حركات ، إذن عالمنا الذي نعيش فيه للحركة فيه أكبر أثر فعال .

مِمَّ تكون الحرارة ؟

تصوّر أيها الذكي رجلاً يطرق حديدة ، وآخر يوقد النار في الحطب ، وهما معاً واقفان في حمارّة القيظ وهما يتلظيان بحرارة الشمس ، فهاهنا حرارة الشمس ، وحرارة « ميخانيكية » عند الفرنجة ، أو « حيلية » عند قدمائنا نسبة إلى فن الحيل ، وذلك بالاحتكاك أو الطرق أو الضغط ، وحرارة كيماوية .

(١) أما حرارة الشمس فهي المسماة طبيعية ، إن الشمس وسائر النجوم ترسل لنا حرارة على الأرض ، ومعنى ذلك أن أجزاءها بشدة حركاتها تؤثر في عالم الأثير فيتحرك فتصل حركاته إلى الأرض ، فنحس نحن بحرارة ، وما علا من تلك الحركات نحس بها لوناً ، واجتماع الألوان السبعة هو لون نور الشمس وألوان النجوم ، والشمس ترسل لنا جزءاً يسيراً جداً يصل إلى واحد من ألفي ألف ألف من حرارتها ، وجميع الكواكب يصل لنا من حرارتها أربعة أخماس ما يصل من حرارة الشمس .

(٢) وأما الحرارة الميخانيكية فهي الحاصلة كما تقدم بأحد الأمور الثلاثة ، وهي في مثالنا حاصلة بالطرق الحاصل على الحديدة ، وذلك الطرق نشأ منه حركات ، والحركات صارت حرارة ، والحرارة بالاحتكاك معروفة في القدح بالزناد عند عرب البادية ، ومثل ذلك الضغط

(٣) وأما الحرارة الكيمائية فهي الحاصلة من اتّحاد جسم بآخر بينهما ألفة ، مثال ذلك ما تقدم من اشتعال النار في الحطب ، وما هو الاشتعال ؟ إن هو إلاّ أوكسوجين الهواء قد لامس الهيدروجين والكربون اللذين في الوقود لما بينه وبينهما من الألفة ، فتراه يهجم عليهما ويهجمان عليه ، ويصطدم الفريقان وتهتز دقائقهما ويهتز الأثير الذي حولهما ، فيتموج أمواجاً كثيرة تكون حرارة وتكون نوراً .

وما حرارة الأجسام إلاّ من هذا القبيل ، يستنشق النسمات وفيها الأوكسوجين ، وهذا الأوكسوجين يجد أمامه حبيبيه وهما الهيدروجين والكربون ، فيهجم ويهجمان ونعيش نحن بهذه المعركة ، أي نعيش بالحرارة الناجمة من التقاء الأحباب سواء أكان التقاء أولئك في أجسامنا أم خارجها ، فلنرجع إلى ما في الآية نجد ذكر الصاعقة والبرق والرعد ، فالأولان حركات في الأثير ، والثالث حركات في الهواء .

الصاعقة نار مهلكة ارتفعت حرارتها بوفرة الاهتزاز ، والبرق نور ، والحرارة والنور يرجعان لسبب واحد هي الحركات في الأثير .

ثم إن هذه الظواهر ينقلب بعضها إلى بعض، فكل من الحركة والحرارة والضوء والكهرباء ينقلب بعضها إلى بعض، ولو أن أرضنا صدمها كوكب فوقفت بغتة عن حركتها لتولد منها حرارة تحولها وما حولها بخاراً، ذلك لأن سرعة دورانها في فلكها حول الشمس لا يقلّ في الدقيقة عن ألف ميل، بل هي في الساعة تجري فوق ٦٨ ألف ميل، فمتى وقفت فجأة تحولت كل هذه الحركة إلى حرارة فجعلها بخاراً.

الحب نظام هذا العالم

يظهر لي أن الحب هو الناموس العام في هذا الوجود.

(١) هجم الأوكسوجين على الأودروجين والكربون في الحطب فاتقدا ناراً، فكان منها كل ما نصنع في منازلنا وسائر أعمالنا.

(٢) هجم الأوكسوجين أيضاً على الأودروجين وحده بنسبة ٧ من الأول وزناً إلى واحد في الثاني فتكوّن الماء. الماء هو أوكسوجين وأودروجين، تعاشقا وتحابا فاتحدا فكان منهما الماء.

(٣) هجم الأوكسوجين من الهواء على أخويه في كل حيوان وكل نبات بالشهيق، فكان كل حيوان وكل نبات.

(٤) هكذا نرى كل حيوان وكل نبات تحابّ ذكرانه وإناثه، كما نشاهد في تحابّ الأوكسوجين لأخويه، فكما نجم من اتحاد الأوكسوجين بأخويه: النار والماء وكل حيوان ونبات، هكذا نجم من اتحاد الذكران بالإناث كل نبات وحيوان من حيث التولد.

ولعمري أيّ فارقة بين اشتعال النار بذلك الاتحاد وبين ظهور الذرية وصغار النبات بتقارب وتجانس الذكران والإناث.

الله أكبر، إن هذا الوجود كله حب وكله جمال، لا حياة في أرضنا إلاّ بالحب أو بما أشبه الحب. لولا تعاشق الأوكسوجين والأودروجين ما كان هذا الماء الذي هو حياة كل شيء. وفي الحديث: «إن كل أم يتبعها ولدها»، أما هذه العوالم التي نعيش فيها ـ والعوالم التي نعيش فيها لا وجود لها إلاّ بما يوجب الاتحاد ـ حياة الماء وحياة النار بسبب التفاعل الموجب الاتحاد.

هاهو ذا الماء عاش في أرضنا وجرى في سحابنا وفي أنهارنا وهو يدور كدورة الأفلاك، كل ذلك بما فيه من سر الاتحاد بين جزأيه المتحابين «حباً مجازياً».

هكذا، هكذا تكون حياة الأمم في الأرض، لا ترقى الأمم إلاّ برجال يظهرون فيها يعشقون العلوم والفضائل، ولولا الحب الذي يملأ أفئدة الحكماء ما تعلموا ولا صنفوا لأممهم حرفاً واحداً. لولا الحب الجمّ الذي في أفئدة الأنبياء لله وللعلم ولأممهم ما علموا ولا أفادوا ولا كانت لهم أمم، ليست ترقى الشعوب إلاّ بحرارة المحبة السارية في أفئدة شبانها للعلم وللرقي الملتهبة في قلوب قادتها. تجانس الأوكسوجين والأودروجين فاتحدا فكان ماء، وهذا الماء حياة كل حي، هذه نفسها صفة العقول الإنسانية المحبة للعلم، أول الفلسفة حب العلم وأوسطها تحصيله ونهايتها حب الله.

إن الحب الإنساني شائع بين جميع الناس، وحب العلم يختص بالعلماء، وحب الله أعلى، فهو أخصّ الجميع، وكل حب مقدمة لما بعده وأقل درجة منه.

انظر كيف كان الحب سائراً في سبيل واحد لا يحيد عنه، جرى مع جزأي الماء وعناصر النار ومع أنواع الحيوان، وارتقى فكان مع الفلاسفة ومع الأنبياء.

يظهر أن هذه الأنفس الإنسانية خلقت لأمور رفيعة جداً وشريفة. إني أرى أن صانع هذا العالم جعله على نمط واحد وهو الحب العام، وأولي بالحب هذه النفوس الإنسانية هي أولى به وأولى وربّما تكون هذه الأنفس يوماً ما في عوالم أرقى وأرقى، فيكون بينها اتّحاد كاتّحاد الأوكسوجين والأودروجين، هذان اتّحدا فكوّنا ماء فكان به حياة كل حي.

فلعل أرواح هذا الإنسان، أي: الأبرار منها يوماً ما ستكون على هذا الاتحاد الساري في الماء وفي النار، وسيكون لها هناك لذات وأعمال لا تعقلها الآن، ويكون رأي الواحد رأي الجميع، ولذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٧-٤٨]، وفي الحديث: «أنتَ مع من أحببت»، وفي الآية: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ [مريم: ٥٨] الخ، فهؤلاء الذين أنعم الله عليهم هم المتحابون في الله.

إذن الحب نبراس هذا العالم، به ركبت المركبات وبه كانت النار وكان الماء، وبه كان الحيوان والنبات، وبه كان العلم والعلماء، وبه كان الوحي على الأنبياء، والحب حرارة أيضاً، والعلم حركات الذهن، الحب نظام العالم، بالحب كانت هذه الجاذبية العامة، وبالحب كان التلاصق في أجزاء الحديد والذهب وكل جامد، بالحب قامت السماوات والأرض.

نظام هذا العالم هي المحبة، لذلك تسمع المسلم في صلاته يقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ولا يقول: «اهدني»، ويقول: «اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولني فيمن توليت»، وتسمعه يقرأ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ولا يقول: «إياك أعبد»، وتسمعه يقول: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» ويصلي على الأنبياء والمرسلين، ولا يقول: «السلام عليّ».

الله أكبر، لا حياة للناس إلاّ باجتماعهم ولا خير في اجتماعهم إذا لم يكن حب يشملهم، لهذا شرعت الجمعة، وشرعت الجماعة، وشرع العيد، وشرع الصدقات، ليتحابّ الأغنياء والفقراء، ويقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣].

الدين يطلب هذا والعقل كذلك، إذ لا يعيش الناس إلاّ بمساعدة بعضهم بعضاً، وهذا معنى قول الحكماء: «الإنسان مدني بالطبع»، رجع أمر الإنسان إلى حال الماء الناشئ من الاتّحاد، وهكذا النار وهكذا سائر المركبات، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦]. انتهى.

بهجة الحكمة في هذه الآيات، وقوله تعالى:
﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾
ولِمَ سميت السورة بالرعد؟

اعلم أن السحاب كإنسان تبسم ثم تكلم، تبسم بالبرق وتكلم بالرعد، وإنّما المشكل في هذا المقام التسبيح والتحميد، وهنا لا تسبيح ولا تحميد إذ لا يكونان إلاّ من العقلاء.

والجواب عن ذلك أن تنظر أيها الذكي ما مضى في سورة «هود» في الاستطراد بذكر قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، عند تفسير قوله

تعالى: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾[هود: ٥٦] الخ، فقد استبان هناك أن لكل حيوان لوناً خاصاً، وهذا اللون هو الوقاية الحافظة له، فإذا رأيت حشرة على لون زرق الطيور فذلك لم يكن لإذلالها ولا لإهانتها، وإنَّما ذلك لحمايتها من نفس تلك الطيور، إذ تراها فتعافها لأنها ظهرت لها بهيئة زرقها وهي جاثمة على الشجرة، فما دامت تلك الحشرة جاثمة على الشجرة فكأنَّما هي من طير الحرم حرم الله صيدها تحريماً طبيعياً لا دينياً، فهاهنا تنزيه الله عن العبث في وضع هذا اللون وعن قصد التحقير. وبنفس هذا الوضع عاش هذا المخلوق وحياته نعمة تستوجب الحمد، فهاهنا تنزيه ملتبس بحمد، هذا هو التسبيح والتحميد، وهذا مثال من أمثلة كثيرة تقدم ذكرها هناك فارجع إليها.

واعلم أن تسبيح كل شيء بحسبه، فإذا كان هذا تسبيح الطيور وقد شرح في سورة «هود» بأبهج طريق وأبدع منهج فما تسبيح الرعد ؟.

أقول: إن التسبيح والتحميد هنا إيضاح لقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [الرعد: ١٢]، وذلك أن هذا العالم الذي نعيش فيه عالم طبيعي، والعالم الطبيعي امتزج خيره بشره وضره بنفعه، فإذا كان المطر نافعاً فهو ضار، وإذا كان خيراً فهو شر، وليس هذا قاصراً على المطر، فالمال والبنون وجميع أحوال هذه الحياة فيها الأمران قد امتزجا ولكن الخير أكثر من الشر والنفع أكثر من الضر، فإذا رأينا المطر يخيف الناس بالصواعق ويؤذي أهل المدن ونحو ذلك، فله منافع معروفة تربو على شروره، وهكذا النار والهواء، وكل عالم المادة هذا حكمه. فإذا كان الرعد مخيفاً لقوم فهو مطمع لآخرين، ولكن الطمع أوسع نطاقاً من الخوف.

فإذا أخاف الله عزَّ وجلَّ بالرعد المنذر بالمطر فهذا ضر قليل يغتفر في جانب النفع الكثير، والحكيم لا يترك النفع الكثير لقليل الضر، وهذا قوله تعالى: ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[الأنعام: ١٤٩].

أنت يا الله محمود على المطر وإن كان فيه ضرر، هاهنا امتزج التسبيح بالتحميد، تنزه الله عن إرادة السوء والضر بالمطر الذي أنزله نعمة عامة، فهو ضر جاء تابعاً لا مقصوداً لذاته، ولكن لا محيص عنه، وإفلات المخلوقات من هذا الضر معناه إهلاكهم.

إذن الله تنزه عن فعل الضر وذلك التنزيه ملتبس بنعمة توجب الحمد، هذا ما فتح الله به في معنى تسبيح الرعد وتحميده، كأنه قيل: لم أخافنا الله بالمطر وهو المطموع فيه؟ لأنه نعمة، ولِمَ لَمْ يكن عالمنا كله رجاء لا خوف معه؟ فقال هنا: ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ ﴾[الرعد: ١٣] إشارة إلى أن لله الحجة البالغة وأن الله منزه عن خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً، لأن ذلك ظن الذين يكفرون بالنعم لجهلهم أصولها وعلومها، ولم يدرسوا أصول الحكمة، فإن ما هو شر أو ما غلب شره لا ظهور له في الوجود، وما هو خير محض أو ما غلب خيره هما الموجودان، وهذا العالم الطبيعي من هذا الأخير، فإما أن يخلق على هذه الحال وإما أن يبقى في حيز العدم.

إذن الله بهذا البرهان العقلي المذكور في إشارات ابن سينا وشرحه إجمالاً هناك أفادنا معنى التسبيح الممتزج بالتحميد، والحمد لله الذي علمنا وشرح صدورنا وأرانا بعض حكمه، وله الحمد في الآخرة والأولى وهو الولي الحميد.

تسبيح الرعد وتحميده

سبح الرعد، وسبح لله ما في السماوات والأرض، ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[الحشر: ٢٤]، ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾[النور: ٤١]، ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾[الإسراء: ٤٤]. هذه الجمل وهذا النموذج لم ترد في كلام العرب، نعم سمعنا هذه الجملة في قول الشاعر:

* سبحان من علقمة الفاجر *

هذا هو التسبيح الذي نطق به العرب، وهو تسبيح في باب الشتم والذم لا جمال فيه ولا كمال.

المسلمون يسبحون ويحمدون، فالأول في الركوع والسجود وعقب الصلوات، والثاني في الفاتحة وعقب كل صلاة، وهذا التسبيح إما بلفظ بلا حضور معنى وهذا لا فائدة منه، وإما مع حضور المعنى وهذا نافع للتعبد ولنفس الإنسان وحده، وإما مع العمل بالمعنى، وهذا الأخير هو شأن العارفين والعلماء العاملين وقادة الأمم الإسلامية المفكرين.

يقول المسلم: هاأنا ذا أسمع أن نبينا صلى الله عليه وسلم بشره إبراهيم بأن غراس الجنة: سبحان الله والحمد لله الخ، وذلك في نهاية عروجه في السماء. الصلاة تسبيح وتحميد، وبشارة الخليل للأمة تسبيح وتحميد، ما هذا كله وما ثمرته؟ ثمرة هذا كله لا ظهور لها إلاَّ بالعلم.

بِمَ يكون العلم؟

يكون بفهم نظام هذا العالم من السحاب والسماء والأرض، هذه كلها مسبحات. إنك عند البحث ترى شرها لم يكن مقصوداً لذاته كما تقدم هنا وفي سور كثيرة، من أهمها «آل عمران» عند قوله تعالى: ﴿ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ﴾[الآية: ٢٦].

السحاب يبسم بالبرق وينذر بالرعد، وإنذاره بالرعد سمي تسبيحاً، وإنما خص الرعد باسم التسبيح لأنه صوت والتسبيح يكون بلفظ واللفظ صوت، بماذا أنذر الرعد؟ أنذر بقرب هطول المطر لنستعد له. المطر خير وشر قد اغتفر بالبرهان المتقدم.

إذن الله منزه عن خلق الشر مقصوداً لذاته، ولو أنه منعه لم يكن هذا الوجود؛ إن مسألة الشر والخير هي أول العلم وهي آخره، هناك دين الفرس بني على إلهين: إله الخير وإله الشر، وإله الخير غلب إله الشر الذي خلق الظلمة وجميع الشرور.

هذه المسألة مسألة عقدة العقد، هي لغز الحياة، كيف يكون الله أرحم الراحمين ويخلق الآلام والنقص؟ بهذه المسألة ضل قوم فنبذوا كل دين وعاشوا ملحدين.

والمانوية اعتقدوا إلهين، غلب إله الخير إله الشر كما تقدم، والدين الإسلامي جاء بأمر جديد، فقال: إن الله منزه عن كل ما لا يليق، وما الشر إلاَّ أمر لازم للخير، ولو حذفناه لحذف ذلك الخير.

الناس يعيشون على هذه الأرض في ألم، إذا كانوا مفكرين ما داموا لم يعقلوا لم وجد هذا الشر ولم نبتلى به، والمؤمن يسبح ويعتقد التنزيه بمجرد الإيمان، ولكن اليقين لا يكون إلاَّ بالعلم كما في هذا التفسير الذي جمعت لك فيه لب الفلسفة القديمة والحديثة.

تسبيح الرعد وتسبيح كل مخلوق لا يعقله إلاَّ أولو الألباب بالحكمة والعلم، للرعد تسبيح علمي للعقلاء؛ بل هو مخ التسبيح، وإذا سبح الإنسان ربه وهو ذكي ثم هو ترك هذه المخلوقات التي حوله فلم يعقلها ولم يدر لم خلق شرها مع خيرها، فمثل هذا لا ينزه ربه بقلبه البتة، بل يقول: هذا العالم مملوء شراً لا حكمة فيه، يقولها بقلبه وإن لم ينطق لسانه.

ماذا يقول الرعد؟

يقول: المطر أقبل بخيره وشره فاحترسوا من شره، هذه المعاني يفهمها الناس، فإما أنهم يفهمون أن هذا الشر من لوازم الخير، ولو استأصلنا الأول حرمنا من الثاني، فهذا المعنى لا يدركه إلاَّ حكماء الناس في هذه الأرض، ولا جرم أن هذا المعنى تسبيح ملتبس بحمد، فالخير محمود عليه والشر قد نزّه الله عنه.

وهذا هو ما جاء في ديننا أن نؤمن بالقدر خيره وشره من الله مع أنه رحمن رحيم، ومن تحقق هذا، أي: الجمع بين خلق الشر مع وصف الرحمة فهو من الموقنين.

إذن كل العالم مسبح بحمد الله، ولا كمال لتسبيح الناس إلاَّ بتفهم تسبيح الرعد والسماوات والأرض، وإن كان فهم الحقيقة على ما هي عليه مستحيلاً علينا في الأرض، فقوله تعالى: ﴿ لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾[الإسراء: ٤٤] أي: على حقيقته، فأما فهمه كما قلناه فهذا هو المناسب لعقولنا ولا نقدر على أكثر منه، المسلمون يسبحون باللفظ ومعناه الغريب، ولكن لا كمال لهم إلاَّ بدراسة هذا النظام وفهم الخير والشر والاقتناع بأن الشر تابع لا أصل. فهذا هو تسبيح الرعد وتسبيح ما في السماوات والأرض وتسبيح الطير، وقد تقدم في سورة « هود » تسبيح الطيور المختلفة فراجعها، فهناك عجب، والحمد لله رب العالمين. انتهى.

ستة عشر مليون عاصفة، الرعد والبروق في العالم

اقتطفت من بعض المجلات العلمية الصادرة في ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٢٦ ما يأتي باختصار، وحذفت ما لا يلزم: لو أتيح للمرء أن يراقب الفضاء ويحصي عواصف البرق والرعود التي تقع فيه لرأى أنها لا تقل عن ستة عشر مليون عاصفة في العام، أو نحو ٤٤ ألفاً في اليوم، والإحصاءات الدقيقة التي أجراها العلماء في جميع أقطار العالم تدل على أن الرقم الذي ذكرناه ليس فيه مبالغة على الإطلاق.

وقد ذكر الأستاذ « تلمان » مدير الأرصاد الجوية في حكومة الولايات المتحدة أن العلماء لم يوفقوا إلى إحصاء عدد تلك العواصف فقط، بل إلى رصد مداها وشدتها أيضاً، وقد أعدوا لها رسوماً بيانية تدل على الأزمنة والأمكنة التي تكثر فيها العواصف أو تقلّ.

ولو علم الإنسان بكمية القوة الكهربائية التي تذهب ضياعاً في الجو كلما حدثت عاصفة منها، لأدهشه إسراف الطبيعة وتبذيرها، إذ يؤخذ من الأرصاد التي جمعها العلماء أن تلك الكهربائية تكفي لإنارة نحو ستة ملايين منزل، أي أنه كلما أومضت البروق في الجو وأعقبتها رعود ذهب من القوة الكهربائية ما يكفي لإنارة نحو عشر مدن كمدينة لندن، كل ذلك يذهب في الظاهر ضياعاً ويدل على إسراف الطبيعة إلى حد مفرط، ولا يخفى أن البروق والرعود تجتاح الكرة الأرضية على نطاق واسع جداً، وكثيراً ما ينشأ عنها أضرار بليغة، كما حدث أخيراً في الترسانة البحرية بمدينة « نيوجرزي »

بأمريكا، فإن صاعقة انقضت من الجو والتهمت تلك الترسانة وأهلكت أنفساً عديدة، وحدث قبل تلك الصاعقة ببضعة أيام أن صاعقة أخرى انقضت على بعض آبار الزيت في كاليفورنيا، فالتهمتها وكانت الخسارة نحو عشرة ملايين دولار.

ومما يجدر بالذكر أن الصواعق لا تكتفي بأمثال الأضرار التي ذكرناها، بل كثيراً ما تنقض على الأحراش والغابات فتحرقها ولا تبقي منها إلاَّ الأثر، نعم إن الأمر يدعو إلى أشد الأسف، ولكنها أي الطبيعة تهدم اليوم ما بنته بالأمس وتخرب في لحظة ما أقامته في الألوف من السنين.

وفي الواقع أن في الولايات المتحدة الأمريكية أراضي كثيرة كانت بالأمس مكسوة بالغابات والأحراش وهي اليوم بلقع قفر، لأن الصواعق أتلفت كل ما فيها من شجر أو نبات.

ثم إن الرعود والبروق كثيراً ما تصحبها أعاصير تحدث من الأضرار ما لا يقل عن أضرار البروق والرعود نفسها، ولا سيما في البحر، وكثيراً ما تنتاب الطيارات في الفضاء فتصعقها كما حدث للطيارة «شنتدوه» الأمريكية منذ عهد قريب.

وقد تعترض أمواج الكهربائية اللاسلكية أيضاً فتعطلها أو توقفها عن العمل، وقد يظلم الجو بسببها فتضطر الآلات التي تولد النور الكهربائي إلى مضاعفة جهدها، وفي ذلك زيادة في الإنفاق كما لا يخفى. وقد قدر العلماء الأضرار التي تنجم عن عواصف الرعود والبروق، فإذا هي لا تقل عن مائتي مليون دولار أو أربعين مليون جنيه في العام، على أن لتلك العواصف بإزاء أضرارها منافع كبيرة فهي السبب في هطل الأمطار الغزيرة التي تروي الأراضي القاحلة وتساعد على إنماء المزروعات، وهي السبب أيضاً في نترجة الهواء، أي إشباعه بالنتروجين بحيث يصبح سماداً للتربة.

وقد قدّر أحد العلماء الفرنسيين ثمن السماد النتروجيني الذي ينشأ عن عواصف البروق والرعود في بلاد الهند الصينية وحدها، فإذا هو نحو أربعة ملايين جنيه في العام، فإذا كان انتفاع الهند الصينية بسماد يبلغ أربعة ملايين من الجنيهات فما بالك بالهند نفسها، وما بالك بالصين، وما بالك بالعالم كله؟ فإذن ينتفع الناس بمئات الملايين بسبب الرعد والبرق، فالضرر من قوله تعالى: ﴿ خَوْفًا ﴾ والنفع يرجع لقوله: ﴿ وَطَمَعًا ﴾[الرعد: ١٢]، والضرر والنفع بالرعد والبرق جار على القاعدة العامة في هذا العالم.

إن النفع أكثر من الضرر في الماء والهواء والأرض والحيوان والإنسان، قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾[المؤمنون: ١٧]، وهذه قاعدة عامة في الحرب والسلم والموت والحياة وهكذا. اهـ.

اللطيفة الحادية عشرة: في قوله تعالى:

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ ﴾

يناسب هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾[الكهف: ١٧]، وأيضاً: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا ﴾[النحل: ٨١] إلى قوله: ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[النحل: ٨٣]، وقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ

قَبَضْنَـٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾[الفرقان: ٤٥-٤٦]، وقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[النحل: ٤٨-٥٠].

ترى من هذه الآيات أن القرآن كرر ذكر الظلال وسجودها، ولقد شرحت هذا المقام شرحاً وافياً في كتاب «نظام العالم والأمم»، ولو نقلته هنا لطال لنا المقام، فلأختصر لك ولأكتف به في آيات الظلال الآتية. إن الشمس كما علمت حسابها منتظم وجميع ظلال الأشجار تبع لها، فهي بحساب منتظم، فلن ترى من شجرة صغيرة ولا كبيرة ولا شاخص إلاَّ وله حساب منتظم تمام الانتظام تابع لحساب الشمس.

ولقد عرف هذا الفلاحون وأهل البدو، فجعلوا أعمالهم على حسب الظلال، ولقد استعمل علماء الفلك نفس هذا الظل في معرفة مقدار الزاوية التي بين الدائرة الكسوفية ودائرة المعدّل المسمى ميل الدائرة الكسوفية، وذلك أنهم نصبوا شاخصاً في الأرض في محل مستو مكشوف ونظروا ظله في يوم المنقلب الصيفي، وقد تقدم في هذا التفسير، وفي يوم المنقلب الشتوي، وقد تقدم أيضاً، وقاسوا في هذين اليومين أعظم ارتفاع زاوي للشمس.

وتوضيحه أن الشاخص يعتبرونه ضلعاً مثلثاً وقياسه ممكن، وظله على الأرض ضلع آخر والخط الواصل من نهاية الظل ورأس الشاخص الذي هو وتر المثلث المقابل للزاوية القائمة ضلعه الثالث، فالزاوية المنحصرة بين وتر المثلث والضلع الذي رسمه الظل هي الدالة على البعد الزاوي للشمس، وهذه الزاوية كلما قصر الظل كبرت، وكلما طال صغرت كما هو مبرهن عليه في الهندسة، فإذا راقبت ظل الشاخص فنهاية قصره يكون هناك أعظم ارتفاع للشمس، وإذن علم من المثلث ضلعاه والزاوية المنحصرة بينهما فيمكن رسم ومقاس تلك الزاوية الدالة على ارتفاع الشمس بكل سهولة على الورق بالرق المشهور في الهندسة أو بغيره، وتصنع هكذا في يومي المنقلبين الشتوي والصيفي، وتقسم الفرق بين هذين الارتفاعين فيكون ذلك النصف هو الزاوية الواقعة بين الدائرة الكسوفية ودائرة المعدل، ويمكنك أيضاً أن ترسم خطاً بين هاتين النقطتين اللتين وصل إليهما الظل في يومي الانقلابين، فذلك الخط هو نصف نهار ذلك المحل، وحينئذ متى جاء ظل الشاخص عليه أيّ يوم من أيام السنة كان وقت الظهر مدى العمر كله.

أفلا تعجب كيف أمكن الإنسان بشاخص بسيط أن يعرف أوقاته، وأن يحكم على الشمس في السماء ويعين درجاتها. نعم نعم هذا من آيات الله.

حكاية مصرية في الظلال

كان رجل يسمى «أراتوستنس» فلكياً عظيماً ولد في القيروان سنة ٢٧٦ قبل المسيح، وقد تعلم في الإسكندرية وفي أثينا، ودعي للإسكندرية سنة ٢٣٤ قبل الميلاد، وعاش فيها إلى أن مات سنة ١٩٤ قبل الميلاد. هذا العلامة لما عرف أن الشمس عمودية فوق الأرض عند مدينة «أسوان» في آخر القطر المصري جنوباً، وذلك في وقت الانقلاب الصيفي، وراقب عموداً هناك في ذلك الوقت، فإذا هو لا ظل له طبعاً، فنصب عموداً بالإسكندرية فوجد له ظلاً شمالياً في تلك الدقيقة الانقلابية، فرسم خطاً من

أعلى هذا العمود إلى طرف ظله، فحدثت الزاوية التي تكون بينه وبين الظل سبع درجات وخُمس درجة، وقد تقدم بقية هذا الموضوع في أول سورة «يونس» فراجعه.

وهذا العمل أشبه بما فعله المأمون بعده بأربعة قرون في هذا العمل، وهو معرفة الدرجات كما في جغرافية أبي الفداء المسماة «تقويم البلدان»، قال ابن بطليموس صاحب المجسطي وغيره: وجدوا حصة الدرجة الواحدة من الدائرة العظيمة المتوهمة على الأرض ٦٦ ميلاً وثلثي ميل، ثم حققوها في عهد المأمون وحضروا في برية سنجار ببلاد ما بين النهرين، وافترقوا فرقتين بعد أن حرروا ارتفاع القطب، ففرقة أخذت تتجه جهة القطب الشمالي وأخرى جهة القطب الجنوبي، فانحط هؤلاء درجة وهؤلاء زاد عندهم درجة فكان ٥٦ ميلاً مع إحداهما بغير كسر، ومع الثانية ٥٦ ميلاً وثلثي ميل، فأخذ بالأولى ٥٦ ميلاً، وقد عمل ذلك العمل مرة أخرى ببلاد الشام بين تدمر والفرات.

فانظر كيف قام الظل في ذلك مقام ارتفاع الشمس وقامت زاويته مقام معرفة ارتفاعها، فإذا سمعت قول الله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾ فتأمل، تر أنه تعالى جعل الشمس وظلالها لهما حساب معين لا يتغير، ولذلك قال بعدها: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾[الكهف: ١٧]، ولا ترى من حائط أو عماد أو خشبة منصوبة أو شجرة أو جسر أو جبل أو صخرة أو حجر في سهل، ولا إنسان أو حيوان إلاَّ ولكل من ظلالها حساب كحساب الشمس ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ ﴾ الخ، ومعلوم أن السجود هو الانقياد، فلما سجد ما في السماوات والأرض سجدت ظلالها ولولا ذلك لم يمكن الاستدلال بالظلال ولا بالمزاول على سير الشمس ومعرفة انتقالها.

هذا ملخص من كتابي «نظام العالم والأمم» مع زيادات عليه، ثم جاء فيه بعد ذلك موضوع عنوانه «غفلة العقلاء عن النظر في ظلال الأشجار»، وجاء في ذلك ما ملخصه: أن الإنسان يجلس تحت الأشجار في البساتين النضرة والجمال الباهر والظل الوارف والغصن المزهر، ولا يفكر في أمر الظلال ولا يقرأ قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا ﴾[النحل: ٨١] إلى قوله: ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[النحل: ٨٣]، وجاء فيه أيضاً: إن من حكم الظل أن الناس إذا سئموا من الشمس لجؤوا إلى الظل فنجوا من الحرارة، وهذه هي الأقسام الثلاثة: نور وظلمة وظل، وكما جعل الله الليل لباساً بظلمته والنهار مبصراً بنوره، جعل الظل ملجأ من الحر، وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾[الفرقان: ٤٥]، أي: ألا تنظر إلى صنع ربك كيف مد الظل وبسطه مع أنه قادر على سكونه ووقوف حركته بأن تقف الشمس التي هي الدليل عليه والمحركة له والمادة له يميناً ويساراً فنحن جعلناها دليلاً عليه تدل عبادنا بحركاتها المنظمة المعروفة للناس على سطح الأرض ليرتبوا أعمالهم في نهارهم وأوقات فراغهم وراحتهم من شغلهم على أوقات ذلك الظل، فلا نرى رجلاً ولا امرأة ولا صغيراً ولا كبيراً إلاَّ وهم ينتظرون الاستظلال في محل كنّ، لا سيما القفار وبلاد الفلاحين وعند الأعراب، فكل هؤلاء لا يمكنهم الراحة والجد والعمل إلاَّ بنظرهم في أمر الظل لراحتهم هم وأنعامهم، ولولا سير الشمس بحساب ما أمكنهم أن يستدلوا على مواقع الظل قبل مجيئها. ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[النحل: ٧].

وجاء في الكتاب بعد هذا تحت عنوان «غريبة وعجيبة»: إن هذه الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ قد جاءت كتابتها عفواً ولم يكن في ذكري أن بعدها قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾[النحل: ٤٨]، يقول الله: أغفل هؤلاء الجاهلون ولم يروا ما خلقنا من الأجرام ذات الظلال تتميل ظلالها عن الأيمان تارة وعن الشمائل تارة أخرى، وتلك الأجرام خاضعة لنا جارية على النواميس التي سنناها وهم صاغرون الخ، ثم قلت هناك بعد كلام، ولقد أطنبت في مسألة الظلال لأني كنت أرى في نفسي شائقاً لا أدري ما هو، وأتأمل في هذه الظلال وأقول في نفسي: لعل لهذه حساباً، ويا ليت شعري كيف يكون ذلك الحساب وعلى ماذا يدل وما نظامه؟ وكنت أجد في القلب حرارة وشوقاً ولا أدري كيف السبيل إليه، ولا أيّ علم يدل عليه في ابتداء مجاورتي بالجامع الأزهر.

ثم ذكرت بعد ذلك أن الظلال أضبط في معرفة الوقت من ساعات الجيب، وأن كل شجر وحجر ونبت وشخص وجبل، وبالجملة كل ما له ظل يدل ظله على جميع الأوقات أفضل من ساعات الجيب ولكن معرفة ذلك عسرة؛ وهنا ذكرت المزاول في الكتاب وبينت المزولة المعتدلة وكيفية عملها كما تلقيتها عن أشياخي مع برهانها الهندسي، وبينت هناك أن المزولة في خط الاستواء تكون قائمة على الأفق، وكلما مال العرض جنوباً أو شمالاً مالت المزولة جهة خط الاستواء بقدر متمم عرض البلد، ففي عرض ٢٠ تميل جهة خط الاستواء ٧٠، وفي ٢٣ كأسوان تميل ٦٧ وهكذا، وهنا ذكرت ما يقوله العلماء في الظلال: فمن قائل: إنها أعراض، ولكن ورد عليه أن العرض لا ينتقل. ومن قائل: إنها أجسام، ولكن ورد عليه أن الأجسام لا تزول بزوال أسبابها، فلا يزول البناء بزوال البناء، ولكن هنا زال الضوء لما زال المضيء وهو الشمس. ثم قلت الأقرب للصواب أنها أعراض وما هي إلاّ تموجات في الأثير، والأمواج متى زال المحرك لها زالت، ثم بعد كلام ذكرت تحت عنوان «دلالة الظل على الله» أنه كما يستدل على الظل بالشمس هكذا استدل كبار العلماء على العالم بالله، وكما أن الشمس لو فرض زوالها لزال الظل، هكذا لو فرض زوال الله لزال العالم بالكلية كما يزول الضوء والظل بزوال الكواكب، ولا يبقى إلاّ الظلمة وهي هنا العدم المطلق، ومن هنا تزول شبهة العامة.

يقولون: إن الإنسان يبني البيوت ويموت، ولم يعلموا أن الدار لم يكن للباني فيها إلاّ جمع ما تفرق بخلاف هذا العالم فهو كالظلال تتبع الشمس، وكالكلمات لا توجد إلاّ عند تكلمه ومتى سكت لم يكن كلام، فلذلك ذكر الله الظل في عدة مواضع كما عبر بالكلام في قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي﴾[الكهف: ١٠٩] الخ، بخلاف الخط الذي هو جمع ما تفرق من الحروف بمادة على الورق، فهذا أشبه بصنائعنا تبقى بعد موتنا، فالعام مع الله كالكلام مع المتكلم، والظل مع المضيء، لا كالكتابة مع الكاتب، وقد كرر الكلمات كما كرر الظلال فقال: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[يس: ٨٢]، وقال: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾[النساء: ١٧١]، ثم جاء بعدها، ولقد رمز إلى ذلك بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[فاطر: ٤١]، وبقوله: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[الحج: ٦٥]، وهذا بخلاف بنائنا فهو باق بعد بانيه، وليس كالكلمات ولا كالظلال.

ثم ذكرت بعد ذلك تحت عنوان «أعجوبة الظلال وملح الهندسة»: فرّ عصفور من فوق نخلة ووصل إلى الأرض بحيث يرسم في طيرانه خطاً مستقيماً أوله على الشجرة وآخره نهاية ظلها على الأرض، ونريد أن نعرف طول هذا الخط، فجاء الجواب: نقيس طول النخلة وطول الظل الذي يمتد من أصلها إلى نهاية الظل، ونربع كلاً من الضلعين ونجمع المربعين ونجذرهما، فالجذر هو المطلوب، فإذا كانت النخلة أربعة أمتار وطول الظل ثلاثة، فمربع الأول ١٦ والثاني ٩، ومجموعهما ٢٥، والجذر ٥ وذلك من قاعدة أن مربع وتر المثلث القائم الزاوية يساوي مجموع المربعين المنشأين على الضلعين الآخرين، ولها شكل في الهندسة يسمى «العروس» الذي كشفه اليونان، ثم قلت: إن هذه القاعدة لا تذر نخلة ولا شجرة ولا زرعاً ولا أصغر من ذلك، حتى النملة ظلها يكون على هذه القاعدة، وأن ذلك من الميزان الذي قامت به السماوات والأرض وما بينهما، هذا إذا كان العمود أو الحائط قائماً عمودياً، فإن كان مائلاً فلينزل من رأسه عمود على الأرض فالمسافة المحصورة من أصل المرتفع وذلك العمود هي مسقط النخلة على الضلع، وحينئذ نقول: إن المربع المنشأ على الضلع المقابل لزاوية حادة من هذا المثلث يكافئ مجموع المربعين المنشأين على الضلعين الآخرين منه ناقصاً ضعف المستطيل الذي قاعدته أحد الضلعين المذكورين وارتفاعه مسقط الثاني عليه، فإذا كان ذلك العمود أو الشجرة أو الحائط مائلاً إلى خلف كانت الزاوية منفرجة، فتضع ما تقدم قبله، ونقول: إن مربع الضلع المقابل لزاوية منفرجة في أي مثلث منفرج الزاوية يكافئ مجموع المربعين المنشأين على الضلعين الآخرين منه زائداً ضعف المستطيل الذي قاعدته أحد الضلعين وارتفاعه مسقط الثاني عليه، وتمثيله غير كاف.

ثم قلت: فتأمل هذا الارتباط العجيب وكيف أمكننا أن نقيس كل ظل بهذه القوانين الثلاثة، فهكذا يكون الميزان والعدل والنظام المحكم في السماوات والأرض، وسواء طال الظل أم قصر أول النهار أو آخره فالنسبة محفوظة ثابتة لا تتغير، وبهذا يفهم: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ﴾ [الكهف: ١٧] الخ، وختمت هذا الموضوع الذي اختصرته هنا اختصاراً كثيراً قائلاً: واعلم أنني وأنا أكتب هذا الموضوع وجدت نفسي فرحة به طالبة إطالته تحب أن لا ينقضي، ولو أطعتها لم يقف اليراع، وسيوقفني خوف سآمة القارئ.

ثم قلت: وبالإجمال فإن مسألة الظلال وتبعيتها للشمس تشير بطرف خفي إلى أن العالم كله تابع لحركة واحدة منتظمة، فانتظم كل ما تبعها كما انتظم سير الظلال تبعاً لنظام الشمس، فالمادة العمومية متحركة منتظمة ظاهراً وباطناً، والشمس جزء صغير منها وبحركتها انتظمت الظلال، فهذا جزء دلّ على الكل للتشابه بين العالم كله ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

اللطيفة الثانية عشرة: في قوله تعالى:
﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ الخ

شبه القرآن بالماء الذي ينزل من السماء لتسيل به الأودية على قدر الحاجة وبمقتضى المصلحة، فينفع الناس والحيوان والنبات ويمكث في الأرض، فمنه ما يكون فوق رؤوس الجبال على هيئة ثلج،

ومنه ما يخزن في باطن الجبال، ومنه ما يسلك في عروق الأرض، فيكون منه المجاري في باطن الأرض ومثل الماء في أنه مشبه به الفلز الذي ينتفع به في صوغ الحلي واتخاذ الأمتعة المختلفة، ويدوم ذلك إلى حين، وشبهت القلوب بالأودية، فكما أن الماء لا يسيل في جميع الأودية هكذا العلم لا ينزل على كل القلوب، وكما أن الأودية لا تأخذ من الماء إلاَّ بقدر، هكذا القلوب لا تقبل من العلم إلاَّ ما يناسبها وتأبى أن تقبل ما لا يناسبها، وشبه الباطل بالزبد في قلة النفع وسرعة الزوال، هذا هو المثل، وإنَّما ذكرته هنا بعد ما تقدم لأسمعك الحديث: عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِيَ اللهُ بِهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الهُدَى وَالعِلمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضاً فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتِ المَاءَ فَأَنبَتَتِ الكَلأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ المَاءَ فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَرَعَوْا وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلأً فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِيَ اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْساً وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ».

(١) الكلأ: الحشيش. (٢) أجادب أرض لا تنبت الكلأ. (٣) وقوله: «رعوا» رواية مسلم، ورواية البخاري «زرعوا». (٤) القيعان جمع قاع، وهو المستوي من الأرض، وفقه كعلم وظرف، أي: فهم الأحكام وغيرها. ومعنى هذا أن الناس لما كانوا مخلوقين من الأرض أشبهوها:

(١) فمنها الأرض الطيبة تقبل المطر وتأتي بالنبات، هكذا منهم من ينتفع بالعلم وينفع غيره.

(٢) ومنها أرض لا تنبت زرعاً ولكنها تحفظ الماء لأرض غيرها، هكذا منهم من يقرأ العلم ولكن لا فهم له ولا دراية، فينقلون العلم إلى من يعرف قيمته فيأخذه عنهم ويعلم غيره.

(٣) ومنها أرض سبخة لا ماء تمسكه ولا مرعى تنبته، وهكذا من الناس من لا قلوب لهم حافظة ولا أفهام لهم ثاقبة، فهم لا ينتفعون بالعلم ولا ينفعون غيرهم، هذا ما أردت ذكره في هذه الآية من وجهة الأحاديث الشريفة.

نظرة في الآية من جهة العلم الحديث

اعلم أن في العالم الإنساني اليوم فكرة نبتت في إنكلترا كما يقولون، وانتشرت في أنحاء المعمورة شرقاً وغرباً وهي «النشوء والارتقاء»، وتلك الفكرة ترمي إلى أن كل شيء في هذه الحياة آخذ في الارتقاء موجه إلى النماء، وهذه الحياة مغالبة ومشادّة ومناضلة، فلا يفوز إلاَّ الأقوى، والضعيف له النكال وعليه الوبال، فلا بد للأقوى من الغلبة في الحياة.

وقد عمت هذه الفكرة الأحوال الحيوانية والإنسانية والسياسية، وبنوا على ذلك قتل الأمم الضعيفة بحجة أنها لا تصلح للوجود وساعدهم على ذلك البخار والكهرباء والفحم والحديد والاختراعات والطيارات، وأنه كلما كان الإنسان أقوى استعداداً وأوفر عدة كان أبقى حياة وأسعد حالاً، وهذا الناموس هو الذي بنوا عليه سيادتهم وسعادتهم فلا يبقى في الوجود إلاَّ الأصلح.

حكاية صينية

منذ سنين قرأت في بعض الجرائد محادثة بين سفير صيني ومكاتب لإحدى الجرائد الفرنسية، ابتدأ الكاتب يصف المكان والزمان والمتاع والنظارات التي على عيني ذلك السفير وابتسامه وأخلاقه

وحسن زيه، ثم سأله ما شاء أن يسأل، فقال له السفير: لِمَ نراكم يا أهل أوروبا خائفين من رقي الصين ولماذا منعتم بيع الأسلحة إلى الصين؟ فقال له: لأنا نخاف أن يعظم أمركم فتأتون أنتم وجيرانكم فتسطون علينا. فقال له: هوّن عليك إنا ليس في تعاليمنا اهتضام حقوق الأمم، ثم إن كونفشيوس وبوذا ومحمد هؤلاء لا يحاربون أوروبا كما تحاربون الشرق بل نكون سلاماً على الناس، على أنكم مهما كان الأمر فهل تقفون حركة الفلك، فهب أننا نرتقي، وهب أننا سنقاتلكم ونملككم، فهل تقدرون أن تمنعوا شيئاً من ذلك؟ كلا، ألستم تفخرون بأنكم كشفتم ناموس الارتقاء، فإذا كان الارتقاء يعم العالم فكيف تصدوننا عنه، وهل في قدرتكم أن تمنعوا الشمس عن المسير. إن النواميس العامة لا يقدر أحد أن يصدها، فأما أسلحتكم فإننا نقدر أن نأخذ رجالكم بالمال، ويصنعون الأسلحة لنا في بلادنا فافعلوا ما تشاؤون فلا تضرون الصين. انتهت الحكاية.

إن هذه الآية ملخصها أن لا يبقى إلاَّ الأنفع، فهي عينها نظرية الترقي وبقاء الأصلح، فالماء والفلزات أشبه بالأمم الراقية العاقلة الكاملة، والزبد أشبه بالأمم الجاهلة التي تظهر غلبتها في أول الأمر ثم يعتريها الاضمحلال والانحلال.

إن أكثر الأمم الراقية الآن كالإسبان والطليان وأهل فرنسا والإنجليز قوم قتلتهم الشهوات واعتراهم داء الطمع، وانحلت الأعصاب فهم أقرب إلى الانحلال، والبرهان على ذلك أن ألفاً من عرب طرابلس وألفاً من عرب مراكش يغلبون عشرة آلاف من الطليان وعشرة آلاف من أهل إسبانيا.

إن أمم أوروبا اليوم قد ضعفت أجسامها وخارت قواها، فأما أمم الشرق فإن قوتهم أمتن وعقولهم صالحة للارتقاء، وقد جاء دورهم، فمتى قرأ العرب والترك والأفغان والصينيون علوم أوروبا واستعملوا مدافعهم حلوا محلهم وقاموا مقامهم في رقي النوع الإنساني، فأهل أوروبا اليوم أشبه بالزبد لأنهم ظاهرون، وأهل الشرق أشبه بالماء، ولذلك غلب الترك أوروبا مجتمعة منذ سنة، وكذلك الأفغان طردوا الإنجليز، وقد آن أوان أن يأخذ الشرق دوره وذلك من جملة الارتقاء وبقاء الأصلح، وهذا هو الذي سيكون كما ظهرت اليابان والأفغان وقوم عبد الكريم بالمغرب والسنوسيون في طرابلس والترك في الأناضول والفرس في بلادهم. فهذه ست أمم ظهرت في هذه الأيام، وسترى في المستقبل القريب رقيّ الشرق الزاهر إن شاء الله تعالى. **تنبيه**: إن الأمتين العربيتين المذكورتين عند طبع هذا غلبتا على أمرهما لاتحاد الأوروبيين عليهم.

جاء في كتابي «مذكرات أدب اللغة العربية» في صفحة ٩٣ ما نصه:

باب التشبيهات في كلام العرب والقرآن

نذكر في هذا الباب جملاً حوت التشبيهات في كلام العرب، ثم نتبعها بأخرى من آي القرآن لنعرف أنواع الكلام، وليستدل المطلع على مقدار ما وصلت إليه البلاغة عند الجاهلية في أشعارهم، وكيف تخطاها القرآن وتجاوز تلك الدرجة إلى ما هو أعلى منها وأسمى.

قال لبيد بن ربيعة العامري في معلقته:

وَجَلَا السُّيُولُ عَنِ الطُّلولِ كأنَّها ... زُبُرٌ تُجِدُّ مُتُونَها أقْلامُهَا

أوْ رَجْعُ واشِمَةٍ أُسِفَّ نُؤورُها ... كِفَفاً تَعَرَّضَ فَوقَهُنَّ وِشَامُها

يقول: لما تهاطلت الأمطار على الديار وحصلت منها السيول كشفت آثار الديار لغسل ما كان متراكماً عليها من التراب، فكأن تلك الطلول كتب غابت فيها الكتابة لطول عهدها بالكاتب، وكأن تلك أقلام تجدّد الكتابة وتظهر ما خفي منها.

والرجع: الإعادة. والوشمة: التي تصنع الوشم. وأسفّ: أذرّ. والنؤور: الكحل الذي ترشه الواشمة على الجرح. والكفف: دارات تكون في الوشم وتعرض ظهر، ووشام جمع وشم غرز الإبرة في اللحم حتى يظهر الدم ثم ذرّ الكحل عليه.

المعنى: وكأن تلك السيول وشمة عمدت إلى وشم قد ضعف أثره على اليد فرجعته وأعادته بذر النؤور على داراته حتى كأنه جديد لا يضمحل.

وقوله: جلا، أي: كشف. والسيول: جمع سيل: الماء الكثير. والطلول: جمع طلل، آثار الديار. والزبر: جمع زبور: الكتاب. وتجد: تجدد. والمتون: جمع متن وهو بمعنى الظهر في غير هذا المقام، وهنا معناه الكتابة.

ويقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧]. يقول: إن الله أنزل المطر فسالت به الأودية وأخذ كل واد قسطه وربا على الماء الزبد.

هكذا ترى الناس يوقدون النار ويصهرون المعادن فيعلو على جواهرها الأجسام الغريبة كما يعلو الزبد على الماء، وهكذا كان الحق والباطل في الدنيا، فإن الحق في أول أمره يغلبه الباطل ويغشيه بغشاء من الأضاليل، ثم ينكشف الغشاء ويحصحص الحق ويتجلى للناس، كما أن زبد الماء الرابي عليه وزبد المعادن النفيسة يذهب ويزول بعد أن غلب وغشي على الماء والمعدن، فأما ما ينفع الناس من الماء والمعدن كالذهب والفضة فإنهما يبقيان، فهذا ينبت الكلأ والعشب والمزارع والحدائق والجنات، وهذا تصاغ منه الحلي ويجعله النساء زينة لهن وجمالاً، ويجعله الناس آلات ويعملون به أعمال الحياة.

هذا هو الناموس الطبيعي العام الذي افتخر به الأوروبيون وقالوا: قد كشفناه ودرسناه وأبرزناه للعالم، وهو ناموس بقاء الأصلح الموجود والأنفع للإنسانية والأفضل للحياة نطقت به هذه الآية، وجعلت، أعمال المجاهدين والفضلاء والحكماء والمخلصين تشابه ما نراه كل يوم فيما أمامنا من الزبد والماء والحلي وأن الحق يعلو وإن غشيته الأباطيل، والباطل يذهب جفاء وإن غلب بالتضليل.

هذا هو الناموس المبين فهل ترى له مع قول لبيد موازنة، أفرأيت الفرق بين التشبيهين وكلاهما في الماء. أليس من العجب أن يقتصر لبيد على الطلول والبيداء، ويتعالى القرآن فيقيس به السياسة والحكمة والحق والباطل، فيقول: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

عجب عجاب! هذه هي التي فخر بها الأوروبيون وقالوا نحن لها مخترعون، ألا فلينظر العاقلون وليعلم الذين لا يعلمون.

انتهى القسم الأول من السورة.

القسم الثاني

۞ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ

إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾ ﴾

التفسير اللفظي

قال تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ ﴾ للمؤمنين الذين استجابوا ﴿ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ المنفعة العظمى في الحسن؛ بأن تكون خالصة من الشوائب الضارة ومن الانقطاع، ﴿ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ ﴾ وهم الكفرة؛ مبتدأ خبره ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ ﴾ بأن يحاسب الرجل بذنبه كله ولا يغفر له منه شيء. واعلم أن في قوله تعالى: ﴿ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ﴾ سراً مصوناً يختلج في القلوب والشفاه محسوساً في النفوس، والناس عنه في تيه، ذلك أننا في هذه الحياة لا حظ لنا إلا نفوساً وحدها، وكل ما عدا النفوس مضمحل، ألا ترى أن أحدنا لو أصابه مرض أو ضعف شديد أو هرم لأصبح لا يحس بما كان يحس به في زمن الشباب، وقلت آماله وضاعت أحلامه، ومتى ضعفت قوة الطعام فيه لم تكن له فائدة من المال الذي عنده، فكل شيء دون النفس يذهب جفاءً. وقوله: ﴿ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أي: مرجعهم، ﴿ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ المكان الممهد والمخصوص بالذم محذوف، أي: جهنم، وقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ﴾ الهمزة لإنكار أن يشك عاقل مّا بعد ضرب هذا المثل أن يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون وهم عمي البصائر، مع أن البعد فيما بينهما كبعد ما بين الماء الصافي والإبريز الخالص والزبد والخبث، ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ذوو العقول الذين نبذوا الوهم والإلف واستبصروا بالرأي، ثم وصفهم فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ﴾ الذي عقدوه على أنفسهم بشهادتهم بربوبيته، وشهدت فطرهم في هذه الحياة بصحته، وأنزل الكتاب بإيجابه ﴿ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴾ ما أوثقوه على أنفسهم من الإيمان بالله ومن المواثيق بينهم وبين الناس؛ من ذكر العام بعد الخاص، ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾ من الأرحام والقرابات الخاصة وكذلك القرابة الدينية وهي تعم جميع المؤمنين فهم إخوة، فيحسن إليهم متى قدر ويذبّ عنهم ويشفق عليهم ويفشي السلام ويعود المرضى ويراعي حق أصحابه وخدمة جيرانه ورفقائه في السفر.

واعلم أن الإنسان لا تخلو حاله ؛ إما أن تكون له قدرة علمية فهذا يجب عليه نشره بين أمته وهذا أعلى الدرجات ، وإما أن تكون له قدرة عملية وعجز عن العلمية فهذا ينبغي له أن يصرف أيامه في مواساة الفقراء وعيادة المرضى وفعل المبرات والخيرات ، وإما أن تكون قدرته عاطلة فلا علم عنده ولا قوة لديه وهذا ينبغي له أن يصرف أيامه بالعبادة ويلازم المحراب ، وإما أن تكون نفسه قد خلت من العلم ومن العمل النافع ومن العبادة فهذا خير له أن يدع الناس ويجتنبهم لأنه لم يبق لديه إلا الغيبة والنميمة . فالثلاثة الأُوَل أشبه بالملائكة على اختلاف درجاتهم ، فالعالم العام النفع أفضل من المواسي لضعفاء الأمة ، وهذا الثاني أشرف من العابد الملازم للمحراب ، والتارك للخير والشر العاكف على النوم ـ وهو الرابع ـ أشبه بالحجر في البيداء لا يملك للناس نفعاً ولا ضراً . فأما الخامس وهو من يضيع وقته في أذى الناس فهو كالحيات والعقارب والذباب والناموس وأمثالها يؤذي الناس على مقدار ما أوتي من قوة وما نال من همة على درجات متفاوتة تفاوت الدرجات في المشبهين بالملائكة .

وقوله : ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ أي : وعيده عموماً ﴿ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴾ بحيث يحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا ، ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ﴾ عن المعاصي وعلى ما أصابهم من مرض أو أذى من الناس أو فقر ، وعلى الطاعات ومشاقها ﴿ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ لا ليقال ما أكمل صبره ، أو لئلا يشمت به الأعداء ، أو لئلا يعاب من الأصدقاء ، وإنّما يكون صبره خالصاً لوجه الله لعلمه بأن ذلك رافع لشأنه مهذب لنفسه رافع لدرجاته مقدر عليه لحكمة ، ﴿ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ داوموا على إقامتها ﴿ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ ﴾ بعض ما رزقناهم واجباً أو مندوباً ﴿ سِرًّا ﴾ فيما بينهم وبين الله ؛ وهذا أولى لمن لم يعرف بالمال ﴿ وَعَلَانِيَةً ﴾ وهذا أولى لمن عرف بالمال ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾ فيدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سيئ غيرهم ، أو هم المعطون من حرمهم ، العافون عمن ظلمهم ، الواصلون من قطعهم ، التائبون من ذنبهم ، المغيّرون للمنكر إذا رأوه ، ويتبعون السيئة الحسنة فتمحوها ، فهذه ثمان خصال : الوفاء ، والصلة ، والخشية ، ومحاسبة النفس ، والصبر ، وإقامة الصلاة ، والإنفاق وأن يدرؤوا السيئة بالحسنة ، فهي عدد أبواب الجنة الثمانية ولذلك أعقبها بها فقال : ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ عاقبة الدنيا العاقبة التي تنبغي لهم ، وأبدل من « عقبى الدار » ﴿ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ ﴾ أي : بساتين إقامة ، يقال : عدن بالمكان إذا أقام به ، ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ أي : الدار التي تقدم ذكرها ﴿ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ ﴾ عطف على الواو في « يدخلون » فالأزواج والذرية يقرنون بهم عند دخول الجنة إذا استحقوها بصلاحهم ، وتكون المزية إذ ذاك جمعهم معهم تكريماً ، فيقرن بعضهم ببعض لما بينهم من الصلة ، والتقييد بالصلاح للدلالة على أن النسب لا يفيد في الآخرة ، ﴿ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴾ من أبواب منازلهم في الجنة ، أو من أبواب الفتوح والتحف وبشارات الرضا قائلين : ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم ﴾ بشارة بدوام السلامة ، هذا ﴿ بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ أي : هذا الثواب بسبب صبركم بأقسامه المتقدمة ، ويصح أن يقال : تسلم عليكم وتكرمكم بصبركم ، والأول أولى لأن الخبر فصل بين المتعلِّق والمتعلَّق به ﴿ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ الجنات .

ولما أتم الكلام على صفات السعداء أعقبه بصفات الأشقياء ، فقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ ﴾ بعد ما أوثقوه على أنفسهم بالاعتراف والقبول ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن

يُوصَلَ ﴾ أي: من الرحم وحفظ الجوار والمساعدة العامة كما تقدم ﴿ وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ بالظلم والمعاصي والتهييج وتفريق الكلمة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ أي: من هذه صفته ﴿ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ عذاب جهنم وسوء العاقبة في مقابلة ﴿ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾.

ولما كان كل فتنة وتهييج ونقض عهد إنّما يكون لقصد الشهوات والحياة الدنيا؛ أخذ يذمها فقال سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ يوسعه ويضيقه، فقوم فقراء وآخرون أغنياء، وما الفقر والغنى إلاّ كالليل والنهار يمران على البر والفاجر والصالح والطالح، فليس الغنى مرمى الأنظار ولا الفقر غاية الأخطار، بل هما حالان يعتوران الناس بأقدار غالبة وأحوال عارضة كما يغشي النهار الليل والليل النهار، فكيف يفرحون ببسط الرزق في الحياة ويعدونه أكبر متاع؛ وما الحياة كلها إلاّ كسحابة صيف عن قليل تقشع، فما بالك بنفس الغنى ونفس اللذة وما هما إلاّ حالان عارضان في الحياة؛ فالحياة وشؤون الحياة لا وزن لهما ولا ثمن، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي: بما بسط لهم من الرزق فيها، ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِي ﴾ جنب ﴿ ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾ متعة لا تدوم كعجالة الراكب وزاد الراعي، فهؤلاء بطروا وأشروا بما نالوا من الدنيا واغترّوا بقليل المنافع سريع الزوال.

ولمّا أبان ولوعهم بالسراب وانخداعهم بالحباب وجهلهم بما حضر وغاب؛ أخذ يبيّن ما ترتب على ذلك الغرور من اقتراح الآيات الناجم من بطرهم وأشرهم فقال: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ ﴾ باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات ﴿ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ أقبل إلى الحق ورجع عن العناد، فمن أضله الله فلا هادي له وإن نزلت الآيات التي اقترحها، فالقلوب تختلف اختلاف الأردية كما تقدم، ثم أبان المهتدين فقال سبحانه: هم ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ ﴾ تسكن ﴿ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ ففي الوحدة يسكنون بأنسه، وعند الحاجة بالاعتماد عليه، وعند القلق من خشيته يسكنون برحمته، وعند الشك في وعوده يسكنون بدلائل وحدانيته في آيات الكتاب وعجائب الكائنات، ولا طمأنينة إلاّ باليقين، والشك موجب القلق والاضطراب ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ في جميع ما بيناه، ولما كان اطمئنان القلوب لا يتسنى إلاّ بعلم الحقائق وتهذيب الأخلاق؛ أردفه وبيّن المطمئنين وثوابهم فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ ﴾ أي: فرح لهم، وهي جملة خبر «الذين»، و«طوبى» فعلى من: الطيب؛ قلبت الياء واواً بعد الضمة، وهي مصدر كـ: زلفى وبشرى، وتقول العرب: طوبى لك؛ أي: أصبت خيراً، ومعنى هذا أن أهل الجنة منعمون بكل ما يشتهون، فكل ما يسر النفس داخل في هذه القضية، فإذا سمعت حديث البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع في ظلها مائة عام ما يقطعها»، وسمعت أن البخاري زاد «واقرؤوا إن شئتم: ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾[الواقعة: ٣٠]»، وإذا سمعت الأحاديث التي ليست في الصحاح «أن ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها، وأن الحلي والحلل تكون من أغصانها، وأن في كل دار وغرفة في الجنة منها غصناً، وأن الله لم يخلق لوناً ولا زهرة إلاّ وفيها منه إلاّ السواد، وأنه لم يخلق فاكهة ولا ثمرة إلاّ وفيها منها، وأنه ينبع من أصلها عينان الكافور والسلسبيل، وأن كل ورقة منها تظل أمّة».

فإذا سمعت هذا كله في الصحاح وفي غير الصحاح ؛ فاعلم أنه بعض ما أعد لأهل الجنة من الفرح الذي تضمنته الجملة ، والجملة أعمّ من هذا كله صح أو لم يصح .

وأما الحقيقة فهي أن أهل الجنة لهم ما يشتهون ؛ وهذا في الإمكان ، بل إن العوالم التي كشفها علم الفلك بلغت عظمتها حداً لا يتخيله الفكر ، فإذا كان هذا في العالم الذي نحن فيه ؛ فكيف تكون الجنة ؟ بل إن كل روح من الأرواح لها قدرة تامة على اختراع ما تشاء من ملابس ومآكل من كل ما تشتهيه ؛ وهذا ثبت في علم الأرواح اليوم في الأمم الغربية ؛ فإذا كانت كل روح لها قدرة على نوع ما من الملابس والنفائس فذلك أكبر نعمة تفوق ما هو مشاهد .

إن الحديث أبان للناس ما يقدرون على فهمه ، وفتح لهم باب عظمة العالم ليستعدوا لما سيرونه بعد الموت ، وما بعد الموت فيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وعليه يكون ما سمعناه في الحديث تقريب لعقولنا المحبوسة في هذه العوالم الحسية ، وإذا كانت الجنة فيها ما لا يخطر ببالنا فهذا ربما خطر بالبال ؛ فما فيها فوقه بما لا حدّ له . اهـ . وقوله : ﴿ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴾ أي : ولهم حسن منقلب .

ولمّا كانت الآية أبانت أن ذكر الله به تطمئن القلوب ، وذكر من ذلك أن لهم ما يشتهون في الجنة ؛ أتبعه بأن هذه العقيدة قديمة العهد ليزداد الاطمئنان ، فليس النبي صلى الله عليه وسلم بدعاً بل سبقه أنبياء أرسلوا لأممهم ، فهذا التتابع يدل على صدق الدعوة لأن الأمم تضافرت عليه ، وما كان بإجماع الأمم فهو حق ، والحق به الاطمئنان ، فوعدهم بالسعادة أولاً وحقق أصول دينهم ثانياً ، وأيّ اطمئنان بعد هذا ؟ وهذا قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ مثل ذلك ؛ يعني : إرسال الرسل قبلك ﴿ أَرْسَلْنَـٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ ﴾ تقدمتها ﴿ أُمَمٌ ﴾ أرسل إليها رسل ، فهل يكون بدعاً أنا أرسلناك إليهم ﴿ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ تقرأ عليهم الكتاب الذي أوحيناه إليك ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَـٰنِ ﴾ أي : وحالهم أنهم يكفرون بالبليغ الرحمة العظيم النعمة ، قد أحاطت بكل شيء رحمته ووسعت كل شيء نعمته ، فلم يشكروا إحسانه ولم يذكروا إنعامه ولم يعرفوا منّته في الهداية بإرسالك إليهم وإنزال القرآن لتقرأه عليهم . وهذا القول عام لا يخص حالاً بعينها ، فكفرهم شامل وجهلهم عظيم .

فإذا سمعت أن هذه الآية نزلت في صلح الحديبية وأن سهيل بن عمرو لما جاء للصلح واتفقوا على أن يكتبوا كتاب الصلح ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب : « اكتب بسم الله الرحمن » ، فقالوا : لا نعرف الرحمن إلاّ صاحب اليمامة ـ يعنون مسيلمة الكذاب ـ اكتب كما نكتب « باسمك اللهم » ، وعليه تكون الآية مكية . وإذا سمعت أن أبا جهل سمع النبي صلى الله عليه وسلم يدعو ويقول في دعائه : « يا الله يا رحمن » فرجع أبو جهل إلى المشركين وقال : إن محمداً يدعو إلهين ؛ يدعو الله ويدعو إلهاً آخر يسمى الرحمن ، ولا نعرف الرحمن إلاّ رحمن اليمامة ، فنزلت هذه الآية . وإذا سمعت أنها نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ ﴾ [الفرقان : ٦٠] .

إذا سمعت هذه الروايات كلها وأن الآية نزلت فيها فاعلم أن ذلك لا يغير من المقصود شيئاً ، فكل هؤلاء كفروا بالرحمن ، فسهيل بن عمرو وأبو جهل وكفار قريش صدقت عليهم الآية ، فأما

اختلاف الروايات؛ وكل من الرواة يقول نزلت للسبب الذي ذكره؛ فإنه من تصرفهم أو من استعمال النزول في معنى أنها تنطبق عليها. وأنت عليم إن شرّاح البخاري نصّوا على أن الحديث ظنّي؛ فما بالك بما ليس بصحيح؟ واليقين إنّما هو الآية والحديث المتواتر، والآية هنا تشمل ما ذكروه وغيره.

ثم أمره الله أن يصدع للأمر فقال الله: ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّى ﴾ أي: الرحمن خالقي ومتولي أمري ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ لا معبود بحق سواه ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ في نصرتي عليكم ﴿ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ مرجعي ومرجعكم، ثم إن قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ قد أجاب عنه بقوله: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ ﴾ الخ، فكانت الإجابة بقطع الأطماع عن إيمانهم مهما أنزل لهم مما اقترحوه. ثم ذكر الهداية وصفات المهديين واحتاج المقام إلى إيضاح تلك الآيات وزيادة البرهنة على عدم نفع إجابتهم؛ فأفاد أنه لو ثبت أن كتاباً ﴿ سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ ﴾ أي: زعزعت عن مقارّها ﴿ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ ﴾ وصدعت وتزايلت قطعاً ﴿ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ فتسمع وتجيب؛ لكان هذا القرآن، ولم يؤمنوا، فإذن هذا إما وصف لعظمة القرآن، وإما وصف لشدة عنادهم فلا ينفعهم ما يقترحون، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ ولقد كان نفر من قريش منهم أبو جهل بن هشام وعبد الله بن أمية قد جلسوا خلف الكعبة وأرسلوا خلف النبي صلى الله عليه وسلم فأتاهم؛ فقال له عبد الله: إن سرّك أن نتبعك فسيّر جبال مكة بالقرآن فادفعها عنّا حتى تنفتح فإنها أرض ضيقة لمزارعنا، واجعل لنا فيها أنهاراً وعيوناً لنغرس الأشجار ونزرع ونتخذ البساتين، فلست كما زعمت بأهون على ربك من داود حيث سخر له الجبال تسير معه، أو سخّر لنا الريح لنركبها إلى الشام لميرتنا وحوائجنا ونرجع في يومنا؛ كما سخّرت لسليمان كما زعمت؛ فلست بأهون على ربك من سليمان، أو أحيي لنا جدك قصياً أو من شئت من موتانا لنسأله عن أمرك أحق أم باطل، فإن عيسى كان يحيي الموتى؛ ولست بأهون على الله من عيسى. فنزلت هذه الآية؛ قال تعالى: ﴿ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ أي: بل الله قادر على الإتيان بما اقترحوه ولكنه لم يرد ذلك لأنه لا ينتج المقصود من إيمانكم، ثم أتبع هذا:

(١) بالتيئيس من إيمانهم تأكيداً لما تقدم. (٢) وبالتهديد لهم بالقارعة التي تحل بهم.
(٣) وبتسلية النبي صلى الله عليه وسلم على استهزائهم به.

فالأول قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ أي: أفلم ييأس الذين آمنوا بأنه لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ـ من إيمان هؤلاء الكفار ـ وهذا إذا بقي اليأس على معناه، وقيل: ييأس بمعنى: يعلم، وهذا المعنى في لغة النخع؛ والمعنى واحد أو متقارب على الوجهين.

والثاني قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ ﴾ من الكفر وسوء الأعمال ﴿ قَارِعَةٌ ﴾ داهية تقرعهم بأنواع البلايا؛ كالجدب والسلب والقتل والأسر، ﴿ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ ﴾ فيفزعون ويتطاير إليهم شررها، ويجوز أن يقال: أو تنزل أنت يا محمد مع أصحابك قريباً من دارهم وهي مدينتهم مكة ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ﴾ فتح مكة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ الذي وعدك به من النصر والتأييد والبعث بعد الموت؛ وكل موعود به من موت وغيره.

والثالث قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ لمّا أوعد الكافرين أخذ يسلي النبي صلى الله عليه وسلم ويزيد في وعيدهم، وأفاد أن الرسل من قبله استهزأ بهم قومهم فأملى الله للذين كفروا؛ أي: أمهلهم، والإملاء: أن يترك ملاوة من الزمان في دعة وأمن، ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ أي: عقابي لهم، هكذا الكفار أملي لهم ثم آخذهم، وقد تم ذلك؛ فإنهم غلبوا، ومن أبى قتل، وأسلمت جزيرة العرب كلها إلى الآن.

ولمّا فرغ من الكلام على النبي صلى الله عليه وسلم وتسليته ووعيد أعدائه؛ شرع يذكر سعة علم الله الذي يعلم النبي صلى الله عليه وسلم وأعداءه ويجازي كلاً بعمله، يرفع الصادق ويخفض الكاذب فقال: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أي: أفمن هو حافظها ورازقها وعالم بها وبأعمالها؛ خيراً كانت أو شراً؛ ومجازيها على الخير والشر، كما علم محمداً والمشركين وأعطى كلاً ما يستحقه، أي: أفمن هو بهذه الصفة لم يوحّدوه ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ ﴾ أي: وجعلوا له شركاء، وهو إظهار في مقام الإضمار، والهمزة للإنكار، ﴿ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ أي: صفوهم؛ فهل لهم ما يستحقون به العبادة ويستأهلون الشركة، ﴿ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ ﴾ أي: بل أتنبئونه ﴿ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ بشركاء يستحقون العبادة لا يعلمهم، أو بصفات لهم يستحقون العبادة لأجلها لا يعلمها مع أنه عالم بكل شيء، ﴿ أم ﴾ تسموهم شركاء ﴿ بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ من غير حقيقة واعتبار معنى؛ كما يسمي الناس الزنجي كافوراً، ثم أضرب عن ذلك فقال: ﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ ﴾ تمويههم فتخيلوا أباطيل فظنوها حقاً، أو كيدهم للإسلام، ﴿ وَصُدُّوا عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أي: وصرفوا؛ بالبناء للمجهول فيهما؛ إن قرئ بضم الصاد، أو صرفوا الناس عن السبيل؛ أي: الإيمان؛ إن قرئ بفتح الصاد، ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ ﴾ بخذلانه ﴿ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ يوفقه للهدى ﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ بالقتل والأسر ومصائب الحياة وهمومها ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ﴾ لشدته ودوامه ﴿ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ من عذابه ﴿ مِن وَاقٍ ﴾ حافظ.

وصف الجنة

ولمّا ذكر أن المؤمنين لهم فرح بقوله: ﴿ طُوبَىٰ لَهُمْ ﴾ فصله بعض التفصيل هنا فقال: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ صفتها التي هي مثل في الغرابة؛ وهذا مبتدأ خبره محذوف عند سيبويه؛ أي: فيما قصصنا عليك صفة الجنة التي وعدها المتقون حال كونها ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ ﴾ لا ينقطع ثمرها ﴿ وَظِلُّهَا ﴾ أي: وظلها كذلك بخلاف ظل الشمس المتقدم في قوله: « وظلالهم بالغدو والآصال» ﴿ تِلْكَ ﴾ أي: الجنة ﴿ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ﴾ أي: مآلهم ومنتهى أمرهم، ﴿ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴾ لا غير، فأطمع الأولين وأيأس الآخرين، وهذا القول في مشركي العرب.

ولمّا كان أهل الكتاب قد آمن بعضهم؛ كعبد الله بن سلام وأصحابه وبعض النصارى وهم ثمانون رجلاً من الحبشة واليمن ونجران؛ وكفر باقيهم، ذكر الفريقين فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴾ وهم الذين كفروا منهم ﴿ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ﴾ لأنه لا يوافق ما حرّفوه من كتابهم أو شرائعهم، ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ﴾ أي: قل لهم إني أمرت فيما أنزل إليّ بأن أعبد الله وحده؛ وهذا أهم المطالب في الدين؛ فأما ما عدا ذلك من الأحكام الجزئية المخالفة لشرائعكم فذلك ليس بدعاً، فالكتب السماوية تتفق أصولها وتختلف فروعها لاختلاف

الأزمنة والأمكنة والعقول، ﴿ إِلَيْهِ أَدْعُواْ ﴾ وحده ولا أدعو سواه ﴿ وَإِلَيْهِ ﴾ لا إلى غيره ﴿ مَـَٔابِ ﴾ مرجعي، وأنا وأنتم على اتفاق تام، فكيف تنكرون المتفق عليه، ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ أي: وكما أنزلنا الكتب على الأنبياء بلغاتهم ولسانهم أنزلنا إليك يا محمد هذا الكتاب حكمة عربية ليسهل لهم فهمه وحفظه، وقوله: ﴿ حُكْمًا ﴾ حال؛ ثم إن أهل مكة دعوه إلى أمور يشاركهم فيها كتقرير دينهم؛ فقال تعالى: ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ بنسخ ذلك ﴿ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾ أي: ينصرك ناصر ولا يقيك واق.

ولقد كانوا يعيبونه بالزواج والأولاد ويقترحون عليه الآيات وينكرون النسخ، فنزل ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ نساءً وأولاداً كما أنك كذلك، ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ فليس يقدر أحد منهم أن يأتي من الآيات بما يقترحه قومه، وكيف يأتي لهم بما يقترحون، وقد جاء لهم من الآيات ما فيه عبرة لمعتبر وغناءٌ لمفكر، ولكنهم أبوا إلاّ التمادي وازدادوا اقتراحاً كما تقدم في مقال عبد الله بن أبي أمية، والآيات المقترحات لا تأتي إلاّ على مقتضى الحكمة في أزمان علمها الله، فلكل زمن حكم على العباد بمقتضى صلاحهم، ولا صلاح فيما اقترحوه، وهل من صلاح المراهق أن يرضع اللبن من ظئره، فإذا لم يحسن في الحكمة أن ترضع الظئر شاباً قوياً وأن يجعل للمراهق مهد يكون فيه. هكذا لا حكمة في إنزال الآيات التي اقترحوها، وهذا إيضاح قوله: ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ أي: لكل أمد منكم حكم لا يحسن سواه فيه، فلا آية من المقترحات بنازلة قبل وقتها، ولا عذاب مما خوفوا به بحاصل بغير وقته، ولا نبوة حاصلة في غير الزمان المقدر لها؛ فموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام كلٌّ حكم الله بوجوده في زمانه الخاص به لا يتقدم ولا يتأخر، وهكذا انقضاء أعمار الناس ووقوع أعمالهم وأحوالهم كلها كتبت في آجال ومدد معلومة لا تقديم ولا تأخير. ألا إنّما مثل هذه الدنيا من كواكبها وشموسها وأرضها وزرعها كمثل مدرسة رتبت فصولها ونظمت حجرها وأقيم كل مدرس في درسه وجعل له علم مخصوص، والتلاميذ لكل من هؤلاء سامعون، وناظر المدرسة قد رتّب لها مناهج وقوانين وأوقاتاً لامتحان التلاميذ ونهايات لأعمالهم، فترى المدرسين كل يوم يعملون وينصرفون إلى أماكنهم ويرجعون، والمنهج المرسوم لا يتغير ولا يتبدل، فهكذا هذه الدنيا قد جعل الله لها في علمه القديم نظاماً كأنها مدرسة، وهذا النظام على مقتضى الحقائق الثابتة التي تعلق بها علمه، وعلى ذلك العلم جرت الشمس والقمر والكواكب، وظهر النبات والحيوان، وتعاقب الموت والحياة، وظهرت نجوم وفنيت أخرى، ونبت زرع وحصد آخر، وامتد دين وقلص آخر، وكل كوكب من الكواكب التي تصلح للحياة كأرضنا صار كأنه صحيفة يكتب فيها ويمحى على مقتضى المحو والإثبات عند الملائكة، وذلك تبع لما رسم في المنهج الأصلي تتعاقب الأمم والأجيال والزروع والدول والأحكام والنظم، ويتعاقب قدماء المصريين واليونان والرومان والعرب والتتار وأوروبا وأهل الشرق عليها؛ كل ذلك محو وإثبات على مقتضى المنهج المرسوم، وهكذا تنسخ آية من القرآن ويؤتى بغيرها؛ كما نسخ زرع بزرع وليل بنهار وقوم بقوم ودين نبي بآخر؛ كلٌّ في وقته. وهكذا يتصدق زيد على رحمه فيطول عمره، ويجتهد الرجل الهندي من الطائفة المسماة «راجايوقا» فيحصر نفسه الذي يتنفسه على هيئة مخصوصة كما في بلاد البنغال وغير البنغال هناك في الهند؛ ويبتعد عن

الناس فيسكن حركات قلبه دقائق كل يوم بالتدريج فيكون عمره أطول من أعمارنا عشرات السنين، ويبطئ شيبه؛ كما قرأته في كتاب «راجايوقا» بالإنجليزية مترجماً عن اللغة الهندية، وقد كان ألقى خطباً في نيويورك سنة ١٩٦٥وسنة ١٩٥٦، فهذا كله يحصل على مقتضى ما رسم في العلم القديم، وهذا التفسير جمع لك سائر الأقوال.

(١) فإذا سمعت علماؤنا رحمهم الله يقولون: «يمح الله ما يشاء من الشرائع بالنسخ ويثبت ما يشاء فلا ينسخه ولا يبدله».

(٢) أو قرأت حديث البخاري ومسلم عنه صلى الله عليه وسلم: «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه نطفة أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكاً بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلاّ ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلاّ ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها».

(٣) وكذا إذا سمعت بعض العلماء يخص المحو بما ليس فيه ثواب ولا عقاب من قول الإنسان أكلت وشربت، والإثبات بما فيه ثواب وعقاب.

(٤) وكذا إذا سمعت آخر كالحسن يقول: «يمحو الله من جاء أجله ويثبت من بقي أجله».

(٥) أو قول عكرمة: «يمحو الذنوب بالتوبة ويثبت الحسنات بدلها».

(٦) أو قول السدّي: «يمحو الله القمر ويثبت الشمس».

(٧) أو قول الربيع: «يقبض الله الأرواح عند النوم، فيميت من يشاء ويمحوه، ويرجع من يشاء ويثبته».

(٨) أو قول بعضهم: «يمحو الله حكم السنة الماضية ويثبت حكماً آخر للسنة بعدها».

(٩) أو قول بعضهم: «يمحو الله الدنيا ويثبت الآخرة».

(١٠) أو قول آخر: «يمحو الله المحن والمصائب بالدعاء».

فإذا سمعت هذه الأقوال كلها فاعلم أنها لا تناقض فيها، بل هي جارية على القاعدة التي ذكرناها داخلة فيها، و﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾[الأعراف: ٤٣]

وأما أن الإنسان يعمل بعمل أهل الجنة ثم يسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار وعكسه فذلك أيضاً مما سبق به الكتاب وذلك مشاهد معروف كل يوم.

إن الإنسان يكون معتاداً عوائد جميلة ثم يعمل عملاً سيئاً على غير عادته فتغلب العادة الجميلة عليه فيعمل العمل الصالح، وتغلب حسناته على سيئاته فيدخل الجنة، وهناك رجل غلبت عليه العادات السيئة فلازمته، فتكلف الأعمال الصالحة فعمل بها، ولكن السيئات غلبت عليه فزحزحته عن الجنة، لأن الصلاح ليس من طبعه، وذلك كرجل يصلي ويصوم وهو دائب في رفع القضايا الكاذبة على أهله وجيرانه، فهذا سبق عليه الكتاب وغلبت عليه سجيته، هذا تحرير المقام في قوله تعالى: ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾، وإذا عرفت الحقيقة فسواء أكان أمّ الكتاب هو علم

الله والتغيير في اللوح المحفوظ الذي قال فيه ابن عباس من باب ضرب المثل لنا: «إن لله لوحاً محفوظاً مسيرة خمسمائة عام من درّة بيضاء له دفتان من ياقوتة، لله فيه كل يوم ثلاثمائة وستون لحظة ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾»، أو أمّ الكتاب هو اللوح المحفوظ الذي لا تغيير فيه ولا تبديل والتغيير عند الملائكة في صحفهم التي يكتبونها، فيمحون ويثبتون، فسواء أكان هذا أو ذلك فالخلاف لفظي، والحقيقة لم تتغير، فهناك أمر واقع وأمور مبدلة وتغيير الأسماء لا يضيع الحقائق. اهـ.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ من قبل أن نريك ذلك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ أي: ليس عليك إلاّ تبليغ الرسالة إليهم من الله فلا تهتم بما سينالهم ولكن اهتم بما أوحيناه إليك وهو البلاغ ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ أي: نحاسبهم يوم القيامة فنجازيهم بأعمالهم.

ثم اعلم أن الله عزّ وجلّ وضع هذا العالم على نظام التغيّر والتبدّل كما مر في آياته: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾، وقد أوضحت في سورة «البقرة» مسألة نسخ الآيات القرآنية فلم أعدها في آية المحو والإثبات هنا.

فأما هذه الآيات فقد نزلت لحال خاصة وهي التغيّر في أطراف الأرض بالخراب والعمارة، وبغلبة قوم وخذلان آخرين، وبانهيار شاطئ البحر بفعل الماء، ثم يزيد في جهة أخرى، وبتبطيط الكرة الأرضية عند القطبين، وبانقلاب البحر براً بطول المدى، وتطاول السنين، أو بموت العلماء فيقبض العلم فهذا نقص في أطراف الأرض، وهذا عن الجوهري وثعلب، أو الأطراف الأشراف. قال الفرزدق:

واسأل بنا وبكم إذا وردت منى ... أطراف كل قبيلة من يتبع

وكذلك بفتح دار الحرب بأيدي المسلمين فكان لهم النصر والغلبة، وهذا نقص من أطراف تلك الأرض، والمقصود من هذا أن التبدل حاصل في أطراف الأرض، فمن خراب وعمارة وذلّ وعزّ ونقص وكمال، فهل أمن كفار مكة أن نبدلهم بعد عزهم ذلاًّ وبعد غناهم فقراً وبعد حياتهم موتاً. وإذا كان فتح البلاد بيد المسلمين قد أحاط ببلادهم، وقد نقصنا الأرض من أطرافها فهل أمنوا أن يمتد إلى بلدتهم؟ والعاقل من يتدبر ويتفكر ويعتبر فلما لهم لا يستبصرون؟.

﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ المعقب: الذي يكرّ على الشيء فيبطله، وقيل لصاحب الحق معقب لأنه يقفو غريمه بالاقتضاء، وهاهنا حكم الله للإسلام بالإقبال، وعلى الكفر بالإدبار، وما حكم به تعالى لا يمكن نقضه، كما حكم على أطراف الأرض بالنقص بمقتضى النظام الذي وضعه والقانون الذي سنّه، ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ فيحاسبهم عما قليل في الآخرة بعد العذاب بالقتل في الدنيا، ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: كفار الأمم الخالية والأجيال البائدة بأنبيائهم، والمكر: إرادة المكروه في خفية، وما هذا المكر بشيء إذا قيس بمكر الله ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ وكيف يؤبه بمكرهم وهو ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ فيعدّ جزاءها ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ من الحزبين أي: العاقبة المحمودة.

وإذا علم الله عمل كل نفس وأعدّ لها جزاءها بحيث يقع العذاب على المذنب وهو في غفلة على خلاف ظنه وهو لا يدري، فهذا هو المكر كله، ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ لما أنكر

الكفار كون محمد رسولاً قال الله له: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ بالمعجزات وبلاغة القرآن ﴿ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أمثال عبد الله بن سلام لعلمه بالتوراة، والمسلم الذي عرف إعجاز القرآن، فهؤلاء يشهدون برسالتي. انتهى التفسير اللفظي لسورة الرعد، والحمد لله رب العالمين، وهنا جوهرتان:

الجوهرة الأولى: في الكلام على البرق والرعد والسحاب والصاعقة فوق ما تقدم في الآيات

اعلم أن هذه الأربعة ذكرت في أول سورة «البقرة» في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾[الآية: ١٧] الخ، إذ جعل القرآن كالمطر، ووعيده كالرعد، وحججه كالبرق، والهلاك الذي يصيب المجرمين كالصاعقة، فارجع إليه هناك، ولكن هذا ملخصه وهذا لسان البيان المعبر عن حال الوجود، لأن اللسان لسانان: لسان البيان، ولسان الوجود.

فأما لسان البيان ومنه لسان الوحي، فهو المعبر عن المعاني التي كمنت في النفوس الإنسانية لقصور الطبيعة البشرية عن إظهار ما كمن فيها، فكان هذا اللسان، فجميع اللغات السامية من عربية وعبرية وسريانية وحبشية الخ، وجميع اللغات الطورانية كالتركية في الأناضول والقازانية في بلاد القازان الخ، وجميع اللغات الآرية كاللغات الهندية والأوروبية؛ هذه كلها وأمثالها البالغة أربعة آلاف لغة لا عمل لها إلاّ نقل ما في أفئدة الناس بعضهم لبعض من المعاني المقصودة لهم لينتفعوا بها، ولو أن هذه الأنفس البشرية كانت قادرة على تفهيم بعضها بدون احتياج إلى هذا الترجمان وهو اللسان لم نستعمله. إذن احتياجنا للتعبير ناشئ من هذا الجسد الذي حجب بصائرنا عن الاطلاع على ما يجول بالضمائر من المعاني، لهذا خلق الله اللسان فأخذ الناس يتكلمون، ولكن أكثر هذا النوع الإنساني قاصر لا يدرك الحقائق، ومعنى هذا أن قصور الناس ليس خاصاً بالتعبير عما يجول بخواطرهم، كلا، بل نفس هذه الأنفس ليست كاملة العلم والعقل، فإذا عبروا باللسان عما في ضمائرهم لم يجدوا فيها ما يكفي لإسعادهم، لذلك خلق الله فيهم أنبياء وحكماء، فالأنبياء يخاطبونهم بلسان الوحي، والحكماء يخاطبونهم بلسان البرهان والحكمة، فأما لسان الوحي فمنه القرآن الذي هو الكتاب الحكيم وقد جاء فيه: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾[الروم: ١٧] الخ، يأمرنا الله بالتسبيح وبالصلاة فنصلي ونقول: سبحان الله، ونحمد الله إلى آخره، هذا هو لسان الوحي وبيانه، والوحي هو الذي جعل هذه الأربعة مشبهاً بها أحوال القرآن من حجج وعلم وإنذار الخ.

أما لسان الوجود فد ذكره الوحي هنا فأبان أن نفس الرعد يسبح بحمد الله والناس لا يفقهون تسبيحه. الناس يسبحون والرعد يسبح ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾[الإسراء: ٤٤]. الله أكبر، أنزل الله سورة سماها «الرعد» بعد أن ذكره في سورة «البقرة» بهيئة ضرب المثل وذكر معه إخوته الثلاثة هنالك وهنا، جعل هذه الأربعة هناك ضرب مثل وجعلها هنا مقصودة، بل جعل أحدها وهو الرعد مسبحاً، وسيأتي في سورة «الإسراء» تسبيح كل شيء. هذا فتح باب لأن ندرس نفس هذا الوجود.

إنّ في الرعد وإنّ في الوجود حكمة وعلماً، وفي هذا العالم جمال العلم المعبر عنه بالبرق وإنذار من يتغاضى عن هذا العلم، والمعبر عنه هو الرعد، وفيه نعم يعبر عنها بالسحاب، وفيه هلاك

يعبر عنه بالصاعقة . إذن هذا الوجود نفسه ناطق ، هو هكذا من يوم أن خلقه الله ، برق جميل ورعد منذر وسحاب ممطر وصواعق مهلكة ، في هذه الأربعة حياة وموت وإنذار وحجة أو خوف ورجاء . الرعد والصاعقة خوف ، والهلاك والبرق والمطر رجاء وحياة .

إن هذه الحياة كلها ترجع في مجموعها إلى لذة وألم وغنىً وفقر وعلم وجهل وكبر وصغر ورجاء وخوف وعز وذل ، وبالجملة محبوب ومكروه ، وهذه كلها يعبر عنها البرق للأول ، والرعد للثاني ، هذه هي أحوال الحياة . ومعلوم أن الحياة ضدها الموت ، فالحياة كالسحاب ومطره ، والموت كالصاعقة ، فهذه الموجودات الأربع لسان هذا الوجود نطقت بما تضمنه .

إنذار الرعد للمسلمين

يظهر البرق في أكناف السماء كل حين والمسلمون ينظرون ؛ كما ينظره أهل الأرض ، البرق جميل وبهيج ، البرق يذكر بجمال هذه الدنيا وبهجتها وحسنها ونظامها وبهائها ، يحدّث البرق المسلمين حديثاً عن ربهم أنه كامل وجميل ونور السماوات والأرض ، وما أمره إلاَّ كلمح البصر أو البرق الذي يظهر في جزء من ألف ألف من الثانية ، ولذلك ترى الأشجار في البرق ساكنة في حال الإعصار ، لأن البرق في جزء صغير جداً ، فأعرض متأخروهم عن هذا الجمال مع أن البرق يكاد يأخذ بالألباب ويأخذ بالأبصار ، فلما أعرضوا أسمعهم الرعد كما أسمع غيرهم ، والرعد صوت الإنذار الكامن في هذا الوجود .

ولقد ظهر ذلك الكامن في مقذوفات المدافع العاصفة كالرعد المرمى بها من الطيارات التي اخترعها الناس في عصرنا فأهلكت الحرث والنسل . الرعد قد أشبهته الآلات الحربية الحديثة التي ظهرت في الحرب العامة من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩١٨ ، هذه هي الرعود التي كانت كامنة في الطبيعة والرعد يعبر عنها بزمجرته ، فكأن الرعد يقول للمسلمين : إن لم تدركوا علوم هذه الدنيا الجميلة البديعة التي تظهر لكم وقتاً بعد وقت في آيات الوحي البارقة لكم البهجة التي أفادتكم أن كل شيء يسبح ، وأن الرعد يسبح بحمد ربه ، فاستعدوا لغضب الله الدال عليه بزمجرة الرعد .

أيها المسلمون ، إما حياة بالعلم الجميل الذي ينمّ عنه البرق الذي هو نور الكهرباء السارية في هذا الوجود ، وإما موت بالجهل الذي يعبر عنه الرعد والصاعقة ، وهذا التفسير آخر إنذار للمسلمين ، والمسؤول عن أمم الإسلام هم الأذكياء لا سيما من يعقلون هذا التفسير وأمثاله في بلاد الإسلام ، هذا من سر تسمية السورة بالرعد .

إن الله تعالى قد اتجهت عنايته لنا فقال إنه يرينا البرق فعلينا أن نراه ونفكر فيه هو وما معه .

(١) الإنسان له قوى ثلاث : فالعاقلة كالبرق ، والغضبية كالرعد ، والحيوانية كالسحاب .

(٢) البرق مظهر من مظاهر الكهرباء ، والكهرباء قد تدخلت في عموم الماء والهواء والأرض وكذا الحرارة ، وهناك ما هو أقل لطافة من الكهرباء وهو الهواء فتدخله أقل وشموله أضعف ، فهو يتدخل في الماء بدليل أن السمك يتنفس منه بما خالط منه الماء ، ثم الماء تدخله أقل فهو يتدخل في الطين . فالقاعدة أن كل لطيف يكون أعم وأشمل لما تحته ويحيط به ، فالكهرباء والضوء يحيطان بما تحتهما ، والهواء يحيط بالماء ، والماء يحيط بالأرض ، والله فوق الكهرباء وفوق ما تحتها فهو بكل شيء محيط .

(٣) الدول لا يتم نظامها إلاّ بجيوش جرارة يمثل لها بالرعد، وعلوم وعلماء وأمراء ونواب يمثل لها بالبرق، ألا ترى أن المجالس النيابية ومجالس الملوك ورجال العلم أشبه بالبرق اللامع وإن كانت الحرب قائمة على ساقها.

(٤) البرق في علم الأخلاق كاللين، والرعد كالشدة، فهو ذو بطش شديد وما قبله باسم الثغر جميل الطلعة.

الجوهرة الثانية: في قوله تعالى: ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾

اعلم أن جميع الأشياء محددة آجالها وأحوالها، ولكنها في ظواهرها مشكلة غير منتظمة لأحوال وعوارض تطرأ عليها، ومن ذلك أعمار الحيوان. إن أعمارها غير واضحة من حيث نهاياتها للعوارض التي تعرض لها كما في أحوال الإنسان، ولكن نذكر طرقاً منها على مقتضى ما ذكره «اللورد افبري» في كتابه «مسرات الحياة» وإن كان هو نفسه يقول: إن ذلك لم يخرج عن حد التقريب.

الحيوان	عدد السنين	الحيوان	عدد السنين
الأرنب	١٠	الخيل	٣٠
الغنم	من ١٠ إلى ١٢	الفيل	١٠٠
الكلاب	من ١٠ إلى ١٢	الببغاء	١٠٠
الخنازير	٢٠	الغراب	أكثر من مائة

ويقول «همبولدث»: إن ببغاء كان يتكلم ولا يفهم كلامه، لأنه كان بلسان قبيلة هندية منقرضة عن بكرة أبيها، ويقول: إن نوعاً من السمك يقال له «البنيّ» سريع النمو يعيش ١٥٠ عاماً، وإن سمكة من نوع الكراكي طولها ١٩ قدماً وزنتها ٣٥٠ رطلاً إنجليزياً وجدت في «سوابيا» عام ١٤٩٧ حاملة خاتماً منقوشاً عليه هذه العبارة: أنا أول سمكة ألقاها بيده في هذه البحيرة حاكم العالم «فردريك الثاني» في الخامس من أكتوبر سنة ١٢٣٠، إذن تكون هذه السمكة عمرها ٢٦٧ سنة، والزحافات طويلة الأعمار.

وقال «غونتر»: إن بعض السلاحف عاش ١٥٠ عاماً، وبعض السلاحف قدروها باعتبار عمرها فكان ذلك ٥٠٠ عاماً. وقال «أرسطاطاليس»: إن ملكة النحل تعيش ٧ سنين. ويقول «اللورد افبري»: والعلم لا يؤيد هذا، أن ملكة النحل قد عاشت عند «اللورد افبري» ١٥ سنة.

لطيفة: في سنة ١٩٢٦ نشر محل «رودلف موس» في برلين الأجزاء الأولى من مؤلف غريب في بابه اسمه «في عالم الأرقام»، وقد ذكر فيه أن عدد الذين تجاوزوا السبعين من العمر في ألمانيا سنة ١٩١٠ ميلادية ٩٧٣ ألفاً من الرجال ومليون و٤٠ ألف امرأة، والذين يعمرون أكثر من سواهم هكذا على الترتيب الآتي: رجال الدين، رجال البساتين، الزراع، الصيادون، النجارون، الغزالون، الخياطون الأطباء، الجزارون، الشحاذون.

ثم قال: إن مقابل كل مائة وفاة من رجال الدين مع مراعاة النسبة والعدد بطبيعة الحال يموت ١١٤ من الزراع، و١٤٣ من صيادي السمك، و١٤٨ من الخبازين، و١٨٩ من الخياطين، و٢٠٢ من الأطباء، و٢١١ من الجزارين، و٣٣٨ من الشحاذين.

ومما يناسب هذا المقام ما ذكره هو أيضاً أن عدد النساء يزيد في أوروبا على عدد الرجال كنسبة ٥ إلى ٤ ، وفي آسيا بنسبة أقل فكل ١٠٠٠ رجل يقابلهم ٩٧٣ امرأة ، وفي أفريقيا ٩٦٨ امرأة فقط في مقابلة ألف رجل ، وفي أستراليا أقل جداً . اهـ .

فائدة طبية للصحة

يقول العالم الياباني « فوكيسافا » وصايا للناس كي يعمروا طويلاً :

(١) امتنع عن شرب الشاي والقهوة والمسكر ولا تدخن .

(٢) اشرب كل يوم ثمانية أقداح من الماء المقطر الصافي .

(٣) خذ في الأسبوع مرتين حماماً بالماء الفاتر .

(٤) اغسل أسنانك وفمك أربع مرات في اليوم ، « أقول عندنا في الإسلام ربّما كان أكثر » .

(٥) لا تغضب .

(٦) لا تتأثر .

(٧) لا تأكل مأكولات مالحة .

(٨) نم مبكراً واستيقظ مبكراً .

هذا ما نقل عنه .

أما أنا فأقول لك : من أهم ما جرّبته في حياتي للصحة : مضغ الطعام جيداً مع المحافظة على ذلك . وأن تسير في الهواء النقي كل يوم زمناً طويلاً مع الرياضة . وأن تغتسل كل يوم . وأن لا تأكل ليلاً البتة ، فإن لم تقدر فليكن الطعام خفيفاً جداً ، هنالك تكون الصحة التامة .

انتهى تفسير سورة « الرعد » .

تفسير سورة إبراهيم عليه السلام

هذه السورة مكية سوى آيتين، وهما قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ [الآية: ٢٨] إلى قوله: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [الآية: ٣٠].

وهي ٥٢ آية، وأقسامها ثلاثة:

القسم الأول: في قصص الأنبياء الذين أرسلوا لأممهم تبياناً لقوله في السورة قبلها: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ [الرعد: ٣٨] الخ، وفي محاورات بينهم وبين أممهم، من أول السورة إلى قوله: ﴿وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [الآية: ١٧].

القسم الثاني: في عاقبة المكذبين، من قوله: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ [الآية: ١٨] إلى قوله: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [الآية: ٣٤].

القسم الثالث: في دعاء إبراهيم، من قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [الآية: ٣٥] إلى آخر السورة.

القسم الأول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الر ۚ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَالَّذِينَ

مِنۢ بَعۡدِهِمۡۛ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ﴿١٧﴾ ﴾

التفسير اللفظي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓرۚ ﴾ تقدم في «آل عمران» وستراه في جواهر إبراهيم، هذا ﴿ كِتَٰبٌ ﴾ والمراد به السورة ﴿ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ ﴾ بدعائك إياهم ﴿ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ أي: من الضلالة إلى الهدى ﴿ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ ﴾ بتيسيره، والإذن في الأصل تسهيل الحجاب فاستعير لما يمنحون من التوفيق، ثم أبدل من «إلى النور» قوله سبحانه: ﴿ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ﴾ الغالب بالانتقام ﴿ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ الذي يحمد على إنعامه، ﴿ ٱللَّهِ ﴾ بالجر، عطف بيان لـ «العزيز»، وبالرفع، مبتدأ خبره ما بعده، ﴿ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ وهذه الجملة الجميلة قد كررت في القرآن في كل سورة وكل قصة للدلالة على أن مقصود هذا الدين أن يخرج في العالم قوم نجباء حكماء ربانيون فضلاء، نعم سيكون ذلك وسيكون من هذه الأمة بعد ما استبان في كتب المسلمين المعاصرين لنا أمثال ما نبينه في هذا التفسير من عجائب السماوات والأرض وبدائعهما، وكيف كان القرآن يحث على كل عجيبة وغريبة، وإذا جاء في سورة «يوسف الآية: ١٠٥»: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ الخ، ثم جاء في سورة «الرعد» بما يوضح بعض مطالبها، جاء هنا ذكر السماوات والأرض كرة أخرى تذكيراً لما بيناه في سورة «الرعد» واستبصاراً لما ذكرناه وتشويقاً لما خلقه في الأرض والسماوات.

فيا عجباً لأمتنا الإسلامية يكرر على أسماعهم صباحاً ومساءً في كل مناسبة وفي كل حالة ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ ﴾ [الأنعام: ١]، وكثير منهم يظنون أن مجرد الإيمان يكفي، ولو كان ذلك كافياً لكان ذكر الخبز وسماعه عند الجوع كافياً في الشبع، فوالله لم يكرر هذه الجملة رب

السماوات والأرض بلا سبب، بل جعلها تذكيراً وترغيباً وتشويقاً إلى صنعة الحكيم الخبير ﴿ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾.

وتعجب كيف أتى بعدها بقوله: ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ الذين غفلوا عن السماوات والأرض وبدائعهما وهم مخلوقون بينهما، وكيف يسلمون من العذاب وهم أتوا إلى الأرض وراحوا منها صفر اليدين، فتركوا عقولهم وشغلوا بالأمور المحسوسة التي فطروا عليها لقصد حياتهم، وحياتهم إنَّما جيء بها لكمالهم، فغفلوا عن الكمال ومالوا إلى الوقوف عند حد المألوف، فحبسوا في سجن الشهوات إلى الممات، فويل لهم ﴿ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ معدّ لهم في الآخرة، بل ما أشد عذابهم في الدنيا حين يسمعون أن قوماً أعطوا علماً وهم منه براء قد حبسوا عنه وتحسروا عليه وهم غافلون، والويل ضد الوأل، وهو النجاة، أي: هلاك لهم؛ مبتدأ وخبر.

ولما كان هؤلاء المحبوسون في سجن الأنفس عن جمال السماوات والأرض قد حصروا عقولهم في هذه الحياة، أخذوا يصدون غيرهم عن معرفة الحقائق السماوية والأرضية وعن الإيمان ليكونوا مثلهم، لأن النفس تحب أن يكثر أمثالها، لذلك وصف الله الكافرين بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ﴾ يختارون ويؤثرون ﴿ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ عن دينه ﴿ وَيَبْغُونَهَا ﴾ يطلبون لسبيل الله ﴿ عِوَجًا ﴾ زيغاً واعوجاجاً، والأصل يبغون لها، فحذف الجار وأوصل الفعل إلى الضمير، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ فهؤلاء ضلوا عن الحق وذهبوا عنه بمراحل، وليس الضلال هو الذي يبعد، وإنَّما البعد لنفس الضالّ، فوصف الضلال بالبعد مبالغة لما بينهما من الملابسة، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ ﴾ بلغة قومه الذين نشأ بينهم ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ ما أمروا به فيفقهوه بسهولة وسرعة، فإذا كان الرسول مرسلاً لقومه خاصة فلا مراء في ذلك، فأما إذا كان دينه عاماً كنبينا صلى الله عليه وسلم فهناك مجال الترجمة والنقل، وذلك داع إلى الاجتهاد والكد، وذلك فيه ترقية لنوع الإنسان، فارتقاء العقول على حسب الاطلاع وإعمال الفكر واستقامة الأعمال، أي: وهذا الكتاب أنزل بلغة العرب وهو يتلى عليهم فأيّ عذر لهم إن لم يفقهوه، وما الذي صدهم أن يدرسوا ما ذرأ الله في الأرض والسماوات حتى يعرفوا صدق آياته أنهم فريقان: فريق هداه الله، وفريق حقت عليه الضلالة، وإن كان القرآن بلسانهم جميعاً، فلذلك قال تعالى: ﴿ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ ﴾ فيخذله عن الإيمان ﴿ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ بالتوفيق ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ فلا يغلب مشيئته غالب ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ الذي لا يضل ولا يهدي إلاَّ على مقتضى الحكمة والنظام.

ولما كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قد أرسل لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ذكر الله قصة موسى مختصرة، وفيها نص ما جاء في أول السورة ليأنس الناس بقصص الأنبياء، وأن الله لم يترك أمة من الأمم إلاَّ وأرسل لها هداة يهدونها، وهذا موسى قال الله فيه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ كاليد والعصا ﴿ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ «أن»: تفسيرية بمعنى أي، لأن في «أرسل» معنى القول، ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾ بوقائعه في الأمم السابقة، يقال: فلان عالم بأيام العرب، أي: بوقائعهم، فما من أمة إلاَّ ولها وقائع تشمل النعمة والنقمة، فالنعمة للمؤمنين منهم والنقمة للكافرين، ومنها وقائع بني إسرائيل أنفسهم، فإنهم ابتلوا بالاستعباد نقمة وبالنجاة من فرعون

وقومه نعمة، فيرجع الأمر إلى الترغيب والترهيب، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أي: إن وقائع الأمم الماضية وحوادثها وما أنعم الله به عليهم من السراء بعد ما أصابهم به من الضراء لآيات لكل من يصبرون على البلاء ويشكرون على النعماء، فهؤلاء متى عرفوا ما أصاب من قبلهم من الكوارث، وكيف صبر قوم فنالوا أعلى الدرجات، ولم يصبر آخرون فنزلوا في أدنى الدركات، اعتبروا وقاسوا ما حلّ بأنفسهم على ما حلّ بمن قبلهم، وجاهدوا في الحياة والعلم جهادهم، وإذن ينالون مثل ما نالوا، فأما ما سوى الصابرين الشاكرين على النعم الذين يصرفون كل ما أنعم الله به عليهم فيما خلقوا لأجله فإنهم لا ينتفعون بذلك.

إن الإنسان في الحياة بين صبر وشكر أبداً، فهو إما في مكروه وإما في محبوب، فإن صبر على الأول وانتهز فرصة النعمة بالثاني وصرفها فيما خلقت له، فذلك هو الذي اعتبر بالقرون الخالية والأمم الماضية، ولا سعادة بغير الصبر والشكر، ومن الشكر صرف الحواس فيما خلقت له وعدم ضياعها سدى، ومنه انتهاز فرص الحياة فلا يمر وقت على الإنسان بلا عمل.

إن الوقت ذهب، ومتى ضاع من حياتنا لحظة بلا عمل أسديناه ولا علم حررناه ولا بناء أقمناه ولا مجد بنيناه، فقد كفرنا النعمة وأضعنا الفرصة ولم نعتبر بالأجيال البائدة والأمم الغابرة. إن الحياة لنا فرصة عظيمة فلنشكرن الله، والشكر صرف كل ما أعطيناه فيما خلق له، فليخف كل امرئ من ضياع حياته بلا عمل يليق به، وليخف من ندم أبدي وحزن سرمدي على وقت يضيع وعذاب مريع.

ولما سمع موسى أمر ربه امتثله، وأخذ يذكر قومه بأيام الله، فقال الله: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ أي: اذكروا نعمة الله وقت إنجائه إياكم الخ، فـ «إذ» متعلق بـ «نعمة»، وقوله سبحانه: ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ يعذبونكم أشد العذاب كما تقدم في سورة «يونس» مما نقلناه عن اللغة الهيروغليفية والآثار المنقولة عنهم يقيناً من الضرب والإذلال ﴿ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾ هذه أحوال من آل فرعون ﴿ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ أي: ابتلاء، وهذا يوم من أيام الله معكم ففيه نقمة التعذيب وغيره، وفيه نعمة الإنجاء، ولذلك أعقبه بما هو كالنتيجة له، فقال: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾ أي: آذن، كتوعد وأوعد، وهو من كلام موسى، أي: واذكروا يا بني إسرائيل حين أعلم ربكم فقال: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ ﴾ يا بني إسرائيل ما خولتكم من نعمة الإنجاء وغيرها من نعمي كالسمع والبصر والسماء والأرض وما فيهما بالعلم بما فيهما والعمل الصالح كالصلاة والطاعات ﴿ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ فإنه ثبت عقلاً وعلماً أن العضو الذي يناط به عمل كلما مرّن عليه ازداد قوة على قوة، وكلما عطلناه عن العمل ضمر وانحل وضعف، هكذا جميع النعم إن استعملت فيما خلقت له بقيت، وإن أهملت ذهبت، وهذا قوله تعالى هنا: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ بحرمانكم من النعم وسلبكم المواهب وثمراتها في الدنيا والآخرة، فتعذبون في الدنيا بزوال النعم وفي الآخرة بجهنم وبئس القرار، على أن الله لم يطلب الشكر من العباد لمصلحة ولا لتسخير وإذلال، بل أمر بذلك رحمة منه، فمن لم يقبل طبعه ما أهدي من النعم فالله غني عنه مستحق للحمد في ذاته، تنطق بحمده الذرات في جميع المخلوقات، وهذا قوله تعالى:
﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾.

ولما ذكرهم موسى بنعمة الإنجاء من آل فرعون، وحذرهم من عاقبة كفر النعم، أخذ يذكرهم بأيام الله فيمن قبلهم من الأمم السابقة والأجيال البائدة بطريق عجيب وأسلوب بديع ونظام طليّ ومقام جليّ، فذكر القول إجمالياً وأوضح المحاورة إيضاحاً حسناً بهياً، إذ أرسل موسى عليه السلام القول كالمحاورة بين الأمم والأنبياء على المنهج العام في هذا المقام، فذكر أن قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من أمم جلت عن الإحصاء، غاب عن الناس علمها وعند الله إحصاؤها ﴿ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾ كما جاء نبينا صلى الله عليه وسلم بها وتليت على الناس ليعتبروا ﴿ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ ﴾ أي: عضوها غيظاً مما جاءت به الرسل، كما حصل من العرب للنبي صلى الله عليه وسلم وغلبهم الحقد والحسد والغضب فنطقوا بما تكنّ قلوبهم ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ ﴾ بزعمكم وزادوا ذلك تأكيداً فقالوا: ﴿ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴾ موقع في الريبة وهي قلق النفس، فردّ الرسل عليهم وقالوا: ﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ ﴾ همزة الإنكار دخلت على الجار والمجرور لأن المقام مقام المشكوك فيه، أي: إنَّما ندعوكم إلى الله، وهل هو محتمل الشك، ووصفه بما هو برهان وهو عين البرهان المذكور في أول السورة، فهناك يقول: ﴿ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ ﴾، وهنا في محاورات الأنبياء جاء بنفس الوصف فقال واصفاً الله: ﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ﴾ فالعبارة متحدة عند الأنبياء في كلام موسى، وعند صاحب شرعنا صلى الله عليه وسلم، وكل نبي منهم جعل مطمح نظره توجه النفوس إلى علوم السماوات والأرض، فأولاً يؤمنون ثم بعد ذلك يزدادون بقبول النعمة التي في السماوات والأرض، وإلا نزل بهم العذاب، ثم قال: ﴿ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ ﴾ لأنهم ملوثون بالجهالة والمعاصي، فعبر الله بـ «من» [illegible] وفي كل موضع ذكر فيه مغفرة الذنوب للكافرين لأنه يخاطبهم في أمر الإيمان وحده، فأما المؤمنون فإن مغفرة ذنوبهم موجهة إلى المعاصي فلذلك قيل لهم: ﴿ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾ [الصف: ١٠] إلى قوله: ﴿ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ ﴾ [الصف: ١٢]، وهكذا كثير من الآيات في القسمين، وعطف عليه قوله: ﴿ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ﴾ آخر أعماركم، فردّ الأمم على الأنبياء ﴿ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا ﴾ لا فضل لكم علينا فلم اختصصتم بالنبوة دوننا، وذلك كما حصل للنبي صلى الله عليه وسلم فإنهم قالوا: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١] يريدون أن النبوة يجب أن تكون تبع الثروة والغنى فكيف عكس الأمر هنا، ثم اقترحت الأمم على الأنبياء ما اقترحه العرب على نبينا صلى الله عليه وسلم كما تقدم في سورة «الرعد»، وهذه السورة جاءت لإتمام هذا المقام وغيره كما جاءت سورة «الرعد» وأتمت مقام العجائب السماوية والأرضية على مقتضى الحال، وهذا قوله: ﴿ تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ ولا حجة لكم عليه وليس يجوز في العقل أن نترك أمراً بدون أن نتحقق خطأه ﴿ فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴾ على صحة ما تدّعون من النبوة، فأما ذكر السماوات والأرض وعجائبهما فلسنا نحفل بها وإنَّما القاهر القادر هو الذي يخرق النواميس ويغيّر النظام ويأتي بخوارق العادات، فأما العجائب الأرضية والسماوية فلسنا نعقلها، وأن سائر البشر ليخضعون لمن يأتي إليهم بما هو خارق عن طور معتادهم فيعظمونه ويجلونه وهذه المشاهدات المحسوسات لا نرى فيها شيئاً خارقاً للعادة فلا إيمان ولا تسليم إلاّ بما فوق طاقتنا

كقلب العصا حية ونقل الجبال مثلاً وما أشبه ذلك، فأما السماوات والأرض فذلك أمر لا يعطي دليلاً ولا يغني فتيلاً ولا قطميراً، وأن طباع جهلة الناس تحملهم على الخضوع للذين يفعلون كل ما خالف العادات ولو بطريق التمويه، فردّت عليهم رسلهم مسلمين أنهم بشر مثلهم ولكن الله منّ عليهم. فأما الآيات المقترحات التي تقترحونها فلا تكون إلاّ بإذن الله وعلى المؤمن أن يتوكل على الله ويفوّض إليه أمره، ونحن أوّل المؤمنين في أممنا، وكيف لا نتوكل على الله وقد هدانا إلى سبل المعرفة، ومن أنعم الله عليه بنعمة فليشكر الله بالعمل بها، وليصبر على ما يصيبه في سبيلها، كما تدل عليه وقائع الله وأيامه في الأمم. وإذا كنا نحن هداة الأمم فلنصبر على إيذائكم ولنشكرن على الهداية فندعوكم لله، وهو شكر لنعمة الهداية كما نصبر على أذاكم، وهذا عين ما جاء في أول السورة ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾، فهاهنا تجلى الصبر وتجلى الشكر على لسان الأنبياء أنفسهم، فشكروا الله لهدايته الناس، وصبروا على أذاهم وهذا هو الكمال الذي جاء في القرآن لنا معاشر المسلمين، فلم تنزل السورة إلاّ لنا.

فمن عنده مال أو علم أو نعمة فلينفع بها الناس كالنهر يسقي الزرع والشمس تضيء، وليصبر على أذى الناس في جهادهم، كما نرى الناس يغفلون عن ذكر أكثر النعم التي حولهم، فهكذا الأنبياء أرسلوا لأممهم ولم يبالوا بإيذائهم، لأن الهداة خلقوا ليعملوا ولم يطلب منهم أكثر من ذلك، فهم هداة بطباعهم ولذاتهم في قلوبهم، ومنهم تنقل إلى الناس، وهذا قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن ﴾ ما ﴿ نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ﴾ إلى قوله: ﴿ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ ﴾ أي: وأيّ عذر لنا في ﴿ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ ﴾ أي: طرق المعارف والعلوم التي نعرفه بها ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ ﴾ جواب لقسم محذوف، أي: والله لنصبرنّ ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ أي: فليثبت المتوكلون على ما اتصفوا به من التوكل، فلما أجاب الرسل بذلك هددتهم الأمم بالقوة بعد الجدال وأنذروهم بالإخراج من أرضهم، وهو بعينه ما حصل لنبينا صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه السورة، إذ أخرج من مكة، فأوحى الله إليهم بهلاك الظالمين، وأن الأنبياء وتابعيهم يرثونهم، فيسكنون الأرض من بعدهم، واستنصر الأنبياء ربهم فنصرهم، وأفلح المؤمنون وخاب كل عات متكبر، وهذا أيضاً عين ما حصل لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم فإنه أخرج إلى المدينة ونصر في غزوة بدر وخاب كل عات متكبر من قومه.

ثم وصف عذاب هؤلاء بعد الموت بعد ما وصف هلاكهم في الدنيا، فأفاد أنهم يدخلون جهنم ويسقون فيها ما يسيل من الجلد واللحم من القيح، ويتحساه ذلك المتكبر مرة بعد مرة لحرارته ونتنه ولا يقدر على ابتلاعه وتحيط به أسباب الموت من كل مكان وما هو بميت وله عذاب غليظ غير ذلك، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ إلى قوله: ﴿ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾. ثم قال: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ ﴾ أي: قائلاً: ﴿ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ﴾ تفسيره ظاهر، ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي: الموحى به ﴿ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي ﴾ موقفي؛ وهو موقف الحساب ﴿ وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ أي: عذابي، ﴿ وَٱسْتَفْتَحُواْ ﴾ استنصروا الله على أعدائهم، معطوف على «فأوحى إليهم»، ﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ أي: وخسر كل عات متكبر ﴿ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴾ عطف بيان لـ «ماء»،

وهو ما يسيل من جلود أهل النار وهو القيح، فهو شراب أهل النار ﴿ يَتَجَرَّعُهُ ﴾ يتكلف جرعه، وهو صفة الماء، أي: يشربه جرعة بعد جرعة ﴿ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ ﴾ أي: ولا يقارب أن يسيغه بل يغصّ به فيطول عذابه، يقال: ساغ الشراب، جاز على الحلق بسهولة، وإذا لم يقارب أن يسيغه فكيف يسيغه، ﴿ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ أي: أسبابه ﴿ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ فيستريح ﴿ وَمِن وَرَآئِهِ ﴾ أي: من بين يديه ﴿ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ أي: يستقبل في كل وقت عذاباً أشد مما هو عليه. اهـ التفسير اللفظي.

جوهرة في قوله تعالى

﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾

اعلم أن كلام الله عزَّ وجلَّ سيد الكلام، وإذا كنا نجد الأمم اليوم إذا سمعت قول وزير أو ملك في خطبة موجزة لا تبلغ عدة أسطر؛ تهتز الأسلاك البرقية «التلغرافات» والمسرات «التليفونات» وتصدر الجرائد والمجلات في العالم كله بشرح ذلك وتفهيمه، بحيث يكتب على الجملة الواحدة ما لا يحصر باللغات المختلفة في الشرق والغرب، فربّما بلغ ذلك حمل بعير لو جمعه الناس أو أكثر، فما بالك بقول الله الذي هو ملك الملوك؟.

حكاية

اطلع أحد الفضلاء على ما جاء في هذا التفسير في قوله تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾[الأنفال: ٢٤] فرأى أنه ربما يصل إلى ١٥ صفحة، فقال: هذا كثير. فقلت: أتدري كلام من هذا؟ هذا كلام الملك. فأدرك قال: صدقت.

فهاأنا ذا الآن أبيّن منزلة هذه الجملة من السورة التي نحن بصدد الكلام عليها، وأنها هي المقصودة منها، ثم أقفي بتبيان وجيز لما كان من حوادث الدهر وأفعال الله عزَّ وجلَّ بالأمم الإسلامية المتأخرة ونحوها، ثم أذكر أن العلماء بعدنا عليهم أن ينهجوا هذا النهج، أي: أن يؤلفوا كتباً ورسائل يفهمون المسلمين بها أيام الله، وأن هذا هو من أخص ما في دين الإسلام، والعناية به أفضل من العناية بعلم الفقه مع فضله ونفعه العميم.

منزلة هذه الجملة من السورة كلها

لله درّ العلم، وما أجمل الحكمة وأبدع البيان والبلاغة، ابتدأ الله السورة:

(١) بأنه أنزل هذا القرآن ليخرج الناس من الظلمات إلى النور.

(٢) وثنى بأن كل رسول يعلم بلسان قومه.

(٣) وأبان أن موسى قبلك يا محمد جاء ليخرج قومه من الظلمات إلى النور.

(٤) وكأنه هنا قيل: بماذا أخرج موسى قومه من الظلمات إلى النور حتى يخرج محمد أمته من الظلمات إلى النور بالطريقة التي سلكها موسى، فقال: ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾، وهذا بيت القصيد في السورة، فحوادث الله ووقائعه في الأمم ونعمه وبلاؤه بتذكرها يخرج الناس من الظلمات إلى النور.

خطة موسى في التذكير بأيام الله:

(١) ذكرهم بنجاتهم من فرعون.

(٢) وبأن الشكر يجلب المزيد، والكفر يورث العذاب.

(٣) وذكر لهم وقائع الأمم السالفة.

(٤) وهلاك الكفار منهم وحسن العاقبة لأنبيائهم بعد صبرهم على التبليغ والإيذاء.

(٥) كل امرئ مسؤول عن نفسه، فالضعفاء مسؤولون وإن زين لهم الشيطان أعمالهم وغرهم الرؤساء.

وقصارى الأمر وحماداه أن الحكمة إذا بدئ بها في أمة عمت، فهي كشجرة أصلها في العقول وفرعها في الأمم جيلاً بعد جيل، وهذا الإجمال تفصيله في ذكر خلق السماوات والأرض، وإنزال المطر، وإخراج الثمرات، وجري السفن، وجري الأنهار، والشمس والقمر، وما فوق ذلك من نعم لا تحصى. هذا هو أهم أيام الله، وما تقدم مقدمات له، فهو أعظم التذكير بتلك الآيات.

وختم السورة بدعاء إبراهيم ألا يكون أبناؤه مقلدين جامدين، وعبر عن هذا بعبادة الأصنام، وختم السورة بما ابتدأها وهو أنه بهذا يذكر أولو الألباب.

يقول سبحانه أولاً: ذكّرهم بأيام الله، ويختم القول بأن هذا القول في هذه السورة كفاية للناس أي: إن الموعظة بحوادث الأمم كافية لارتقاء الشعوب إذا تذكروها وعقلوها، فبدأ بالذكرى وختم بها. إذن المقصود من السورة كلها هذا البلاغ وهو: التذكير بأيام الله.

كيف نذكر الناس بأيام الله؟

اعلم أن هذه السورة وحدها كافية لإرشاد الأمم الإسلامية على شريطة أن تكون لنا عقول وأفهام حتى تعلم الأمم الإسلامية. ألا وإن هذه جملة واحدة كافية لسعادة الأمم الإسلامية، فوالله لو لم يكن هناك قرآن غيرها لكفت، وهذا هو قوله: ﴿ بَلَٰغٌ ﴾[إبراهيم: ٥٢]، فهذه الجملة وتوابعها كفاية لإسعادنا إذا كنا عاقلين، فبشرحها وتذكير الناس بما حولنا وما سبق لنا ننقذ أممنا من الهلاك.

فأما قراءة القرآن وإعرابه والصلاة به وكثرة الثرثرة بأن القرآن بليغ أو فصيح فالاقتصار عليه صفة العاجزين، فوالله ما نزل القرآن إلاّ لما هو أرقى من البلاغة والفصاحة التي صارت مشهورة لاكتها الألسن وأنستها الطباع، فلنهجم على المقصود من القرآن ونقول: انظر كيف قال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ ﴾، لماذا ذكر هذه هنا وأتبعه بقوله: ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾، وأيّ مناسبة لها بهذا المقام؟ فاعلم أنه أوردها هنا ليفهمنا أنه ليس المدار على مجرد القول، بل المدار على البيان والتفهيم، فإذا كان الرسل جاؤوا بلسان قومهم؛ فهذا معناه أن المدار على ما يؤثر في العقول، ومن ذلك حوادث الأمم وأيام الله، فإذا ذكر موسى بني إسرائيل بما وقع لهم وللأمم قبلهم، فليذكر علماء الإسلام وحكماؤه ووعاظه الأمم الإسلامية بالوقائع التي هي أقرب أثراً وأشد وقعاً، فإذا قال موسى لقومه: أنتم خلصتم من ذل فرعون ونجوتم فاذكروا هذه النعمة، فإن لم تشكروها عذبتكم، فليس معناه أن عالم الإسلام يقول هذا القول حين يفسر للمسلمين، كلا ثم كلا، عالم الإسلام الذي يقوم بنشر الدين يصطفي من الحوادث ما يؤثر في عقول الأمة، حاذياً في ذلك حذو موسى عليه السلام إذ اصطفى ما يناسب قومه وذلك إنّما أخذناه من قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾، فالمدار على البيان الذي يعقله القوم، فالقرآن نزل لننسج على منواله ونذكر الناس بما يناسب عقولهم. هذه هي عجائب القرآن التي يعجز عنها الفصحاء والبلغاء والحكماء. كلام عام مملوء حكماً وغرائب.

هذا تذكيري للمسلمين

هأنا ذا أبدأ بتذكيري للمسلمين:

(١) ذلّ الأمم العربية قبل ظهور الإسلام.

(٢) عزّهم باتباع الإسلام واجتماع كلمتهم.

(٣) فتحهم بلاد الله شرقاً وغرباً.

(٤) انتشار اللغة العربية التي صارت أداة التفهم بين أمم في الشرق والغرب.

(٥) ترجمة العلوم ونبوغهم فيها.

(٦) انحطاط العلم في بلاد الإسلام بعد ارتفاع شأنه.

(٧) اضطهاد العلماء بنظام هذا الوجود؛ الذي هو أهم أيام الله في السورة؛ كنظام الفلك والطبيعة، وأخصهم ابن رشد.

(٨) انتقال العلم بعد أن هجره المسلمون على يد تلاميذ ابن رشد إلى أوروبا.

(٩) تفوّق الأوروبيين على المسلمين فيها اليوم.

(١٠) اضمحلال الدولة العباسية في الشرق، والأموية في الأندلس، ثم هلاك المسلمين وطردهم من أوروبا، وهلاك الأمم الجاهلة، كأهل أمريكا الأصليين، وأهل أستراليا الأولين، كل ذلك لأنهم لم يستيقظوا من الغفلات.

هذه هي الذكريات التي سأذكرها للأمم الإسلامية إجمالاً، ليعلموا مستقبلهم ويقيسوا المستقبل على الماضي اقتداء بموسى عليه السلام الذي قال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم فيه وفي أمثاله: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، والنبي صلى الله عليه وسلم الآن عند ربه، وقد جاء في القرآن في سورة «الأنفال» وغيرها تذكير المسلمين بأيام الله في أحوالهم الخاصة، كما فعل موسى عليه السلام، فموسى أخرج قومه من الظلمات إلى النور بالكلام على فرعون ونجاتهم منه وهكذا، ومحمد صلى الله عليه وسلم ذكر الله على لسانه في سورة «الأنفال» ما يناسب المسلمين.

انظر ما هناك فقد ظهر ١٤ حادثة في وقعة بدر بيّنها الله كلها تذكيراً للمسلمين، فذكر البشارة بالملائكة وكيف غشيهم النعاس وقت الشدة، وكيف نزل الماء لهم فتطهروا، وكيف ثبتت الأقدام، وهكذا مما تجده واضحاً هناك في التفسير. فاعجب للقرآن كيف ذكر الله المسلمين بوقائعهم على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم، وذكر بني إسرائيل بوقائعهم وهذا من غرائب القرآن.

أنا الآن أعتقد أنك أيها الذكي مقتنع أني إذا ذكرت المسلمين اليوم فإنَّما أذكرهم بما هو أحسن من الحوادث وأقرب لهم، وذلك في كل زمان بحسبه، هذا هو دين الله. فلأشرح هذه الفصول على ترتيبها فأقول:

الفصل الأول: من أيام الأمم الإسلامية

لما وصلت إلى هذا المقام اطلع عليه صديق مخلص عالم فقال:

س ـ إن هنا خطوة واسعة لم أجدها في هذا التفسير من قبل، إن ما أزمعت على تسطيره اليوم من الغرابة بمكان، لأنك هنا ستجمع ملخص ما وصل إلى العرب من العلم، وأهم ما جاء في الكشف

الحديث إجمالاً ، وما انتاب المسلمين من حوادث الدهر والقهر والجهل ، وسيكون هذا المقام حافلاً بأمور شتى ، فحدثني هل هذا ما تقتضيه هذه الجملة ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾ [إبراهيم : ٥] .

ج ـ فقلت : أرأيت لو سمع المسلم قارئاً يقرأ : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾ [النساء : ١٠٣] وأخذ يكررها ألفي مرة كل صباح وكل مساء ، فهل يكون مصلياً بهذا؟ قال : كلا بل قارئاً فقط . قلت : وهكذا في الزكاة والحج . قال : نعم . قلت : هكذا هنا ، فإذا سمعت هذه الآية فليس معناه أنك تقرؤها أو تفهم معناها أو تعربها أو تعرف بلاغتها فحسب ، فكل هذه صناعات لتعليم الصبيان كيف يفهمون ، ونحن الآن في مقام العلم والحكمة ومقاصد القرآن ، فإذا كانت الصلاة والزكاة غير الأمر بهما فهكذا التذكير للمسلمين غير الأمر به .

وإذا كان المسلمون ألفوا للصلاة وللزكاة كتباً فأولى ثم أولى تذكير المسلمين بالوقائع التي حلت بساحتهم أو كانت قريبة منهم حتى يحترسوا مما وقع فيه أسلافهم ؛ كما سأفصله قريباً ؛ وما دام المسلم لاهياً عما حدث له في نفسه فإنه لا يعتبر ولا يتذكر في أخلاقه ورقيه ، هكذا الدولة إذا جهلت ما أحاط بها من النافع والضار والحوادث التي جرت عليها وعلى أسلافها ، فإنها واقعة في الهلاك ، عاصية ربها معرضة للعذاب في الدنيا والآخرة ، وهناك يقال لها : ﴿ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا ﴾ [الأنعام : ١٥٨] الخ .

س ـ فقال : كيف تقول إن التأليف في هذا أولى من التأليف للصلاة؟

ج ـ قلت : ستعرف هذا من الحوادث التي مرت بالمسلمين ، وأنهم بالأندلس بعد ما استقروا هناك وعاهدهم المسيحيون على تأدية العبادة وحريتهم فيها ، غدروا بهم وألزموهم ترك الغسل من الجنابة وترك الصلاة ، فماذا أفاد المسلم من علم الصلاة وهو لا واقي له ولا حافظ يحفظ سلامته وأمنه في دياره؟

وهكذا سترى قريباً كيف كان جهل المسلمين أيام «قطب أرسلان» وهجوم التتار والمغول على المسلمين ، فقد كانوا جهلاء بقوة جيرانهم فانقضوا عليهم على غرة وهم ساهون ، وهكذا بلادنا المصرية لما انقضّ عليها الفرنسيون في أوائل القرن الثالث عشر الهجري كانوا يجهلون قوة عدوهم ويغترون بأنفسهم ، بل كانوا يجهلون ما أمر به الدين الإسلامي من الحجر الصحي أيام الطاعون الذي ورد به الحديث ، والفرنسيون يأمرونهم به وهم لا يعلمون أنه في الحديث الشريف وفي أعمال عمر بن الخطاب وعدوه عملاً وحشياً ، كل هذا ستراه قريباً ، فإذا ذكرنا المسلمين بمثل هذا فإنهم يعرفون أن الدين إلى الآن لم يدرس ولم يعرف إلاّ قشوره ، ويؤلفون في كل علم وفن ، فجهل قوة الدول وجهل الأمور الصحية التي ورد بها الحديث مثلاً كالحجر الصحي .

كل ذلك يذلّ الأمم ، فإذا تذكرناه احترس أبناؤنا من الوقوع فيه بعد الآن ، لا سيما أن هذه تعد في الإسلام من فروض الكفاية ، وفرض الكفاية قال جمع من العلماء إن ثوابه أفضل من فرض العين لعموم نفعه للناس قاطبة ، ولأن فرض العين ربّما لا يتم إلاّ بكثير من فروض الكفايات ، فهو أشبه بالحارس لفرض العين ، وكيف تعيش في بيتك إن لم تكن آمناً ؟ لذلك يكون القول بفضله على فرض العين وجيهاً .

س ـ قال : إذن ذكرني قبل أن تذكر المسلمين لأني أول من اطلع عليه ، فليكن محاورة بيني وبينك حتى تألفه النفوس وتأنس به العقول .

ج ـ فسل ما تريد .

س ـ فاذكر الفصل الأول من الفصول التي تريدها وهو الكلام على ذلّ الأمم العربية قبل ظهور الإسلام .

ج ـ إن هذا المقام سهل المنال ، معلوم لقراء هذا التفسير ؛ إذ هم غالباً يعرفون أن العرب كانوا متفرقين شراذم مختلفين طرقاً ومشارب ، كانت آلهتهم كما قال « سديو » الفرنسي : بهائم ونباتات وغزلاناً وخيلاً وجمالاً ونحلاً وأعشاباً وأجساماً معدنية لا نظام لها وصخوراً وأحجاراً وأصناماً كهيكل اللات والعزى ، ونجوماً كالدبران والشعرى اليمانية وسهيل ، ومنهم يهود تعلموا من اليهود الذين حلوا بلادهم بعد أن طردهم اليونانيون والسريانيون ، وذلك في بعض بلاد الحجاز واليمن ، ومنهم براهمة في بلاد عمان ، ونصارى في غسان وفي العراق والبحرين ودومة الجندول وهكذا .

ولا جرم أن تفرق العقائد والأخلاق يتبعه اضطراب السياسة ولذلك كانت بلادهم معرضة للأمم المحيطة بهم ، فكانت اليمن تغزوها الحبشة ولم تخلص منها إلاّ قبيل البعثة ، وغسان في الشام تتبع راية الروم ، والمناذرة في الحيرة وما والاها يتحكم فيهما الأكاسرة بالفرس ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ [الرعد : ١١] .

س ـ كفى هذا في الفصل الأول الذي هو كالمقدمة لما يجب الكلام فيه .

ج ـ فلنشرع في :

الفصل الثاني ، وهو : اجتماع كلمتهم
مع الفصل الثالث والرابع ، وهو : فتحهم البلاد وانتشار لغتهم العربية

لقد فتح المسلمون البلاد ، ونشروا الدين ، ثم تقدمت الفتوحات ، وجاسوا خلال الشام والفرس إلى نهر السند وإلى بحر قزوين وجميع شمال أفريقيا ومعظم جزيرة إسبانيا ، وهددوا فرنسا بالغارة عليها ، ولكن ردّهم ملكها « كرلوس مارتيل » حين هجمت جيوش عبد الرحمن الأموي عليها وذلك في إقليم « لوارة » وعظم ملكهم ونظام بلادهم حتى إنك لترى في كتاب « سديو » الفرنسي أنهم برعوا في الجغرافية التخطيطية ، وأنهم لما امتدت مملكتهم من المحيط الأطلانطيقي إلى تخوم مملكة الصين أنشؤوا بالتدريج أربع طرق عظيمة تجارية توصل من مدينة « قادس » و« طنجة » إلى أقصى آسيا ، إحداها تخترق إسبانيا وأوروبا وبلاد « سلاوونة » إلى بحر جرجان ومدينة « بلخ » وبلاد « تجزجز » كذا ، والثانية تخترق بلاد المغرب ووادي مصر ودمشق والكوفة وبغداد والبصرة والأهواز وكرمان والسندهند ، والثالثة والرابعة تعبران البحر الأبيض المتوسط ، وتتجه إحداهما من الشام والخليج الفارسي والأخرى من الإسكندرية والبحر الأحمر لتصل إلى بحر الهند ، وساعدهم على ذلك علماؤهم بالأزياج كمثل « البتاني » بالرقة سنة ٩٠٠ ميلادية ، « ابن يونس » بالقاهرة سنة ١٠٠٠ ، وهكذا ابن حوقل والأصطخري والمسعودي ، حوالي نصف القرن العاشر الميلادي ، وكذا الكومي سنة

١٠٦٧ ميلادية، فكثرت بهذه الطرق السياحات ونقل السياحون ما عند العرب من الآراء والمدنية، واستفاضت الأخبار الجليلة فتنورت أذهان الملاحين وعرفتهم الأخطار التي يخشى عليهم الوقوع فيها إذا سافروا في ولايات غير معروفة معرفة تامة.

فقال صاحبي: كفى هذا في الفصل الثاني والثالث والرابع، فقد حصلت صورة واضحة تبيّن الاجتماع والمدنية بعد الافتراق والهمجية في الأمم العربية خصوصاً والإسلامية عموماً، وفتح البلاد وانتشار اللغة.

الفصل الخامس في أمرين: ترجمتهم للعلوم، ونبوغهم فيها

ج ـ أما الترجمة فإنها كانت عهد العباسيين على ثلاثة أدوار:

الدور الأول: من خلافة أبي جعفر المنصور إلى وفاة هارون الرشيد من سنة ١٣٦ إلى سنة ١٩٣ ومن المترجمين فيه: يحيى بن البطريق، وجورجيس بن جرتيل الطبيب، وعبد الله بن المقفع، ويوحنا ابن ماسويه، وسلام الأبرش، وباسيل المطران، فترى المجسطي ترجمه الأول، والثالث ترجم الكتب المنطقية لأرسطاطاليس وهكذا.

والدور الثاني: من ولاية المأمون سنة ١٩٨ إلى سنة ٣٠٠، والمترجمون فيها أمثال: يوحنا بن البطريق، والحجاج بن مطر، وقسطاس بن لوقا البعلبكي، وعبد المسيح بن ناعمة، وحنين بن إسحاق، وإسحاق بن حنين، وثابت بن قرّة الصابي، وهكذا في هذه المدة ترجم أغلب كتب أبقراط وجالينوس وأرسطاطاليس وبعض كتب أفلاطون.

والدور الثالث: من سنة ثلاثمائة إلى منتصف القرن الرابع، والمترجمون أمثال: متى بن يونس وسنان بن ثابت بن قرّة، ويحيى بن عدي، وأبي علي بن زرعة، وهلال بن هلال الحمصي، وأكثر اشتغالهم بالكتب المنطقية والطبيعة لأرسطاطاليس، وبالمفسرين كالإسكندر الإفروديسي ويحيى النحوي.

هذه هي أدوار الترجمة ملخصة من كتاب الأستاذ «سنتلانة» الطلياني، أما نبوغهم فيها فاسمع ما قاله «سديو» الفرنسي المتقدم ذكره، قال في صفحة ٢٠٨ من الكتاب المترجم بالعربية، ترجمه أستاذنا علي مبارك باشا، قال ما ملخصه:

«اقتدى بالمنصور من بعده في نشر العلوم وتوسعة دائرتها زمن إهمالها بجميع بلاد أوروبا بجلبهم من الأقاليم التي فتحوها علماء لترجمة أعظم كتب اليونان وإنشائهم مكاتب عامة ومدارس يتعلم بها الخاص والعام مثل كتب أرسطاطاليس، وسقراط، وجالينوس، ودسقوريدس، وإقليدس، وأرشميدس، وبطليموس، وأبولونيوس، مع تعليم متن القرآن وتدريس تفاسيره، وبإنشاء جمعيات العلماء، وإغداق النعم من المهدي والرشيد على علماء النصارى الذين ترجموا الكتب اليونانية والفارسية إلى السريانية والعربية، واشتهر إذا ذاك «ما شاء الله الفلكي» المؤلف في الإسطرلاب ودائرته النحاسية، وأحمد بن محمد النهاوندي، وهما أقدم علماء الأرصاد من العرب، وحجازي بن يوسف أول من ترجم كتاب إقليدس إلى العربية، وكفى بالساعة الدقاقة المتحركة بالماء التي بعثها هارون الرشيد إلى «شرلمانية» ملك فرنسا شاهداً على رفعة درجة الفنون لدى العرب إذ ذاك الخ».

وجاء في المبحث الثاني والعشرين من هذا الكتاب ما ملخصه قال:

«أدرجنا في الأبحاث السالفة مؤلفي العرب لانتساب سائرهم إلى مدرسة واحدة، ولأن الاصطلاحات العلمية التي جرت عليها المشارقة كان سائرها ألفاظاً عربية لتغير صورة اللغة الفارسية إلى العربية منذ زمان طويل بممارسة القرآن والحركة العقلية الفاشية في القرن الثامن بعد الميلاد منذ تولي بنو العباس منصب الخلافة، وظهر التمدين العربي المتسع به تطاق لسان العرب الذي أدخله مترجمو الكتب اليونانية في الاصطلاحات، فسهل انطباقها على المعلومات التصورية التي عزا الفرنج أكثر ما كشف منها إلى علماء منهم كانوا في القرن الخامس عشر والسادس عشر مع أن اختراع أكثرها ما كان إلاَّ للعرب الذين اجتهدوا في تقدم العلوم.

قال: ونلخص لك اجتهادهم فنقول: وهاهنا ذكر المؤلف الفرنسي المذكور مسائل تصعب على بعض قراء هذا التفسير لأنها اصطلاحية في العلوم:

الأولى: مثل الكلام على حلّ المعادلات التكعيبية واستبدال الأوتار بالجيوب، وتطبيق الجبر على الهندسة وإدخال الخطوط المماسة على حساب المثلثات وهكذا، وقال: إنا شاهدنا هذه جميعها في مؤلفات العرب المكتوبة بخط اليد التي ظفرنا بها.

الثانية: أن العلماء الفلكيين ببغداد ضبطوا بغاية الدقة حركة أوج الشمس، وتدخل فلك هذا الكوكب في داخل أفلاك أخر ومقدار السنة.

الثالثة: أن تقدم الجغرافية الرياضية وتصحيح أزياج بطليموس كانا على أيدي العرب.

الرابعة: أن القرن السادس وما بعده إلى السادس عشر كانت خالية من الفلكيين الأوروبيين وإنَّما كانت الأرصاد العربية هي القائمة في الشرق.

الخامسة: هو ما تعجب منه فلكيو الشرق وهو مرصد رصد خانة سمرقند التي أنشأ بعدها بقرن الخواجا «تيكو براحة» رصد خانة «أورنيبوغ» سنة ١٥٧٦ ميلادية.

السادسة: أن الفرنج زعموا أن آلة الإسطرلاب من مخترعات «تيكو براحة» مع أن تلك الآلة والربع ذا الثقب موجودان من قبله في رصد خانة المراغة التي أسسها العرب العارفون للساعة ذات البندول.

السابعة: أن العرب شهروا النقص التدريجي لميل وسط فلك البروج قبل متأخري الفرنج بزمان طويل.

الثامنة: أن العرب قدروا مبادرة الاعتدال بمقداره الحق من ابتداء القرن الحادي عشر.

التاسعة: أنهم رصدوا اختلاف عروض القمر قبل «تيكو براحة» بأكثر من ستمائة سنة الخ.

قال صاحبي: إن هذه وإن أفادتنا أن علماء أوروبا شهدوا بأن كثيراً من الكشف الذي نسبه رجالهم لأنفسهم هو للعرب ـ وبعبارة أخرى ـ للأمم الإسلامية لا يفيد القارئ فائدة كبرى كما ذكرت أنت لأنها اصطلاحات فلكية ليس يعرفها أكثر الناس، فاذكر بعض ما نبغ فيه العرب على شريطة أن يفهمه الجمهور، وقبل الانتقال إلى الفصل السادس وهو انحطاط التعليم في بلاد الإسلام لتكون المقالة لذيذة مشوقة لنا وللناس.

فقلت: قال «سديو» المذكور ما ملخصه إنهم أتوا بالعجب العجاب:

(١) في الهندسة . (٢) والحساب . (٣) والجبر .

(٤) وعلم الضوء . (٥) والنظر . (٦) والميكانيكا .

(٧) وترجمة هندسة إقليدس . (٨) وغيره مثل تيودوس وأبولونيوس وإيسيقليس ومينيوس .

(٩) وشرحوا مؤلفات أرشميدس في الكرة والأسطوانة واشتغلوا قروناً بدقائق الهندسة .

(١٠) وطبقوا الجبر على الهندسة ، وترجموا كتب «هيرون الصغير» في الآلة الحربية وقطيزيبوس وميرون الإسكندري في الآلات المفرغة للهواء والرافعة للمياه ، وألف حسن بن هيثم في استقامة النظر وانعكاسه في المرايا التي توقد النار .

(١١) وألف الخازن في علم الضوء والنظر ، وكتاباً في انكسار الضوء الخ .

(١٢) قال : وليس للعرب مجرد نقل كتب اليونان حرفياً كما زعم بعض الفرنج ، فإنا لا نشكر علماء بغداد على حفظهم كتب علماء الإسكندرية فقط ، بل مع ما اخترعوه في هذه الفنون ، نحو ما اخترعه البتاني الملقب ببطليموس العرب من استبدال أوتار الأقواس التي استعملها اليونانيون في حساب المثلث بأنصاف الأوتار للأقواس المضاعفة وهي جيوب الأقواس المصورة ، إلى آخر ما ذكر مما لا طائل في ذكره .

وهنا ذكر المؤلف أشياء اخترعها العرب وفاقوا بها اليونان في علم الهندسة والفلك سبق أكثرها وقال في موضع آخر صفحة ٢٤٠ ما نصه : «زعم الفرنج أنه لم يكن فلسفة عربية ، وما ذاك إلاَّ لجهلهم بأشغال العرب ، فإن جميع الدروس بمدارس أوروبا في القرون المتوسطة مستمدة من تآليف العرب الفلسفية » إلى أن قال : «ولا تظن أن العرب اقتصروا على تفسير كتب أرسطو ، بل كانوا يعرفون تآليف أفلاطون وعدة كتب منسوبة إلى فيثاغورس » الخ .

أقول : فاعجب لعالم فرنسي يقول هذا ، وفي ديارنا بمصر من المتعلمين نصف تعليم من ينكرون على آبائهم كل علم وكل فضل ، ﴿ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ﴾[الرعد : ١١] .

(١٣) يقول المؤلف المذكور : إن «إيراتسطينس» اليوناني أول عالم في عصره بالكرة الأرضية واختص بهذا العلم ، ومعلوماته الجغرافية كمعلومات معاصريه يسيرة ، ثم تقدمت العرب في هذا الفن كالفنون السالفة ، وجددوا كتاب المجسطي لبطليموس الذي تنحى اللاتينيون عن طريقته ، وكتاب بطليموس مملوء بالخطأ وقد اعتمده علماء أوروبا أولاً وجعلوه نموذجاً لرسم الخرائط ، وساروا شوطاً بعيداً ، وكان أكثر هؤلاء العلماء يجهلون إصلاح العرب له فساروا على غير هدى ، والإصلاح العربي المذكور كان بأمر المأمون سنة ٨٢٠ ميلادية ، إذ عمل أرصاداً جديدة ببغداد ، وصحح أرصاد المجسطي بالزيج الجديد المحرر في خلافته ، وبهذا رسمت العروض والأطوال بهيئة غير التي كانت في كتاب المجسطي .

(١٤) وأكمل تصحيح المأمون الملك محمود الغزنوي ، إذ أمر البيروني الفلكي بذلك سنة ١٢٠٥م ، وقبل ذلك عمر الخيام ، والإدريسي .

وذكر المؤلف بعد ذلك تقدم العرب في مزايا ما بأرضهم من النبات النافع في الطب والصنائع ، وزينة المعابد والقصور ، قال : والعرب هم الذين اخترعوا «الأجزخانات» الصيدليات الكيمائية ، وهم

الموروث عنهم ما يسمى الآن قواعد تحضير الأدوية الذي انتشر بعد ذلك من مدرسة «سالرنة» في الممالك التي في جنوب أوروبا. قال: واشتغلوا بعلم «الجيلوجيا» علم طبقات الأرض. ثم قال: وبلغت الزراعة أوجها وكمالها، وأحدثوا في إسبانيا السواقي ذات القواديس. هذا ما أردت ذكره في هذا الفصل الخامس.

الفصل السادس: انحطاط التعليم في بلاد الإسلام

والفصل السابع: في اضطهاد العلماء بنظام هذا الوجود

هذان الفصلان تقدما في سورة «الأنعام» عند قوله تعالى: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الآية: ٩١]، وقد أبنت هناك كيف كان المسلمون بعد القرن الخامس يعادون العلوم، وسرى هذا الداء إلى الجيل السابق وابتداء النشاط الآن، ولكن لا بد من ذكر حادثة عجيبة لتكون توطئة للفصل الثامن وهو انتقال العلوم لأوروبا هاربة من المسلمين الذين كرهوها، وهاهي ذه:

اضطهاد ابن رشد في الأندلس

اعلم أن الخليفة الحكم ببلاد الأندلس أخذ كتب الفرس والشام وغيرها، وصار له في الإسكندرية ودمشق وبغداد والقاهرة أناس يبتاعون له الكتب العلمية القديمة والجديدة بأغلى الأثمان، وكان في قصره النساخون والمجلدون والأدباء الصادرون والواردون، وفي مكتبته ٤٠٠ ألف كتاب، ولها ٤٤ مجلداً فهارس فقط، وليس فيها إلا عنوان الكتاب، وهو نفسه يحادث العلماء ويحاورهم في الفنون المختلفة.

ولما تولى هشام ابنه قام حاجبة بالأمر واضطهد الفلسفة والفلاسفة، وأخذ الكتب الفلسفية والمنطقية والفلكية وأمر بإحراقها في ساحات قرطبة، وطرح باقيها في آبارها، فصارت الفلسفة تقرأ سراً، وإنما قصد بذلك استمالة الفقهاء إليه ليوهمهم أنه ناصر الدين.

وهكذا يقال إن سبب سقوط دولة المرابطين بعد ذلك، وقيام دولة الموحدين إنما هو اضطهاد العلوم والحكمة والفلسفة، كل ذلك قبل ظهور العلامة ابن رشد؛ فبلاد الأندلس كانت تسير حسب رغبات من يتولون الأمر إن أحبوا العلم ظهر وإلا اختفى.

هكذا لما تولى الخليفة عبد المؤمن من دولة الموحدين نصر الحكمة والفلسفة كما فعل الحكم في الزمان الماضي؛ فاجتمع في بلاطه: ابن زهر، وابن بجا، وابن طفيل، ثم ابن رشد في عام ٥٤٨ هجرية سنة ١١٥٣ ميلادية، وقد عبر البحر إلى بلاد المغرب «مراكش».

ولما توفي عبد المؤمن خلفه يوسف، وقرّب ابن طفيل إليه، فقدم إليه ابن رشد، فارتفع ابن رشد عند الأمير يوسف وتولى قضاء إشبيلية سنة ٥٦٥ إلى سنة ٥٦٧ هجرية.

ولما تولى يعقوب المنصور بعد ذلك رفع ابن رشد، وفي آخر الأمر وشوا به إليه ونسبوا له أموراً دينية وأخرى سياسية، فقالوا: إنه يجحد القرآن، ويعرّض بالخلافة، وأنه قال ملك البربر، فجمع المنصور فقهاء قرطبة وقرّوا كتب ابن رشد، ثم قرّ الرأي عند الأمير أن ينفي ابن رشد فسكن «إيسانة» وهي قرية قريبة من قرطبة سكانها يهود وكتب منشوراً للأمة بإنشاء كاتبه عبد الملك بن عياش لمنع الفلسفة، وهذا بعض ما نصه:

« قد كان في سالف الدهر قوم خاضوا في بحور الأوهام، وأقرّهم عوامهم بشغوف عليهم في الأفهام، حيث لا داعي يدعو إلى الحي القيوم، ولا حاكم يفصل بين المشكوك فيه والمعلوم، فخلدوا في العالم صحفاً ما لها من خلاق مسودة المعاني والأوراق، يؤمنون أن العقل ميزانها والحق برهانها»، إلى أن قال: « فاحذروا وفقكم الله هذه الشرذمة على الإيمان حذركم من السموم السارية على الأبدان ومن عثر له على كتاب من كتبهم فجزاؤه النار التي بها يعذب أربابه، وإليها يكون مآل مؤلفه وقارئه ومآبه»، إلى أن قال: « والله تعالى يطهر من دنس الملحدين أصقاعكم، ويكتب في صحائف الأبرار تضافركم على الحق واجتماعكم، إنه منعم كبير. اهـ».

والذي نكب في هذا مع ابن رشد؛ محمد بن إبراهيم قاضي بجاية، والقاضي أبو عبد الله بن إبراهيم الأصولي، وأبو الربيع الكفيف، وأبو العباس الشاعر، وقد نفاهم المنصور إلى بلد غير « إيسانة» منفى ابن رشد. وكتب المنصور يأمر الناس بإحراق الكتب سوى الطب والحساب والمواقيت مع أنه كان يدرس تلك الكتب في السر ويخفي الأمر. وقد عفا عن ابن رشد ولم يعش بعد العفو إلاّ سنة واحدة، وتوفي سنة ٥٩٥ هجرية وعمره ٧٥ سنة؛ وكانت وفاته بمراكش، ثم حمل إلى قرطبة فدفن بها في روضة بمقبرة ابن عباس، وبعد ذلك قلّ اهتمام الطلبة بالعلم. وأكبر تلامذته محمد بن حوط الله، وأبو الحسن سهل بن مالك، وأبو الربيع بن سالم، وأبو بكر بن جهور، وأبو القاسم بن الطيلسانة، وغيرهم.

الفصل الثامن: في انتقال العلم إلى أوروبا بعد أن هجره المسلمون

ثم هجر اليهود الأندلس إلى « بروفنسيا» والأقاليم المتاخمة لجبال « البيرنيه» فراراً من الاضطهاد وخالطوا الفرنجة وكتبوا بالعبرية وتركوا العربية، وذهبوا إلى « لوتل» في فرنسا، وهم أسرة طيبون أصلها من الأندلس، وترجم اثنان منهم وهما موسى بن طيبون، وصموئيل طيبون، بعض تلاخيص ابن رشد في فلسفة أرسطو، فهذان أول من ترجم مؤلفات ابن رشد لأوروبا، وكان الإمبراطور « فردريك الثاني» إمبراطور ألمانيا من محبي نشر الفلسفة ومحالفي الإسلام والمسلمين على الإكليروس المسيحي، فعهد إلى بعض اليهود بترجمة فلسفة العرب إلى العبرية واللاتينية، فألف يهوذا بن سليمان كوهين الطلياني سنة ١٢٤٧ م كتاباً سماه « طلب الحكمة»، واعتمد فيه على ابن رشد، فهو أول كتب لابن رشد صدرت بالعبرية، وأيضاً ترجم له يهودي من « بروفنسيا» كان مقيماً في نابلس، وهو يعقوب بن أبي مريم بن أبي شمشون انتولي حوالي سنة ١٢٣٢ عدة كتب من تأليف ابن رشد.

ويقال إن الفيلسوف ابن رشد فرّ من « الياسة» إلى « فاس»، وأن أهلها أمسكوه ونصبوه أمام باب الجامع للبصق عليه عند الدخول والخروج، وقيل غير ذلك، وأن ابن رشد قال: أعظم ما طرأ عليّ في النكبة أني دخلت أنا وولدي عبد الله مسجداً بقرطبة وقد حانت صلاة العصر، فاعترضنا بعض سفلة العامة فأخرجونا منه، ثم إن المحنة لم تدم فإن المنصور عفا عنه وعن سائر الجماعة معه وعاد معه المنفيون إلى بلدهم، ولما نفذ في ابن رشد وتلامذته سهم الحساد أخذ الشعراء المعادون يتهجون، فقال الحاج أبو الحسين بن جبير:

الآن قد أيقن ابن رشد أن تواليفه توالف
يا ظالماً نفسه تأمل هل تجد اليوم من توالف

وقال غيره: لم تلزم الرشد يا ابن رشد لما علا في الزمان جدك
وكنت في الدين ذا رياء ما هكذا كان فيه جدك

ومنها: الحمد لله على نصره لفرقة الحقّ وأشياعه
كان ابن رشد في مدى غيه قد وضع الدين بأوضاعه
فالحمد لله على أخذه وأخذ من كان من أتباعه

ومنها: خليفة الله أنت حقاً فارق من السعد خير مرقى
حميتم الدين من عداه وكل من رام فيه فتقا
أطلعك الله سر قوم شقوا العما بالنفاق شقا
تفلسفوا وادّعوا علوماً صاحبها في المعاد يشقى
واحتقروا الشرع وازدروه سفاهة منهم وحمقا
أوسعتهم لعنة وخزيا وقلت بعداً لهم وسحقا
فابق لدين الإله كهفاً فإنه ما بقيت يبقى

ثم إن كالونيم بن كالونيم بن مير الذي ولد سنة ١٢٨٧ قد ترجم كتب ابن رشد إلى العبرية، وترجم كتاب «تهافت التهافت» سنة ١٣٢٨، وفي القرن الرابع عشر بلغت فلسفة ابن رشد عند اليهود أعلى منزلة، ثم كان «لاون» الإفريقي اليهودي الذي شرح فلسفة ابن رشد كلها وصنع فيها ما صنعه ابن رشد بفلسفة «أرسطو» من الشرح والتلخيص.

وهاك ما قاله «سديو» في هذا المقام: لنتمّ الكلام في مسألة نقل العلوم العربية إلى أوروبا، قال:

ولا يخفى أن الكشف السالف يفيد علم الفلك المشرقي مزية الأصالة والأولية التي لا يستطيع الإمساك عن الإقرار بها أحد من الفرنج الذين كان كشفهم لمعلومات الكتب العربية شاهداً على تقدم العلوم الرياضية عند العرب الذين استفاد منهم اللاتينيون المعلومات، فإن: «جوبرت» الذي كان بابا رومة الملقب بـ«سلوستر» الثاني أدخل من سنة ٩٧٠ إلى سنة ٩٨٠ ميلادية عند الفرنج العلوم الرياضية التي كسبها من عرب إسبانيا. و«اهيلارد» الإنكليزي ساح من سنة ١١٠٠ إلى سنة ١١٢٠ ميلادية في كل من إسبانيا ووادي مصر، وترجم مبادئ إقليدس من العربية بعد أن ترجمها العرب من اليونانية، وترجم أفلاطون المنسوب لـ«طيفوليا» وهي مدينة قرب رومية من العربية الرياضيات الكروية المنسوبة إلى «تيودوز»، كما أن الخواجة «رودلف» أحد أهالي «بروجس» البلجقية ترجم مسائل بطليموس المتعلقة بالكرة الأرضية والسماوية المصورة مبسوطة على خريطة، وهكذا «ليوترد» أحد أهل «بيزا» ألف سنة ١٢٠٠ ميلادية رسالة في الجبر الذي تعلمه من بلاد العرب، وقميانوس من أهل نوارة في إسبانيا ترجم في القرن الثالث عشر كتاب إقليدس ترجمة جديدة وشرحه و«بتليون» البولندي ترجم كتاب الخازن في علم الضوء والنظر، و«جيراد» الكريموني ترجم

المجسطي، وشرح كتاب جابر وغير ذلك، فاشتهر في أوروبا علم الفلك الصحيح، وشهر «الفنس» القسطلاني سنة ١٢٥٠ ميلادية الأزياج الفلكية المنسوبة إليه. والملك «روجير» الأول ملك «السيصيليين» كان مساعداً لعلماء «بسيسيليا» لا سيما الإدريسي، ثم أتى العاهل «فردريك الثاني» بعد «روجير» بمائة سنة فلم يأل جهداً في المساعدة والحث على كسب العلوم والمعارف الأدبية المشرقية، وكان أولاد ابن رشد مستخدمين في ديوانه ويعلمونه التاريخ الطبيعي في النبات والحيوان. انتهى.

وأيضاً قال «سديو»: إن القوانين وهي خمسة كتب لابن سينا قد ترجمت وطبعت مراراً، وكانت مؤلفاته ومؤلفات الرازي تدرس بمدارس أوروبا نحو ستة قرون تقريباً، وكانت وفاته سنة ١٠٣٧ م.

وكتب الفخر الرازي في الطب طبعت بمدينة البنادقة سنة ١٥١٠ ميلادية، وكتب علي بن عباس القاضي، وهي عشرون كتاباً في الطب، وهي التي أهداها إلى عضد الدولة البويهي قد ترجمت إلى اللاتينية سنة ١١٢٧ م، وطبعها ميخائيل كابلا سنة ١٥٢٣ في مدينة «ليون» بفرنسا.

فلما سمع ذلك صاحبي قال: هذا الذي ذكرته أطلعنا على علم جمّ غزير، فلقد كنت مشوقاً إلى أن أعرف كيف انتقل العلم لأوروبا من المسلمين، وكنت أظن أن هذه أقوال مبالغ فيها، ولكني الآن أمام علم جم، فإني رأيت من هذه الأقوال:

(١) أن اليهود بعد موته نقلوا علمه إلى لغتين العبرية واللاتينية.

(٢) وأن فردريك بلك إمبراطور ألمانيا هو الآمر بذلك.

(٣) وأن يهوذا بن سليمان كوهين ألف كتاب «طلب الحكمة» معتمداً على ابن رشد.

(٤) وأن بابا رومة نفسه أدخل علوم الرياضة العربية بنفسه في بلاده.

(٥) وهذا العالم الإنجليزي ترجم الهندسة العربية.

(٦) والعالم البلجيكي والطلياني والإسباني وهكذا، فهذا كاف في هذا المقام، فاذكر لي الفصل التاسع وهو: تفوّق أوروبا في تلك العلوم، فقلت:

الفصل التاسع: في تفوّق أوروبا في العلوم جميعها بعد آبائنا العرب

قد يظنّ ظانّ أن ما قلته سابقاً ـ نقلاً عن العالم الفرنسي «سديو» ـ من أن ما ادعاه الفرنجة من الكشف قد سبقهم به العرب يوجب أن أغمطهم حقهم، كلا، فنحن الآن في تفسير القرآن والقرآن حق ومن لم يجعل الحق ديدنه صرعه الحق، فاعلم أن الفجر الكاذب يظهر قبل الفجر الصادق، قال الشاعر:

وكاذب الفجر يبدو قبل صادقه وأول الغيث قطر ثم ينسكب

ادعى الفرنجة في أول أمرهم أنهم كاشفون لما سبقهم به العرب، ثم جاء بعدهم علماء كشفوا عجائب مما خبأه الله في أرضه، والمتأخرون من المسلمين ساهون لاهون ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾[يوسف: ١٠٥]، هذه أيها المسلمون آثار آبائكم وأنتم خلفهم فماذا عملتم؟ نقلت أوروبا علومكم وأنتم نائمون، أفلا تعقلون؟ أفلا تتفكرون؟ ألم يقل الله: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ﴾[النمل: ٦٩]. أما آباؤنا فساروا ونظروا، والفرنجة ساروا ونظروا عمل آبائكم، فهل أنتم لا تشعرون؟ انظروا أيها المسلمون أنتم اليوم عالة على أوروبا، إنها قد

فتح لها كنز العلم وأنتم نائمون، هاأنا ذا أقصّ عليكم نبأ أهم العلوم التي حدثت في القرون المتأخرة من نحو القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر لتتجلى لكم صورة من العلم قديماً وحديثاً، وأنكم ظلمتم أنفسكم بالجهل وآباءكم بانتسابكم إليهم وهم في قبورهم عليكم محزونون.

علماء القرن السادس عشر

منهم: «تيخو براهي»: المولود في بلدة «نلسترب» جنوبي أسوج في سبتمبر سنة ١٥٤٦، المتوفى سنة ١٦٠١، أثبت أن نور الشمس سبعة ألوان، وأن مواد الأجرام السماوية تشبه أكثرها مواد الأرض، وقد دعاه «فردريك الثاني» ملك الدانمارك فأنشأ مرصداً فلكياً من أعظم المراصد، فبقي عشرين سنة، وزاره الملك «جيمس الأول» ملك الإنجليز في هذا المرصد، وأهدى إليه كثيراً من الهدايا، ووفد بعد ذلك على إمبراطور ألمانيا في مدينة «براغ» فأكرمه، ولكن لم تطل مدته بعد ذلك فمات.

«وليم غلبرت»: عالم إنجليزي، أنشأ علم الكهربائية الحديث، ولد سنة ١٥٤٠ وتوفي سنة ١٦٠٣، فهو الذي عرف أن الكهرباء تكون في الزجاج والكبريت والشمع الأحمر والراتينج والماس، وهذه مبادئ علم الكهرباء التي أكملها العلماء بعده، وقال: إن المغناطيسية والكهربائية من نوع واحد.

علماء القرن السادس عشر والسابع عشر

«غليلو»: هو فيلسوف إيطالي ولد بمدينة «بيزا» سنة ١٥٦٤ ومات سنة ١٦٤٢، نسبوا له كشف رقاص الساعة، وأنه لحظ ذلك في كنيسة «بيزا» إذ رأى القنديل مدلى من القبة وله خطرات متساوية وقد قال «سديو»: كلا ثم كلا، هذا اختراع الحسن بن يونس المصري قبل ذلك بقرون، فهذا مما سميناه الفجر الكاذب، وقد اضطهد لأنه قال بدوران الأرض، ويقول العلماء: كلا، إنها معروفة قبل الفرنجة عند العرب كما تراه في كتاب «المواقف» ففيه دوران الأرض وذلك قبل الأوروبيين بمدة، وقد ذكرت هذا في كتابي «في الفلسفة العربية» وتقدم في «يونس»، وقد أكره غليلو على الحضور إلى رومية وهو شيخ ضعيف سنه ٦٩ سنة، وأمر بالركوع أمام جمهور حافل من المفتشين وغيرهم وعاهدهم على الإنجيل أنه يلعن ويكره دوران الأرض.

كاشف دورة الدم

«هرفي»: ولد سنة ١٥٧٨ في ولاية «لنت» ببلاد الإنجليز وعيّن طبيباً للملك «جيمس الأول» ولخلفه، وتوفي سنة ١٦٥٧.

علماء القرن السابع عشر والثامن عشر

«إسحاق نيوتن»: ولد سنة ١٦٤٢ وتوفي سنة ١٧٢٧، من أكبر علماء الفلك، زعموا أنه كشف الجاذبية إذ رأى تفاحة سقطت على الأرض، ولكن هذا الكشف قد سبقه به العرب بنحو ستة قرون كما أثبتناه في كتاب الفلسفة، ولكن ليس معنى هذا أنه لا فضل له، كلا، فإنه جعل هذه الجاذبية تمتد إلى القمر وبها يدور حول الأرض.

«ديدرو»: مؤلف دائرة المعارف الفرنسية، وهو من عائلة سكنت ولاية شمبانيا بفرنسا، ولد سنة ١٧١٣ ومات سنة ١٧٨٤، وقد ترك كل شيء في حياته إلاّ المطالعة، ولما طرده أبوه دخل بيت

رجل يعلم أولاده، ثم كره ذلك وقال للرجل: انظر إليّ فقد اصفر وجهي اصفرار الليمون، أنا أحاول أن أجعل أولادك رجالاً وهم يحاولون أن يجعلوني ولداً، لست أشكو قلة الراتب ولا سوء المعاملة لأن راتبي أكثر مما أستحق ومعاملتكم لي على غاية الوداد ولا أريد أن أعيش أحسن مما أنا عائش هنا ولكني أريد أن لا أموت. اهـ.

علماء القرن الثامن عشر

«بنيامين فرنكلن»: المتوفى سنة ١٧٩٠ وعمره ٨٤ سنة، من أمريكا، وهو الذي اخترع مانعة الصواعق.

«لافوازيه»: أبو الكيمياء الحديثة، ولد سنة ١٧٤٣ وحكم عليه بالقتل سنة ١٧٩٤ في الثورة الفرنسية، وهو الذي كشف خواص الأوكسوجين، وحقيقة الإشعال للنار، ونسبة السوائل والغازات والجوامد بعضها إلى بعض، وبحث في الحرارة، وتمدد الأجسام وتقلصها باختلاف درجات الحرارة والضغط.

«ماريا أغنس» الإيطالية: فاقت أهل عصرها في العلوم الرياضية، ولدت سنة ١٧١٨ وكان يحضر مجلسها فوق ثلاثين رجلاً من عظماء أوروبا من أمم مختلفة، وتوفيت سنة ١٧٩٩.

علماء القرن الثامن عشر والتاسع عشر

«كولون» الكهربائي: ولد سنة ١٧٣٦ وتوفي سنة ١٨٠٦، هو أول من استعمل الرياضيات في المباحث الكهربائية، فشهرته كلها ترجع إلى ما كشفه في الكهرباء والمغناطيس، فهو الذي قاس قوتها ونواميسها.

«إدورد جنر»: عالم إنجليزي، ولد سنة ١٧٤٩ وتوفي سنة ١٨٢٣، هو الذي كشف تطعيم الجدري، ذلك أن فتاة حلابة للبقر سمعت أناساً يذكرون الجدري، فقالت إنها آمنة على نفسها لأنها عديت مرة بجدري البقر، وسمع ذلك «جنر» فخطر له أن جدري البقر قد يكون واقياً من الجدري الذي يصيب البشر، وأسلم عاقبة من التطعيم بالجدري نفسه، فإذا طعم الإنسان بمادة الجدري من البقر ظهرت فيه بثور قليلة تقيه الجدري في المستقبل، وإذا أخذ المصل من تلك البثرة وطعم به أناس كثيرون وقاهم أيضاً الجدري.

«فلطا» الكهربائي الإيطالي: ولد سنة ١٧٤٥ وتوفي سنة ١٨٢٧، وهو الذي كشف البطارية الكهربائية والرصيف الكهربائي أو الفلطائي، كما هو موضح في هذا التفسير في غير هذا المكان شرحاً ورسماً.

«لامارك»: صاحب مذهب التحول، هو فرنسي ولد سنة ١٧٤٢ وتوفي سنة ١٨٢٩، وهو أول من أطلق على الحيوانات الدنيا اسم «عديمة الفقرات»، وكانت قبل ذلك تسمى ذات الدم الأبيض، ودرس الحيوانات القديمة في الأرض، وله كتاب «فلسفة طبائع الحيوان».

السر «همفري دافي»: ولد سنة ١٧٧٨ وتوفي سنة ١٨٢٩، وهو الذي كشف الصوديوم والبوتاسيوم والسترنتيوم والبازيوم والكلسيوم والمغنيوم، ولما كشف الصوديوم جعل يرقص من الفرح، وكشف النور الكهربائي والأتون الكهربائي كذلك.

مصباح يشرق على العلوم التي كشفها المسلمون والأوروبيون ومنها الكيمياء

فقال صاحبي : صوديوم وبوتاسيوم ، هذه ألفاظ لا تفيد قارئ التفسير ، فأيّ فائدة لقارئ سورة « إبراهيم » من أن يسمعك تقول في رجل إفرنجي إنه كشف الصوديوم والبوتاسيوم ، أسمع المسلمين أقوالاً تفهمهم مقاصد ما ذكرته ، وإلاّ سئم القراء من طول هذا الذي تذكره .

فقلت : هذا من علم الكيمياء .

قال : وما فائدة الكيمياء؟ أليست هي التي تجعل الفضة والنحاس ذهباً؟

فقلت : الكيمياء علم به تحلل المواد فتعرف أصولها فتنتفع بها في جميع أعمالها ، والصوديوم وغير الصوديوم هي الأجزاء التي لها خواص ممتازة في منافعها .

قال : هذا كله لا يفيد .

قلت : فاسمع . قال : سمعاً .

قلت : حياك الله وبياك ، انظر أنت في كل أوقاتك رجل كيمائي وأنت تنكر ذلك ، قل لي رعاك الله : ألسنا نحصد القمح ؟ قال : بلى . قلت : وندرسه ونذروه ونطحنه ونمضغه ويهضم في أجوافنا ويفرّق على أعضائنا كلّ بقدره . قال : ما معنى هذا؟ قلت : نحن ندرس القمح في الجرن بالنورج فيذره مفتتاً ثم نذروه في الريح فنفصل الحب عن التبن ، أما التبن فللبهائم وأما الحب فهو لنا ، ولكننا لا نأكله حتى نلطفه بالطحن ثم العجن ثم الخبز ، ثم تمضغه هو وغيره أضراسنا وأنيابنا وأسناننا ، ثم يدخل المعدة فيهضم ، ثم تجتذبه العروق فيصير دماً يفرّق على الأعضاء كل عضو يأخذ ما يناسبه . إن هذا هو التحليل ولولا هذا التحليل ما قدرت أعضاؤنا أن تتناول أغذيتها من دمنا لأنه لا يكون دم إلاّ بالتحليل المذكور ، فهاهنا : آلات من الخشب والحديد وهي النورج تجرّه الأنعام .

وبهذا يمكننا أن نذروه في الهواء ، فحصل التمييز بين الحب والتبن بهذين العملين ، درسه مقدمة ، وذروه في الهواء نتيجة ، والنتيجة تمييز القمح من التبن ليمتاز غذاء البهائم من غذاء الإنسان وكل يتصرف فيما هو له ، فهذا أشبه بتحليل الكيمياء ، ثم حب القمح يحتاج أيضاً إلى عملين : الطحن بالأحجار الذي يشبه الدرس بالنورج ، والمضغ الذي يشبه ذرو القمح ، فالمضغ يفتت الطعام ، وهكذا أعمال المعدة في هضمه ليأخذ كل عضو من الدم ما يناسبه ، كما أن ذرو ما درس بالنورج يعطي البهائم تبنها والإنسان حبه .

فهاهنا مقدمتان ونتيجتان ولكل نتيجة عمل ، فالنتيجة الأولى : فصلت طعام الحيوان من طعام الإنسان بالحكمة . والنتيجة الثانية : وهي الهضم وغيره ، أعطت لكل عضو من أعضاء الإنسان ما يستحقه من العناصر التي سميناها « صوديوم وبوتاسيوم » وهكذا . فإذا قلنا هذا تبن وهذا قمح بعد الذرو في الهواء للحيوان والإنسان ، فهكذا هنا نقول : هذا بوتاسيوم وهذا صوديوم ، وهكذا في الطعام ، فكل من الأعضاء يأخذ حصته منه بعد الهضم كما أخذ كل من الحيوان والإنسان حقه بعد الدرس والذرو في الهواء .

فقال : حسن قد فهمت ، إذن ما عدد العناصر ؟قلت : عدد العناصر سيأتي في سورة « العنكبوت » فوق ٨٠ وستذكر بأسمائها في جدول هناك .

قال: ولكن الكلام لم يتم. قلت: نعم لم يتم، لأن الذي سمعته أنت إنَّما هو مثل ضربته مما نراه في أنفسنا، وما الأمم إلاَّ كالأفراد، الأفراد التي تحلل القمح بدرسه وذروه وطحنه ومضغه، والأمم تحلل جميع المواد التي نراها، فجميع المواد أشبه بالقمح في المثال المذكور، والتبن والحب أشبه بالعناصر، والآلات التي اخترعها العلماء في معاملهم أشبه بالخشب والحديد في النورج، والخشب وحده في المذرى وحجارة الطاحون والأنياب والأسنان والأضراس لتفتيت الطعام، وبالعناصر التي يستخرجونها يرقون الصناعات والطب وجميع أعمال الحياة، فإذا أخذ كل عضو بعد المضغ في أجسامنا ما يناسبه، هكذا يجعلون عناصر خاصة تناسب الزرع كالقمح والقطن وغيرهما، ويسمونه السماد الكيمائي، وما السماد الكيمائي إلاَّ عناصر استخرجوها كما استخرجت أعضاء أجسامنا عناصر مناسبة لها، كما فصلنا التبن عن الحب فأخذ الحيوان والإنسان كل حظه.

فقال: هذا حسن، أنا الآن أدركت معنى الكيمياء وفهمتها فهماً تعقلياً، زدني زدني.

قلت: أما الآن فإني مبتهج بأنك أدركت ما أردته، وبهذا ارتقوا في الحرب والتجارة وكل أعمال الحياة، وإني أذكرك بما تقدم في «آل عمران». فقال: لا أتذكر فإني لم أقرأ المجلد الثاني من هذا التفسير، ما الذي هناك؟ فقلت: لا أريد التكرار. قال: ولكن ذكرى والذكرى هنا تفيد. قلت: علم الله قبل أن ينزل القرآن أن المسلمين سينامون كما علمت، فأنزل القرآن وجعل في أوائل بعض السور ﴿الٓمٓ﴾، ﴿الٓرٓ﴾ وهذا يشير إلى ما نقوله الآن. علم الله أن أكثر الناس لا يعقلون ما أمامهم، فجميع بني آدم يشاهدون الدرس والذرو والطحن والمضغ ولكن لا يفقهون، وإنَّما أكثرهم أشبه بالآلات الميكانيكية مسخرون في طعامهم، مسخرون في ذرياتهم، مسخرون كما تسخر الأنعام.

هكذا أكثر الناس في أرضنا يشاهدون هذا التحليل الذي يشبه التحليل الكيمائي، بل هو نفسه كيمائي، ولا يفكرون في العالم الذي يعيشون فيه فيدرسوه، كلا، وهو معنى قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾[الأنفال: ٢٤] وقوله: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾[يس: ٩]. لذلك أنزل هذه الحروف في أوائل السور كأنه يقول: أيها المسلمون جهلتم الكيمياء التي تحلل الأشياء وتحققها، فأنا أذكركم بالقراءة والكتابة، إن الطفل لا تتسنى له الكتابة ولا القراءة إلاَّ إذا حلل الكلمات إلى حروفها كما تحلل المركبات إلى عناصرها، فكما أن القراءة والكتابة لا يتمان إلاَّ بتحليل الكلمات إلى حروفها، هكذا هذه المادة وقواها لا ينتفعان بها إلاَّ بتحليلها وإدراك حقائقها، قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾[الرعد: ٨]، وقال: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[القمر: ٤٩]، وقال: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٍ مَّوۡزُونٍ﴾[الحجر: ١٩].

أعمال الناس لا تتم إلاَّ بالتحليل، فلماذا لا تحققون هذه العوالم بالعلوم ومنها الكيمياء، وإن شئت فارجع لما تقدم في سورة «آل عمران». قال: أما الآن فقد فهمت حقاً.

بقية العلوم كالكيمياء ما هي إلَّا تفصيل وتحقيق

ثم قلت: ومثل الكيمياء جميع العلوم، فإذا سمعت العالم «كوفيه» الآتي ذكره قد قسم المرتبة الدنيا من الحيوانات إلى ثلاثة أقسام، ولم تقسم قبله، فهذا يسمى تقسيماً، والتقسيم لبيان المقسم كما أن التحليل لبيان المحلل، وهكذا بقية العلوم كلها لا تخرج عن التقسيم والتحليل، وما

أشبه ذلك، وما هو إلاّ تحقيق الحقائق كمسألة القمح المتقدم، وكمسألة الحروف الهجائية في أول السور. فقال صاحبي: حسن لقد أضاء هذا الموضوع وأشرق وصار ما ذكرته من كشف العلوم المختلفة واضحاً بهذا المقال، فلنرجع إذن لبقية الكلام على علماء أوروبا، فقلت:

« جورج ليويلد كوفيه »: عالم فرنسي توفي سنة ١٨٣٢، ألف كتاباً اسمه « العظام المتحجرة » وآخر اسمه « المملكة الحيوانية » وهو الذي قسم مرتبة الديدان التي تشتمل على كل ما يعرف بذوات الدم الأبيض ـ وهي تقارب نصف المملكة الحيوانية ـ إلى ثلاثة أقسام وهي الحيوانات الصدفية والحشرات التي لا قلب لها، والقسم الثالث هو الشبيه بالنبات.

« جان شامبليون »: فرنسوي الذي كشف لنا كنوز الآثار المصرية، توفي سنة ١٨٣٢ م.

إن علوم مصر بقيت مخزونة قديماً وكان علماؤها يقولون لليونانيين: أيها اليونان أنتم أطفال. وكان بمصر دار كتب في عهد ملوك أهرام الجيزة.

وقال « مانيتون » المؤرخ في القرن الثالث ق. م: إن عدد المؤلفات المنسوبة إلى « هرمس » ٣٥٥٢٥، ولما تمرد المصريون على الإمبراطور « ويكلسيانوس » في القرن الثالث ب.م أحرق جميع المؤلفات المصرية القديمة التي في علم الكيمياء، لئلا يقاوموه في هذا العلم، ولكن بقي في المعابد والأحجار والمباني علوم كثيرة لم يعرفها أحد حتى تعلم اللغة القبطية شامبليون واللغة الهيروغليفية وساعده في ذلك « حجر رشيد » ومسلة « فيلا » المكتوب عليها أسماء الملوك باللغتين الهيروغليفية واليونانية التي يعرفها، فتوصل بها إلى معرفة اللغة الهيروغليفية وساعدته اللغة القبطية، وكافأه لويس الثامن عشر ملك فرنسا بعلبة من الذهب منقوش عليها ما يأتي: « هدية من الملك لويس الثامن عشر إلى شامبليون لكشف الأحرف الهجائية الهيروغليفية ».

فيا سبحان الله ويا سعدانه، كل هذا حاصل والمسلمون ساهون لاهون ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾[يوسف: ١٠٥]. هذه أيها المسلمون أعمال آبائكم الأول، وهذه أوروبا ارتقت، فأما أنتم فنمتم لأن ملوككم قتلوا رجال الإصلاح وأهانوهم واكتفيتم بالشعر والبلاغة.

هذا لويس الملك الفرنسي يكافئ عالماً فرنسياً على ماذا ؟ على أنه كشف رموز المصريين! والله في القرآن يقول: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾[يونس: ٩٢]. عيّرنا الله بالغفلة عن علوم الأمم المصرية التي خبأها في أجداث الفراعنة.

اللهم أنت الحكم العدل، أنت القابض على كل شيء، ينام أهل الشرق جميعاً فتسلط عليهم الفرنج فيفتحون بلادهم كبلادنا المصرية، ثم ينقبون على آثار قد عيّرنا الله بجهلها ورمانا بالغفلة والجمود. اللهم إنك عدل سلطت العلماء على الجهلاء، أليس هذا هو ديننا فكيف نمنا عنه؟ نمنا عما أشار إليه من آثار الأمم ومنها آثار مصر، والله يقول: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾[الحج: ٤٦].

أقول: وبعد هذا التفسير وأمثاله وانتشاره سيقوم أكثر المسلمين قومة واحدة لدراسة هذه العلوم كلها، وتكون الدراسة بوجدان عقلي وديني معاً، وهناك يكون طور للمسلمين لم يعلموه من

قبل، لأن الإسلام دين جديد بكر لم يدرس للآن حق دراسته، ولم تبين مقاصده تبياناً عاماً، وبعد هذا التفسير وأمثاله سيظهر رجال أقوى شكيمة وأعظم قدراً وأغزر علماً من علماء أمم الأرض، ومن يعش يره. اهـ.

«جورج ستفنصن»: ولد سنة ١٧٨١ ومات سنة ١٨٤٨، هو عالم إنجليزي، وهو الذي أنشأ السكك الحديدية في العالم، وقد أنشأ معملاً للمركبات البخارية وأخذ في إصلاحها، وكان المهندسون يفكرون في عمل مركبة نارية تسير على قضبان الحديد بدل مركبات الخيل، ولكن ظنوا أنها تنزلق عن القضبان، ولكنه قال: إن ثقل الآلة تثبتها ولو كانت عجلاتها ملساء، فله الفضل على جميع نوع الإنسان، وقد صار سنة ١٨٣٧م رأس المهندسين لأكثر السكك الحديدية.

أيها المسلمون أليس من العار عليكم أن يكون «ستفنصن» قد نفع العالم كله وأنتم نائمون وتركبون القطار وأنتم عالة على أوروبا. والله إنكم لقوم ساهون لاهون ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]، والله عار وجهل وإثم أن يكون هذا السر ورد به القرآن وأنتم تجهلون. أليس القرآن هو الذي جاء فيه كما سيأتي في سورة «النحل الآية: ٨»: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ بعد أن ذكر الخيل والبغال الخ، يخاطب الناس أيام النبوة فيقول ذلك لأنه لم يأت أوانه ولكن ما عذرنا نحن؟.

قبح الله الجهالة أمّ الخبائث، ولكن إن شاء الله قد جاء وقتكم، فاقرؤوا علوم القوم، وزيدوا للإنسانية علماً حتى تعطوا الأمم كما أعطتكم، وإلاَّ فإني أنذركم صاعقة العذاب الهون بنومكم أجمعين. أيها الناس ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨].

«فراداي»: عالم إنجليزي، ولد سنة ١٧٩١ وتوفي سنة ١٨٦٧، وهو عالم عظيم قد كشف البنزين باستقطاره من الفحم الحجري سنة ١٨٢٥، وكشف قوانين التيارات الكهربائية الحديثة.

أيها المسلمون، هل يجوز أن يكون آباؤنا هم الذين علموا أوروبا كما فهمتم من هذا المقال ونمسي عالة على علمائهم؟ اليوم هذا البنزين أنتم تستعملونه في مركباتكم وفي الآلات الدائرة النافعة أفلا يخجل المسلمون أن يعيشوا ولا عمل لهم إلاَّ أنهم جاهلون. يقول الله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨] بعد الكلام على الانتفاع بالحيوان أكلاً وملبساً وسفراً، ويكون البنزين مما يساعد على السير كالبهائم، والمسلمون لا عمل لهم.

اللهم ضاعت عقول في الشرق، عاشوا وماتوا وهم لا يعقلون صم بكم عمي فهم لا يرجعون ولكن سيعوض أبناؤنا ما فقدناه ويرجعون من المجد والشرف ما أضعناه.

«اريان لفريه» الفلكي الفرنسي: ولد سنة ١٨١١ وتوفي سنة ١٨٧٧، هذا العالم هو الذي كشف السيار نبتون الذي بعد السيار أورانوس الذي ذكر في مواضع من هذا التفسير، هنالك تسابقت جمعيات أوروبا إلى تسجيل اسمه بين أعضائها، وأرسل له ملك الدانيمارك برتبة عظيمة تشرّفه، وصنع جداول لتسيير السفن في البحار.

أيها المسلمون، أوليس مما يؤلمني جدّ الألم أن الله يذكر لنا في القرآن أنه سخر لنا الفلك في البحر لنبتغي من فضله، ويقول: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]، فأين الهداية التي

استخرجناها، وهل نكون جميعاً عالة على أوروبا براً وبحراً ؟ أليس هذا كتاب ربنا ؟ إن المسلمين ساهون لاهون ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٥] يفرح الأوروبيون جميعاً بعالم نبغ فيهم، والشرقيون متقاطعون؛ لا يدري أهل مصر ماذا في الأقطار الأخرى، فلا تعارف، ولا توادّ، ولا تناصر، بل الجهالة مستحكمة، ولكن هذا أوان النصر، ﴿ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾[الشرح: ٦]، وهذا التفسير من مبشرات النهضة والإصلاح والمسلمون قريباً جداً سيستيقظون في جلّ الأقطار.

علماء القرن التاسع عشر

« تشارلس دارون »: ولد سنة ١٨٠٨ ومات سنة ١٨٨٢، مذهبه مكمل لمذهب « لامارك الفرنسي »، وملخص المذهبين معلوم يرجع إلى أن عالم الأحياء من النبات والحيوان سلسلة واحدة متصلة أعلاها بأدناها، وهل هي مشتقات بعضها من بعض أم هي مخلوقة خلقاً أولياً ؟ وهذا النزاع تجد الفصل فيه في سورة « آل عمران » في أوائلها فارجع إليه إن شئت.

« بوسنغولت » الكيماوي الفرنسي: ولد سنة ١٨٠٢ وتوفي سنة ١٨٨٧، كشف العناصر التي تتألف منها النباتات المختلفة وكيفية دخولها في تركيبها. فقال صاحبي: هذا مثل ما فهمنا فيما تقدم عند الكلام على الكيمياء. قلت: نعم، كمثل مسألة الطحن والخبز والمضغ الخ. فقال: الأمر واضح.

« مارية متشل » الفلكية الأمريكية: ولدت سنة ١٨١٨ وتوفيت سنة ١٨٩٨، برعت في الفلك وكشفت نجماً جديداً من ذوات الأذناب، وكانت تقضي الليالي على سطح بيتها ترصد الأفلاك وترقب السماء، وانتخبت عضواً في أكاديمية العلوم والفنون الأمريكية.

« شليمن » الأثري الألماني: توفي سنة ١٨٩٠، عشق في صغره كشف خرائب « طروادة » التي وردت في أشعار « هوميروس »، فوجد أسلحة وأمتعة وحلي فضية وذهبية، وعرف قبر « أغاممنون » في جهات مسيني التابعة لبلاد اليونان، وذكر أنه رأى عجائب ذهبية وأواني وحلي كثيرة جداً لا محل لذكرها.

الأستاذ « تندل »: عالم إنجليزي ولد سنة ١٨٢٠ وتوفي سنة ١٨٩٣، قد كشف خواص عجيبة في النور والحرارة والخمير والاختمار والمغناطيس والحيوانات الذرية « المكروبات ».

الدكتور « هنري رولنصن » الإنكليزي: ولد سنة ١٨١٠ وتوفي سنة ١٨٥، هذا العالم أشبه بالعالم « شامبليون الفرنسي » كشف مخبآت في الشرق، والمسلمون نائمون كأنهم لم يقرؤوا القرآن فهم ساهون لاهون ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٥]. وهذا التفسير إن شاء الله وأمثاله سيكون مشيراً للعزائم مرقياً للشعوب الشرقية منمياً للعلوم، أنا بذلك موقن أشد الإيقان ولا أدري ما سببه ؟ ولكن هذا هو الوجدان ولا يعلم الغيب إلاّ الله. كان يعرف اللغة الفارسية والبابلية والمادية، فقرأ بهذه اللغات على صخر عظيم في باغستان على بعد ٢٢ ميلاً من « قرمان شاه » إلى الشرق منها، وهذا الصخر ارتفاعه ٧٠٠ قدم، فوجد أنها من أيام « داريوس هستاسيس » سنة ٥١٦ قبل المسيح، ووجد في الكتابة اسم « داريوس » ونسبه وغزواته وممالكه وصورته وقوسه وتاج ملكه الخ، وفعل في الآثار الآشورية مثل ذلك، فحقر المناصب

الرفيعة واشتغل بالعلم، وحلّ رموز الكتابات الآشورية والبابلية المكتوبة بالقلم السفيني، وعلماء إنكلترا وألمانيا مجمعون على أنه أول من حلّ الرموز السفينية.

الأستاذ «دانا» الأمريكي: توفي سنة ١٨٩٥، كان من المحققين في علم طبقات الأرض «الجيلوجيا» و«المترولوجيا» أي: علم المعادن. له كتابان في علم المعادن وكتاب في «الجيلوجيا» وعرف مذهب داروين، وقال: إن الإنسان لم يرتق إلاّ بقوة فوق القوى الطبيعية، لأن الكون متوقف على إرادة خالقه.

«لويس باستور»: هو فرنسي توفي سنة ١٨٩٥، وهو كيمائي وله الفضل في البحث عن التولد الذاتي والاختمار والجراثيم المرضية.

السر «جون لوز»: المتوفى سنة ١٩٠٠، وهو إنجليزي، عالم مغرم بعلم الكيمياء، وقد خدم بها الزراعة ونحن في الشرق لاهون. وقد امتحن الأسمدة المختلفة بالمزروعات فرأى أن العظام تفيد اللفت إذا كان في أرض ضعيفة بخلاف ما إذا كان مزروعاً في أرض قوية، فإنها لا تفيد، فعالج العظام بزيت الزاج «حامض الكبريتيك» فزادت فائدتها للأرض، ثم عالج الأتربة الفسفورية بزيت الزاج فصارت سماداً نافعاً جداً.

هذه صورة مما يتضمنه قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [الآية: ٥]، وقوله في آخر السورة: ﴿وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الآية: ٥٢].

هاأنا ذا أيها المسلمون ذكرتكم بأيام الله في العرب قبل البعثة، وكيف كانوا متفرقين أذلاّء ثم كيف جمعهم الإسلام، ثم كيف فتحوا البلاد، ثم كيف ارتقوا في العلوم والصناعات وترجموا الكتب ثم كيف اضطهدوا العلم والعلماء، ثم كيف فرّ العلم منهم على يد تلاميذ ابن رشد وغيرهم إلى أوروبا مثل بابا رومة وعلماء الأمم من الإنجليز والبلجيكيين الخ، ثم كيف ادعى قوم منهم أن ما نقلوه عن آبائكم كشف لهم، ثم كيف ارتقى القوم في فروع الحياة كلها مما لم يحلم به آباؤنا كقطرات السكك الحديدية والآلات البخارية، وكنحو البنزين والسماد وقتل الحيوانات الذرية وما أشبه ذلك. أما أنتم أيها المسلمون فإنكم قوم ساهون لاهون ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

قال صاحبي: كفى هذا في الفصل التاسع الذي جاء في ذكر ارتقاء أوروبا وأمريكا في العلوم.

قلت:

الفصل العاشر: في نتائج جهل المسلمين وغفلتهم

اعلم أن نتائج هذا الجهل الفاضح في الأمم الإسلامية المتأخرة ظاهرة للعيان، فهانحن أولاء في مصر قد أصبحت الأمم كلها آخذة في الرقي، وقد ألغيت الامتيازات الأجنبية من بلادهم إلاّ عندنا.

قال صاحبي: نريد أن تذكر ما مضى في التاريخ.

فقلت: لأقتصر على ثلاث حوادث، وهي:

سقوط الدولة العباسية، وسقوط الأندلس، واحتلال الفرنسيين أولاً والإنجليز ثانياً لبلادنا المصرية.

الحادثة الأولى: سقوط الدولة العباسية

إن الدولة العباسية إنّما سقطت لجهل المسلمين وقلة تبصرهم. واذكر لك حديثاً في ذلك وسيأتي في آخر سورة «الكهف» عند الكلام على يأجوج ومأجوج وأسباب هجوم المغول والتتار على البلاد الإسلامية، وأن قطب أرسلان قتل بإغراء التجار من أرسلهم جنكيز خان من التجار العظام بخطاب من عنده للتعامل معهم، وكان معهم أموال كثيرة، فلما قتلهم وأخذ مالهم أرسل له جنكيز خان رسلاً آخرين فقطع آذانهم، فلم يسع جنكيز خان إلاّ أن أرسل جيشه كالجراد المنتشر، ولما بدت طلائعه وظهروا للمسلمين أنصبوا جيوش الإسلام، هناك سقط في أيدي عظماء الدولة، وعرفوا أنهم لا علم عندهم بالقوم، وأنهم حقروهم لجهلهم بهم، وكان ما كان من خراب تلك الممالك الشاسعة، وجاست تلك الجيوش خلال الديار، وكانوا كثيراً ما يهلكون الرجال والنساء والأطفال والبهائم والآلات التي تستعمل في البلاد انتقاماً، كما ستراه هناك في سورة «الكهف». أتدري لم هذا كله؟ لأمرين: الظلم والجهل، لأنهم لو عرفوا جغرافية البلاد التي تجاورهم لكانوا قدّروا القوم حق قدرهم.

إن علم الجغرافية فرض كفاية، فلو كان في البلاد طائفة تعرف الكرة الأرضية معرفة جيدة سياسية وزراعية الخ، لكان هؤلاء العلماء قدموا للأمير تقريراً عن قوة تلك البلاد وأفهموه الحقيقة، ولكنهم كانوا قد تركوا العلوم كما قدمناه وعدوها من سقط المتاع، واقتصروا غالباً على علم الفقه، فنزلت بهم الطامة وهم لا يشعرون، ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾[يوسف: ١٠٥].

الحادثة الثانية: سقوط الأندلس

علمت مما تقدم أن المسلمين في الأندلس أسقطوا كرامة ابن رشد، وأن الملك أصدر منشوراً بذم العلوم الحكمية، وقد أخذت ريح العلوم في الشرق والغرب تركد، وكان المسلمون بحال واحدة فهم في الشرق والغرب سواسية، وكما نزلت صاعقة العذاب الهون بالمسلمين في الشرق أخذتهم الرجفة في الأندلس، وسترى من أسباب ذلك في سورة «الشعراء الآية: ٢٢٤- ٢٢٥» عند قوله تعالى: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ أنهم عكفوا على الشعر وتفننوا فيه، وأهل إسبانيا عكفوا على الفكر والعلم والحكمة. ولما تخاذل ملوك الأندلس في أواخر أيامهم واختلفوا وصار كل منهم يلجأ إلى من جاورهم من ملوك الإسبان حلت بهم الأوصاب.

من ذلك أن الملك فردينند أتى بثمانين ألفاً أمام أسوار غرناطة وطلب من أبي عبد الله تسليمها فقام الرجال والنساء والأطفال والشيوخ وجدّوا في التحصين إلى أن يئسوا، فخرجوا لحرب النصارى مجازفين، فهزمهم عسكر فردينند فرجعوا، فطلب هذا الملك من أبي عبد الله أن يسلمه المدينة بعد شهرين إن لم يأت إليها مدد، فلم يأت لهم إلاّ من القسطنطينية إذ جاءت سفن ضربت السواحل، ولكن أبا عبد الله لم يصبر حتى يجيء الموعد إذ خاف من قيام أهل البلد عليه، ولم يسلم المسلمون إلاّ على شروط مثل: حفظ الحرية والأموال والإعلان بشعائر الدين والخراج، ولكن قد نقض ذلك كله فردينند وانتهى ملك العرب الممتد من سنة ٧١٠ إلى سنة ١٤٩٢ ميلادية، أي ثمانية قرون.

ولما ولي شرلكان كرلوس الخامس سنة ١٥٢٤ ألزم أعيان النصارى المسلمين بالتنصر، وما زالوا في أخذ وردّ حتى أخذ رئيس أساقفة غرناطة أمراً من الملك فيليبس الثاني بمنع اغتسال المسلمين من الحدثين، والرقص المغربي، واستعمال اللسان العربي وخروج النساء مبرقعات، فأبى المسلمون وشهروا السلاح وعقدوا مودة مع مغاربة أفريقيا فتبعهم النصارى فالتجؤوا إلى الجبال مع قائدهم محمد بن أمية من نسل الخلفاء الأموية، واستمرت الحرب سنين حتى ظهر شقاق بين المسلمين، وذبح محمد بن أمية وخلفه عبد الله فأخذ منه النصارى سنة ١٥٧٠ معظم عساكره، وبعضهم ذهب إلى أفريقيا وشتت النصارى شمل المسلمين في الأقطار تحت المراقبة.

ولما اشتد الكرب على المسلمين دفعوا سنة ١٥٩٢ إلى الملك فيليبس الثاني ثمانمائة ألف دينار ليخفف عنهم، فقبضت الحكومة يدها عنهم ولكن الرعية ما زالت وفي يدها اليمنى السيف وفي اليسرى الصليب لمطاردة المسلمين.

ثم أمر الملك فيليبس الثالث سنة ١٦٠٩ بطرد مسلمي «والنسة» و«مرسية» فنقلتهم السفن إلى سواحل أفريقيا، وبعضهم اجتاز جبال «برنيه» فقبل نزولهم في فرنسا ملكهم «هنري الرابع» وجاد على بعضهم بالمسكن والمزرعة، وعلى بعض آخر بوسائل السفر في البحر إلى «مينا غينة» و«مينا لنجدوق».

ويقول «سديو»: إن المسلمين الذين بقوا في إسبانيا بعد فتح غرناطة، أي من سنة ١٤٩٢ إلى سنة ١٦٠٩ ثم طردوا بعد ذلك، كانوا ثلاثة ملايين وهم كانوا نخبة المسلمين وأعظمهم صناعة، ثم قال ما نصه: «فدرست معالم عز إسبانيا وكذا فرنسا بطردهم من مدينة «نتنس» سنة ١٦٨٩ المعتزلين مذهب «الفاثوليقية» ذوي الصنائع العظيمة فتأمله».

هذه هي النتائج التي وصل إليها إخواننا المسلمون من أبناء العرب ذلك لأن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

الحادثة الثالثة: دخول الفرنسيين مصر

طاحت الممالك الإسلامية في الشرق وضاعت في الغرب ومصر في الطريق بين البلدين، ولكن الأمم الإسلامية في تلك القرون ذهب منها المصلحون، ذلك أنه كلما نبغ نابغ أصبح بين فكي الأسد يمضغه الحاكم المستبد، ويجرحه العوام الجهلاء، فالحكام يخافون على ملكهم من طلاب الإصلاح والعامة جهال لا يدرون شيئاً، فيقول لهم الفقهاء: إن هذا مارق من الدين، فيضيع بينهم.

إن الله خلق في كل أمة وكل جيل نابغين، وهؤلاء في الإسلام كانوا لا يجسرون على رفع أصواتهم من صولة الحكام وجهل الفقهاء القائمين بأمر الدين، ولكن هذا هو الزمان الذي نرفع فيه صوتنا، ولا رادّ لأمر الله، ولا بد من رقي في أمة الإسلام في هذا الزمان، لهذا كله لم يعتبر المسلمون وكيف يعتبرون وقد مات المصلحون إذ كفرهم الجاهلون، فانظر ماذا حصل واعتبر وفهم المسلمين ذلك.

إن ما حصل من دخول التتار والمغول بلاد الإسلام في القرن السابع الهجري؛ هو نفسه الذي حصل عند دخول الفرنسيين مصر في القرن الثالث عشر الهجري، ذلك أنه كما أن المسلمين كانوا يجهلون الممالك المتاخمة لهم مساحة وسياسة وعَدداً وعُدداً، هكذا كان القوم في مصر، وإليك البيان:

جاءت مراكب إنجليزية يوم الثامن من محرم سنة ١٢١٣ إلى ثغر الإسكندرية، وأرسلوا رسولاً إلى السيد محمد عبد الكريم ـ الذي هو القائم بالأمر ـ فقالوا: إنا علمنا أن الفرنسيين يريدون مهاجمة بلادكم فجئنا لنمنعهم ولعلهم قادمون بعد قليل، ونحن نريد أن نبقى في البحر بعيداً ونأخذ الزاد بالنقود منكم، فردّهم محمد عبد الكريم بخشن القول، فتركوهم وسافروا، والأمراء لم يهتموا بشيء من ذلك اعتماداً على قوتهم وأنه إذا جاءت جميع الإفرنج لا يقفون في مقابلتهم وأنهم يدوسونهم بخيلهم.

وفي يوم ٢٠ منه جاءت المراكب الفرنسية وطلعت إلى الإسكندرية، فانهزم المصريون حالاً وأحرقت مراكب مراد بك ورئيس الطبجية خليل الكردي، فولى مراد بك هارياً، أما في الجامع الأزهر فكان المشايخ يقرؤون البخاري وجميع مشايخ الطرق يذكرون اسم «لطيف» أو نحوه، ثم دارت الحرب ثلاثة أرباع ساعة بجوار القاهرة، فغرق كثير من الخيالة في النيل، وهكذا سلمت البلاد لهم.

وقد جرت حادثة، وهو أن الطاعون فشا في البلاد المصرية فأمروا بأن الناس لا يدخلون بيتاً فيه مصاب ولا يخرجون منه، وأرادوا عمل الحجر الصحي.

ولا جرم أن هذا نفسه هو الوارد عن عمر رضي الله عنه، وقد سمع الحديث الشريف في ذلك أي: «إن الطاعون إذا كان ببلد لا ندخله وإذا كنا فيه لا نخرج منه».

فلما أمر الفرنسيون بالحجر الصحي اعتبر المصريون أن هذا عقاب، وقد أرسل لهم قائد الجيش خطاباً يتضمن الحجر الصحي «ذكره الجبرتي في تاريخه». ولما شرع الفرنسيون ينظمون الأعمال الصحية بحيث يحرقون ثياب المطعون وفرشه ثم لا يقرب من الميت أحد، قال العلامة الجبرتي: فاستبشع الناس ذلك وأخذوا في الهرب والخروج من مصر إلى الأرياف.

هذا ما أردت نقله لتعلم أيها الذكي إلى أيّ حد بلغ جهل المسلمين ونومهم العميق، فلا العدو يعرفون قوته، ولا بالعمل بالحديث في أمر الصحة قاموا، ومسألة الحجر الصحي حق بلا جدال، والمسلمون إذ ذاك ساهون لاهون، ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾[يوسف: ١٠٥]. هذا ما كان في حادثة الفرنسيين.

أما دخول الإنجليز مصر

فإنه معلوم مشهور، ولكن أذكر حادثة واحدة أخبرنا بها أستاذنا الشيخ حسن الطويل رحمة الله عليه، قال: كان الشيخ أبو خطوة جالساً في مجلس عرابي باشا الوطني وقت الحرب مع الإنجليز، فقال الشيخ أبو خطوة: يجب إقفال القناة. فقال عرابي باشا: إن السياسة ليست في المحفظة. فقال الشيخ أبو خطوة: أنا آخذ المحفظة وأقوم، ثم إن الإنجليز لم يدخلوا إلاَّ من القنال، والسبب في ذلك أن رجال فرنسا ضمنوا لعرابي عدم دخول الإنجليز بمراكبهم من القنال، فوثق عرابي بذلك ولم يثق الشيخ أبو خطوة.

ولقد قرأت في كلام «ابلانت» الإنجليزي في هذه الحادثة أن المصريين لو أنهم أقفلوا القنال لم يدخل الإنجليز مصر إلى الأبد، وإنَّما دخلوها بحيلة فوهبوا السفن لخديوي مصر، وبعد أن دخلوا استردوها منه حتى يقولوا: ما دخل بلادكم إلاَّ سفن الخديوي لا سفن الإنجليز. هذه عواقب الجهل بالأمم وبالعلوم، ﴿ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾[الحج: ٤١].

أيها المسلمون، هاأنا ذا ذكرتكم بأيام الله فينا وفي أسلافنا، فلتذكروا أممكم بعدنا بكتب ورسائل ولتتفقهوا سنن القرآن إذ ذكر بما وقع في غزوة أحد وغيرها، عاملين بقوله تعالى: ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [إبراهيم: ٥]. اهـ.

تتمة وشرح لما تقدم، تذكير للمسلمين بالقرآن

قلنا فيما تقدم: إن سورة «إبراهيم» مبدوءة بالتذكير بأيام الله، ومختومة بقوله تعالى: ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [إبراهيم: ٥٢]، والألباب جمع لب واللب غير القشر، فالعقول قسمان: عقول هي القشور وعقول هي اللباب، وهذه الثانية تبحث في حقائق الأشياء، فليرجع من بعدنا من المسلمين إلى أسباب زوال الممالك الإسلامية، السبب أمران: الجهل، وترك الشورى.

انظر إلى ما يقوله المؤرخ الفرنجي المذكور، يقول: إن الأساطيل الإسلامية وصلت إلى مصابّ نهر السند، وأخذ عبد الله بن عامر بلاد كرمان وسجستان، إلى أن قال: وبعث إليّ ملك الصين اثني عشر سفيراً وهدّده بالإغارة، فغمرهم بعطايا الذهب الوافرة لشرهم، وانتشرت اللغة العربية ودين الإسلام بالتدريج حتى زالت ديانة البوذية، وقد ظهرت الجيوش الإسلامية على شواطئ نهر الكنج.

هذه حالهم في الشرق. فأما حالهم في الغرب فإنهم توغلوا في إسبانيا وأخذوا إقليم «برغونيا» وبلغوا مدينة «طلوشة» تحت تلك البلاد سنة ١٠٣، فهزموا فارتدوا إلى شواطئ نهر الرون والسين وأخذوا مدينة «بونة»، ودفع الجزية أهل «سنس» و«البيجو» الخ.

أنا لست الآن في مقام الاستحسان أو الاستقباح، إنما أنا الآن أذكر ما حصل لآبائنا شرقاً وغرباً، ثم ماذا حصل بعد ذلك؟

هاأنت ذا رأيت كيف أصبحت حالهم بعد ثمانية قرون، هاهم أولاء في البادية كما كان آباؤهم قبل النبوة، ومن تحضر منهم فإنه تحت حكم دولة من دول أوروبا.

ثم انظر هاتين الحالين: حال العزة أولاً، والذلة ثانياً، ووازن بينهما وبين حال العالم أولاً وثانياً. انظر كيف يقول في صفحة ١١٠ من الكتاب المذكور: إن المأمون لما تولى استدعى من القسطنطينية عالماً يسمى «ليون»، فأبى «توفيل» ملك القسطنطينية، فكان بينهما سنة ٨٢٠ ميلادية حرب نصر فيها «توفيل»، وتوفيل هذا هو الذي طمع بعد ذلك في إرجاع ما أخذه العرب منه فحارب المعتصم سنة ٨٣٦، وخرب مدينة «سوزوبترا» مسقط رأس المعتصم، وذبح جميع رجالها، فسبب ذلك أن أخذ المعتصم عمورية سنة ٨٤٠ ميلادية وفعل ما فعله «توفيل». فانظر ووازن بين المأمون وبين يعقوب المنصور، فالأول حارب الروم لأجل عالم منهم، والثاني طرد وأهان العالم وهو ابن رشد، فارتقى الملك في أيام الأول وانحط بعد زمن الثاني.

إذن ما السبيل لرقي المسلمين؟

السبيل أن تعدل الأمة عن النظام الحالي، فإن كل مصيبة حلت بالأمة نتجت من جهل الملوك والأمراء وعدم اعتنائهم بالشورى، فمتى مات الأمير وخلف الملك لولد غير رشيد ضاعت الدولة، فهي أبداً تبع الأمير جهلاً وعلماً، فلا سبيل لرقي الشرق إلاّ أن يكون النظام في الملك بقانون مسنون،

وأن يكون هناك مجلس له الكلمة النافذة في أمر الوراثة ونظام الملك، وأن يقيد الملوك كما قيد ملك الإنجليز بحيث يكون الأمر لأهل الحل والعقد.

هذه هي السبيل لنظام الأمة الإسلامية في مستقبل الزمان. هلموا يا أبناء العرب واسمعوا قولي: انظروا إلى أخلاق آبائكم الأقدمين وأخلاقكم اليوم، آباؤكم كانت لهم السلطة على أمم الشرق والغرب كما بينا، فلما زالت دولهم الملكية بقيت دولهم العلمية.

فانظروا ماذا يقول العلامة الفرنسي المذكور في المبحث العاشر وغيره: إن مدنية العرب لم تذهب بذهاب دولهم، فذكر في هذا المقام أن الأتراك والمغول لما أغاروا من شمال آسيا على غربها وشرقها حفظوا مدنية العرب وعلومهم:

(١) فقد أحضر السلطان محمود الغزنوي إلى ديوانه العلامة البيروني من سنة ٩٩٧ إلى سنة ١٠٣٠.

(٢) وجمع جلال الدين ملكشاه السلجوقي أفاضل العلماء من سنة ١٠٧٢ إلى سنة ١٠٩٢.

(٣) وأحضر هولاكو خان المغولي إلى ديوانه حين تغلب على بغداد سنة ١٢٥٢ ميلادية نصير الدين الطوسي الذي قلده إدارة المرصد الجديد بالمراغة.

(٤) ونقل جمال الدين الفلكي مع الخان «كوبلاي» علوم العرب إلى مملكة الصين.

(٥) وحث محمد الناصر بن قلاوون أحد السلاطين المماليك بمصر رعاياه على اكتساب المعارف من سنة ١٣١٠ إلى سنة ١٣٤١ ميلادية.

(٦) وأسس «أولغ بك» التتاري في القرن الخامس عشر مرصداً بدمشق، وأبقى في أزياجه من الآثار الفلكية ما يشهد بعلو همته وحسن قريحته.

(٧)وقد كان بعد «هولاكو» بقرنين عائلة تيمورلنك، إذ كان ولده «شاه روح» وحفيده «أولغ بك» المتقدم ذكره وارثين لما في المدرسة البغدادية العربية من العلوم والفنون.

(٨) ثم كان زمن الأولين من السلاطين العثمانية علماء برعوا وألفوا كتباً باللغة العربية والفارسية فكان لديهم آخر أشعة شموس العلم التي ختم بها ذلك العصر المديد.

(٩) وإن تعجب فعجب ما نسمع عن «هولاكو» المتقدم الذي أغدق على العلامة نصير الدين الطوسي المال، فجمع الكتب الفلكية من خراسان والشام والموصل وبغداد، وبنى المرصد المتقدم وجعل في قبته ثقباً تدخل منه أشعة الشمس، وبهذه الأشعة تعرف الدرجات والدقائق في سيرها اليومي وارتفاعها كل فصل، وجعل في هذا المرصد دوائر رصد كبار أو أرباع دوائر وكرات سماوية وأرضية وسائر أصناف الإسطرلاب.

(١٠) هذا ما كان من أمر آبائكم العرب خاصة والمسلمين عامة، الذين أصبح علماؤهم علماء عربية بغض النظر عن الأصل. كان لهم الملك أولاً فلما ذهبت دولهم صار العلماء قائمين بالعلوم عند المتغلبين، فماذا تم بعد ذلك؟.

قال المؤرخ المذكور: تأخر العرب الآن من التدخل في انقلاب الممالك الشرقية، وسكنوا المدن المتباعدة عن بعضها في «بحيث» جزيرتهم، ولزم عرب الشام ونجد عوائد الأجلاف كأنهم نسوا مآثر آبائهم.

ثم قال: وأخذ أهل حضرموت وعمان والبحرين يتمتعون بثمرات المعاملات التجارية مع أهل الهند ويغوصون على المرجان بقرب سواحل الخليج الفارسي، ووفد السياحون وتجار العرب إلى شرقي أفريقيا وجزائر بحر الهند وسواحل مالابار والممالك الممتدة إلى ملقا، بل ذهبوا إلى الصين. قال: ولم يزالوا إلى الآن ينشرون فيها عقائدهم وعوائدهم وتصوراتهم.

من آثار الجهل في أمم الإسلام زمن الانحطاط أنك ترى أن البربر في شمال أفريقيا كانوا هم والعرب إخواناً أيام موسى بن نصير وطارق بن زياد، ولما طرد النصارى في إسبانيا العرب سنة ١٦٠٩ من بلادهم إلى بلاد البربر بشمال إفريقيا لم يأذنوا لهم أن يتوطنوا في البلاد حتى أخذوا ما معهم، ثم عاملوهم معاملة الأعداء، ولم يزالوا كذلك تحت حكم الأتراك وهم قريب من ثلث أهل البلاد حتى سكن قليل منهم مراكش تحت حكم الأشراف، واختار أكثرهم العيشة البدوية والاستقلال بحكم أنفسهم، فسكنوا الصحارى، و﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ﴾[الروم: ٤].

هذه صفحة تامة من تاريخ آبائكم، حفظوا الملك ونشروا العلم إلى زمن قريب، ثم دالت دولة العلم بعد دولة الملك، وسكنوا الأكواخ بعد القصور، فهل من أبناء الإسلام والعرب من فتيان صدق يرجعون مجداً مضى، وتاريخاً قضى ويعيدون التاريخ؟.

هاأنا ذا بيّنت لكم في هذا التفسير خلاصة العلوم وخلاصة الدين وخلاصة تاريخ الآباء وخلاصة ما أحاط بكم من رفعة وضعة، أفلا يكون هذا تفسيراً لقوله تعالى: ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾.

أفليس منكم يا أبناء العرب ويا أبناء الإسلام رجال ينطبق عليهم قوله تعالى في آخر السورة: ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾؟ فهذه هي ذكرى أيام الله، ومن اطلع على هذا التفسير وفهمه فهو حقاً من أولي الألباب.

إن من أعجب العجب أن تشتمل هذه السورة على قصص إبراهيم الخليل، وعلى ذكر أبنائه العرب، وعلى الرسول العربي صلى الله عليه وسلم، وعلى ما دعا به ربه من قوله: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى ﴾[إبراهيم: ٣٧] الخ، ومن قوله: ﴿ وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾[إبراهيم: ٣٥].

النهي عن عبادة الأصنام

دعا الخليل عليه السلام أن يجنب الله أبناءه عبادة الأصنام، إن عبادة الأصنام تحصر الفكر في المعبود، والله عزّ وجلّ خلق الكواكب والنبات وكل ما على الأرض، فالاقتصار على مخلوق واحد والتقرب به إلى الله دلالة على قصور العقول، فعبادة الأصنام مذمومة لأن الله له هذا العالم كله، فليقرأ المسلمون العلوم كلها كلّ بقدره منهم، والاقتصار على القشور من العلوم وترك بقيتها تشبه من بعض الوجوه عبادة الأصنام من حيث حصر الفكر.

إننا معاشر المسلمين الآن مؤمنون بالله، ولكنا حصرنا عقولنا في علوم ضئيلة، فلذلك تفرقنا شذر مذر، وحكمتنا الأمم التي كنا نحكمها، وطاحت منا العلوم وذهبت إلى أوروبا وأمريكا واليابان والله يقلب الليل والنهار، وسيرجع مجد العرب والمسلمين أوفى وأعظم وأشرف من مجد السابقين ﴿ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾[الحج: ٤١]. اهـ.

لطيفة في قوله تعالى: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ الخ

اعلم أن التوكل له فائدتان كما قاله علماؤنا:

الأولى: أنه يورث راحة القلب في الحال.

الثانية: أن الله يتولى تدبير الأمر المتوكل فيه بشرط أن يفعل العبد كل ما يقدر عليه فيه علماً وعملاً. ويعين على التوكل ما رأيته في كلام علماء عصرنا تحت هذا العنوان.

القلق واضطراب البال وأثرهما في الصحة والعمل

كان الدكتور «لايمن بيتشر» يقول: «لا يموت المرء من الجد في العمل ولكنه يموت من الهم والقلق، كما أن الآلة لا تؤذيها الحركة ولكن يليها الاحتكاك ويلحق بها ضرراً عظيماً». ومما لا ريب فيه أن النائبات والشدائد الجسيمة لا تقوى على تعكير صفاء الحياة بقدر الأكدار والمخاوف والوساوس الطفيفة التي تلمّ بالمرء من يوم إلى يوم فتنغص عيشه وتهدم دعائم توازنه العقلي.

وقد كتب الدكتور «جورج جاكوبي» وهو من جهابذة المتضلعين من علم الأعصاب عن فعل القلق، فقال: «إن ضحايا الهم في القرن الأخير أربت على آلاف القتلى في ساحات الوغى»، وإن أدهش ما توصل إليه علم الأعصاب في الآونة الأخيرة إثباته أن القلق قتال مود بالحياة، ومباحث الأطباء لم تقف عند هذا الحد فحسب، بل إنها اخترقت الحجب التي كانت تكتنف هذا العارض وأماطت اللثام عن غوامضه ودقائقه، فأظهرت أن كثيراً من الوفيات المنسوبة إلى أسباب شتى ناشئة في الحقيقة عن القلق واضطراب الأفكار. فالقلق يفعل فعله الذريع في خلايا الدماغ الحيوية مشبهاً نقط الماء المتساقطة على بقعة واحدة لا تتعداها، فإنها مع صغرها وضعفها إذا وقعت على الصخر الأصم لا تلبث أن تشقه وتفريه.

فلا عجب إذا كان التفكير المؤلم المستمر المنحصر في موضوع واحد متلفاً لخلايا الدماغ، مقوّضاً لبيانه الليّن الهشّ البشّ، وفعل القلق ميكانيكياً هو كذلك أشبه بفعل مطرقة صغيرة لا تزال دائماً أبداً تهوي على الدماغ ضرباً حتى تتمزق أغشيته ويختل نظامه، فتتيّم العاشق وهمّ المضطرب وحزن الحزين ما لم يبذل هؤلاء الجهد العظيم في مكافحتها تصبح كالمطرقة المشار إليها، فلا تعتمّ أن تدكّ أركان الدماغ وتذهب بالرشد وتفضي إلى اختلاط العقل واختلاله.

وقد أظهر البحث أن القلق والغم والفكر الراسخ الملازم تنتاب المصاب بها حتى لا يجد لنفسه منها إلى الخلاص سبيلاً، ثم إنها لا بد بتتابع وقوعها ومعاودتها من أن تهدم جزءاً ولو يسيراً من خليات الدماغ، إذ ليس شيء أشقّ من مقاومة الأفكار المزعجة التي لا تنفك تخالجه وتساوره.

ولما كانت أجزاء الدماغ متصلة بعضها ببعض بواسطة الألياف اتصالاً محكماً كان من المحتم أن يتطرّق الفساد من الجزء المصاب إلى سائر جوانب الدماغ، والقلق بحدّ ذاته شبيه بالوسواس، وليس من حالة عقلية أخرى أوخم عاقبة وأفدح ضرراً بالإنسان من حيث نموّ نفسه وسعادته ونشاطه من القلق وشريكه الانكسار، وطباب هذه العلو هو توطيد العزيمة على طرح الفكر المقلق جانباً وتناسيه وترويح البال وتسليته، وعلى المرء متى شعر بتعب فكري أن يبادر إلى إبدال عمله بعمل آخر يطلق به نفسه من عقال الضجر والسآمة، لأن التسلي هو أعدى أعداء القلق وأنجع دواء يعالج به.

ولا مراء أنا إذا استسلمنا للهموم والأكدار قذفنا بأنفسنا قرناً كاملاً إلى الوراء، وتراجعنا إلى عصر الآلة البخارية في أول عهدها حينما لم يكن مستعملها ينتفع منها بسوى عشر ما ينفقه عليها من الوقود، فكانت القوة المستفادة توازي عشرة في المائة، والقوة الذاهبة سدى تسعين في المائة، وكثيرون هم الألى يشبهون تلك الآلات المنبوذة إذ يهدرون قسماً وافراً من نشاطهم بالاضطراب والانزعاج والتذمر والتشكي، بينا نرى أناساً آخرين يستثمرون جلّ قواهم إن لم يكن كلها فيما يعود عليهم بالخير العميم والنفع الجزيل، فطوبى لمن تعلم أن يحيا الحياة الهنيئة المثلى فاستفاد من كل ما أوتيه من نشاط وقوة ولم يبدد شيئاً من مواهبه فيما لا يجديه نفعاً.

قال شيخ ـ وقد أدركته الوفاة ـ لأولاده: «اعلموا يا بنيّ أنه قد خامرني في أثناء حياتي مخاوف جمة لم يتحقق إلاَّ النزر اليسير منها».

وحدّث تاجر وجيه عن أبيه، قال: «كان أبي مدة عشرين سنة يوجس خيفة من حدوث شر لم يقع أبداً».

فكثيراً ما نتوقع حوادث الحياة ونبتسرها ابتساراً بدلاً من إرجائها لأوانها واجتزائنا بشؤون اليوم الذي نحن فيه، فمهام اليوم قلما يتأتى عنها عظيم ضنى، ولكن ليست كذلك المبالاة بأمور المستقبل التي تضنك العقل وتوهن الجسد، فإنَّما هي مشاغل الغد والأسبوع القادم والعام المقبل التي تشيب الرؤوس وتجعد الوجوه وتحني الأجسام وتنهك القوى.

وجدير بالإنسان العاقل أن يقيم حوالي حاضره سوراً منيعاً حائلاً بينه وبين ماضيه وآتيه، فيعيش في حظيرته خلياً مطمئن النفس ناعم البال.

وقد كان «ثاكري» الكاتب الإنجليزي يقول: «إن كل امرئ يخلق لنفسه البيئة التي يشبهها، لأن الدنيا شبيهة بمرآة تعكس له شكله وصورته، فإذا أقبل عليها مقطباً قطبت، وإذا بشّ لها وابتسم بشّت وابتسمت».

ويحكى أن «دوايت مودي» الواعظ الأمريكي تقدم يوماً إلى تلامذته بأن يتبادروا في استنباط المعاني، فمن جاء منهم بأحسن فكر أجازه بخمسمائة ريال، فكان المجلى في هذا المضمار من قال: «يتذمر الناس من أن البارئ جلَّ وعلا أنبت مع الورد شوكاً، أفما كان أحرى بهم أن يحمدوه إذ أنبت مع الشوك ورد»؟.

ولا شك في أن مما يساعد الفتى على الفوز في معترك الحياة قبوله للعالم بما فيه من الأشواك والأسواء، فقد قال «فونتنيل»: «إن الإسراف في الأمل والرجاء هو حجر عثرة في سبيل السعادة والهناء». وقال السر «جون لبوك»: «لو أن الموكول إليهم أمر تربية الناشئة علموهم المسرة بمهامهم بقدر اهتمامهم بمسرتهم لآل ذلك إلى ترقي العالم وسعادته». وكان «أوليفر وندل هولمز» وقد بلغه الكبر لا ينفك أبداً يذكر جميل مربيته التي علمته صغيراً الإغضاء على مساوئ الحياة، فكانت إذا جرحت إصبعه تصرف عن ألمه بدمية تهديها إليه أو حكاية تقصها عليه، وكان يعزو إليها اغتباطه الدائم المستمر، الاغتباط الذي يسهل اكتسابه على الغلام ويعسر على البالغ أشده، وأما في الشيخوخة فهيهات لا يناله أحد أبداً.

وقال أحد المشاهير: «لما كنت أرضّ إصبعي في أيام طفولتي كان القائمون بأمري يعزّونني ويطمئنون بالي بتوجيه نظري إلى ابن الجيران الذي بترت ذراعه بأجمعها، وحينما كان القذى يتسرب إلى عيني كانوا يذكرونني بابن عمي الذي فقد عينه ولا رجاء له باستردادها، فكنت أرى نفسي إزاء هذا وذلك سعيداً محفوظاً».

فينبغي إذن أن يعوّد الأطفال الانبساط والارتياح إلى كل ما يعرض لهم في الحياة ناظرين إلى الأشياء من وجهها المشرق المنير لا المظلم القاتم، حتى إذا شبوا على هذه الخلة شابوا عليها ورافقتهم من المهد إلى اللحد. انتهى تفسير القسم الأول من سورة «إبراهيم» عليه السلام.

القسم الثاني

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِىۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَاۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْۖ وَسَخَّرَ

لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

هذا القسم قد أبان الله فيه أحوال الأمم، وكيف تبيد بالجهالة وتحيا بالعلم، وجعل ذلك في أربعة أنماط:

النمط الأول

أنه شبه أعمال أولئك الذين كفروا ـ وقد نظروا السماوات والأرض اللذين ذكرهما الأنبياء جميعاً، وجاء بها النبي صلى الله عليه وسلم لقومه كما في أول السورة ـ ثم أعرضوا ولم يعقلوا إلاَّ اقتراح خوارق العادات، فشبه أعمالهم بتراب عصفت به الرياح فذهبت به في كل ناحية فلا ينالون ثواباً وذلك هو الضلال البعيد عن طريق الحق والصواب.

إيضاح لقوله تعالى في أول السورة:

﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ ﴾

النمط الثاني

أنه خاطب كل واحد من الناس فقال: ألست ترى أيها الإنسان أنا خلقنا السماوات والأرض بالحكمة وعلى وجه يليق أن يخلقا عليه، وكيف ترون هذا وأنتم عنه غافلون؟.

لعمري لئن لم تقم الأمم بما عليها من حسن النظام، وجمال الإتقان، وتعميم العلم، وتقوم بالأمر، وتحافظ على كيانها، وتتخلق بأخلاقي في سماواتي وأرضي وأعمالي فيهما، لأنتزعن الملك منها انتزاعاً، ولأجعلن أمرهم ضياعاً، ولأصيبنهم بداء عياء، ولأجعلن جمعهم كالهباء، وكيف أبقي في ملكي من لا يفقهون؟أوَيعمر أرضي من لا يعقلون؟ وهل خلقت السماوات والأرض باطلاً، ذلك ظن الجاهلين، فويل ثم ويل للجاهلين من تفريق جموعهم وتشتيت شملهم وذهاب ملكهم، ذلك يوم شؤمهم، ثم يرجعون إليّ جميعاً فيجادل المرؤوسون الرؤساء، ويحاور الرؤساء المرؤوسين، ويلقي الأولون التبعة على الآخرين، ويخضع ويخنع للأمر الآخرون، ويسلمون بالمقادير ويقولون: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ [إبراهيم: ٢١]، ثم يقف الشيطان بين الحزبين خطيباً وأيّ خطيب، فيقول: أيها الحزبان ويا بني الإنسان ما قضي كان، وليس في الإمكان أبدع مما كان ﴿ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ [يوسف: ٤١]، لقد وعدتكم فأخلفتكم، والله وعدكم فلم يخلفكم وقد اتبعتموني إذ دعوتكم بلا برهان مع أنكم اقترحتم على أنبيائكم أن يأتوكم بما ليس في الإمكان، فاللوم واقع عليكم فهو منكم وإليكم، فلا أنا مغيثكم ولا أنتم مغيثي، لقد كفرت بكم.

وملخص هذه المحاورات أن خراب الأمم وضياع الدول وذهاب عزها ومجدها من الرؤساء واستبدادهم بالرعايا وظلمهم في القضايا فيقلدهم المرؤوسون، وهذا التقليد هو المخرّب للأمم المضيّع للهمم، لأن المقلَّدين يتكلون على المقلِّدين، والأساس إذا كان واهياً انهار بما فوقه فرجع

الأمر إلى أن الله لا يغفر للأمم خطأها في التقليد، ويوجب عليها النظر والعلم الرشيد والرأي السديد والتجديد في الرأي والإبداع في العمل، وهذا قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ ﴾[الآية: ١٩] إلى قوله: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾[الآية: ٢٣].

تفسير بعض الألفاظ

قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ﴾ أي: فيما يتلى عليكم صفتهم التي هي مثل في الغرابة، ثم استأنف لبيان هذا المثل فقال: ﴿ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ ﴾ حملته الريح وأسرعت الذهاب به ﴿ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ وصف اليوم بما يوصف به الريح، فإن العصف اشتداد الريح، كقولك: نهاره صائم وليله قائم. فإذن صلة الرحم وإغاثة الملهوف وما أشبهها لا ثواب فيها مع كفرهم؛ كالتراب المذكور، ﴿ لَّا يَقْدِرُونَ ﴾ يوم القيامة ﴿ مِمَّا كَسَبُوا ﴾ أي: من أعمالهم ﴿ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ أي: المقصود أنهم لا يجدون ثواب أعمالهم. ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ أي: لم يخلقهما باطلاً ولا عبثاً، بل خلقهما لقصد صحيح وأمر عظيم، ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ أيها الناس ﴿ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ يعني سواكم أعلم بالسماوات والأرض اللذين خلقناهما بالحق، فيكونون مؤمنين موقنين ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ أي: بممتنع، وكيف يعزّ على الله وقد أهلك الأمم الغافلة في الإسلام نفسه؛ فأزال الدولة العباسية بالتتار لما كانوا غافلين حتى جهلوا علم الجغرافيا فلم يعرفوا قوة التتار؛ كما سيأتي في سورة «الكهف»، وأزال ملك أهل الأندلس لما انكبوا على الغزل والتخنث وولوا الوظائف أهل الخيال والشعر، ولم يولوها أرباب العقل والفكر، وتركوا عاداتهم وأخلاقهم واتبعوا الفرنجة، وأهلك أهل أمريكا الأصليين، وأهل أستراليا القدماء، فكل أمة قلعت أعينها عن استكناه هذا العالم فإن الله يزيلها، على أي دين كانت وأيّ نحلة، فإن الله خلق السماوات والأرض بالحق ولا يبقي إلاّ الأصلح في الوجود، ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ أي: يبرزون من قبورهم يوم القيامة، وإذن يتجادلون مجادلة اللصوص إذا أحضروا بين يدي القضاء، فإن كلاً منهم يقول: نفسي نفسي، لأن ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾[الزخرف: ٦٧].

وقوله: ﴿ فَقَالَ الضُّعَفَاءُ ﴾ جمع ضعيف، أي: ضعاف الرأي ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ لرؤسائهم الذين استغووهم ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ في تكذيب الرسل ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا ﴾ دافعون عنا ﴿ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ أي: فهل تقدرون على أن تدفعوا عنا بعض عذاب الله الذي حلّ بنا، فـ «من» الأولى للبيان، والثانية للتبعيض، ﴿ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ﴾ أي: لو أرشدنا الله لأرشدناكم ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا ﴾ يعني مستويان علينا الجزع والصبر ﴿ مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ منجى ومهرب من العذاب، والمحيص: العدول لأجل الفرار؛ وهو مصدر كالمغيب، أو مكان كالمبيت.

ثم قال: ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ أحكم وفرغ منه ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ ﴾ وعداً أنجزه، وهو الوعد بالبعث، ﴿ وَوَعَدتُّكُمْ ﴾ وعد الباطل ﴿ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ قلت لكم: لا بعث ولا حساب وإن صح فالأصنام شفعاء، ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ﴾ تسلط؛ فألجئكم به إلى الكفر والمعاصي ﴿ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ أي: إلاّ دعائي إياكم بتسويلي فأسرعتم بإجابتي بلا برهان ﴿ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ﴾ فلا لوم

عليّ في وسوستي وإنّما اللوم عليكم إذا أطعتموني ﴿ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ ﴾ بمغيثكم من العذاب ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ﴾ بمغيثيّ ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾ أي: كفرت اليوم بإشراككم إياي من قبل هذا اليوم، أي: في الدنيا، أي: تبرأت منه واستنكرته. ثم قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ بإذن الله تعالى، والذين يدخلونهم هم الملائكة ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾ أي: تحييهم الملائكة فيها بالسلام.

اعلم أن النمطين السابقين يخالفان النمطين اللاحقين، ذلك أن الأولين جاءا لتبيان ما يعتور الأمم الجاهلة من تفرّق الحال وضياع الأمر وذهاب مجدهم ودثور عزهم ومحق جمعهم لما كانوا جاهلين، ألم تر كيف صوّر أعمالهم أن الرياح تذروها، وكيف نسوا حظهم من السماوات والأرض فحكم عليهم بالذهاب من الوجود، ثم يؤتي بدلهم بمن هم أشرف نفوساً وأقوى قلوباً وأعقل للعلم وأولى بالفهم. وكيف كانوا متواكلين يسوقهم الرؤساء كما تساق الأنعام ويذوقون سوء النكال، فالرؤساء والشهوات التي يستخدمها الشيطان في إغوائهم لهم ولها السلطان عليهم. ذلك ملخص النمطين، فاسمع لما يتلى عليك من النمطين اللاحقين واعجب للأمرين: الجهل والعلم، واذكر ذلك لمن يليك.

النمط الثالث

فأما النمط الثالث فهو واسطة العقد وبيت القصيد، ولأقدم لك مقدمة لأجله فأقول: اجلس ساكناً فريداً لا أصوات بجانبك، وفرغ قلبك مما يلهيه، وانظر إلى العالم العلوي وإلى العالم السفلي وتصوّر أنك عقلتهما، ودم على ذلك طويلاً، وكرره في نفسك مراراً على شريطة أن تلمّ بالعلوم المعروفة إلماماً من الرياضيات والطبيعيات، حينئذ يتجلى لك إشراق في النفس وبهجة في القلب وضياء في العقل وأنوار بهجات كاشفات، ويصور لك خيالك العجيب صورة علمك بهيئة أنوار مختلفة الألوان بحيث تبتهج النفس بها وتقرّ العين، تلك الأنوار تشرق من الأرض وتنبعث من سطحها، وأصلها من قلبك، وتخترق طبقات الجو وتعلو إلى العلا حتى تصل أطباق السماوات، فتحلق هناك وتحاول الإحاطة بالنجوم، ولا تخاف من الرجوم ولا الوجوم، فهل حضر في خيالك هذا المثال؟ نعم، لأني ألقيته في خيالك وكأنك كنت هنالك، فإذا تصورت هذا كله الآن، وما أسهل صور الخيال، فإنه يمثل جمال العلم الحاضر في النفوس الكاشف للعوالم التي درستها والمعلومات التي قرأتها من المعادن والنبات والحيوان والإنسان والجو والسحاب والسماوات. هذا هو الخيال الذي يحاكي هذه الدراسة العامة.

إذا عرفت هذا فانظر تمثيل القرآن لهذا العرفان. لقد أراد الله أن يرينا بهجة العلم بهيئة تدل على الثبات والدوام، فعمد إلى أنواع النبات فقسمها قسمين:

قسم لا ثبات له ولا دوام، بل هو كخضراء الدمن التي تنبت أول النهار في الندوات، حتى إذا علت الشمس في السماء نشفت وذوت وذرتها الرياح وبقيت أرضها جرداء، حتى إذا ما أرخى الليل سدوله وظهر الصباح نبت مرة أخرى ثم ييبس أخرى وهكذا دواليك، هذا قسم من أنواع النبات.

القسم الثاني : هي النباتات القوية المتينة كالنخل والأشجار الباسقات التي تعيش عشرات السنين ولها فروع في الجو ، وجذور نازلات في الطين ، وأوراق وأزهار وثمار ، ولها فاكهة ينالها الناس كل حين .

فانظر كيف جعل هذا القسم الأول مثلاً للمعارف الضئيلة والآراء الزائلة السقيمة ، بحيث لا تنفع جاراً ولا توري ناراً ولا تدفع عاراً ، وجعل القسم الثاني منها مثلاً للمعارف الشريفة والآراء المنيفة وثبات الأمور ونظام الجمهور .

وبالتأمل في المثلين نرى عجباً عجاباً ، ذلك أن الناس على اختلاف نحلهم وألوانهم ومدنهم مختلفون في آرائهم كاختلاف النبات . فلعمر الله أين خضراء الدمن التي ذكرتها لك وأنت تشاهدها غير مكترث بها ، كل يوم تخرج في الأرض الندبة لاصقة بالأرض وهي نباتات حقيقية تزهر وتثمر ونحن لا نشعر بها وتتم نظامها في بعض يوم ويكون لها بذور ، وتلك البذور تنبت في اليوم الثاني ، فأين هذه وأين النخل والسرو والأثل ، وكم من نبات بين هذين .

إن النباتات لم يحصرها العلماء إلاَّ على مقدار طاقتهم قد أوصلها بعضهم إلى ثمانين ألف نوع ، وبعضهم زاد كثيراً ، وهم جميعاً يقولون : إن في العلم ما غاب عنا ، فهذه الأنواع كلها مختلفات غير متفقات ، هكذا عقول الناس ، فمنها لاصقات بالأرض كخضراء الدمن ، ومعنى الدمن : الأرض التي تكون حول البيوت ، وفيها ما يرميه الناس مما يزدرى ، ومنها عقول مرتقيات قليلاً حتى تتصل إلى أعلاها كالأنبياء .

هذا هو المثل الذي ضربه الله لعقول بني آدم وعلومهم ، قرن عقول الناس وعلومهم بأنواع النبات ، بل إنه أراد فوق ذلك سبحانه أن يقول للناس : ادرسوا هذه الأنواع وعلى مقدار الدراسة لها ولغيرها يكون ارتقاء العقول ، ولكن ليس هذا مضرب المثل ، بل هو يؤخذ من طريق التعقل ، إنَّما المقام مقام اختلاف العقول في العلم ، وإذا كان النمطان الأولان دلاَّ على الذهاب والتشتيت وعدم الثبات ، فهاهنا ضرب المثل لأنواع العلم ، فمنه ما هو من القسمين السابقين لا ثبات له ، ومنه ثابت له قرار ، وعبر عن الثابت بالكلمة الطيبة ، وعن غير الثابت بالكلمة الخبيثة ، وهاك تفسير ألفاظه ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا ﴾ أي : ألم تر أيها الإنسان بعين قلبك فتعلم علم اليقين بإعلامي إياك كيف بيّن الله شبهاً ، والمثل قول في شيء يشبه قولاً آخر بينهما مشابهة لتبيين أحدهما من الآخر ويتصور ، وقوله : ﴿ كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ بدل من « مثلاً » ، و﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ صفتها ، أي : بيّن الله شبهاً كلمة طيبة موصوفة بأنها كشجرة طيبة ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ ﴾ في الأرض ضارب بعروقه فيها ﴿ وَفَرْعُهَا ﴾ وأعلاها ﴿ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ فتمتد فروعها في الجو ﴿ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا ﴾ تعطي ثمرها ﴿ كُلَّ حِينٍۭ ﴾ كل وقت والحين يطلق على القليل والكثير ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ بإرادة خالقها وتكوينه ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ لأن في ضرب الأمثال زيادة الأفهام ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ أي : كمثل شجرة خبيثة ﴿ ٱجْتُثَّتْ ﴾ استؤصلت وأخذت جثتها بالكلية ﴿ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ ﴾ لأن عروقها قريبة منه كخضراء الدمن أو لا عروق لها في الأرض كنبات الكشوثى الذي يعيش على غيره كما يعيش البرغوث على جسم الإنسان ﴿ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ استقرار .

ولقد علمت الكلمة الخبيثة والكلمة الطيبة فيما بيناه، فالمقلدون في العلم وأرباب الشهوات وأصحاب النفوس الضعيفة كلهم أصحاب الكلمة الخبيثة، لأنها لا ثبات لها كنبات الكشوثى وخضراء الدمن، وأصحاب النفوس العالية والحكماء وكبار المفكرين في السماوات والأرض هم أصحاب الكلمة الطيبة، فعلمهم ومعرفتهم تعطي أممهم نعماً ورزقاً ونظاماً في هذه الحياة الدنيا، والعلم مستقر في نفوسهم، وباستقراره فيها امتدت فروعه إلى العوالم العلوية والسفلية وأثمرت إثماراً كل حين على أبناء أمتهم وعليهم وعلى غيرهم، وصار نوراً يهتدي به المهتدون. ويمثل لذلك بالنخلة التي أصلها مستقر وفروعها عالية، وثمرها دائم، لأن الناس يأكلون منها صيفاً وشتاء الجمار والطلع والبلح وهو ضار بالصحة، والخلال والبسر والمنصف والرطب ثم التمر اليابس إلى العام المقبل.

ثم قال تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾ الذي ثبت بالحجة عندهم وتمكن في قلوبهم ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فيكونون راسخين في عقائدهم صابرين على ما أصابهم؛ كزكريا ويحيى عليهما السلام، ﴿ وَفِي ٱلْآخِرَةِ ﴾ فلا يتلعثمون إذا سئلوا عن معتقدهم في الموقف، ولا يدهشهم أهوال يوم القيامة ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بأن لم يفكروا وصاروا كالشق الثاني الذين هم أصحاب الكلمة الخبيثة، أو قلدوا فهم لا يهتدون ولا يثبتون ﴿ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ من تثبيت بعض وإضلال آخرين.

هذا هو المثل وهذا تفسير ألفاظه، ولقد عرفت مرماه وفهمت مغزاه، فليس يراد من أمة الإسلام أن ينطقوا بالشهادتين فحسب، وإلا فالنطق بهما متيسر للببغاء، فهذا الطائر متى علمناه النطق بهما نطق، ولا أن يتصور المسلم المعنى فحسب، كلا، إن الأمر عظيم، فليفكر المسلمون بعقولهم ولينظروا كم بين نخلة مثمرة وحشائش ذاهبة ما لها من قرار، والنظر لما كان الأمر عظيماً ضرب الله له المثل ولا يضرب المثل إلاَّ لعظيم، فالاعتقاد بنبوة النبي صلى الله عليه وسلم وبوحدانية الله سهل عند العجائز والجهلاء، ولكن الأمر ليس مجرد الاعتقاد، بل إن الله أنزل هذا القرآن لأمم ستعرف هذا الوجود وتدرس هذه الدنيا.

تنبيه:

أذكرك بما تقدم في سورة «التوبة» لما وقف أبو بكر رضي الله عنه محتجاً على الأنصار قائلاً لهم: «أيها الأنصار، قال الله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾[الحجرات: ١٥]، ألم تكن فينا نحن المهاجرين؟ فقالوا: بلى. فقال: ألم تقرؤوا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[التوبة: ١١٩]، فهانحن أولاء الصادقون فلتكونوا معنا». فانظر كيف استدل على الخلافة في المهاجرين بهذا.

أفلا يحق لنا أن نقول للمسلمين الذين ضربتهم أوروبا ومزقت شملهم وضحكت على أذقان عظمائهم: أيها المسلمون، لم كرر الله ذكر السماوات والأرض؟ ولم ضرب المثل بشجرة تمتد من الأرض إلى السماء، ولم ذكر السماوات والأرض في كل مناسبة، ففي أول السورة على لسان نبينا، وفيها على لسان موسى، وعلى ألسنة جميع الأنبياء من أممهم، وهاهو يعيدها في ضرب الأمثال، وهاهو ذا يكررها كل حين. إن ذلك لما قدمته وكررته في هذا التفسير.

نتائج في هذا المثل

(١) فإذا سمعت بعض العلماء يفسر الكلمة الطيبة بكلمة التوحيد أو دعوة الإسلام أو القرآن، والكلمة الخبيثة بالإشراك بالله أو الدعاء للكفر أو تكذيب الحق، فقد دخل كل ذلك وأمثاله فيما قررناه.

(٢) وإذا سمعت أن الشجرة الطيبة هي النخلة أو شجرة في الجنة تتخيلها امتدت من الأرض إلى السماء فعلاً، وأن الخبيثة شجرة الحنظل أو الكشوثى أو الثوم أو الكافر، فكل ذلك داخل فيما قررناه وعرفت المقصود.

(٣) وإذا سمعت حديث البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: أخبروني عن شجرة شبه الرجل المسلم لا يتحاتّ ورقها تؤتي أكلها كل حين، ثم وقع في نفس ابن عمر أنها النخلة، ولما عرف أن أبا بكر وعمر لا يتكلمان كره أن يتكلم هو، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هي النخلة، ثم انصرفوا، فقال ابن عمر لأبيه ما قام بنفسه، فقال: ما منعك أن تتكلم؟ فقال: لم أركم تتكلمون فكرهت أن أتكلم، فقال عمر: لأن تكون قلتها أحب إلي من كذا وكذا».

(٤) وإذا سمعت رواية الترمذي ـ مرفوعاً وموقوفاً ـ أن الكلمة الطيبة هي النخلة، وأن الكلمة الخبيثة هي الحنظلة، إذا سمعت هذا كله فقد سهل الأمر عليك وعرفت الحقيقة، وكل ذلك تبيان لها. فيا ليت شعري، كيف يكون هذا شأن القرآن وشأن الحديث؟ يجلس الرسول صلى الله عليه وسلم ويحدث أصحابه في علم النبات ويمتحنهم في الشجرة التي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وأمة الإسلام نائمة، ألا يقرؤون علوم النبات كما أشار لذلك الحديث وكما مثل به القرآن؟.

(٥) وإذا سمعت حديث البخاري ومسلم: «إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه وإنه يسمع قرع نعالهم إذا انصرفوا، أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل ـ يعني محمداً صلى الله عليه وسلم ـ؟ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعداً من الجنة، قال النبي صلى الله عليه وسلم: فيراهما جميعاً. وأما المنافق أو الكافر فيقول: لا أدري كنت أقول ما يقوله الناس، فيقال له: لا دريت. الحديث. ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلاّ الثقلين» لفظ البخاري.

وهناك روايات أخرى تزيد على هذا لمسلم وأبي داود والترمذي، فإذا سمعتها فاعلم أن ذلك العذاب على الجهل المطلق، لأنه إذا لم يصدق أصل الدين فكيف يدرس عوالم الأرض والسماء التي أمر بها الدين؟ وتأمل في الحديث كيف عبر بأن الضربة بين أذنيه كأنه يقول له: هلا سمعت سماع تفهم وهلا عقلت؟ أما السماع فبالأذنين، وأما الفهم فبالعقل الذي هو بين الأذنين. واعلم أن هذه الضربة التي تصيب الجاهل في قبره يحسّ ببعضها في حياته، فإن الأمم الجاهلة المتفرقة الكلمة يصيبها العذاب في الدنيا باغتصاب بلادهم وذهاب مجدهم وضياع شرفهم.

ولكم يجد الجاهل في نفسه وكذا الشرير في ضميره من أنواع التوبيخ والتقريع والحزن على ما فاته من العلم ومن صنع المعروف. وهذه الهواجس عامة في الناس جميعاً، فما من امرئ إلاّ ويشعر

بنقص على حين ينظر ما حوله من الكائنات وزجر نفسي حين يعلم أنه مقصر في إغاثة من حوله وإعانتهم فيما يطلبون. هذا مبدأ العذاب، ويزداد هذا العذاب بتفرّق الكلمة بين الأمة ثم إذلالها وقهرها، فإذا ماتوا وجدوا العذاب الأكبر على التقصير بتبكيت الضمير وعذاب السعير والمقامع من حديد، ولله عاقبة الأمور.

جاء في كتاب «مذكرات أدبيات اللغة العربية» في صفحة ١٠٤ تحت عنوان: «الموازنة السادسة التشبيه بالشجر والنبات وغيرهما»، وقال عنترة العبسي يشبه رائحة عبلة برائحة روضة أنف:

أَوْ رَوْضَةً أُنُفًا تَضَمَّنَ نَبْتُهَا غَيْثٌ قَلِيلُ الدِّمْنِ لَيْسَ بِمُعْلَمِ
جَادَتْ عَلَيْهِ كُلُّ بِكْرٍ حُرَّةٍ فَتَرَكْنَ كُلَّ قَرَارَةٍ كَالدِّرْهَمِ
سَحًّا وَتَسْكَابًا فَكُلَّ عَشِيَّةٍ يَجْرِي عَلَيْهَا المَاءُ لَمْ يَتَصَرَّمِ
وَخَلَا الذُّبَابُ بِهَا فَلَيْسَ بِبَارِحٍ غَرِدًا كَفِعْلِ الشَّارِبِ المُتَرَنِّمِ
هَزِجًا يَحُكُّ ذِرَاعَهُ بِذِرَاعِهِ قَدْحَ المُكِبِّ عَلَى الزِّنَادِ الأَجْذَمِ

هذا نموذج من ذكر الشجر والنبات والبساتين في كلام العرب تأمله. وانظر كيف ذكره طرفة لمكان محبوبته، وينبت طريف لرثاء أخيها، وامرؤ القيس طوراً يذكر الصلابة الحجرية، وأخرى يذكر الدم في صدر فرسه، وآونة غزارة شعر محبوبته، وعنترة ما وصف الحديقة والورق والسحاب والذباب والأجذم المكبّ على الزناد إلاّ لتشم أنفاس محبوبته عابقة الريح طيبة النشر.

إذا حققت هذا فتأمل حال ذكر الشجر في القرآن، وتعجب من تنويع المعاني وإجادة التشبيه والارتقاء به إلى مستوى تسمع فيه صرير أقلام الحكمة، وذلك فيما يأتي:

يقول الله عزَّ وجلَّ مستدلاًّ على الإيمان حاضًّا على النظر في العالم المشاهد وبهجته ونظامه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾[الحج: ٦٣]، إذا نزل ماء فأنبت النبات فأصبحت الأرض مخضرة. ولا جرم أن ذلك دلالة على لطفه وتدبيره وعلمه، وأنه خبير بجميع الشؤون.

وتعجب كيف مثل كلمات الحكمة والإيمان الثابت بالعمل بالشجر وكلمات الكفر والجهل بما لا يثبت منه كالحنظل، إذ قال: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾، شبه كلمة الحكمة والإيمان بشجرة ثبتت عروقها في الأرض وعلت أغصانها إلى السماء ذات ثمر في كل حين.

ولا جرم أن الهداية إذا حلت قلباً فاضت منه على غيره، وملأت قلوباً كثيرة فكأنها شجرة أثمرت كل حين لأن ثمراتها دائمة لا مقطوعة ولا ممنوعة، وكل قلب يتلقى عما يشاكله ويتقد مما يلائمه أسرع من إيقاد النار في الحطب والكهرباء في المعادن والضوء في الأثير. وشبه الكلمة الخبيثة كلمة الكفر وما شاكلها بشجرة خبيثة كالحنظل لا أصل لها من الجذوع ثابت بل عروقها لا تتجاوز سطح الأرض، فلا هي ترتفع في الجو ولا هي تمتد بجذورها في باطن الأرض، هكذا لا ثبات للباطل ولا دوام فهو زائل ذاهب، وما أقوى الحق وأثبته وأكثر نفعه، فالحق قوي الأركان ثابت الدعائم مرتفع إلى أعلى مثمر كل حين كالنخل، والباطل لا ثبات له وليس له استطالة وعلوّ، وثمره مرّ كريه كالحنظل في أحواله الثلاث. اهـ.

ثم إن ما تقدم في هذا المقال من ذكر طرفة بن العبد وامرئ القيس فهو ما سأذكره هنا، فقد جاء في صفحة ١٠٣ من الكتاب هذا البيت. قال طرفة:

وفي الحيّ أحوى ينفض المرد شادن مظاهر سمطي لؤلؤ وزبرجد

وقدمنا معنى البيت أن في الحي حبيباً أسمر الشفة يشبه غزالاً طويل الرقبة يتناول أغصان الأراك وينفضها.

وأما الثاني فهو ما جاء بعد ذلك وهذا نصه: وقالت أعرابية:

أيا شجر الخابور ما لك مورقاً كأنك لم تجزع على ابن طريف

وفي هذا مجاز عقلي أو كناية.

وقال طرفة:

وتبسم عن المىّ كأنّ منوّراً تخلل حر الرمل دعص له ند

وقد قدمنا أن الأقحوان شبه به الثغر في الصفاء والبهجة والحسن والنور.

وأما الثالث فهو ما جاء بعد ذلك وهذا نصه: ويقول امرؤ القيس:

كأنّ على المتنين منه إذا انتحى مداك عروس أو صلاية حنظل

والمراد بالصلاية: الحجر الذي يشقّ به الحنظل، والحنظل معروف. ثم قال:

كأن دماء الهاديات بنحره عصارة حناء بشيب مرجل

يقول: كأنّ دماء الهاديات ـ وهي أوائل الصيد من الوحوش على نحر هذا الفرس ـ عصارة حناء خضب به، مرجل: أي مسرّح يشبه دم الصيد الذي اقتنصه وهو راكب على نحر فرسه بعصارة الحناء في شعر الأشيب، وقال يشبه شعر محبوبته ـ وهو أسود فاحم ـ بقنو النخلة المُتعثكل، أي: الذي خرج عن رأس نخلة فظهر خارجاً عن أغصانها وأقحافها، إذ قال:

وفرع يزين المتن أسود فاحم أثيث كقنو النخلة المتعثكل

النمط الرابع

وفيه تبيان أعلى مقام في العلم والعرفان والأخلاق الجميلة، أي: تبيان الكلمة الطيبة وأصحابها والكلمة الخبيثة وأربابها، إيضاحاً لما قبله وتبياناً لما تقدمه، فذكر سبحانه أن ذوي الكلمة الخبيثة هم الذين ﴿ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾، وأن ذوي الكلمة الطيبة هم الذين يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويتصدقون سراً وعلانية وينظرون في خلق السماوات والأرض، وإنزال الماء من السماء وكيف أخرجت به الثمرات، وكيف سخرت الفلك لتجري في البحر بالتجارة، وكيف كانت الأنهار تخرج من البحار بالبخار الذي ينعقد مطراً فينزل على اليابسة، وكما سخر الفلك في البحر سخر الشمس والقمر وهما مستمران دائران لا يفتران، وكيف سخر الليل والنهار، وكيف آتانا من كل ما سألناه، وكيف كانت النعم المعطاة لنا لا يحصيها أحد ولا ينقطع لها مدد، فهؤلاء المصلون المنفقون هم أصحاب الكلمة الطيبة، أي: يكونون علماء بما في الأرض والسماء، دارسين النبات والبحار والأنهار، وكيف سخرت السفن، وعالمين بما سخر الله من شمس وقمر وكواكب، هذه هي الكلمة الطيبة وهؤلاء هم أربابها.

وهاك تفسير الكلمات . قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا ﴾ كأهل مكة لهم حرم آمن ورزق واسع وشرف بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فكفروا وقحطوا سبع سنين ، وقتلوا وأسروا يوم بدر وذلوا ، لأنهم بدّلوا شكر النعمة كفراً بها ﴿ وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ ﴾ الذين شايعوهم في الكفر ﴿ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴾ الهلاك بحملهم على الكفر ﴿ جَهَنَّمَ ﴾ عطف بيان على « دار البوار » ﴿ يَصْلَوْنَهَا ﴾ حال منها ﴿ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾ أي : وبئس المقر جهنم ، ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ الذي هو التوحيد ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ ﴾ بشهواتكم ومنها عبادة الأوثان ، والأمر للتهديد ﴿ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ أي : مرجعكم إليها . قال ذو النون : التمتع أن يقضي العبد ما شاء من شهواته ، ﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أقيموا الصلاة وأنفقوا ﴿ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ﴾ فمقول القول محذوف كما فهمت ﴿ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ إنفاق سر وعلانية ، ويستحب الأول في التطوع والثاني في الواجب ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ ﴾ فيبتاع المقصر ما يتدارك به تقصيره أو يفدي به نفسه ﴿ وَلَا خِلَٰلٌ ﴾ ولا مخالة فيشفع لك خليلك . قال مقاتل : إنَّما هو يوم لا بيع فيه ولا شراء ولا مخاللة ولا قرابة ، إنَّما هي الأعمال إما أن يثاب أو يعاقب عليها . قال الشاعر :

لا نسب اليوم ولا خلة   اتسع الخرق على الراقع

فليست القرابة بمغنية فتيلاً هناك ، فإن الأخلاء بعضهم لبعض عدو إلاَّ المتقين ، فإن التقوى هي الرابطة بين الناس هناك ، لا النسب ، فيقوم الخلق والعلم مقام النسب .

وفي الحديث القدسي : « اليوم أضع نسبكم وأرفع نسبي » . ولقد نشاهد هذا في الدنيا ، ألا ترى أن من قرأ تاريخ أمة وتغلغل في معرفتها وهو خلو من علوم أمته وآدابها ، يكره أن يعيش بين قومه ، ثم يعيش مع أولئك . ولقد لقيت من ذوي الفضل والعلم والأخلاق الكريمة والجاه في أمتنا المصرية من نشأ في فرنسا من صغره ثم جاء مصر وهو متحمس لدينها ومجدها ، ولما لم يجد للقول متسعاً هنا بمصر غادرها ذاهباً إلى فرنسا عائشاً بين أهلها ، وهو لا يزال يجاهد في عمله وإن لم يكن مفيداً .

وهكذا ترى الذين تعلموا في بلاد الإنجليز بمصر اليوم يحب بعضهم بعضاً ، وتجد أهل فرنسا قد علموا أهل الشام لغتهم على طول السنين وعلومهم ، حتى إذا جاءت الحرب الكبرى قابلوهم بالترحاب ، فلما دخلوا بلادهم قلبوا لهم ظهر المجن ، وبدا لأهل الشام من فرنسا ما لم يكونوا يحتسبون ، فكان التعليم أشبه بالحَبّ ـ بفتح الحاء ـ يضعه القانص لاقتناص الطير .

والقصد من هذا المقام أن العلم والأخلاق أمتن رابطة ، وهاهي ذه أمة الترك لما رأت أهل بلادها على أحوال شتى وكلّ يتعلم على نمط غير الآخر ، حرّمت هذا ووحّدت التعليم ، فإن لم يكن توحيد اختلفت الأمة ودخل العدو . وهكذا بلادنا المصرية كانت أيام دخول الإنجليز فيها ذات مشارب متخالفة ، فالعامة متدينون والمتعلمون يحقرون الدين ، فانفكت العرى وساءت العاقبة فدخل الإنجليز البلاد . وإذا رأينا العلم هذا شأنه في الحياة الدنيا ؛ فما بالك بالآخرة ، يوم تنحل القوى كلها وتتجرد النفس من كل ما خرج عن دائرة العلم والأخلاق ، فلا بيع ولا شراء ولا نسب ولا أخلاّء ، وتتجلى النفس بطبيعتها ، يشير لذلك الحديث الشريف : « أنت مع من أحببت » ، فالحب والمجانسة العقلية هي الحاكم في ذلك اليوم .

ثم قال تعالى: ﴿ اللَّهُ ﴾ مبتدأ ﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ خبره ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ من السحاب مطراً ﴿ فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ أي: أخرج به رزقاً هو الثمرات، فمن الثمرات بيان للرزق، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ ﴾ أي: السفن ﴿ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ﴾ بإذنه وإرادته لتنقل تلك الثمرات من بلد إلى بلد، ﴿ وَسَخَّرَ ﴾ ذلل ﴿ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴾ تجرونها حيث شئتم، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ﴾ أي: حال كونهما دائمين، أي: يدأبان في سيرهما وإنارتهما ودرئهما الظلمات، وإصلاحهما ما يصلحان من الأرض والأبدان والنبات والحيوان، وبالشمس تعرف الفصول، وبالقمر تعرف الشهور ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ يتعاقبان بزيادة ونقصان، ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ أي: وآتاكم شيئاً من كل الذي سألتموه، أي: من كل الذي هو حقيق أن تسألوه سواء أسألتموه أم لم تسألوه، لأن هذه الدنيا قد وضع الله فيها منافع يجهلها الناس وهي معدة لهم، ولم يسأل الله أحد في الأمم الماضية أن يعطيهم الطيارات والمغناطيس والكهرباء، بل خلقها وأعطاها للناس بالتدريج، ولم يزل هناك في العالم عجائب ستظهر لمن بعدنا، ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ لا تطيقوا عدّ أنواعها فضلاً عن أفرادها، فالأفراد لا نهاية لها، ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ ﴾ يظلم النعمة بإغفال شكرها ويظلم نفسه بحرماتها وإهمالها ﴿ كَفَّارٌ ﴾ شديد الكفران لنعمة ربه، ومن ذلك أنه يجمع ويمنع إذا أعطي النعمة، والواجب أنه يحسن ويتصدق. انتهى التفسير اللفظي لهذا النمط.

جوهرة في ذكر نعمة بهية وهي الحرير الصناعي

اعلم أن الإنجليز والأمريكان قد اخترعوا حريراً صناعياً لا يكون من الدود، ويسمونه في أمريكا «الريون»، وقد كثرت صناعته في فرنسا وإنجلترا وأمريكا، وما هو هذا الحرير؟ هو مأخوذ من خشب التوت وحطب القطن وشعر القطن، بحيث يجعل ذلك كله عجينة، وتلك العجينة تصير خيوطاً، إن هذا من عجائب هذه الدنيا.

إن هذه الدنيا كلها عجب! فيا ليت شعري، أيّ مناسبة بين خشب التوت وحطب القطن وشعره؟ نعم نعم خشب التوت هو الذي يخرج منه الورق الذي تأكله دودة الحرير، فكأنّ فيه الأصول الحريرية وخشب حطب القطن فيه الأصول القطنية، والقطن أمره معروف، تخلط الثلاثة مع مواد أخرى لا نعرفها، يكتمها أصحاب الصناعة عن الناس، فجلّ الله وجلّ العلم. الأرض هي التي يستمد منها غذاء تلك الأشجار، أشجار القطن وأشجار التوت، ومن التوت يأكل دود القز، عجب هذه الدنيا وأيّ عجب؟ توت خلق ثم دود يأكل منه مناسب له.

اللهم إن الناس يعيشون ويموتون وأكثرهم لا يعقلون، يتخذون الحرير من الدود ويلبسونه، أما المفكرون فإنهم يا الله يسعدون في فكرهم بحياة أرقى من حياة الجاهلين، ينعمون بالحرير ويقفون عند هذا الحد وما أضيقه من حد، ولكن العقل الإنساني أبعد مدى، والعقل الإنساني له الحق أن يقول: نحن أولاء لبسنا الحرير وهذا الحرير من الدود، فلم اختص هذا الدود بأكل ورق التوت، ولماذا لما أكله ألهم أن يجعل له كرة تلف عليه ولم جعلها مكبرة، وكيف ألهم الناس أن يربوه، ثم كيف ألهموا أن ينسجوه؟ ثم لماذا كان ذلك الحرير نادراً جداً وهلا كثر كالقطن؟ ولماذا لم تخرج تلك الخيوط الحريرية في نفس شجر التوت كما خرج القطن من نفس الشجر؟ ولم كان القطن أقل

قيمة من الحرير وجمالاً ؟ ثم أيضاً كيف كان خشب القطن والتوت مع القطن يصنع منها الحرير ؟ ثم يقال أيضاً : إن الأرض فيها هذه المواد التي تكون قطناً وحريراً ، فإذا لم تكن هناك عناية بهذا الوجود فهل هذه الطبيعة أنتجت ذينك الصنفين رمية من غير رام ، وأوجدت الحرير في التوت والدودة المحتاجة إليه بدون عقل ، هل المصادفات العمياء التي كوّنت ذلك كله ووضعته محكماً بلا عقل .

اللهم إن هذه المباحث جنات المفكرين في هذه الحياة وسعادات لأولي الألباب الذين يتفكرون في خلق السماوات والأرض ويقولون : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ .

أنعم الله علينا بالقطن وبالتوت ، ولم يكتف بذلك بل جعل في خشبهما حريراً يغني عن عمل الدودة ، تلك الدودة التي أرسلها الله لنا فرسمت خطة الحرير ، فنهجنا منهجها واتخذنا من خشب الشجرتين حريراً وقلنا : يا ويلنا أعجزنا أن نكون مثل هذه الدودة فنلبس من عملنا بدل أن نكون عالة عليها ، إن هذا الإنسان جاء إلى الأرض ليتعلم الصبر ومزاولة الأعمال بالكسب والاستقلال بعد أن يقتبس من الحيوان الذي جعله الله له مثالاً ينسج على منواله .

الناس أصناف : صنف يفرح بأنه لبس الحرير ، وصنف يفرح بأنه اخترع حريراً آخر ، وصنف فوق الفريقين يفكر في هذا الإنسان ولماذا خلقت له الأرض على هذه الحال ، ولماذا جعلت له هذه الدنيا مراتب ودرجات بعضها فوق بعض ، ولماذا حجب في أول أمره عن السر في المخلوقات ، ثم يتجلى له جمالها شيئاً فشيئاً ، ثم كيف كانت هذه الأرض وما عليها جنة المفكرين ونعيم الحكماء وسعادة الأولياء الذين يعرفون بفكرهم جمال هذه التنوعات ، ويجتزئ صغار العقول من بني آدم باختلاف المناظر ملبساً ومسكناً ومشرباً ، وعقولهم في غفلة ونفوسهم في محبس وهم هواء .

سبحان من قسم الحظو ظ فلا عتاب ولا ملامه

وهاك صورة من جمال هذه الدنيا يستبين بها اتّحاد العمل واختلاف المقاصد من بني آدم بالحكمة المضاعفة ، وهاهي ذه :

هذه الجداول تريك صورة مما يتعاطاه الإنسان من النبات ، فمنه المآكل في جدول (١) ، ومنه الفاكهة جدول (٢) ومنه الدواء جدول (٣) ، ومنه الملابس جدول (٤) ، والإنسان في وسطها يتعاطاها جميعاً لأحواله المختلفات .

(١) قمح . شعير . أرز . ذرة . فول .
(٢) نخل . تفاح . برتقال . موز

الإنسان

(٣) سنامكي ونحوه . الحبة السوداء الخ
(٤) قطن . كتان . توت . تيل . دودة الحرير

يا عجباً لهذه الدنيا ! ويا عجباً لهذا الإنسان يعمى حتى لا يعقل ويبصر حتى يرى الوجود على ما هو عليه . هاأنت ذا ترى الإنسان وسط الجداول وهو محتاج لها كلها ، وهو في ذلك على ثلاث درجات : أعلى وأوسط وأدنى .

شرح هذه الدرجات : اعلم أن نظام هذه الدنيا مزدوج محكم مبناه الاقتصاد التام والحكمة الصادقة ، وأضرب لك مثلاً : اللسان به نذوق الطعام ، ونلفظ الكلام ، ونحرك ما نمضغه وقت تعاطي الأكل ، إذن اللسان له وظيفة داخلية وهو أن يميز أنواع الطعام لصحة الأجسام ، ووظيفة خارجية وهو

أن يفهم الناس الكلام، وهاتان معنويتان، ووظيفة عملية عضلية وهي: تحريك الطعام؛ فاللسان لم يدع النظام الداخلي حتى حرس ما يدخل في الجوف من الغش والضرر وأوصل المعاني من نفس لأخرى وأفاد فائدة عضلية.

هذه هي الحكمة والنظام، ولولا الإتقان في هذا الوجود لكان للإنسان عضو للذوق، وآخر لإدارة الطعام، وثالث لإظهار الكلام، فمن جمال هذه الأجسام التي نسكنها وإن كان أكثر الناس يجهلون ذلك، أن تتعدد منافع العضو الواحد، وإلا لاحتاج الإنسان إلى أجسام كجسمه هذا حتى تؤدي وظائف الحياة، إذا عرفت هذا فانظر في هذه الدائرة النباتية والإنسان في داخلها. إن لهذه الدائرة ثلاثة أعمال:

أولاً: إنماء الإنسان بقوته وفاكهته ودوائه وملبسه.

ثانياً: حمله على العمل الشاق لتحريك عضلاته وشغله ليقوى جسمه ويعيش أمداً مقدراً.

ثالثاً: تغذية عقله بالحكمة والعلم.

هذه ثلاث درجات نظير درجات اللسان، فكما حرك اللسان الطعام هكذا نرى الإنسان يعمل في الأرض للغذاء والفاكهة وللدواء وللملابس، فانتفع هو بهذه الحركة، وكما ترى اللسان يذوق الطعام وهو عمل جسمي داخلي هكذا ترى الإنسان يتعاطى تلك المنافع ليعيش إلى أمد معلوم، وكما نرى اللسان يكون سبباً في معرفة الناس ما تكنه صدورنا، هكذا نرى هذه المخلوقات كأنها ألسنة تنطق بالحكمة والعلم وتغذي عقولنا، كما أنها تغذي أجسامنا، هذه حكم متراكمة مثبتة.

فترى الفلاح وهو في حقله لا يفتأ يجدّ بالحرث والعمل وهو يريد بذلك قوام الأجسام بالغذاء وبالدواء وبالفاكهة وباللباس وهو في الوقت نفسه قد قوى جسمه بالحركات، ففائدة الفلاح في عمله مزدوجة ولكنه هو لا يقصد تقوية الجسم وما قصد إلاّ الغذاء.

وترى الحكيم والفيلسوف ينظر إلى النبات فيدهشه دهشاً شديداً ما يرى من حكمة ونظام متى فكر في أيّ ناحية من نواحي هذا الوجود، فيقول مثلاً: لماذا كان هذا النظام؟ أرى أن دودة الحرير لم تخلق إلاّ لشجر مخصوص، فنراها تأكل ورق التوت ولم نرها عرجت على النخل ولا الموز ولا التين ولا البرتقال ولا غيرها، لماذا هذا النظام؟.

هاهنا يسحر عقل المفكر ويقول: جاءت هذه الدودة فنسجت خيوطاً، ولعل الإنسان كان أولاً لا يعرف استعمال الملابس، فربّما كان أول ما لبس الجلود إذ رأى الحيوان يعيش بها تقيه الحر والبرد، ولعله كان يجهل استعمال القطن والصوف ونحوهما، ولعله لما رأى خيوط تلك الدودة الحريرية تعلم غزل القطن والصوف والكتان، ولذلك نرى كرة الخيوط على المغازل الآن تشبه كرة الدودة. ثم لما برع في الصناعات والعلوم واستخرج الحرير من خشب التوت ومن حطب القطن كما تقدم، أي أنه استخرج تلك الملابس من نفس الشجر ولم يقتصر على الشجر ولا على عمل الحيوان إن هذا من الإنسان انتقال من حال إلى حال.

إن الإنسان كان في أول أمره عالة على الحيوان يلبس جلده، ولما ارتقى تعلم منه الغزل والنسج كما يرى في العنكبوت، فلما ارتقى اليوم أخذ يعتلي عليه وهذه هي وظيفة الإنسان. فأول

أعماله احتياجه إلى نفس الجلد ثم ارتقى وعقل ففهم وتعلم من الحيوان، ثم ارتقى ففاقه اليوم. إن للإنسان حالاً أخرى سيصلها فيستغني عن الحيوان ويستخرج الأشياء من أصولها.

إن القطن والكتان والحرير كلها من مواد في الطبيعة فإذا زاد عقل الإنسان استخرج ذلك كله بعقله وحكمته. إن هذا الوجود فيه السعادة مخبوءة والإنسان ملزم أن يجدّ ويبحث عنها ويستخرجها وما هو فيه الآن ضعف ظاهر يتقدم القوة المقبلة.

ينظر الحكيم ذلك في هذه الدنيا فيذهله ويسحر عقله هذا الوجود، ويقول: لماذا خصصت دودة الحرير بالتوت واستخرجت الحرير منه، وهناك من الأشجار آلاف وآلاف، ثم ينظر نظرة أخرى فيقول: عذب الإنسان بالجوع والعري، فالجوع ألم والبرد والحر يؤلمان والمرض أشد إيلاماً، فلماذا رأينا تلك الأنواع في الجدول المتقدم مقسمة على أنواع المطلوب للإنسان، فتغذى ولبس وتداوى.

يذهل الفيلسوف من هذا النظام وهو وحده الذي يفهم ويرى الناس حوله نائمين، يقول: يا عجباً هذا الفلاح والتاجر والصانع والأمير لا يعرفون من هذا الوجود إلاّ ما يمنع آلامهم، سلط عليهم ألم الجوع وألم الحر والبرد، ثم زادت آلام أخرى بأسباب عارضة، فالفلاح لا يعرف إلاّ ما يحفظ جسمه، وكذا التاجر والصانع، هكذا رجال الحكومة لا يعملون إلاّ لحفظ الرعية كما يحفظ الفلاح زرعه، وكلاهما غالباً لا يعقل الحكمة.

أما الحكيم وما أدراك ما الحكيم فإنه هو الذي يربيه الله في الأرض ليلحق بالملأ الأعلى بعد. فهذا هو الذي يدهشه هذا النظام ولا يقتصر على ما اقتصر عليه من قبله من تقوية عضلاته وغذاء جسمه ولباسه وفاكهته ودوائه، بل تصبح هذه كلها عنده دروساً وأيّ دروس، دروساً عجيبة، يسحر عقله أن يرى جميع الناس ـ وهو منهم ـ أطفالاً ضعافاً، ويفهم قوله تعالى: ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ ومن ضعفه أنه لا يعقل منافعه، ولذلك لما كلمه الله هو والحيوان، كلمهما بلغة تناسبهما وهي لغة الألم من جوع وضر الخ، فأنزل ذينك الألمين عليه أو ذينك الجنديين الضاربين له صباحاً ومساءً، وهما يقولان له بلا حرف ولا صوت: أيها الإنسان قم فكل وقم فالبس وإلا آلمتك.

فجميع بني آدم وجميع البهائم يساقون سوقاً كما تساق الأنعام، لأن عالمنا الذي نعيش فيه عالم فيه قصور، ولكن صانعه أظهر لنا أنه محكم الصنعة جداً. كيف لا وهو قد جعل هذه النباتات معلمة للعقول وحافظة للأجسام وموجبة للحركات لبقاء القوة في الأبدان، ولولا هذه الحكمة لاحتاج الناس إلى عوالم يتعلمون فيها، وعوالم أخرى يأكلونها ويلبسونها الخ، وعوالم ثالثة تعلمهم الحركة كالجند، فالحكمة التي أرسلها صانع هذا العالم الحكيم أرتنا أن الدرس واحد فيه الحركة وبه الغذاء والدواء الخ وبه العلم، فالعالم واحد وحكمته متعددة لنا كما أن اللسان واحد وحكمه متعددة.

هذه روضات الجنات في هذه الدنيا، إن الله خلق هذه الروضات لنا فيتخرج من درسها قليل من بني آدم، وهم هم الذين ينظمون هذه الدنيا، وسيبثون في شبانها الهمة والحركة العلمية، فإذا فارقوا هذا العالم استحقوا أن يكونوا في عالم أجمل من عالمنا هذا الذي جمع ما بين خسة الحيوانية وشرف الملكية، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. اهـ.

تكملة في الكلام على قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾

اعلم أن هذا المثل من أعجب ما في القرآن، فالإسلام كشجرة والشجرة لها أصل وفروع، والفروع قسمان: أوصل وأطراف، فالتي سميناها أصولاً هي الفروع التي تنمو في قلب الشجرة صاعدة، والأطراف هي التي حولها، فاعجب لهذا المثل وانظر لحال المسلمين اليوم وذكرهم بأيام الله، وقل لهم: أيها المسلمون حياكم الله، أليس النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كأصول الشجرة؟ أليس المسلمون قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل هم فروع، والفروع تمتد وتكثر على طول الزمان، فالإيمان أيام النبوة لم يكن له كتب لا في حقائق هذا الوجود من الطبيعة والفلك والسماوات والأرض؛ ولا في فروع الفقه والجدل والخلاف في الكلام.

ولما كان الإسلام كشجرة حدثت الفروع طبعاً فتفرعت علوم الفقه وعلوم الجدل التي هي أطراف الدين لا قلبه، وهكذا الأصول التي امتدت وطالت من القرون الأولى إلى القرن الخامس عشر كما تقدم هنا، ثم عمدتم إلى تلك الأصول فقطعتموها بذم العلماء واحتقارهم كابن رشد والغزالي وأضرابهما، أما الفروع فأبقيتموها، فإذا ظننتم أن فروع الفقه كافية فأنتم مخدوعون مغرورون، وإذا ظننتم أن عدم دراسة العلوم الكونية زمن النبوة حجة على تركها اليوم فذلك مردود بأنكم جريتم على سنن الله في التعبير بالشجرة وفروعها إذ ألفتم آلاف الكتب في الفقه وفي علم الكلام، وإن لم يؤلف ذلك النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ولم ينكر لك منكر لأنكم فروع لتلك الشجرة، وفي الفروع من الأوراق التي في وسط الشجرة وهي التي عليها المعوّل، وإذا اكتفى صلى الله عليه وسلم وأصحابه بما يعرفون في نفوسهم فذلك لأنهم ساق الشجرة، فأين الفروع إذن؟ ولم برعتم في بعض الفروع التي هي أدنى، وجهلتم في بعضها الذي هو أتم وأكمل وهي العلوم الكونية؟ ألا ساء مثلاً الجاهلون، فتباً لقوم لا يعلمون، وبعداً لقوم لا يفهمون، سيأتي تمام الكلام على ذلك في سورة «الفتح الآية: ٢٩» إن شاء الله عند قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ ﴾.

واعلم أن هذا التمثيل سيحققه الله عزَّ وجلَّ بعد ظهور هذا التفسير، وسيكون في أمم الإسلام رجال لم يحلم بهم الدهر وهم موقنون، وللنوع الإنساني نافعون. اهـ.

ذكرى ليلة ٤ نوفمبر سنة ١٩٠٩ من كتابي سوانح الجوهري

اللوف والنخل

اللوف نبات يحمل ثمراً مستطيلاً متى نضج صار آلة لغسل الأجسام لينظفها ويزيل عنها الدرن أشبه بالليف ولكنه أبيض ناصع. هذا النبات ينمو سريعاً في الفصول الحارة والمعتدلة ويمتد سريعاً على النخلة الباسقة «الطويلة»، رأيته التفّ على نخلة فجلل سائر جذعها وجميع أفنانها وأوراقها وتسلق على أخرى فأخذ بخناقها وسار معها علواً حتى شارف أغصانها العليا وهي باسقة جداً. ذلك في هذا الفصل أنها ستذبل قريباً ولكن النخلة لا تذبل، ربّما كان عمر النخلة ٤٠ سنة وعمر اللوفة لا يكاد يجاوز ستة أشهر. سارت اللوفة حثيثاً وأبطأت النخلة. ما أسرع ما أثمرت اللوفة وما أبطأ ثمر النخل. وهذا مثل ضربه الله للناس والأمم، ضربه لهم لعلهم يتذكرون، أراهم عياناً كيف

أعطى ما عظم نفعه وجلّ قدره وحلا ثمره وبقي أثره ؛ عناية أشدّ وإحكاماً أوسع وأبهى وأبهر ، أبطأ سيرها وأخر ثمرها ولكن أطال عمرها .

هكذا ترى أهل الرياء والنفاق الكاذبين أسرع الناس سيادة وأكثرهم مالاً وأقربهم من الأمراء مجلساً ، يغشون على عقول الناس فيسودون ، وهكذا أولئك الثرثارون المتفيهقون يتبجحون بالعلم ويحفظون مسائل يحاجون بها خصماءهم ، وإن هم إلاّ مجادلون ، فبذلك يهابهم الناس ويخافونهم ، وهكذا أولئك السبابون الذين يحاجون أقرانهم بحجج ملوثة بالشتم وملطخة بآثام الغضب ، فأولئك لهم حظ قليل حتى إذا حصحص الحق وزهق الباطل ووقف الناس على مراميهم واطلعوا على دخائلهم وأغراضهم ، رموهم من حالق وزجوا بهم في سجين الإذلال كأنهم زبد احتمله الماء فيذهب جفاء لا ينتفع به ؛ وأما من ينفع الناس ولا يرائي فذلك سيلاقي في إبان عمله عوائق جمة ويعاديه المحبون ، فإذا سار في إخلاصه وجدّ في عمله فله عقبى الدار ، وهو السيد الذي أشبه النخلة الباسقة ، طال أمدها وكثر ثمرها ، إلاّ أن الثمرات على مقدار الأعمال ، ولذلك نرى رجال الحروب من القواد العظام والملوك الكبار تسير بذكرهم الركبان سريعاً وتخبو وتنطفئ سريعاً ، أما الحكماء والفلاسفة فما أبطأ ذكرهم وما أدوم فضلهم ، فهم كالنخلات الباسقات وكالماء ، ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ ﴾[الرعد : ١٧] ليسقي الحرث ويروي النسل ، ذلك مثل اللوفة والنخلة ضربناه مثلاً للناس لعلهم يتذكرون . اهـ .

إني أذكرك أيها الذكي بالمقام الذي نحن فيه وأرجعك إلى الموضوع نفسه . إن الكلام في النمط الرابع وهو : تبيان حال ذوي الكلمة الخبيثة وذوي الكلمة الطيبة ، فتغير الكلمات لا يشغلك عن أصل المقام ، وقد بينا فيما سبق أن النمط الأول مبين لضياع الأمم بالجهالات ، والنمط الثاني تثبيت له ، وأن غفلتهم عن عجائب السماوات والأرض أورثتهم النكال ، والثالث تبيان الحقيقة الناصعة لتبيان الكلمة الخبيثة والكلمة الطيبة ، وأن الناس قسمان : ثابت وغير ثابت كالزرع والشجر ، وهذا النمط الرابع أظهر الأمر وأوضحه ، فأما ذوو الكلمة الخبيثة فقد ذكرهم في قوله : ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ ﴾[الآية : ٢٨] إلى قوله : ﴿ قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾[الآية : ٣٠] ، وأما ذوو الكلمة الطيبة فأشار إليهم بقوله : ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾[الآية : ٣١] . وأنت تعلم أن الأمم إنّما تعيش بعلم وعمل ، فهذا هو العمل ، والعمل بالنفس وبالمال ، فأشار لهما بإقامة الصلاة والإنفاق ، وأما العلم فأشار له سبحانه بقوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ ﴾[الآية : ٣٢] إلى قوله : ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴾[الآية : ٣٤] . فهذا النمط كله كأنه إيضاح لذوي الكلمة الخبيثة وذوي الكلمة الطيبة .

ولما أبان تقصير الأمم التي يذهبها ويأتي بخلق جديد في معرفة السماوات والأرض في النمط الثاني ، إذ قال : ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴾ [الآية : ١٩] ، إذ جعل استبدالهم بعد ذكر السماوات والأرض لجهالتهم بما خلق فيهما فلا يتعلمون ما ينفعهم في حياتهم الدنيا وفي الأخرى . أقول : لما أبان ذلك هناك في أصحاب الكلمة الخبيثة أفاد هنا أن ذوي الكلمة الطيبة هم الذين ينظرون في خلق السماوات والأرض وما بعده ، فأخذ يفصل بعد الإجمال

حتى انتهى إلى ما لا يحصى من العجائب. واعلم أن مما أقعد همم الأمة الإسلامية أن أمثال هذه الآيات تترك وشأنها فلا تحرك بها الهمم ولا تستثار المنافع بها. ولعمر الله كم من عالم ديني مخلص لله طائع ذكي الفؤاد قوي العزيمة قد حبس في سجن من الألفاظ أو الأحكام وأحكم عليه فلا يستطيع فكاكاً.

أيها العلماء، أيها المصلحون في الإسلام، أيها الذكي القارئ لهذا التفسير، تفاقم الأمر على أمة الإسلام، قولوا لهم: هذا كلام ربكم، هو الذي أنزله، وهو الذي حضّ على فهم ما في السماوات والأرض، والسحاب والمطر والثمرات ومنافعها، والسفن في البحر والأنهار، والليل والنهار، والبحث في كل دقيق وجليل. هذا وإني أحمد الله عزَّ وجلَّ إذ كتبت خطاباً لأمتنا الإسلامية وقد نشر منذ سنتين في كتاب سميته «القرآن والعلوم العصرية»، وهاك ما جاء فيه في هذه الآية:

عبّر الله بكاف الخطاب ست مرات، فجعل الماء لنا والثمرات لنا، وتسخير الفلك لنا، وتسخير الأنهار لنا، وتسخير الشمس والقمر لنا، وتسخير الليل والنهار لنا، وقد آتانا من كل ما سألناه في ضمائرنا، وما تمنته نفوسنا، أي إن النفس كانت تتمنى أن تطير وأن تجلس في مكان وهو يجري بها من غير أن يعلم الناس أن ذلك ممكن، فكانت الطيارات في الجو والقطرات على الأرض، وكان الإنسان يتمنى أن يكلم أخاه وهما متباعدان ويتشوق لذلك، فبرز هذا.

واعلم أن الله كما فطر النفوس على حب ذلك، جعل في الطبيعة استعداداً له ثم أبرزه في الوجود، ثم قلت هناك: فهل هذا الخطاب استثني منه المسلمون؟ فهل جعل الله الثمرات في الأرض خاصة بغير المسلمين أم الخطاب عام؟ وهل الفلك التي تجري في البحر ما بين آسيا وأفريقيا وأوروبا وأمريكا، هل هذه السفن خاصة بالإفرنج، وكيف نام المسلمون عن علوم التجارة فأصبحت بأيدي غيرهم من الفرنجة وأهل أمريكا وهم صفر اليدين؛ فالسفن التي تمخر عباب الأنهار والبحار في سائر أنحاء الكرة الأرضية بيد الفرنجة، وهم هم الذين يدرسون المعادن والكهرباء والبخار والتلغراف البرق الذي لا سلك له والذي له سلك.

أليس من العار عليكم أيها المسلمون أن تكونوا ٣٥٠ مليوناً ولا سفن لكم في البحار كما لغيركم، وقد خاطبكم الله قائلاً: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٣٢] على قواعد علمية، بعد معرفة صناعة الحديد لبنائها، والخشب لتكميلها، والبخار لتسييرها، والكهرباء والمغناطيس لمعرفة الأخبار فيها، وقراءة علم الفلك والكواكب السيارة والثابتة للاهتداء بها في طرق البحار، ودرس علوم البحار وطرقها ومناطقها وما فيها من مسالك، حتى لا تضل السفن سواء السبيل فتغرق ويهلك ما فيها، وبعد دراسة علوم السحب والرياح والعواصف حتى يلبس الربان لكل حال لبوسها وينهج النهج الذي ينجي السفينة. ثم قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ [إبراهيم: ٣٢]، ولا جرم أن الأنهار تسقي الزرع ولها في جريها قوة تستخرج منها الكهرباء فتغني عن الفحم والبترول، والمسلمون في بقاع الأرض غافلون عن أنهارها، وتكاد تصبح بيد غيرهم، وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٣] الليل والنهار والشمس والقمر لها حساب دقيق لا يهتدى إليه إلاَّ بعلم الحساب والهندسة والجبر ثم الفلك، فلا تطلع الشمس ولا تغرب ولا يشرق

النجم ولا يغرب ولا يطلع سيار ولا يأفل إلاّ بمواعيد موقوتة لا تخسّ ثانية بل كل ذلك بمقدار. فهاهي ذه سفن البحار وقطرات اليابسة كلها تسير بحساب الشمس والكواكب، ولو أغفل الناس ذلك بعض يوم لاختلت مواعيدهم ولتصادمت قطراتهم ولمات كثير منهم، يعرف ذلك من اطلع على طرف من علم الفلك في هذه الأيام. انتهى.

هذا هو الذي نقلته من ذلك الكتاب، وأحمد الله إذ رأيته قد نشر بين المسلمين في أقطار الأرض. أفلست ترى معي أيها الذكي أن المسلمين إذا قصروا في هذه النعم فإنهم يعذبون في الدنيا والآخرة كما هو الحاصل الآن. وكيف يقول الله: ﴿ سَخَّرَ لَكُمُ ﴾ بكاف الخطاب ثم هم يعرضون عن نعمه، وهذا عينه كفر النعمة لأنه إذا أعطاك رجل عظيم عطية وقال لك خذها، ثم إنك تغافلت عنها أو نبذتها له غضب عليك، بل إنه يسره أن تأخذها ويسره أن تتمتع بها ويسره أنك تكون غنياً بما أعطاك، هذا كله في المتداول والمعروف، فأما المسلمون اليوم فإن هذه النعم بعد ما قال الله مخاطباً لهم: إني سخرتها لكم، يناموه ويقولون فلنتركها للفرنجة.

إن هذا أوان العلم والعمل، وهذا هو الوقت الذي فيه ابتدأ استيقاظ المسلمين، ولكن لا بد من نشر مثل هذه الآراء. إن الله أراد رقيهم وإسعادهم وارتقاءهم ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾[ص: ٨٨] وليقومنّ في هذه الأمة من فطاحل العلماء وأكابر الحكماء من يرثون الأرض من بعد موت أهلها الغافلين ويزنون هذه الدنيا وتبدل الأحوال، ويصبح الناس إخواناً على قدر الإمكان. اهـ.

تنبيهات: التنبيه الأول

يقول الله في الأنماط السابقة: ﴿ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وكيف يفعل الله ما يشاء وقد أضل الظالمين، وأين الحكمة في إضلال الظالمين؟ إذا ظهرت الحكمة في هداية المتقين فإنها لم تظهر في إضلال الظالمين، وإنا قد أمرنا أن نعرف الحقائق، وأن ربنا أغدق النعم علينا، وآتانا من كل ما سألناه وتمنيناه أماني، ثم يأتي لأعز شيء وأعظمه وهو الهدى فيمنعه، ويقول: أنا أضل الظالمين، وأفعل ما أشاء. هذا هو السؤال الذي خطر لي وهو حقاً يخطر لكل إنسان على هذه الأرض، فأين الجواب؟.

لقد علمت أن هذا من سر القضاء والقدر، وهذا السر أقفل بابه على جميع الأمم، وهناك أكابر الحكماء نالوا من العلم حظاً فثلجت صدورهم وسعدوا بالفهم وكتموا عن الناس، ولكن ألا أريك أيها الذكي عجباً في هذه الآيات؟ ألم تر أن جواب السؤال قد ظهر في نفس الآية إذ شبه قوماً بشجرة طيبة وقوماً بشجرة خبيثة، ثم ختم بأنه يضل الظالمين وهو يفعل ما يشاء.

إن الجواب قد تجلى ولكنه مخبوء مكتوم لا يمسه إلاّ المطهرون الذين طهرت نفوسهم من الغل والحقد والحسد والكبرياء، فهؤلاء هم الذين تمتد أيديهم إلى تلك الخزائن فيفتحونها وينالون منها حظهم، ألم أذكر لك هناك أن الزرع أصناف شتى يبتدئ بخضراء الدمن التي لا تلبث إلاّ ضحوة النهار ثم تذهب في العشية، لعلك تذكر ذلك، وأن النبات يرتقي درجة فدرجة حتى يصل إلى مستوى النخل، وأشجاراً أخرى تعيش سنين وسنين بدل دقائق وساعات، ألم أقل لك ذلك؟ فهل ترى أحداً من نوع الإنسان وجد في نفسه حرجاً من خلق الأنواع الكثيرة؟ ألم تر أن الناس فرحون باختلاف هذه

النباتات وأنهم انتفعوا باختلافها ؟ فإذا زرعوا القمح وحصدوه في بعض فصول السنة ، وكذا الذرة والشعير والبرسيم وما أشبه ذلك ، وكذلك الملوخية والباميا والقطن والكتان من كل نبات ، يتم في أقل من سنة ، فإنهم قد تمتعوا تمتعاً تاماً بها وعاشوا ، وأن هذه لو كانت كالنخل لا تثمر إلاَّ بعد سنين لشقّ ذلك على من لم يجد عنده القمح مثلاً ، فإنه يجده بعد أشهر من زرعه .

ألا ترى أن هذه النباتات كان اختلافها لاختلاف حاجاتنا ، وإذا كنا نرى الحاجة لبناء المنازل والحصون ليست كل يوم بل إنها مسألة سنين لا شهور ، أي إن الإنسان لا يبني منزله بعد بنائه الأول إلاَّ بعد عشرات السنْين ، فلذلك كان أعظم الخشب لسقفه يتكون في عشرات السنين ، وأقل الخشب في سنين معدودة .

كل ذلك بمقتضى حاجتنا وانتفاعنا ، وإذا وجدنا هناك حنظلاً وتمراً فما راعنا ، لأن التمر فاكهة وغذاء وحلوى ، والحنظل دواء . فنحن معاشر بني آدم لم نجد في ذلك حرجاً في نفوسنا ، بل عددناه نعمة وأي نعمة ، فنرى عندنا زيت الخروع لدوائنا ، كما نرى زيت الزيتون لغذائنا ، والسنامكي لطبنا ، وهكذا فنحن لم نر من الاختلاف إلاَّ سعادة .

هذا هو الذي نقرؤه في الكتاب الذي كتبه الله بيده وهو كتاب الطبيعة ، وما أجمله من كتاب وما أشوق النفس إلى الوصول إلى مؤلفه الذي أرانا جماله وعجيب حكمته وبديع صنعه . هذا كله كامن في قوله تعالى : ﴿ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ ، ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ . فهاتان الكلمتان المذكورتان فيهما هذه المعاني ، وفيهما ما يحتاج إلى مصنف كبير حتى يقف الإنسان على تمام الحقائق هنا ، إذا فهمت هذا فقس المشبه على المشبه به ، فكأنه يقول : هاأنتم أولاء رأيتم أن الاختلاف في الأشجار نافع لكم . أفلا يكون هكذا الاختلاف في العقول ؟ فيه ثمرات ومنافع لكم أو لغيركم من العوالم وأنتم لا تشعرون .

إني خلقت حنظلاً فقلتم : حسن نافع ، وخلقت كافراً وعاقبته . إن هذه العقول مزارع زرعتها في الأرض ، وجعلت مقرها أجساد بني آدم ، وهذه العقول مختلفات كاختلاف النبات ، فإذا رأيتم أن اختلافها بلغ عدداً عظيماً فهكذا العقول اختلافها عظيم ، وإذا رأيتم منافع في الاختلاف وأنكم لا تعيشون إلاَّ بهذا الاختلاف ، أي : أن حياتكم لا سعادة فيها إلاَّ أن يكون لديكم الحنظل والخروع والسنامكي كما يكون عندكم التمر والعنب والرمان ، فهكذا أنا زرعت العقول مختلفات مريداً ذلك ، كما زرعتم أنتم الأشجار مختلفات مريدين ذلك .

فأما منافع اختلاف عقولكم لكم فهذا لا تقفون على حقائقه إلاَّ بدرس طويل ، أو بعد خروجكم من هذه الأرض ، أو تخرجون من عداد العامة وتدركون سر الديانات ، ولماذا خلق الله العالم ولماذا خلقت النفوس؟ .

ولعلك أيها الذكي قد أدركت شيئاً من ذلك في غضون هذا التفسير ، ولكن الناس جميعاً إلاَّ نادراً لا يدركون سر اختلاف العقول كما أدركوا اختلاف النبات وحكمته ، إلاَّ بعد خروجهم من هذا العالم ، ولعمري ما وضعت النفوس في الأرض إلاَّ لترقيها ، كما لم توضع النباتات إلاَّ لإتمام أثمارها ، وما أمراض الناس وعذابهم إلاَّ كما تنضج الشمس الثمار . اهـ.

التنبيه الثاني: عبادة الأصنام

يقول الله تعالى في هـذا النمـط: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾، ثم قال: ﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ الخ، فهاهو ذا ذكر الأصنام وحذر منها، فيا ليت شعري لم حرمت الأصنام، وما القصد من تحريمها؟ الصنم حجر أو أيّ مادة أخرى، وليس في المادة حرمة، لأن جميع ما في الأرض مخلوق لنا لننتفع به، وإنّما المحرّم هو عبادتها، ولم تحرّم العبادة، لأن الله سبحانه أمرنا بعبادته، ولقد نرى في نوع الإنسان من يحقر أن يعظمه العامة لأنه ليس يرى ذلك لـذة له، ولقد كان الفيلسوف «سيسكا» الروماني وهو في الوزارة قبل أيام المسيح كما حكى عن نفسه يسمع إعجاب العامة به وهو في الاحتفال، فلا تتحرك نفسه لهذا الإعظام ولا لهذا الإجلال، ويرى أن في جمال الشمس والقمر وجلال البحر ونزول المطر ولمعان البرق ودويّ الرعد والبرد والثلـج والتأمل في عجائب الطبيعة، يرى في ذلك وغيره ملك السعادة، وهذا كلامه عن نفسه.

وهكذا في أمتنا الإسلامية كثير في هذا الزمان وفي كل زمان، فهل الله تعالى إذا أمرنا بترك عبادة الأصنام يريد أن نتضرع إليه وهو يعجبه ذلك لنفسه؟ كلا، فليس بمعقول البتة ولا هو بحق لأنه منزه وغني عن العالمين، وإنّما عبادة الأصنام تحصر العقل في المحسوسات فيصغر العقل البشري، وعبادة الله تجعل النفس مشرئبة إلى أعلى، أي أن الإنسان تفك قيوده من الوقوف موقفاً حابساً له، فالعبادة والعلم على هذا يكونان متفقين على أن يطلب العبد من الإله الذي لم يره ويعبده، وإذا لم ير الله ولم تطلع عليه حواسه فإذن أصبح حراً في هذا الوجود يسخره لنفسه.

أما تقديس بعض المخلوقات فإنه يقفل عليه أبواب العلم وأبواب العمل، إذ يرى الحجاب العقلي أسدل عليه فمنعه أن يتمادى في المباحث العلمية والعملية، فإذن يجد في هذه الكائنات باحثاً منقباً حتى يصل إلى ما لا يتصوره عباد الأصنام.

التنبيه الثالث: كيف يدخل الضلال على أرباب الديانات

لقد علمت أن عبادة الأصنام إنّما أبغضت لأنها سبيل إلى حصر الفكر والوقوف بالعقل الإنساني، وأن الآيات التي وردت بعدها كما حضت على الأعمال حضت على النظر في السماوات والأرض، والفلك في البحر، والشمس والقمر، والليل والنهار، وأن عابد الصنم العاكف عليه لا يتجه نظره لشمس ولا لقمر ولا لضياء ولا لنور.

أفلا ترى أن المتدين الذي أوقفه معلمه في موقف شائن بأن أعطاه من الدين بعض الأعمال، وقال له: قف هنا فهذا هو الدين، صرف فكره عن السماوات والأرض الخ، قد أصبح في موقف كعباد الأصنام. نعم هذا موحد لله ولكنه في العلم أصبح كالجهال عباد الأصنام، ففكره قد أصبح محبوساً، وأفئدة هذه الطائفة هواء، وهم مهطعون مقنعو رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم. أليس هذا هو السجن الذي سجنت فيه عقول عباد الأصنام، وهو لم يخلق في الدنيا إلاّ للدراسة فأين هي؟ وهو وعابد الحجر سواء، ولذلك أعقب هذا النمط بدعاء إبراهيم عليه السلام، وفيه أنه يطلب من الله أن يتجنب الأصنام هو وأبناؤه. فيا ليت شعري هل يتوهم أن نبياً من الأنبياء يخاف من عبادة الأصنام. إن ذلك غير معقول، وأنا وأنت أيها الذكي القارئ لهذا التفسير لا نخاف من عبادة الأصنام، ولم يخطر ببالي

يوماً أن أقول يا الله أغنني من عبادة الأصنام، وأنت لم تطلب هذا في حياتك يوماً، لأنه ليس بمعقول أن تطلب رفع شيء هو مرفوع عنك، فهل نحن أعلم من إبراهيم الخليل الذي أمر الله نبينا صلى الله عليه وسلم أن يهتدي بهداه، إذ قال: ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾[الأنعام: ٩٠]. وإذا كنت أنا وأنت والعامة والخاصة في الإسلام نرى أننا بحق لا تساوي نبينا صلى الله عليه وسلم في العقيدة الدينية ونحن هذه حالنا، لا يخطر ببالنا عبادة الأصنام، فهو أولى منا بالعقيدة لأنه هو الذي كسرها في الكعبة، ونحن لا قدرة لنا على تغيير هذا المنكر إذا رأيناه خوفاً من عباده، وكذلك إبراهيم الخليل كسر الأصنام التي كان يعبدها ملك جبار هو نمرود، فكيف يقول: ﴿ وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم: ٣٥]؟ وهو الذي سمانا المسلمين من قبل وفي هذا، وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم جاء بشريعة مطابقة لشريعته إذ قال: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾[الحج: ٧٨].

إن الجواب على ذلك ما أشرت إليه أن عبادة الأصنام غالباً يتبعها حصر الفكر، وتعمي القلوب والأبصار عن عجائب الدنيا، فيغفل العقل الإنساني عن كل شيء، فرجع الأمر إلى أن العقول تقصر وهو المراد محاربته، فكل دين وكل علم إنَّما يراد به رقي الفكر الإنساني، فإذا طلب الخليل ذلك فإنَّما يريد أن لا يشغل القلب بما يمنعه من ازدياد الحكمة، فالمال شاغل، والولد شاغل، والعلم اللفظي شاغل والخوف من تعيير الناس شاغل، والوقوف على بعض مسائل الدين وترك الباقي شاغل، وعكوف العالم الديني على علم الفقه وحده وترك النظر في هذا العالم وجماله شاغل، واشتغال المرء بمدح الناس له شاغل، كل ذلك أدى الوظيفة التي أداها الصنم، فأنتجت المطلوب وهو الجهالة العمياء.

جوهرة في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ الخ

اعلم أن الأمم القديمة كلها في الهند ومصر وغيرهما قد أظهر الكشف الحديث أن لهم تعليمين تعليماً عاماً وتعليماً خاصاً.

فالتعليم العام: هي الأعمال الصبيانية والوثنية والطقوس والصور الرمزية.

والتعليم الخاص: يتناقلونه كابراً عن كابر، ولا يباح إلاَّ لمن هذبوه في المعابد ووثقوا به، وإذ ذاك يلقنون له السر فهو في نفسه يعبد إلهاً واحداً يراه في قلبه ويحبه حباً جماً، وهو مع الناس يشاركهم في طقوسهم فيعبد «برهما» في الهند، و«ازيريس» في مصر، و«جوبيتر» في ألمبيا، معتبراً هذه الآلهة اللفظية رموزاً ضئيلة جداً إلى القوة العلوية المدبرة لهذه العوالم، فلا فرق في إظهار الحقائق بين خريستا وبوذا وزروستر وهرمس وغيرهم، فكل هؤلاء قالوا: الله إله واحد، ولكن أتباعهم رأوا من مصلحة كبريائهم أن يغشوا الشعب ويضلوه معتقدين أنه ليس كفؤاً لهذه الحقيقة، وقد كان كهنة المصريين لا يطلعون أحداً على سر الوحدانية إلاَّ بعد العناء الطويل والتجارب العنيفة، ويحلفونه القسم بحفظ السر وإلاَّ قتل، وكانوا يرون أن أبا الهول المركب من رأس امرأة على جسد ثور بأظافر أسد وجناحي نسر رمز إلى هذا الإنسان الذي فاق كل حيوان، ولهم آلهة غريبة لها رؤوس وحوش وطيور وأفاع يرمزون بها إلى الحياة في تعدد مظاهرها، وهم فيما بينهم يعتقدون إلهاً واحداً لا يتكلمون عنه إلاَّ بالخوف وصوت منخفض. كل هذا جاء به الكشف الحديث، ومما عرف عنهم رؤيا هرمس، وقد تقدم ذكرها في هذا التفسير في سورة «آل عمران»، وملخصها: أن هرمس وقت الانخطاف رأى الكون

والعالم وانتشار الحياة في كل صقع، فصاح به صوت النور المالئ للكون بأسره وكاشفه بالسر الإلهي قائلاً: «إن النور الذي رأيته مثل لنور الله المحيط بكل شيء، وهو الذي يحيط بكل الكائنات، وأما الظلمة فهي العالم المادّي الذي يعيش فيه الناس على الأرض، وأما الضياء المتدفق من الأقاصي فهو كلمات الله، فأما روح الإنسان فإنها محبوسة بذنوبها وإما راجعة إلى مقامها في عالم النور في السماوات وما سفرها في هذه الأجساد إلاَّ لتجربتها في الأوجاع وهموم الحياة، ومتى استنارت خرجت من سجنها إلى عالمها الجميل في العلا، فثبت قلبك إذن يا هرمس وسكن روعك عند نظرك إلى الأنفس الصاعدة في معارج الأفلاك العلوية توصلاً إلى العالم الإلهي الذي منه بدأ كل شيء وإليه ترجعون، ثم سبحت الأفلاك السبعة هاتفة معاً: الحكمة، الحب، العدل، البهاء، العظمة، الخلود».

ثم يقول الحبر بعد ذلك: «تأمل يا بني هذه الرؤيا تجد فيها سر كل شيء، وكلما توسعت في إدراكها اتسعت لديك حدودها، لأن ناموساً نظامياً واحداً يدبر العوالم كلها. إن الحقائق العظيمة مستورة تحت حجاب السر، ولا يكاشف بالمعرفة التامة إلاَّ من جاز في التجارب التي جزنا فيها. إن من الواجب أن تقاس الحقيقة على قدر مبلغ العقول، فلا يجوز إفشاؤها للضعفاء لئلا يتهوّسوا بها، ولا للأشرار لئلا يتسلحوا بها للشر، فاحفظها إذن في صدرك وانشرها بلسان أعمالك، وليكن العلم قوتك والناموس سيفك والصمت ترسك». انتهى.

هذا ما كشف في عصرنا الحاضر من علوم قدماء المصريين، عرفه الأوروبيون وجهله كثير من علماء الخطوط المصرية القديمة في مصر وغيرها.

فانظر كيف كان الله واحداً في الهند والصين، والمصريين عند خواصهم، ومتعدداً كثيراً عند عامتهم، وكان هؤلاء الرؤساء يعتقدون أن إفشاء السر ضار بالشعب، فلهذا كتموه وبالكتمان عظموا عند الرعية.

ومن عجب أن التثليث الذي تظاهر به كهنة الهند ومصر تخطى إلى الأمم النصرانية، هذا الظاهر أخفى تحته الحقيقة المكتومة ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ [البقرة: ١١٨]، فانظر ما قاله أحد آباء النصرانية في القرن الرابع وهو الأسقف «سينيسيوس» اليوناني الذي تولى في آخر حياته أسقفية عكا ومات سنة ٤١٠ ميلادية، قال: «إن الروح السري الذي نراه سارياً في الأديان القديمة إنَّما جاء من كون الشعب يحتقر دائماً ما سهل عليه إدراكه، فلهذا يفضل أن يكون مغشوشاً مغالطاً. هكذا فعل كهنة مصر الأقدمون، أما أنا فسأكون دائماً فيلسوفاً مع نفسي وكاهناً مع الشعب، وقد تقدم هذا. انتهى.

يقول مؤلف هذا الكتاب: إني أحمد الله عزَّ وجلَّ إذ علمنا ما لم نعلم ووقفنا على أسرار الأوائل التي لم تظهر إلاَّ في هذا الزمان، والله هو الولي الحميد.

التثليث عند الأمم القديمة

قد شاع التثليث عند الأمم القديمة يلقيه الكهنة بلفظهم، وهم في قلوبهم موحدون، ولقد أخذوه من تثليث هذا الوجود، فهو كله جوهر مادي وجوهر عقلي وجوهر نفسي، أي: المادة والعقل والنفس فالكون كله إما مادة فيها الأثر، وإما نفس بها الحياة، وإما عقل به التدبير.

وقد جعلوا العقول عشرة، وهكذا النفوس، وجعلوا العقول والنفوس الإنسانية كأنها آثار للنفوس العلوية. هذا كله في كتب الفلسفة فليست هذه الثلاثة آلهة بل هي مخلوقات، والفلاسفة في كتبهم يقولون: إن الله هو خالقها، فترى الكهنة يقفون الخالق لهم ويقولون: إنه ثلاثة، يريدون: المادة والعقل والنفس.

ثم منهم من عبد الملائكة وهي المعبر عنها بالعقول فيما تقدم هنا، كالصابئين كما تقدم في أول سورة «البقرة» وفي سورة «الأنعام»، ومنهم من عبد الكواكب بالنيابة عن الملائكة، ثم عبدوا الأصنام النائبة عن الكواكب. كل هذا قد تقدم في أول سورة «البقرة»، فكأن الألوهية نقلوها عن الله إلى أول مخلوق وهو العقول المعبر بها عن الملائكة، فالكواكب والأصنام الأرضية، وكل هذا لإضلال الشعوب، والحمد لله رب العالمين والتوحيد لهم خاصة. انتهى القسم الثاني من السورة.

القسم الثالث

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾

التفسير اللفظي

﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ﴾ مكة ﴿ ءَامِنًا ﴾ أي: ذا أمن، أي: أخرجه من صفة الخوف إلى صفة الأمن ﴿ وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ ﴾ بعِّدني وإياهم ﴿ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ من أن نعبد الأصنام ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ إسناد الإضلال إليهن باعتبار السببية كقوله تعالى: ﴿ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾[الأنعام: ٧٠]، ﴿ فَمَن تَبِعَنِى ﴾ على ديني ﴿ فَإِنَّهُۥ مِنِّى ﴾ أي: لا ينفك عني في أمر الدين فهو بعضي لفرط اختصاصه بي ﴿ وَمَنْ عَصَانِى ﴾ فيما دون الشرك ﴿ فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وإن أُريدَ عصيان الشرك كان الغفران والرحمة إن تاب وآمن، ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى ﴾ بعض أولادي، وهم إسماعيل ومن ولد منه ﴿ بِوَادٍ ﴾ وهو وادي مكة ﴿ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ ﴾ لا يكون فيه شيء من الزرع ﴿ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ﴾ هو بيت الله محترم عظيم الحرمة لا يحل انتهاكها ويحرم التهاون به ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ «اللام» متعلقة بـ «أسكنت»، أي: ما أسكنتهم بهذا الوادي البلقع إلاَّ لإقامة الصلاة عند بيتك المحرّم ﴿ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ أي: أفئدة من أفئدة الناس تسرع إليهم شوقاً ووداداً ﴿ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ وهم يسكنون وادياً لا نبات فيه ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ تلك النعمة، وقد أجاب الله دعوته فجعله حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء، ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ﴾ تعلم سرنا كما تعلم علننا ﴿ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ فالعالم كله بالنسبة إليه سواء، و«من» للاستغراق، ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ ﴾ أي: وهب لي وأنا كبير آيس من الولد ﴿ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ يقال: إنه ولد له إسماعيل لتسع وتسعين سنة وإسحاق لمائة واثنتي عشرة سنة، ﴿ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ أي: لَمجيبه، وقد سأل إبراهيم الولد بقوله: ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[الصافات: ١٠٠]، فلما استجاب الله دعاءه قال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ ﴾ الخ. ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ أي: متماً أركانها وسننها وحاضراً بقلبي عندها ومواظباً عليها ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾ أي: واجعل بعض ذريتي من يقيم الصلاة ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴾ أي: وتقبل عبادتي، ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ ﴾ لأبويّ، وقد جاء في السور المتقدمة عذره في دعائه لهما: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ ﴾[التوبة: ١١٤] الخ، ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ أي: يوم يبدو ويظهر، أو يوم يقوم الناس للحساب؛ وإلى هنا انتهى دعاء الخليل عليه السلام.

ثم قال الله تعالى مخاطباً كل إنسان: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ الغفلة معنى: يمنع الإنسان من الوقوف على حقائق الأمور، وهذا القول تسلية للمظلوم وتهديد الظالم، ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ أي: تشخص فيه أبصارهم فلا تقرّ في أماكنها من هول ما تشاهده هناك، ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ مسرعين إلى الداعي، أو مقبلين بأبصارهم لا يطرفون خوفاً ورهبة، وأصل هطع: أقبل على الشيء، ﴿ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ ﴾ رافعيها، فمن صفة أهل الموقف أنهم رافعو رؤوسهم إلى السماء ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ أي: لا ترجع إليهم أبصارهم من شدة الخوف فهي شاخصة ﴿ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ خالية لا تعي شيئاً ولا تعقل من شدة الخوف والجبن، ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾ أي: خوِّف الناس يا محمد ﴿ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ وهو يوم الموت، وهو مفعول ثان لـ «أنذر»، أي: ما يقع في اليوم، فالإنذار باليوم إنذار بما يحصل فيه ﴿ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ أي: الكفار ﴿ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ أي: ردّنا إلى الدنيا وأمهلنا إلى أمد قريب من الزمان نتدارك ما فرّطنا فيه من إجابة دعوتك واتباع رسلك، فيقال لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ أي: أنكم حلفتم في الدنيا أنكم إذا متم لا تخرجون لبعث ولا حساب، وقوله: ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ جواب القسم، وقد جاء به بلفظ الخطاب، ولكن لو جاء بلفظهم هم لقال: ما لنا من زوال، ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفر، أي: أقمتم فيها واطمأننتم طيبة نفوسكم وأنتم سائرون سيرة من قبلكم في الظلم والفساد، لا تفكرون فيما سمعتم من أخبار الذين سكنوها قبلكم، فلا تعتبروا بأيام الله فيهم وأنه أهلكهم بظلمهم، وإنكم إن سرتم سيرتهم لحقكم ما لحقهم ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي: صفات ما فعلوا وما فعل بهم، وهي في غرابتها كالأمثال المضروبة لكل ظالم ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ﴾ أي: مكرهم العظيم الذي استفرغوا فيه جهدهم لتأييد الكفر وإبطال الإسلام ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي: ومكتوب عند الله مكرهم، فهو مجازيهم عليه، وهو عذابهم الذي يأتيهم من حيث لا يشعرون ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ أي: أمر الدين الذي أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم فهو ثابت ثبوت الجبال، فليس مكرهم مزيلاً تلك الثوابت التي لا تزول من الأرض، فهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]، فـ «اللام» هذه تسمى لام الجحود، أي: ما كان الله مريداً تعذيبهم، وما كان مكرهم معداً لإزالة الجبال. وقرأ الكسائي: «لَتَزُولُ» بفتح اللام الأولى ورفع الثانية، أي: وإنه أي الحال والشأن كان مكرهم الخ، وتكون «اللام» في «لتزول» هي التي يسميها النحويون الفارقة، لأنها تفرق بين «إن» المؤكدة و«إن» النافية، وهي هنا مخففة من الثقيلة وتلزمها غالباً هذه اللام، أي: وإن مكرهم تزول منه الجبال لعظمته وكثرة احتيالهم، فيكون معنى الجملة: عظم مكرهم، وعلى الأول ليس مكرهم مزلزلاً الإسلام، ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ إذ قال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١]، ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١]، وإذا كان الله لا يخلف الميعاد فكيف يخلف الميعاد مع الرسل؟ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ غالب ينتقم من أوليائه لأعدائه، ثم أبدل من «يوم يأتيهم العذاب» فقال: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ بأن تتطاير هذه الأرض كالهباء وتصير كالدخان المنتشر ثم ترجع أرضاً أخرى بعد ذلك كما سيأتي بيانه من الحديث الشريف ومن العلم الحديث، ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ أي: وخرجوا من قبورهم لحكم الله والوقوف بين يدي الواحد القهار الغلاب ـ بتشديد اللام الثانية ـ أي: فلا مستغاث لأحد إلى غيره ولا مستجار.

ثم قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ﴾ قرن بعضهم مع بعض لاشتراكهم في العقائد والأعمال، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧]، وقوله: ﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء: ٩٤]، وقوله عليه الصلاة والسلام: «أنت مع من أحببت». ثم قال تعالى: ﴿فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ متعلق بـ«مقرنين»، والأصفاد: القيود. قال أبو زيد: تقرن أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأصفاد وهي القيود، ﴿سَرَابِيلُهُم﴾ قمصهم، واحدها سربال، وقيل: السربال كل ما لبس ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ القطران دهن يتحلب من شجر الأبهل والعرعر والتوت كالزفت، تدهن به الإبل إذا جربت، ويقال له: الهناء، فتقول: هنأت البعير أهنؤه بالهناء، وهو القطران، ومن شأنه أن يسرع فيه اشتعال النار، وهو أسود اللون

منتن الريح، وقرئ: «من قطرٍ آنٍ» وهما كلمتان منونتان، فالقطر: النحاس المذاب، والآني: الذي انتهى حرّه، فتكون قمصهم إذن من نحاس مذاب شديد الحرارة، ﴿ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ تعلوها باشتعالها ﴿ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ ﴾ مجرمة جزاء ﴿ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ يحاسب جميع العباد في أسرع من لمح البصر، ولا يشغله حساب عن حساب كما لا يشغله رزق زيد عن رزق عمرو، ﴿ هَٰذَا ﴾ القرآن ﴿ بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ ﴾ كفاية لهم في الموعظة ليتعظوا ﴿ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ ﴾ أي: بهذا البلاغ ﴿ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ بالنظر والتأمل يعرفون وحدانية الله تعالى ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ فيرتدعوا عما لا يليق. فهذا البلاغ لثلاثة أمور:

(١) أن الرسل يسعون بتخويف الناس لتكميلهم. (٢) وأن الناس ترتقي وتكمل قوتهم النظرية. (٣) وتكمل قوتهم العقلية بالتذكر. انتهى التفسير اللفظي.

مقاصد هذا القسم

اعلم أن هذا القسم الذي قصه إبراهيم الخليل، وما تلاه من مخاطبة الله للنبي صلى الله عليه وسلم، وسائر الناس تتميم للكلام، وجمع ما مضى من أول السورة تصريحاً تارة وتلويحاً أخرى. ولقد قدمت أن الخليل عليه السلام لا يخطر بالبال أنه يعبد الأصنام، وأن ذم عبادة الأصنام إنما كان لما فيه من حصر الفكر، ومتى عبد الناس ربهم خلصت عقولهم من التقيد بالأصنام، وناهيك ما تعلم من أن الخليل لما كسر الأصنام نظر نظرة في النجوم، ونظر الكواكب والقمر والشمس، وارتقى إلى الأفلاك وفوق السبع الطباق، وقال: ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ ﴾ [الأنعام: ٧٩] الخ، وهكذا العرب لما كسرت أصنامهم فكت عقالهم وانطلقوا في الأرض فأدّبوا أهلها، ثم هم اليوم حالهم كحال العرب الجاهلية الأولى، فهم في انقسام وانشقاق وتنابذ، ورؤساؤهم أصحاب شهوات ونزوات ظلموا وأفسد كثير منهم وهم ظالمون، وقد قلت إن جمود الفكر وحجره هو الذي تجب محاربته، وإذا وجدنا أهل دين من الأديان وقفت عقولهم وجب علينا إفهامهم، وهذه أمة الإسلام لا سيما العرب منهم حالهم اليوم أسوأ من حال آبائنا أيام الجاهلية، فنحن مقلدون متنابذون، ولعمري لقد جاء في القرآن في آيات سبقت في هذا التفسير أن القرآن إنذار للمسلمين كما هو إنذار للكفار، وهو واضح في سورة «الأعراف» وغيرها.

وإذا كانت عبادة الأصنام بحسب نتائجها داعية للتفرق والانقسام، من جهة ومن جهة ثانية داعية للجهالة وقيد الفكر، فليكن دعاء الخليل لقصد فك القيد عن أبنائه العرب، وأن يسهل الله له الدعوة التي قام بها، فلا يقوم عائق في سبيلها، فتقف وتحصر كما تحصر العقول بعبادة الأصنام، ولعل في قوله: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ﴾ ما يشير إلى ذلك، فكأنه يطلب من الله أن تفك القيود عن أبنائه؛ والعرب منهم، وقد أرسل لهم صلى الله عليه وسلم، وبعد مدة قيدوا تقييداً شديداً؛ كما قيدت عبادات الأصنام عبادها، وكأن هذا المعنى مما قصده؛ وإن لم يستجب في العرب الجاهلية الأولى لأنهم عبدوا الأصنام، وذلك لم يمنع استجابته في باقي ذريته، وإنما يتلى علينا الآن لنتدبر كيف كان أبونا الخليل يدعو الله أن يجنبنا عبادة الأصنام ونحن لا نعبدها ولكنا مقيدون في أصفاد التقييد لا ننظر في السماء كما نظر هو، ولا نفكر في الطبيعة كما فكر هو يوم قال: ﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة: ٢٦٠] فنفكر في الخروج من هذا المأزق ونفك القيود التي قيدنا بها.

وفي هذا المقام لطائف:

اللطيفة الأولى: إيضاح كيف كانت قصة الخليل عليه السلام جامعة ما في الكلمة الخبيثة والكلمة الطيبة، وأنها ملخص ما جاء فيهما.

اللطيفة الثانية: بيان أن ما بعد القصة من قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا ﴾[الآية: ٤٢] الخ قد اشتمل على ما هو كالنتيجة للتذكير بأيام الله الذي جاء في أول السورة، فهذا القسم جميعه أشبه بالتطبيق على السورة كلها، فأولها على أواخرها وآخرها على أولها.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ ﴾[الآية: ٣٧] الخ.

اللطيفة الرابعة: في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ ﴾[الآية: ٤٨] الخ.

اللطيفة الأولى

إن الخليل عليه السلام طلب من الله أن يتجنب هو وبنوه الأصنام لأنها أضلت كثيراً من الناس الخ، وهذه هي الكلمة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض فهو كالتطبيق عليها، وطلب من الله أن يجعله مقيم الصلاة وبعض ذريته، وجاء في كلامه: ﴿ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾[الآية:٣٨]، وهذان هما القسمان العلمي والعملي المذكوران في الكلمة الطيبة المبينة في قوله: ﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾[الآية:٣١] الخ، ففيها العمل بإقامة الصلاة الخ، والعلم بقول الله الذي خلق السماوات والأرض الخ.

اللطيفة الثانية

إن قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾[الآية: ٤٢] إلى قوله: ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾[الآية: ٤٤-٤٥] الخ، فهذا هو نتيجة ما جاء في أول السورة، فإنه هناك ذكر موسى قومه بأيام الله بعد ما أمره الله إذ قال له: ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾[الآية: ٥]، وقال: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾[الآية: ٩] الخ، وهنا جاء بعد ذكر ذلك في يوم الحساب على مقتضى أول السورة من التذكير بتلك الأيام في القرون الخالية.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى:

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ ﴾

روي أن أم إسماعيل جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء، فوضعهما هناك ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقاً فتبعته أم إسماعيل فقالت له: يا إبراهيم إلى أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء، ثم أفادها بأنه بأمر الله، فسلمت الأمر لله وعلمت أن الله لا يضيعهما، ثم رجعت ودعا إبراهيم بهذه الدعوات فقال: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى ﴾ حتى بلغ ﴿ يَشْكُرُونَ ﴾، ورجعت أم إسماعيل ترضعه وتشرب من الماء الذي عندها، فلما فرغ عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى أو يتلبط، فتوجهت إلى الصفا وهو أقرب جبل إليها ثم استقبلت الوادي هل ترى أحداً، فهبطت منه حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف

درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة وفعلت ما فعلت فوق الصفا، فلم تر أحداً ففعلت ذلك سبع مرات، فلذلك سعى الناس بينهما، ثم سمعت صوتاً وهي مشرفة على المروة، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو بجناحه حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف، فشربت وأرضعت ولدها، وكان البيت كالرابية تأتيه السيول، ثم مرت بهم رفقة من جرهم فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائراً عائفاً فعرفوا أنه على ماء، فاستأذنوا أن ينزلوا عندها فأذنت على شرط أن لا حق لهم في الماء، فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، وشب الغلام وتعلم العربية منهم وآنسهم وأعجبهم حين شبّ، فلما أدرك زوجوه بامرأة منهم، وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل وكان ما كان من سؤاله لزوجة ابنه وردها عليه بما لا يحسن، فقال لها: قولي له غيّر عتبة الباب الخ، وانتهى الأمر أن اجتمع معه وتعانقا وبنيا البيت كما في سورة «البقرة» عند قوله: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ ﴾[البقرة: ١٢٧]، وفي التفسير هناك تلخيص ما يناسب ذلك من حديث البخاري، وجئت هنا باختصار الحديث الذي يوضح ما في هذه السورة ومجموعهما مقصود ما في حديث البخاري بطوله.

اللطيفة الرابعة: في قوله تعالى:
﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ﴾

اعلم أن هذه الآية من المعجزات للقرآن، فإنك ترى العلم الحديث منطبقاً عليها تمام الانطباق، ألا ترى أنهم يقولون: إن الأرض والشمس والسيارات كانت في قديم الزمان عبارة عن كرة نارية حارة طائرة في الفضاء، ودارت على نفسها ملايين من السنين، ثم تكونت الشمس، وبعد ملايين فصلت منها السيارات، ومنها الأرض، وبعد مئات الألوف من السنين انفصلت عنها الأقمار.

ثم إن هذه العملية نفسها ستعاد كرة أخرى؛ أي: أن الأرض والكواكب والشمس بعد ملايين السنين ستنحل هذه الأجسام كرة أخرى، وتدخل معمل الطبيعية مرة أخرى، وتعاد من جديد، فتجدد أرض غير الأرض بعد ما يذوب ذلك كله ويتطاير في الفضاء ملايين السنين، ولا يبقى لها أثر ويعاد العمل من جديد، وتصبح شمس غير الشمس وأرض غير الأرض؛ وبالطبع السماوات غير السماوات، وإذا سألت علماء الفلك ما برهانكم على هذه المسألة؟ أجابوك كما في كتاب «الدنيا الواسعة» في علم الجغرافيا صفحة ٨ باللغة الإنجليزية، وهاك ما ترجمته:

«كيف عرف الفلكيون أن تاريخ بدء الأرض على هذا المنوال كان حقاً وما برهانهم على ذلك فكان الجواب: إن هؤلاء الفلكيين رصدوا بمناظيرهم الكبيرة المسمى كل واحد منها بالتلسكوب، وشاهدوا أحجاماً كبيرة بخارية على هذا المنوال الذي قدروه للأرض، وقد كشفوا أكثر من ستين ألف كوكب مختلفة، فمنها لا يزال كرة نارية، ومنها ما ابتدأ يتكون، ومنها ما اقترب من الكمال والتكوين، وبقيتها بين هذين الحدّين مختلفات البعد والقرب منهما.» اهـ.

فبهذا قدروا أحوال أرضنا وشمسنا، فكأنهم بهذا عرفوا سير كرتنا، وتاريخ تطورها في التكوين. اهـ.

أليس هذا بعينه هو قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ﴾ ، فانظر كيف أصبح العلم يشاهد تبدل الأرضين بالأرضين ، والشموس بالشموس ، لا شمسنا وأرضنا فقط . وانظر قول أبيّ بن كعب قال في معنى التبديل : إن الأرض تصير نيراناً . وقال بعض المفسرين : تخلق بدل الأرض والسماوات أرض وسماوات أخرى . وروي عن عائشة قالت : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ﴾ ، فأين يكون الناس يومئذ يا رسول الله ؟ فقال : على الصراط » . أخرجه مسلم .

فانظر كيف صارت الأرض ناراً ، وجعل الناس في عالم غير عالم الأرض . وروى ثوبان أن حبراً من أحبار اليهود سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض ؟ قال : « هم في الظلمة دون الجسر » . فانظر كيف اتفق العلم الحديث مع الآيات والأحاديث ، وأن الأرض تصير ناراً وأن الناس لا يكونون عليها .

ثم اسمع ما هو أعجب وهو ما روي عن ابن مسعود وأنس رضي الله عنهما : « يحشر الناس على أرض بيضاء لم يخطئ عليها أحد خطيئة » . وإذا كان ذلك فهي أرض جديدة من تلك الأراضي التي تجهز الآن في هذه العوالم ولم يسكنها أحد ، بل خلقت حديثاً .

ولست أذكر هذه الأحاديث إلاّ للموازنة بين ما جاء في الدين وما جاء في العلم الحديث ، مع العلم أن هناك أحاديث تخالفها ، ولكن ظاهر الآية يوافق هذه الأحاديث ويوافق العلم الحديث ، وهذا من عجائب هذا الزمان .

وهاهنا أربع جواهر :

الجوهرة الأولى : في قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [الآية : ٣٤] ، وفيما قبلها من الآيات المذكرات بالنعم .

الجوهرة الثانية والثالثة : في قوله تعالى : ﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ [الآية : ٣٥] .

الجوهرة الرابعة : في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [الآية : ٤٨] .

الجوهرة الأولى : في قوله تعالى :
﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾

وفي تذكير المسلمين بما قصروا في نعم الله المذكورة في هذه الآية

وحرموا من ۲۳۸ ألف ألف ألف جنيه من البحر الميت بفلسطين

أيها المسلمون ، جاء في أول السورة أن موسى عليه السلام ذكر قومه بأيام الله ، وأن نبينا صلى الله عليه وسلم كذلك ذكر أمته ، وكاتب هذا التفسير ذكر الأمة بعد ما ذكر العلماء السابقون .

أنا حينما كنت أكتب لك التذكير لم يكن ليجول بخاطري أن حادثاً يرجّ الأرض رجاً ، ويبسّ الجبال بساً ، ويكون حدوثه أثناء طبع هذا التفسير ، لم يكن ليخطر لي ذلك ، ولم أكن أعتقد أن المسلمين قد وصلوا إلى درجة محزنة مخزية فظيعة مفزعة مريعة من الجهالة والغفلة عن هذه الآيات .

أيها المسلمون ، إن الله ملككم فلسطين منذ أيام الخلفاء الراشدين ، وأراد الصليبيون أن يفتحوا تلك البلاد ، ويفتحوا مصر ، فلم ينالوا حظهم ، أتدرون لماذا حاولوا ذلك ، أرسلهم الله سابقاً ليقولوا

للمسلمين بلسان الحال : نحن قد بعث الله هممنا لنقاتلكم ، ولماذا هذا؟لأجل أن نذكركم بقوله تعالى : ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ .

أنتم ملكتم الهند والشام والفرس والعراق ومصر والسودان والأناضول وشمال إفريقيا وبلاد الأندلس ، وفي هذه البلاد ما جاء في هذه الآية من الأنهار الجاريات والفلك المسخرات والثمار اليانعات والبحار الواسعات فيها السفن الماخرات . وكأن الله يقول لكم : فإن شكرتم بحفظها واستعمالها أبقيناكم وإن أنتم تركتم الأمور على غاربها وأهملتم أنهاركم بلا استعمال ، وبحاركم وجبالكم ، فإني أغضب عليكم ، وكيف لا أغضب عليكم وأنا الذي لا تعدّ نعمتي ولا تحصى ، ومن أعطي النعم العظيمة فأعرض عنها فقد كفر بها ، والكفر بالنعم مضيع لها : ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ .

هذا هو الذي أفهمه في محاربة الفرنجة للمسلمين أيام الحروب الصليبية ، فهو إنذار للمسلمين ، وقد طردهم صلاح الدين الأيوبي فرجعوا وهم يحملون علماً جماً . أما المسلمون فناموا بعدها نومة أغضبت ربنا ، فأرسل الفرنجة هذه المرة فماذا فعل ؟ أدخل الإنجليز فلسطين ، فماذا فعلوا؟ فعلوا ما جاء في جرائدنا المصرية يوم ١١ سبتمبر سنة ١٩٢٧ قبيل طبع هذه السورة ، وهذا نصه :

امتياز البحر الميت ٢٣٨ بليون جنيه

تؤكد صحف لندن وأمريكا وفلسطين خبر منح امتياز باستغلال البحر الميت في فلسطين لشركة إنجليزية ، وتروي تلك الصحف عن المواد التي يشتمل عليها ذلك البحر ويمكن استخراجها منه روايات مدهشة ، حتى إن بعض الصحف الكبرى كجريدة «التيمس» ترى أنه سيكون مصدراً من أعظم مصادر الدخل للحكومة الإنجليزية ، فكأنما هو بمثابة منجم ذهبي كان مهملاً حتى الآن ، فقد كانت الحكومة التركية في زمن حكمها في تلك البلاد ترفض كل طلب أجنبي يرمي إلى استغلال ذلك البحر واستخراج محتوياته . وقد ذكرت « الأمريكان هبرو» أن عالماً جيولوجياً إنجليزياً قصد ذلك البحر للاستطلاع والبحث بعد ما دخل الماريشال اللنبي فلسطين ، وبعد الاختيار قدّر ثروة ذلك البحر على الوجه التالي الذي يتفق مع تقدير خبراء آخرين لها ، وهو كما يلي :

(١٣٠٠) مليون طن من البوتاس تقدر بمبلغ (١٤) مليون جنيه إنجليزي . (٨٥٣) مليون طن من البروم تقدّر بمبلغ (٤٢) مليون جنيه . (١١,٩٠٠) مليون طن من الملح تقدّر بمبلغ (١١,٥٠٠) مليون جنيه . (٨١) مليون طن من الجبس تقدّر بمبلغ (١٦٥) بليون جنيه . (٢٢) مليون طن من كلورو المغنسيوم تقدّر بمبلغ (١٦٥) بليون جنيه .

وينتظر إمضاء عقد الامتياز قريباً من جانب الشركة الكيميائية الإمبراطورية التي يرأسها المستر « بروزو أدموند» . ويشترط في هذا العقد منح الامتياز لمدة محدودة من الزمن يعود بعد انتهائها إلى حكومة فلسطين ، وتتعهد هذه الشركة بإنشاء مدرسة لتهيئة طلبة من أبناء فلسطين لهذا العمل في اليوم الذي تنتهي فيه مدة الامتياز ، وتتعهد كذلك بأن تقدّم إلى أهل فلسطين الحاصلات اللازمة لهم من محتويات هذا البحر بسعر لا يتجاوز كلفة استخراجها . ويرى بعضهم أن هذا المشروع سيكون أعظم منافسة من جانب الإنجليز للفرنساويين والألمان في كلورات البوتاس والمواد الأخرى التي يعدّ الفرنسيون والألمان أصحاب المقام الأول في سوقها . اهـ .

هذا هو نص ما جاء في جرائدنا ، والذي آلمني وأوقع في قلبي أشد الحزن أني لم أر من أهل العلم ضجة أو أسفاً على الجهل العام في أمم الإسلام ، وإنَّما هذا الخبر لما انتشر مر كغيره .

وأنا أقول : إن الأمر لعظيم ، هذا البحر سميناه ميتاً ، وإنَّما سميناه ميتاً لأننا ميتون ، ولو كنا أحياء لاتخذنا من مواده الغزيرة لنا حياة ، ولكان لنا أجلّ ذخيرة .

أيها المسلمون ، هل تظنون أن ربنا الذي يقول في هذه الآيات : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴾ [الآية : ٣٢] يخاطبنا بقوله : ﴿ لَكُمُ ﴾ ، ثم هو إذا رفضنا نعمته يترك تلك النعمة في أيدينا ؟ هل الله يعطي الذهب للبهائم والطير والسباع أم يعطيها للإنسان ؟ إن الله لم يلهم الآساد البحث عن الذهب والفضة ، وهذان المعدنان ليسا نعمة على الآساد ، فليس يقول الله للآساد : أنعمت عليكم بالذهب ، ولكنه قال لنا : أنا سخرت لكم الأنهار وسخرت لكم الفلك في البحر ، ونظر لنا حتى لا نحتج بأنه لم يذكر البحر الميت في فلسطين ، فقال : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [الآية : ٣٤] ، فإن لم يدخل البحر الميت فيما تقدم من المياه فقد دل هنا ، لم يبق عذر للمسلم بعد هذا البيان إذا فهم أن البحر الميت ليس نعمة ، وهذه النعمة مسخرة لنا . وقد تقدم في أول هذه السورة : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [الآية : ٧] ، وشكر النعمة استعمالها فيما خلقت له ، والبحر الميت بعد أن أنذرنا الله بالحروب الصليبية لم نفهمه ولم نفهم سواه ، بل تركنا الأرض المباركة وغير الأرض المباركة ، فلم نستخرج المنافع منها لجهلنا ، وإن كاتب هذا التفسير لم يعلم أن في البحر الميت هذه الفوائد إلاَّ من هذا الخبر ، فنحن قوم جاهلون فحق علينا القول ، فماذا حصل لما كفرنا النعمة ؟أرسل قوماً آخرين مستعدين لها ، فهاهم أولاء يستخرجونها ، وما مثل المسلمين مع ربهم إلاَّ كمثل الديك قدّمت له جواهر وقطع من الماس ليأكلها فنبذها ظهرياً ، وقال : أين حب الذرة والقمح . وقد تقدم في سورة « الأعراف » أن عذاب الدنيا يشمل جميع المؤمنين وغير المؤمنين فارجع إليه إن شئت .

وانظر إلى قول الكاتب : « فكأنَّما هو بمثابة منجم ذهبي عظيم كان مهملاً » ، وقوله : « إن عالماً جيولوجياً إنجليزياً قصد ذلك البحر بعد فتح فلسطين الخ » .

وهذا مثل الذي حصل أيام دخول الفرنسيين مصر منذ نحو ١٥٠ سنة ، فإن القوم مكثوا فيها ثلاث سنين ، ومباحثهم التي قاموا بها فوق متناول المسلمين كلهم . وقد ملؤوا مجلدات كبيرة في منافع أرض مصر وجبالها وحيواناتها ، والمسلمون لم ينتفعوا بشيء من ذلك ولم يثوروا في وجه الجهل .

اللهم إني أذكر المسلمين بهذا التفسير وأذكرهم بما قاله « جنكيز خان » كما سيأتي في آخر سورة « الكهف » عند قصة يأجوج ومأجوج من أنه لما أرسل تجاراً من بلاده إلى بلاد الإسلام فقتلهم « قطب أرسلان » ثم آخرين ، فمثل بهم وأخذ مالهم لجهل المسلمين إذ ذاك بجغرافية جيرانهم ، اختلى ثلاثة أيام وهو لا يذوق فيها طعاماً ، فقال : اللهم إني أردت عمارة أرضك ، وأراد المسلمون خرابها ، فانصرني اللهم عليهم ، ثم انقض على بلاد الإسلام فلم تقم لها قائمة بعدها . كما نقلته من كتاب « فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء » .

فسواء صح هذا أو لم يصح ، فهذه نفسها سنة الله ، وهاهو ذا صح عندنا أن البر الميت جهله المسلمون وعرفه النصارى ، إذن نحن الآن جهال بنعمة الله ، وهذا الجهل هو مبدأ الكفر بالنعمة ، ومن المخجل أن يقول الكاتب : إن هذا المشروع سيكون أعظم منافسة من جانب الإنجليز للفرنسيين والألمان ولم يذكر دولة إسلامية تنافس الإنجليز في هذا . فهل رأيت نوماً عميقاً كهذا ، وهل عند المسلمين جميعاً عرباً وتركاً وفرساً وغيرهم ثروة تقدر بمبلغ ٢٣٨ ألف مليون جنيه ، ومعنى هذا أن المسلمين جميعهم لا يملكون ما يعادل ثمن محصول البحر الميت ، فهل رأيت موتاً أشنع من هذا؟ .

فإذا قال « جنكيز خان » : المسلمون خرّبوا بلادك ، فهاهو ذا لسان العدل ولسان الحق ولسان الدول جمعاء ناطقات بأن المسلمين أكثرهم لم يعمروا أرض الله تعميراً تاماً ، ولم يقوموا بحفظ الأمانة التي استودعوها . أيها المسلمون ، إن هناك بقية أمل فهل أنتم منتهون . انتهى .

حكمة إلهية ونور على نور

استيقظت صباحاً في يوم من الأيام فرأيت في النفس ميلاً قوياً وخاطراً هاجماً في اليقظة والمنام لإكمال هذا الموضوع ، فلم أجد بدأ من التوسع فيه حتى أتم ما وقر في النفس من بدائع القرآن ، وبينما أنا كذلك إذ حضر صديقي العالم الذي اعتاد أن يجاذبني أطراف الحديث في مثل هذا المقال ، فقال :

س ـ ماذا تريد بعد ما قدّمته في مسألة البحر الميت وأيّ أسرار للقرآن في ذلك؟ .

ج ـ فقلت : سأذكر عجائب العناصر في البحر الميت ، وسر الحروف في أوائل السور في القرآن .

س ـ وما المناسبة بينهما؟ .

ج ـ إن البحر الميت قد حلل الله فيه العناصر مثل : المغنسيوم ، والكلور ، والبروم ، وجعل فيه مركبات مثل : الملح والجبس ، ففيه المركبات وفيه العناصر . هكذا الحروف في أوائل السور والجمل في القرآن ؛ ففي القرآن آيات تحثّ على العلوم ، وفي القرآن حروف في أوائل السور تشير إلى قراءة جميع العلوم كما قدمنا ذلك في سورة « هود » وفي أوائل سورة « آل عمران » . إن العلوم كلها لا يعرفها الناس ما لم يحللوا مركباتها إلى مفرداتها ؛ كالحساب والهندسة ، وهكذا العلوم الطبيعية ، فمثلها كمثل جميع اللغات ، فلا نعرف اللغة إلاّ بالتحليل وإرجاع المركبات إلى الكلمات والكلمات إلى الحروف ، والله هو الذي أنزل القرآن ، وهو الذي خلق البحر الميت ، فهو الذي حلل في البحر الميت البروم والكلور والمغنيس وهو الذي ركب الجبس والملح فيه ، وفعل مثل ذلك في القرآن فجعل فيه حروفاً كما جعل هنا عناصر ، ولما غفل المسلمون عن آي القرآن ماتت القلوب عن بحث هذه العوالم واستخراج منافعها المركبات من عناصرها ، فهم كما جهل أكثرهم القرآن فلم يعرفوا إلاّ ألفاظه ، هكذا جهلوا منافع أرضهم وبحارها ، ومنها البحر الميت ، فإذا سموا البحر في فلسطين ميتاً ؛ والموت إنّما هو في أكثر قلوب الجاهلين فيهم ، فنسبوا ما حلّ بنفوسهم من الجهل والموت إلى البحر ، فهكذا القرآن لما هجروه ماتت النفوس عن معانيه وعن العالم الذي خلقنا فيه ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾[الفرقان : ٣٠] .

س ـ لا تزال المناسبة بين العناصر في البحر الميت وبين الحروف في أوائل السور تحتاج إلى إيضاح فإن نفسي غير مطمئنة إلى هذا البيان ، فإن كون الحروف في أوائل السور كالعناصر في البحر الميت وغيره أمر عام لا يخصّ هذه السورة .

ج ـ إن أول السور من «يونس» إلى «الحجر» وجميعها ست سور كلها مبدوءة بحرف ﴿الٓر﴾ وتزيد «الرعد» بأن بين «الـ والراء» «ميماً»، فوجود «الـ» أولاً و«الراء» آخراً عام في الجميع، وهذه الخاصية محققة في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: ٢٨] الخ، فإنه ذكر سبع كلمات في معرض الذين بدّلوا نعمة الله كفراً، كلها فيها هذه الخاصية، أي أن «الـ» في أولها و«الراء» في آخرها، وهي: «البوار، القرار، النار، البحر، الأنهار، القمر، النهار»، ومعلوم أن السورة مذكرة بنعم الله كما ذكر موسى عليه السلام ونبينا صلى الله عليه وسلم قومهما بذلك، والنعم كثيرة فبيّن أهمها هنا في معرض توبيخ وذم الذين بدّلوا النعمة فلهم البوار والنار، وهي لهم قرار، وعليهم البحث في البحار والأنهار والقمر والنهار، وكل موجود، فهذه ذكرت هنا كالنموذج للنعم التي يجب شكرها تفسيراً لقوله تعالى في أول السورة: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]. ولا جرم أن البحر الميت من البحار، وقد جاءت هذه الكلمات السبع مشابهة للسور السبع التي في أوائلها ﴿الٓر﴾، فأول البحر «الـ» وآخره «الراء»، فدخل في الذي طلب تحليله من النعم التي قد يبدلها كفراً بعض الناس، وأن من حكمة الله أن يكون طبع تفسير هذه السورة أيام انتشار خبر البحر الميت حتى يدخل في أسرار ﴿الٓر﴾ وتحليل عناصره المدلول عليها بحروف أول السورة، فلئن جهل المسلمون القرآن وانحطت مداركهم ليس معناه أنه لا يرقي الإنسانية، كما أن البحر الذي سموه ميتاً ليس بميت، وإنّما هو حي يعطي الحياة لقوم يعلمون، فما مثلهم إلا كمثل قوم حملوا رجلاً ظنوه ميتاً على النعش، فلما أنزلوه ليدفن عرف الطبيب حياته فأتى له بالأدوية المنعشات فعاش إلى حين.

س ـ فقال: هناك أمران أرجو إيضاحهما:

الأول: ما صفات العناصر التي في البحر الميت في علم الكيمياء؟

الأمر الثاني: وهل في التاريخ أن رجلاً مات ثم كشف الطبيب أنه حي؟ إذا صح هذا في التاريخ كان خير مثال لحال المسلمين مع ما ملكوا من بحار وجبال وأنهار الخ، ومع ما حفظوا من دين وقرآن.

ج ـ فقلت: إن هذا البحر جمع من العناصر النافعة للنوع الإنساني أمثال:

(١) البوتاسا: هي من مركبات البوتاسيوم الذي هو فلز، لونه أبيض فضي لمّاع، ليّن كشمع العسل، ولون بخاره أخضر جميل، وهو أخف من الماء، وإذا ألقيت قطعة منه في الماء فإن كرات منه تحمرّ بسبب شدة ارتفاع الحرارة، ويحصل التهاب، وتدور كرات البوتاسيوم بعضها على بعض سابحة على بعد من سطح الماء، ثم يصير البوتاسيوم مع ما اتّحد به بوتاسا، والبوتاسا، جسم كاو شديد، إذا لامس الأنسجة أحدث فيها استرخاء وأتلفها.

(٢) الصوديوم: هو معدن فضي اللون، لين إذا ألقي في الماء الحار أو أحمي قليلاً يشتعل بنور لامع أصفر فاقع، وكل أملاح الصوديوم نورها عند الاشتعال يكون أصفر، وهو كثير في الوجود لدخوله في ملح الطعام.

(٣) الكلور: أكثر وجوده في ملح الطعام مركباً مع الصوديوم، فهو مركب من الكلور والصوديوم وهو غاز مفطس، لونه مصفرّ مخضرّ، له رائحة مفطسة خانقة، يحدث سعالاً شديداً، وهو سامّ، وقد تقدم في آخر سورة «آل عمران».

(٤) المغنسيوم : هو معدن فضي ، لين قابل أن يسحب خيوطاً ، ولم يخلق وحده في الوجود ، بل مركباً مع غيره ، ويكون في ماء البحر مركباً مع الكلور المتقدم والبروم واليود .

هاأنا ذا بحمد الله قد وصفت لك أكثر المعادن التي خلقت في البحر الميت ، فانظر إلى جسمين فضيين لون بخارهما متقارب وهما الصفرة والخضرة ، وكل منهما يشتعل في النار إذا ألقي فيها ، وجسم ثالث لونه أشبه بلونهما وهو مميت ، وجسم رابع وهو فضي كالعنصرين الأولين . هذه العناصر بعض ما في بلاد الإسلام مما جهلوه ، وهذه هي التي تتركب منها الأجسام ، ويكون منها خير كثير ولا خير منها إلاَّ بالعلم ، والعناصر في هذه الدنيا تبلغ فوق ثمانين ، فما في البحر الميت مثال يقاس عليه ما في سائر بلدان الإسلام ، كما أن حروف الهجاء في أول السور مثال لغوي تقاس عليه جميع العلوم .

س ـ قال : فهمت مسألة العناصر ومركباتها ، وعرفت خواص أكثر ما ذكر في البحر الميت منها ، فما شواهد التاريخ التي طلبتها منك ؟ .

ج ـ فقلت : إن في التاريخ ثلاث حوادث وكلها من كتاب الوزير جمال الدين أبي الحسن علي ابن القاضي الأشرف يوسف القفطي المتوفى سنة ٦٤٦ :

الحادثة الأولى : ذكر أن طبيباً رأى ميتاً محمولاً على النعش ، ولمح قدم رجله بهيئة خاصة لا تكون من الأموات ، بل هي من خواص الأحياء ، فأعلم أهله فأنزله وداواه فرجع إلى الحياة ، فكان لذلك الطبيب عزاً وفخراً وشهرة إلى آخر أيامه .

الحادثة الثانية : جاء في ترجمة صالح بن بهلة الهندي أيام الرشيد أن جبرائيل بن بختيشوع أخبر الرشيد أن ابن عمه إبراهيم بن صالح في آخر رمق وأنه ينقضي عمره وقت صلاة العتمة ، فترك الرشيد تناول الطعام وبكى ، فأخبره جعفر بأن صالح بن بهلة يعلم في الطب علم الهند وعلم الروم معاً ، فأحضره ودخل على إبراهيم بن صالح ورجع إلى الرشيد فقال له : لن يموت وإني أخرج من مالي ونسائي طوالق ثلاثاً إن مات ، فأكل الرشيد وهو مسرور ، فلما كان وقت العتمة ورد له الخبر بموت إبراهيم بن صالح ، فلعن صالح بن بهلة وطبه وطب الهند ، وتقايأ الطعام الذي أكله ، ووقف متكئاً على سيفه ، فجاءه صالح بن بهلة وقال له : أتطلق زوجتي وتضيع مالي وتدفن ابن عمك حياً ؟ وكرر ذلك فأذن له بالدخول ، فدخل ورأى علامة الحياة ، فدخل الرشيد فأدخل صالح بن بهلة إبرة كانت معه بين ظفر إبهام يده اليسرى ولحمه ، فجذب إبراهيم يده وردها إلى بدنه ، فقال صالح : يا أمير المؤمنين ، هل يحس الميت؟ ثم خلع عنه ملابس الكفن وألبسه ثيابه ونفخ في أنفه « الكندس » ، فمكث مقدار سدس ساعة ثم اضطرب بدنه وعطس وجلس ، فكلم الرشيد وقبل يده وعاش زماناً وتزوّج العباسة أخت هارون الرشيد ، وولي مصر وفلسطين ، وتوفي بمصر وقبره بها .

الحادثة الثالثة : روي أن ثابت بن قرة اجتاز يوماً إلى دار الخليفة فسمع صياحاً وعويلاً ، فقيل له : إن القصاب الذي كان في هذا الدكان قد مات فجأة ، فقال : كلا ، فتوجه به الناس إلى دار القصاب ، فأمر النساء أن يمسكن عن اللطم والصياح ، وأمر غلامه أن يضرب القصاب « الجزار » على كعبه بالعصا ، وجعل دواء في ماء ووضعه في فم القصاب ، فشربه ، فوقعت الصيحة في الدار والشارع بأن الطبيب أحيا الميت ، وسرعان ما وصل الخبر إلى دار الخليفة فاستدعاه ، فذهب والدنيا قد انقلبت وراءه

بسبب أنه أحيا الميت، فلما دخل عليه قال له: يا ثابت ما هذه المسيحية ـ يريد أن المسيح أحيا الموتى ـ فأخبره أن هذا القصاب كان يشرّح الكبد ويطرح عليها الملح ويأكلها كل يوم وأنا أمر عليه، فعرفت أن سكتة ستلحقه، فلما أخبرت خبره داويته. اهـ.

س ـ فقال: ما وجه الشبه بين البحر الميت وهذه الثلاثة؟.

ج ـ الشبه من ثلاثة وجوه: الأول: أن كلاً من الحوادث الثلاثة فيها حي ظنه الناس ميتاً، وحمل في الأولى على النعش، هكذا هذا البحر ملكه المسلمون فكأنهم حملوه وهم يظنون موته. الثاني: أن الأطباء الثلاثة كثابت وصالح بن بهلة عرفوا أن هؤلاء الثلاثة أحياء، وهكذا علماء الجيولوجيا من أوروبا قالوا: إن البحر فيه حياة. الثالث: أن الخليفة قال: يا ثابت ما هذه المسيحية؟ فأخبره بأن هذا أمر علمي لا دخل للدين فيه، هكذا علماء الجيولوجيا من أوروبا عرفوا أن البحر فيه حياة وهذه المعرفة علمية.

س ـ فقال: وماذا تريد بعد ذلك؟.

ج ـ قلت: أريد أن لا يكون المسلمون بعدنا مثل المسلمين اليوم، فلا يكونون مالكين لأرض الله وللبحار والأنهار الخ، وهم يجهلون منفعتها، كأنهم يحملون أمواتاً بحسب أعمالهم وهم أحياء في الحقيقة، أو كمثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها، فتعبوا في حملها وهم لا ينتفعون بها، فشبهوا بالحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم النائمين الغافلين، فمن الخسران أن يكونوا كالعامة الذين لم يفرّقوا بين الحي والميت، بل يجب أن يكونوا في علوم الحياة كثابت بن قرة في الطب، وكالطبيب الذي أنزل الميت من نعشه فعاش حيناً، فقد عُدّ على النعش ـ بالجهل ـ من الأموات، ولما أنزل عنه ـ بالعلم ـ عُدّ من الأحياء، فليكن المسلمون بعد اليوم كهؤلاء الأطباء.

س ـ فقال: وما ظنك بهم اليوم؟.

ج ـ فقلت: قد سبق القول في هذا غير مرة في هذا الكتاب، وأنهم بعد انتشار هذا التفسير وأمثاله في زماننا ستسري فيهم الفكرة سريان الكهرباء في المعادن، ويكونون كما قال تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الحديد: ١٧]، وكما كان الناس يظنون البحر ميتاً إذ الحياة كامنة فيه، هكذا الأمم الإسلامية الحياة كامنة فيها وستظهر اليوم، وأكثرهم اليوم مثلهم كمثل لك المحمول على النعش يظنه الناس ميتاً وما هو بميت، فإذا قرؤوا أمثال هذا التفسير كسروا القيود ورموا بالنعش واستبدلوا بملابس الأموات ملابس الشباب والقوة، وساروا في الأرض وعمروها بعد ما ظن الناس أنهم مفارقوها، وخلعوا سواد الحداد ولبسوا ثياب القوة والشباب والنخوة والعز والكمال. انتهى.

الجوهرة الثانية: في قوله تعالى: ﴿ وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾

اعلم أن هذه الكرة الأرضية التي نعيش عليها من عالم متأخر، فإن هذه الكواكب التي نراها ليلاً عظيمة الأحجام والأقدار، ويظن العلماء في عصرنا؛ ويوقن علماء الأرواح أن ما حولها من السيارات التي تعد بمئات الألوف فيها سكان أرقى منا أخلاقاً وعقولاً، ويقال: إن رقي العقول والأخلاق والأعمال على حسب أهمية الكوكب عظمة وضعفاً، هذا كله لم يخرج عن حيز الظنون، فأرضنا هذه

ليست من تلك العوالم العظيمة، لذلك نجد أهلها أقرب إلى الجهل منهم إلى العلم، ألا ترى أن العقول المغروسة في بني آدم تضعف وتنام بأدنى حادث، فترى التنويم المغناطيسي يغطيه والوهم يلهيه، وعلماء الديانات يتصرفون في العقول كما يشاؤون، والناس في ذلك غافلون تائهون، ترى الناس يصنعون الأصنام ويعبدونها، وإذا نزل دين بالتوحيد وأشرك العلماء اتبعهم العامة كما في الدين المسيحي، هكذا المسلمون أيضاً تراهم متفرقين، وكل فرقة لا تقدّس إلاّ ما تلقته من الأشياخ كما ترى في رجال الصوفية فإن أكثرهم يعتقدون في شيوخهم العصمة، وكأنهم منوَّمون؛ وهؤلاء الأتباع منوَّمون ـ بالفتح ـ ومن الفرق المشهورة الطائفة المسماة بالباطنية، فهؤلاء من فرق المسلمين ظاهراً، وقد قرأنا عنهم في كتب كثيرة، ولكن لم يخطر بالبال أن هؤلاء الذين بنوا الجامع الأزهر والقاهرة، وحكموا في مصر فوق مائتي سنة، ينحط أتباعهم في زماننا إلى دين وثني، فإنهم يعبدون الرئيس الديني عندهم، وما كنا لنصدّق ذلك، وذلك الرئيس ينتسب لآل البيت الكرام، ومن عجب أن سيدنا علياً كرم الله وجهه نبذ هؤلاء الذين كانوا يعتقدون فيه الألوهية، فحاربهم وانتصر عليهم، فكيف يرضى من ينتسب إليه أن يرجع أتباعه إلى حال مزعجة، إذا صح ما ستقرؤه الآن من شكوى أتباعه منه في الجرائد، وكيف يجعل ذلك الرئيس نفسه نداً لله، ويكون من المذكورين في الآية، أو يصبح كفرعون وأمثاله.

اللهم إن العالم الإنساني في الأرض سريع النزوع للجهل، غارق في بحار العماية والضلال، فهاك ما جاء في إحدى الجرائد المصرية المشهورة بتاريخ الجمعة ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٢٧م و٤ ربيع الثاني سنة ١٣٤٦ هـ: إلى سموّ أغا خان

خطاب كله شكاوي وفضائح

تلقينا في البريد الوارد علينا من الهند صورة خطاب مفتوح موجه إلى سمو أغا خان؛ الزعيم الهندي المعروف؛ من بعض أتباعه يلفتون نظره فيه إلى حال الطائفة التي يهيمن عليها سموه، والتي بلغت من التأخر والانحطاط حداً كبيراً، تلك الطائفة الإسماعيلية، وأغا خان معروف للمصريين، فهو الذي قيل عنه إن الحكومة البريطانية أرادت أن تقيمه سلطاناً على مصر في بداية الحرب في حالة رفض المغفور له السلطان حسين كامل عرش مصر، وأغا خان يقضي أغلب وقته في أوروبا حيث تراه في كل بلد من بلاد المصايف والمشاتي، وحيث له عشرات من الجياد تجري في السباق في لندن وباريس وكل مركز من مراكز الترف والظهور.

ولما كان الخطاب طويلاً آثرنا أن نلخصه للقراء، وهو يحوي فضائح عدة مؤلمة بين طائفة من المسلمين، وهو بوجه خاص نقد موجه إلى زعيمهم أغا خان، وقد استهله كاتبوه بما يأتي:

يا صاحب السمو، نحن الموقعين على هذا أعضاء طائفة خوجا، نرفع إلى سموكم الخطاب التالي، واثقين أن ينال لديكم ما يستحق من العناية والاهتمام، اسمح لنا يا صاحب السمو في مستهل خطابنا هذا أن نقول أن السبب الوحيد الذي حملنا على أن نسلك هذا الطريق الخطر هو الحالة التعسة التي عليها إخواننا البؤساء، ونقول: إن الطريق التي نسلكها الآن خطرة لأنه حدث غير مرة أن الذين يجرؤون على الاحتجاج ضد المظالم السائدة التي جرّت هذه الحالة التي يرثى لها كان نصيبهم الموت من جراء عملهم هذا، ومع أن الخطة التي نسلكها هي في نظر العقلاء الخطة المثلى والطريقة الدستورية

المشروعة للإعراب عن مظالم يراد صلاحها، فإنه مع ذلك لا يدهشنا إذا كانت نتيجة عملنا هذا الذي نقوم به بحسن نية أن يكمن لنا الفدائيون من أتباع سموكم ويقضوا على حياتنا، على أنه إذا حدث شيء من ذلك فإنه يحتمل أن يثور الرأي العام، ويقوم ولاة الأمور بتحريات في الأمر نرجو أن تنتهي عاجلاً أو آجلاً باتخاذ تدابير تضع حداً لحالة يتعذر تصديقها في هذا العصر عصر المدنية والعرفان، نعم ندرك حق الإدراك ما لسموكم من المكانة الرفيعة والمقام السامي في العالم، غير أننا نجد ما يشجعنا على توجيه هذا الخطاب إلى سموكم، عالمين أننا نعبر عن شعور عدد كبير من أنصاركم لا يجد معظمهم من أنفسهم الشجاعة على الإعراب عنه للسبب الذي ذكرناه آنفاً.

وقبل أن نشرع في تنفيذ نيتنا وهي وصف الحالة التعسة المتأخرة التي عليها نحن أنصار سموكم نودّ أن نشير في البداية إلى العلاقة التي تربط أسرة سموكم بطائفة خوجا، وهذه العلاقة هي ما يقال من أن أسرة سموك من سلالة الإمام علي، ومن سلالة الحشاشين في جبل الموت ورئيسهم حسن بن الصباح المعروف باسم شيخ الجبل، وأنصار سموكم هم اسمياً طائفة من الطوائف الإسلامية، ولكن المبادئ التي تسرّبت إليهم اليوم انتهكت حرمة المذاهب الإسلامية الجوهرية، وقد جاء هذا من الاختلاط القديم بالطوائف التي أشرنا إليها، لأن المعروف أن شيوخ الجبل يعترفون جهاراً بأنهم من أدق المحافظين على المبادئ الإسلامية، ولكنهم في الواقع ألد أعدائها في الباطن، ومن البديهي أن الدين الإسلامي يقضي على معتنقيه أن يعتقدوا بإله واحد، ويؤدون ما فرض عليهم من صوم وصلاة وحج، فكيف يستطيع أنصار سموكم أن يعملوا بالوصية الأولى الهامة في حين أن مرسليكم الذين يتقاضون أجرهم من خزائنكم والذين يعملون بإرشاداتكم ينادون في كل جمعية «دار العبادة» في الناس، بأن سموكم الإله القدير الذي يجب أن تقدم إليه وحده كل عبادة وصلاة.

والواقع أن ما ينادي به وعاظكم يعمل به أنصاركم، فيقدمون صلواتهم إلى شخص سموكم بصفتكم الإله الأعلى. أما فيما يتعلق بالقرآن الكريم فإن سموكم لا يستطيع أن ينكر بأن الشهود الذين تقدموا في قضية «هجي بيبي» وهم من أنصاركم جاهروا بأن لا شأن لهم بالقرآن، وفوق ذلك فقد نصحتم سموكم أنصاركم باتباع تعاليم «بير سدروين» وهي تعاليم تشير بصريح العبارة لأنصاركم أن القرآن لم يوضع لهم، وهناك أيضاً الفرمان الذي وجهتموه إلى أنصاركم منذ بضع سنين، وفحواه أن القرآن الحالي ليس صحيحاً. وزكاة الإسلام التي هي هبة اختيارية قدرها اثنان ونصف في المائة من الدخل تعطى حسب أوامر القرآن صدقة للفقراء والمعوزين وأبناء السبيل وغيرهم، ولكن إخواننا الفقراء يرغمون على أن يعطوا نصف دخلهم لله في شخص سموكم، وهذه الجبايات تدفع نقداً وعيناً، ويدفع أهل كراتشي وحدهم ٢٠,٠٠٠ روبية، ناهيك بالبلدان الأخرى التي تدفع مثل هذا المبلغ، وهذا معناه أن الجزء الأكبر من الأموال التي حصل عليها أنصاركم بعرق جبينهم تدفع بانتظام لسد نفقات سموكم الشخصية، ويضاف إلى هذه الإعانات المنظمة ما تستولون عليه سموكم في كل زيارة من الأموال والحلي وغيرها من الهبات الثمينة، وقد تكرمتم في سنة ١٩٢٠ فزرتم أنصاركم في كراتشي وحملتم معكم خمسة عشر لكاً من الروبيات بعد إقامة لم تستغرق ٢٦ يوماً، ولما عدتم سموكم إلى كراتشي بعد ذلك بعامين لمقابلة ولي عهد إنجلترا دفع إخواننا لكم ما لا يقل عن ١٥٤,٠٠٠ روبية، مع أن سموكم لم

تمكثوا معهم أكثر من ساعتين، ولا نخال سموكم تجهلون أن العالم اليوم يعتمد على المال، فإذا كانت الأموال تبتز من طائفتكم بهذه الحالة فكيف تنتظرون منها أن تثبت في وجه منافسات الطوائف الأخرى أو كيف تستطيع السير مع ما يقتضيه الزمن من الرقي والتقدم.

أما فيما يتعلق بفريضتي الصوم والحج، فلسنا في حاجة إلى القول بأن أنصاركم لا يقومون بهاتين الفريضتين، وإنا إزاء الابتزاز المستمر ونضوب الموارد الاقتصادية للطائفة، نودّ أن نسأل سموكم عن التدابير التي اتخذتموها لإعلاء شأن الطائفة ورقيها، وهل لكم أن تخبرونا عن المبالغ التي تنفقونها في سبيل التعليم وإعانة الفقراء، وهي المبالغ التي ابتزت من أفراد الطائفة؟ وهل لكم أن تدلونا على قرية واحدة أو مكان شيدتم فيه جامعة أو مدرسة عالية أو مستشفى أو ملجأ لإعلاء شأن طائفتكم وترقية شؤونها الفكرية والجسدية والروحية؟ وهل يجد أبناء أنصاركم الذين يرغبون في ترقية مداركهم من سموكم ما يساعدهم على الالتحاق بأيّ معهد علمي في العالم. أما المدارس الوحيدة التي توجد هنا فلا تخرج عن مدارس ابتدائية تقوم الطائفة نفسها بسد نفقاتها، وفي هذه المدارس لا يتلقى الأطفال التعساء من التعاليم إلاّ ذلك المذهب المروع الذي يعلمهم أن سموكم هو الإله القدير الذي يجب أن تقدم إليه كل عبادة وقربان، إنكم تطلقون على أنصاركم وتدعونهم باسم أولادكم، ولكن هل خطر ببالكم أن تقوموا بواجبكم الأبوي بما يكفل لهم حاجاتهم في الحياة؟ ألم يؤنبكم ضميركم وأنتم ترفلون في حلل السعادة والهناء في أوروبا، فسألتم أنفسكم عما إذا كان أطفالكم الذين خلفتموهم وراءكم في بلادهم لديهم ما يسد الرمق؟ وهل تحولت أفكاركم وأنتم تعيشون عاماً بعد عام في قصور شامخة بالبلدان الأجنبية فذكرتم أولادكم وقدمتم إليهم ما هم في حاجة إليه من مأوى؟ ألم يخطر ببالكم وأنتم تبعثرون الملايين من الجنيهات في ميادين السباق في البلدان الأجنبية وتنفقون عن سعة لصيانة الجياد وتكاليفها أن الأموال التي تبعثرونها ذات اليمين وذات الشمال هي من دماء أولادكم، وأنها السبب فيما هم فيه من الفقر المدقع والشقاء.

لقد ساعدكم الحظ وحصلتم من العلوم والمعارف على قسط يساعدكم على معاشرة أرقى الهيئات، ولكن أليس من نكبات الدهر أنكم تستخدمون هذه المميزات نفسها بمهارة وحذق لحرمان أولادكم من العلم، لكي تجعلوهم دائماً يتخبطون في دياجير الجهل، إنا نناشد سموكم أن تبرروا دعواكم بأنكم الرئيس الروحي لألوف من أتباعكم، بعمل ما يخفف عنهم عبء الجهل ويرفعهم إلى مستوى أعلى، ولما كنتم الرئيس الروحي لطائفتنا، ولما كنتم تدّعون أنكم من سلالة النبي نفسه، فهل لنا أن نسألكم عما تصنعونه لإعلاء شأن الإسلام في أوروبا حيث تقضون معظم حياتكم هناك، وهل لنا أن نعرف هل تلقون محاضرات عما في الإسلام من مبادئ سامية، وهل تبررون مركزكم الذي تشغلونه بما تقدمونه من المثل الأعلى في حياتكم؟وإذا كنتم لا تفعلون شيئاً من ذلك فهل لنا أن نسألكم عن الغاية من إقامتكم الدائمة في أوروبا بعيداً عن أنصاركم، وهل السبب الوحيد في ذلك ولوعكم بميادين السباق وما في أوروبا من ملاهي ومسرات، مع أن سموكم لم تؤسسوا معهداً علمياً أو طبياً لتثقيف عقول الطائفة، إلاّ أنكم قطعتم خطوة واحدة لتتخذوها دليلاً على اهتمامكم الشخصي بشؤونها، فأسستم مجلساً غايته الظاهرة إدارة شؤون طائفتكم، ولكن الواقفين على بواطن الأمور لا

يسعهم إلاَّ القول بأن الغاية الحقيقية من هذه المجالس إنَّما هي القبض بيد من حديد على زمام الطائفة ولا أدلّ على ذلك من أنه لا يجوز لهذه المجالس أن تدخل تعديلاً إلاَّ بموافقة سموكم، كما أن لكم السلطة الوحيدة في تعيين وإقالة أعضاء هذه المجالس الذين لا يسعهم في هذه الحالة إلاَّ أن يكونوا معبرين عن رأي سيدهم طائعين له طاعة عمياء.

وبعد أن أشار الموقعون على الخطاب إلى الأوامر القاسية والقوانين المُجحفة التي يخضعون لها، ومنها حرمانهم من أن تكون لهم علاقة بالمنشقين على الطائفة، سواء في أفراحهم وأحزانهم، قالوا: إن الغرض من هذه المجالس والقوانين هو حمل الطائفة على الاعتقاد بألوهية سموكم وبذل كل مجهود للقبض على زمام الطائفة روحياً وجسدياً والمحافظة على الأموال الطائلة التي تحصلون سموكم عليها بهذه الطريقة.

وفي الختام نلتمس من سموكم بإلحاح أن تأمروا بإدخال التغييرات التالية إذا لم تكن لديكم رغبة أو سلطة للقيام بعمل صريح يعود بالنفع على طائفتكم:

(١) أن تتنازلوا وتتنصلوا من جميع الألقاب المقدسة التي تطلق عليكم، وهي في الواقع من حق الله القدير وحده.

(٢) أن تغيروا «الجمعية خانات» إلى المساجد التي تصح فيها وحدها إقامة الصلاة.

(٣) أن تضعوا الوسائل اللازمة لكي يتلقى جميع أنصار سموكم التعاليم الإسلامية.

(٤) أن تمنعوا منعاً باتاً وترفضوا جميع الهبات سواء كانت نقداً أو عيناً.

(٥) أن تتكرموا بإلغاء المجالس والقوانين إلغاء تاماً، ونلفت نظر سموكم بكل احترام إلى أن هذه الأمور من حق الطائفة التي لها وحدها حق حكمها بنفسها وإدارة شؤونها، فإذا تفضلتم سموكم فقبلتم طلباتنا هذه فإننا نكون مغتبطين أشد اغتباط، وتقبل يا صاحب السمو فائق احترامات خدامكم المخلصين. اهـ.

جوهرة في أديان القدماء

ولما كتبت هذا المقال حضر صديقي الذي اعتاد أن يحدّثني في مواضيع هذا الكتاب، قال: أنا أعجب لأمم الإسلام كيف يظهر فيها أمثال هذا، وكيف يزعم قوم منهم أن الإنسان إله؟ فقلت: إن هذا فرع من ديانات القدماء ودخل في دين الإسلام، وقد حلّ بالإسلام ودخل فيه ما حلّ بالديانات السابقة، ولكن الإسلام لمتانته وقوته قد فعل بتلك الضلالات ما يفعله البحر بما يرمى فيه من جيف الحيوانات. فقال: هذا جمال ونحن يعوزنا التفصيل بالدليل من التاريخ. فقلت: قد بحث العلماء في عصرنا عن أصل كل دين من أديان القدماء، كالبراهمة في الهند، وأتباع الديانة الهرمسية في مصر، والوثنية في اليونان، وهكذا النصرانية عند نشأتها. فهذه الديانات كلها بعد البحث عنها والتنقيب في آثارها وجد أن لكل منها وجهين: وجه ظاهر وهو الرموز والطقوس، ووجه باطن وهو المعبود الحق. خذ مثلاً كتاب «الفيدا» وهو المركب من أربعة أسفار المكتوب باللغة الفيدية، وهو السفر المقدس عند الهنود، وهو أقدم من كتب البراهمة، فهو يقول: إن الله واحد ويسمونه زيوس «الجوهر النقي غير المكشوف» وهذا في ديننا بمعنى «القدّوس الباطن»، ويصفونه بأنه القيوم بذاته الموجود في جميع

الكائنات، وكل كائن يستمد منه، ولقد ذكرت في غير هذا المكان شرح الفيلسوف المسمى «ماتو» الهندي لهذه الآية، فقال: «الكائن بنفسه الذي لا يمكن أن تصيبه الحواس المادية بل الروح فقط، وهو المنزّه عن الأجزاء المنظورة، أزلي سرمدي، روح الكائنات، الذي لا يمكن العقل أن يدركه على ما هو عليه»، ولا زال هذا الدين على بساطته وسهولته كالإسلام في العصور الأولى حتى نشأ البراهمة والكهنة، وتألفت مراتبهم وخصوا أنفسهم بالاطلاع على الحقائق العلمية ودراسة العلوم الطبيعية والرياضيات ومرتاضي النفوس، بحيث يفعلون العجائب والغرائب أمام شعوبهم، فوجدوا أنهم بذلك أعلى وأسمى من تابعيهم، فانتهزوا الفرص ليطمسوا الأبصار بطمس الحقائق حتى يقدسهم الشعب، فأخذوا يأمرونهم بذبح الحيوان، وانتقلت منهم هذه الحالة إلى المصريين والعبرانيين.

وكان النساك قبل ظهور أولئك البراهمة والكهان ينقطعون إلى النسك والعبادة، ويفسرون لتلاميذهم غوامض أسفار «الفيدا» وما فيها من التعليم السري، ويدرسون لهم قوى الطبيعة الغامضة التي تظهر اليوم بعض أسرارها على أيدي بعض نساك من الهند ومن على شاكلتهم ممن سأتكلم عنهم في سورة «الإسراء» عند مسألة الروح.

إن هذه العلوم التي كشفها القوم كانت في أقدم العصور باباً من أبواب السعادة ورقي النوع الإنساني، ودام الأمر على ذلك قروناً وقروناً، ولكن الخلف لم يكونوا كالسلف، فإن البراهمة الذين جاؤوا أخيراً بعد الأولين جعلوا هذه القوى التي كسبوها ذريعة لاستعباد العامة واستخدامهم في شهواتهم، فانحط الشعب الهندي. إن هؤلاء جعلوا ما كان سلماً للرقي الإنساني سبباً لعلوهم هم وانحطاط شعوبهم وذلهم واستعبادهم، وقد ابتدع هؤلاء البراهمة «التثليث» ولقد ثبت كما قدمنا أن دينهم القديم لبث أحقاباً وأحقاباً وهو دين توحيد لا شرك فيه، ولما طال عليهم الأمد قالوا: إن هذا العالم الذي نعيش فيه مركب من ثلاثة جواهر: جوهر نراه وهو المادة. وجوهران لا نراهما وهما العقل والنفس. وهذه الثلاثة حاصلة في الإنسان، فله جسم وعقل ونفس، فالعقل به التدبير والنفس بها الحياة، وهذه الثلاثة واحد، فهاهنا تثليث وتوحيد، ويجعل بعضهم بدل النفس الجسم الأثيري اللطيف، لأن النفس تدبره فهذا الجسم الظاهري له نظير لطيف يبقى بعد الموت، وما الكون كله إلاّ روح دائمة الرقي، وما الحياة إلاّ عبارة عن ترقي ذلك الروح، وما المادة إلاّ رمز تلك الروح وصورتها المتقلبة، وما الإنسان إلاّ عالم صغير أشبه العالم الكبير، فهو يترقى ويرجع إلى الله الذي هو الموجد لهذه الكائنات.

ولما أخذوا يبحثون في الله قالوا إن ديانتنا البرهمية مؤسسة على التثليث، أي: تثليث «برهم»، أي: الجوهر الأزلي المنزه عن المادة الذي منه صدرت الأقانيم الثلاثة، وهي: «براهما» و«فيشنو» و«سيفا»، فهذه صفات برهم الثلاثة، فبراهما الخالق، وفيشنو الحفيظ، وسيفا التحول والتغير. هذه هي الصفات الثلاث لبرهم فهو خالق وهو حافظ لخلقه وهو محوّل هذه الخلائق من حال إلى حال، وهو على ذلك دائماً يخلق ويحفظ ما خلق إلى أجل، ثم يحوّل تلك المخلوقات على سنن دائم، فهو ذو أقانيم «صفات ثلاث» وهو واحد، فهو ثلاثة من وجه؛ واحد من وجه، كما أن هذا العالم ثلاثة من وجه؛ واحد من وجه.

وهكذا الإنسان الذي روحه شعاع من الله عندهم، ثلاثة من وجه؛ واحد من وجه، وهذا الإنسان يسير في العوالم المحسوسة والعوالم الغيبية أجيالاً وأجيالاً ثم يرجع إلى ربه، ثم توسعوا في ذلك فجعلوا الشعب الهندي ثلاث طبقات ووحدوا الإله سراً وأظهروا التثليث للأمة، وأتوا بطقوس مادية وأحاديث وهمية وحكايات خرافية، وسلبوا الشعب قواه العقلية فانحط أيّما انحطاط، هنالك ظهر «خريستا» أو «خريستوس» ٤٨٠٠ ق.م ومعناهما المسيح، وقد تقدمت تعاليمه في سورة «آل عمران»، ومن قوله: «إذا انحل الجسم بالموت، فإن كانت الحكمة متغلبة على النفس تطير إلى تلك الأقطار العلوية التي يعاين فيها الأتقياء الله ويدركونه، وإن كان الهوى متملكاً بعدلها يدخلها الله في عوالم تناسبها وتلاقي جزاءها في أسفل سافلين».

والشر الأعظم عنده أن من رام بلوغ الكمال فعليه أن يكتسب علم الوحدة التي هي أجلّ من الحكمة، فيتعالى إلى الموجود الأسمى الذي هو فوق النفس والفهم وهو مع كل نفس، إن في باطنك نوراً إلهياً ولكن قلّ من يكشف هذا النور في قلبه، فطوبى لمن يضحي بشهواته للموجود الأزلي الذي نشأت منه مصادر الأشياء كلها وبه كان العالم، فهذا المضحي يجد في ذاته سعادته وفرحه، إن النفس التي وجدت الله تعتق من الموت والشيخوخة والألم وتشرب من ماء الخلود. اهـ.

وقال في الأخلاق: «ليعلمن الصديق أن ما يجب تفضيله على كل شيء احترام النفس وحب القريب، فلا غيبة ولا خداع ولا نميمة، ولتكن يمينه أبداً مبسوطة للمعوزين، ولا يفتخرن قط بحسناته، وليحذرن حياته كلها من إيذاء أحد بوجه من الوجوه، فإن من حماية القريب وإسعافه تنشأ الفضائل التي هي أكثر قبولاً عند الرب جلّ وعلا». اهـ.

هذه هي تعاليم «خريستا» المجدد لدينهم، ولما تقادم العهد على هذا الدين ألحقوا به أيضاً أحاديث مضحكة خرافية، ورتبوا طقوساً مرسحية، لأجل أن يبقى الشعب على الجهالة، وملؤوا البلاد بالأصنام وأحاطوها بالخرافات ليبقى للكاهن السلطة على القلوب.

ثم بعد ذلك بنحو أربعة آلاف سنة ظهر «بوذا ساكياموني سودودانا» ابن ملك كابيلا فاستو، فرأى ما أحدثه البراهمة والكهنة من التغيير في المبادئ، كما حصل قبل ظهور «خريستو» إذ اتفق الكهنة مع الأشراف على التسلط وهضم حقوق الضعفاء، فكرهت نفسه العظمة الدنيوية وسئمت ملاذ الحياة فغادر بلاط أبيه وتوغل في الغابات الكثيفة، وبعد سنين كثيرة رجع وله من العمر ٣٥ سنة، وأخذ يعظ كما وعظ «كريستا»، فأيد كتاب «الفيدا» أخذ يزعزع دين البراهمة ويرفع الحواجز القائمة بين طبقات الأمة، وقد امتدت هذه الديانة في الصين واليابان فضلاً عن الهند ويدين لها الآن ثلث النوع الإنساني، ثم إن هذه البوذية لحقها ما لحق الفيدا أولاً، ودين خريستا ثانياً من عموم الأوهام والأحاديث الخرافية فتوارت تعاليم بوذا وقامت مقامها القرابين والأعمال الصبيانية، حتى إن بعض كهنة البوذيين اخترعوا آلة تنشر من نفسها في أوقات معينة تسبيحات الصلاة على حسب طلب المؤمن، بشرط أن يدفع قدراً من المال، ولقد بعدت البوذية اليوم عن مؤسسها بوذا كما بعدت المسيحية عن مؤسسها الناصري، وأخذت عبادة الأصنام تنتشر في طول البلاد وعرضها، حتى إنك لترى الهند والصين واليابان كلها ملأى بالأصنام، وفي هذه الأدوار الثلاثة كان رؤساء الدين في كل العصور يعرفون وحدة الله ويكتمونها

قال « كولوكا » الهندي ـ وهو من أشهر مفسري أسفار « الفيدا » وهو ذو مقام عظيم سام جداً عند الشعب الهندي ـ ما نصه : « إن المؤمنين القدماء مع أنهم جعلوا قوى الطبيعة آلهة متعددة لم يكونوا يعتقدون إلاّ إلهاً واحداً مبدع الكائنات ، أزلياً غير هيولي ، حاضراً في كل مكان منزهاً عن كل كدر وهمّ ، وهو الحق بالذات ومنبع كل عدل وحكمة المدبر لكل شيء والمرتب نظام العالم ، لا شكل له ولا صورة ولا حد ولا نسبة » . اهـ .

دين النصرانية

وأما دين النصرانية فإنه قد تقدم في ثنايا هذا التفسير مثل ما مر في سورة « البقرة » و« آل عمران » وأواخر « المائدة » وغيرها ، وأخذوا أقانيم الهند الثلاثة وشوّهوها وقالوا ثلاثة وواحد حذو القذة بالقذة .

دين الإسلام

هناك حدث في الإنسانية أمر جديد . اعلم أيها الذكي أن الله يعلم ضعف الإنسانية ، وأنه كلما نزل دين حرّفه الناس في الأرض على مقتضى جبلاتهم ، وما مثل الديانات إلاّ كماء المطر ينزل من السماء فيختلط بنبات الأرض ، ويصبح في الحنظل حنظلاً وفي النخل تمراً وفي البر براً وهكذا . ذلك أن أرضنا التي نسكنها ليست من أعلى العوالم ، بل يظهر أنها من عوالم متأخرة ، انظر إلى ما تقدم في سورة « الرعد » مما ورد في الحديث : « إن الله خلق شجرة يسير في ظلها الراكب مائة عام » ، وهذه يراد بها فتح باب البحث في العوالم المحيطة بنا ، فقد أظهر الكشف الحديث أن أرضنا وشمسنا بالنسبة للكواكب التي نراها لا شيء ، اقرأ ما تقدم في سورة « آل عمران » وغيرها من أن القوم كشفوا عوالم يصح أن تخلق فيها أمثال هذه الشجرة وما هو أعظم منها .

ولما كان نور الله يشمل العوالم كلها نزل منه شعاع إلى الأرض وهو العلم والدين ، فأخذ الناس ينزلون الحقائق على مقتضى نقصهم في الأرض ، هنالك جاء الإسلام فحلّ قيود الوثنية ، وهو الذي عدّل التعاليم المسيحية ، وبسببه انحلت الروابط والعوائق التي حبست عقول الأوروبيين كما تقدم في سورة « التوبة » ، فإنك تجد هناك ما فعله البابابوات ورؤساء الدين من قتل النفوس وحرق الأبرياء وظلم الملوك والسوقة ، فظهر أولئك الكتّاب مثل « روسو » و« فولتير » وقبلهما « لوثر » ، فزعزعوا صروح الأكاذيب في السياسة وفي الدين ، وتناقص بالتدريج بيع الغفران والتسلط على العقول ، كل هذا بدين الإسلام كما هو منقول هناك عن نفس النصارى الذين أسلموا .

أمم الإسلام المتأخرة

اعلم أن الأمم الإسلامية المتأخرة اعتراها ما اعترى الأمم قبلها حذو القذة بالقذة ، ولكن بأشكال أخرى ، فهذا الدين الذي دفع المسلمين إلى الانتشار في الأرض شرقاً وغرباً في قرنين اثنين ، وحوز علوم الأمم في قرنين أيضاً ، أخذت البدع والخرافات تنتشر بين أهله حتى انحطوا كما انحطت النصرانية قبلهم والبوذية من قبل الطائفتين ، ولقد دخل الاعتقاد بالألوهية أفراد من النوع الإنساني كما حصل زمن سيدنا علي كرم الله وجهه ، إذ أعلن جماعة أنهم يعبدونه إلهاً ، فقام هو فحاربهم ، وأخذت هذه الفكرة بعد انقراضهم تظهر حيناً بعد حين ، ومن قرأ كتاب « الملل والنحل » للشهرستاني يعجب كيف يكون في أمتنا من الخرافات والدسائس الحقيرة السافلة التي ترمي إلى التسلط على عقول

المسلمين ما يضارع ما فعله النصارى والبوذيون قبلهم، وكذلك كتاب «الفرق بين الفرق»، وإذا تركنا أصحاب تلك الفرق جانباً وأخذنا في دراسة أهل السنة والشيعة المعتدلين رأينا أموراً محزنة، إننا وإن لم نعبد الأصنام التي تقيد العقل وتوقف الذهن، قد وقفت عقولنا على بعض القشور الدينية، وتركنا الحقائق وجوهر العلوم والدين، فرجعنا القهقرى، وأخذت الأمم حولنا تحقرنا، فلحقنا بأمة الهند القديمة، إذن نحن المسلمين جئنا إلى الأرض وبسبب تعاليمنا أعتقت أوروبا واليابان وأمريكا، لأنهم تخلصوا من تعاليم رؤساء دينهم وأصبحوا أحراراً يسعدون في الدنيا بنعم ربهم، أما نحن الذين انتشر على يدنا عتق الأمم من الذل، فإننا وضعنا أغلالهم القديمة في أعناقنا، فهم بعلمنا أعتقوا، ونحن بجهلهم تمسكنا، فكان ذلنا وأصبحنا في سجن وفي عذاب الهون.

فلما سمع ذلك صاحبي، قال: هذا حسن، ولكن هل هذه الآراء يعرفها علماء أوروبا مثلنا؟ قلت: ألم أقل لك إن هذا منقول عنهم، وإن شئت فارجع إلى ما تقدم في سورة «التوبة». قال: قد تقدم أنك قلت إن الروح شعاع من الله، وهل أنت توافق على هذا؟ فقلت: أما أنا فإني لا أوافق على هذه الكلمة الموهمة، وأن الذي أعتقده اعتقاداً حقاً أن الروح أمر إلى الآن لم يعرفه أحد. ومن عجب أن علماء الأرواح قالوا هذا القول بعينه، فعلم الأرواح المنتشر الآن يقول كما جاء في نص القرآن أن أمر الروح مجهول، أما كونها شعاعاً من الله فهو فيه معنى الوثنية، لأن الله لا يُرى ولا شعاع له يُنظر لنا، لأنه لا يُرى البتة إلاَّ إذا أصبحنا في عوالم أخرى كما تقدم في سورة «الأنفال» في أوائلها.

قال: أنت نقلت عنهم أن العالم عندهم مركب من ثلاث: مادة ونفس وروح، فما معنى هذا؟ قلت: لا أحب الإطالة في ذلك ولكن القوم رأوا أن الإنسان أشبه بالعالم الكبير، فكما أن الإنسان مركب من جسم ونفس وعقل، هكذا هذا العالم، وهذا جاء عندهم بقياس التمثيل. وإذا كان هذا ليس راجعاً إلاَّ للعالم فهو أمر علمي يحتاج للبحث، فأما الأقانيم الثلاثة التي ترجع لخالق العالم التي قالها الهنود وتبعهم المسيحية، فإن الإسلام أول من هدمها، وهكذا علم الأرواح قد سخر منها، وانظر هذا المقال في سورة «التوبة» في مشاهدات «عمانوئيل» إذ قال: إن المسيحيين حين يموتون يبحثون عن الآلهة الثلاثة فلا يجدون غير واحد، فانظر كيف ذكر هناك أن المسيحيين مخطئون مذنبون وهو من خواصهم.

فقال: لقد جاء في هذه الآيات من آخر سورة «إبراهيم» ست مسائل: (١) إضلال الأصنام. (٢) وإقامة الصلاة. (٣) وقوله: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾[الآية: ٤٣]. (٤) ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾[الآية: ٤٣]. (٥) وكون ﴿الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾[الآية: ٤٩]. (٦) وكون ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾[الآية: ٥٠]، فأرجو إيضاح هذا المقام.

فقلت: أما إضلال الأصنام فقد شرحته الآن في هذا المقام. فقال: نعم حسبي.

فقلت: وأما إقامة الصلاة فاعلم أن الصلاة تقام لذكر الله، ولا جرم أن الله عزَّ وجلَّ هو المدبر العام الذي ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]، وكل شيء يسبح بحمده، فعبادة الأصنام تحبس النفس على شيء خاص، أما الصلاة فملخصها أن الإنسان يحمد رب العوالم كلها ويطلب منه الهداية، ومن قرأ هذا التفسير أدرك أن الصلاة كتاب يقرأ كل وقت ليذكر الناس بالعبادة العامة، وذكر الله عند كل حجر وشجر، وهذا قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]،

فالمسلمون بعدنا سيعلمون أن القبلة قبلتان: قبلة الصلاة لعموم المسلمين لتحفظ وحدتهم وتذكرهم بربهم، وهي الكعبة، والقبلة الثانية هي هذا الوجود كله فيتفكر المسلم بقلبه في جمال الزهر والنجم والبحر والجبل، وسيعلم المسلمون أنهم إذا صلوا وانتشروا في الأرض إنَّما يبتغون من فضل الله معاشهم وعلومهم في هذه العوالم المشاهدة، فهؤلاء هم الذين على صلاتهم دائمون. إن من قرأ هذا التفسير يرى ويعلم حق العلم أن المؤمن كل المؤمن من يأخذ لبه هذا الوجود، ويعرف الحكم العجيبة، فهذا لا تلهيه تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وكيف يلهيه ذلك وهو أينما توجه فإنه يرى بهجة وجمالاً في البر والبحر والشجر والحجر والمدر تذكره بربه، وهذا هو القرب، وأيّ سعادة أرفع من هذه، يكون المسلم في حقله ويجد في الشجر جمال ربه، ومستحيل أن يكون هذا إلاَّ بالعلوم كما بيناه آنفاً.

إن المسلم في الأعصر التي بعدنا إذا قرأ قصة سيدنا موسى وأنه سار بأهله في جهة طور سيناء وقد فارق شعيباً وأخذ زوجته معه وآنس ناراً ﴿ فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾[طه: ١٠] الخ، سيجد المسلم بعدنا أن هذه القصة أنزلت لتعليمنا، يقول الله لنا: إن موسى كان عند شعيب ولكنه لما سافر أخذ يتجه بقلبه إلى مطلوبه، ولم يمنعه الاهتمام بزوجته إذ جاءها المخاض من أن يكون قلبه متعلقاً بالوجهة الإلهية، فرأى النار تشتعل في شجرة العليق، و﴿ نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ ﴾[طه: ١١-١٢] فهو يريد قبساً من النار ليدفئ زوجته المسكينة الفريدة، وقلبه يريد نوراً إلهياً، فرأى النور الإلهي، هكذا يكون المسلم بعدنا، يدرس الوجود كله من علم الطبيعة والفلك، فهذا كله للأمور الدنيوية، وهو نفسه لمعرفة الله تعالى، بل للأنس به، بل للسعادة والبهجة والحبور، أضاء النور في شجرة العليق أمام موسى عليه السلام، وهكذا نور العلم والمعرفة يشرق في كل شجر وكوكب وحجر وبحر وبر، هذا هو الذي سيفهمه المسلمون بعدنا فتكون العلوم كلها للدنيا والأخرى، فالله تجلى فيها والحياة الدنيا بها. إذن يصطاد المسلمون طيرين بحجر واحد، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[العنكبوت: ٢٧]، فهذا العمل المزدوج الذي جمع الدنيا والدين معاً، وقد تكفل به القرآن وظهر في أمثال هذا التفسير.

وأما كونهم ﴿ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾[إبراهيم: ٤٣] فهذا نظير ما كانوا عليه في الدنيا، فإن أكثر الناس في الدنيا تأسرهم المادة ويستحوذ عليهم الغم والهم والحزن على ما فاتهم أو الفخر بما آتاهم، فأما أجسامهم ففي نصب وتعب، وأما عقولهم فهي خاوية من العلم والحياة الجميلة، وهذا شأن كثير من نوع الإنسان إن مسه الشر جزع، وإن مسه الخير منع، فالطائفتان في ذل وهوان من جزع وحرص.

وأما كون ﴿ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾ فهذا أيضاً ما كان حاصلاً لهم في الدنيا، فإن أكثر الناس مصفدون الآن في شهواتهم وعداواتهم وجشعهم وحرصهم وطمعهم، قد ملك عليهم سمعهم وأبصارهم، تراه قد غابت عنك جميع قواه العقلية لشهوة غلبت أو لطمع أو لحقد أو نحوها، فهذه أصفاد أشد ألف مرة من الأصفاد المحسوسة. إن الناس مصفدون وهم لا يعلمون ولا يشعرون ومن أكثر مصائب هذا الإنسان أنه مسجون ولا يعلم أنه مسجون، محقور ولا يعلم أنه محقور، ذلك بسبب الجهل العام، فجاءت الديانات ففشت فيها الخرافات والأوهام أيضاً.

وأما كون ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ فهذا اشتق مما هو حاصل في الدنيا كسوابقه، لأن اشتعال نار العداوات وقطران الغموم لأجل الحسد والحقد وما شاكلهما والأطماع التي لا سبب لها إلاّ الجهل هو نفسه الذي ينقلب ناراً تلظى في القلوب والأجسام والوجوه.

إذا عرفت هذا فهمت قوله تعالى بعد ذلك كله: ﴿ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ [إبراهيم: ٥١] هذا هو المعنى بحسب عقولنا نحن في الأرض، فلم تكن السرابيل من القطران ولا النار المغشية للوجوه ولا الأصفاد ولا الأغلال، إلاّ نفس ما كانوا عليه في الدنيا، قد انقلب بهذه الصورة فهم مصفدون الآن محترقون بنيران ليلاً ونهاراً وهم لا يشعرون، ولقد ورد في بعض الآثار أن المتكبرين يخلقون يوم القيامة كالذر تطؤهم الأقدام، فالكبر؛ واحتقار الناس؛ والانفراد عنهم بالقلب؛ هو الذي انقلب في الآخرة إلى صورة الحشرة التي لا يألفها الناس ولا تألفهم، بل يدوسونها بأقدامهم، بل جاء في كتاب «الحسبة في الإسلام» ما نصه: «وفي الحديث: يحشر الجبارون والمتكبرون على صور الذر يطؤهم الناس بأرجلهم» في صفحة ٢٧٠، طبع عيسى بن رميح من أهالي نجد.

فقال صاحبي: ماذا تقول في قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا ﴾ [المائدة: ٣٧].

قلت له: إن الناس في الدنيا يطلبون الخير، ولكن الخير نفسه يحبسهم كمثل دودة الحرير تغزله ثم تموت فيه؛ تريد أن تخرج فلا تقدر. قال: أوضح هذا المقام. قلت: إن هذا يوضحه جسم الإنسان الذي هو كتاب مفتوح. قال: وكيف ذلك. قلت له: ثلاث طبقات، وهي: الرأس والصندوق والبطن، وفيها: (١) العقل. (٢) القلب. (٣) البطن والفرج. ولكل من هذه الثلاثة فضائل ورذائل قد تقدمت في سورة «آل عمران الآية: ٦» عند قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾، فللقوة العاقلة رذائل كالحمق والسفه، وبقوة الغضب المسلطة على دم القلب بالغليان يحصل الغضب والذم والحقد وهكذا، وللشهوة المسلطة على البطن والفرج رذائل مثل الحرص والادخار وهكذا.

إن الإنسان يملك المال فيملكه المال إذا يطمع في غيره ويحرص عليه، فما مثله إلاّ كمثل السمك يودّ لو يدخل في الحوض الذي بجانب البحر المعد لصيده، حتى إذا دخله لم يقدر على التخلص منه، فالإنسان يتعاطى الطعام لبقائه، وشهوة الفرج ليبقى له نسل بعد موته يحمل صورته التي هي ظل لوجوده، وبقوة الغضب المهيجة للدم الذي يديره القلب يدافع العدو الداخلي في أمته والخارجي عنها محافظة على شخصه بالأولى، وعلى أمته بالثانية، وقواه العاقلة تدبر الأمور كلها الشهوية والغضبية.

فقال صاحبي: إذا جعلت هذه الشهوات كلها أغلالاً وأصفاداً، فأين أصفاد العقل، وما الذي وقع فيه المسلمون منها؟.

قلت: إن أصفاد العقل أصعب مراساً وأقوى واشد. قال: أوضح ما تقول، وأرجو أن توجزه. فقلت: إن المسلمين أقرب إلى الفضائل وأبعد عن الرذائل، وما أوقعهم في الذل إلاّ أصفاد العقل وأغلاله، ألا ترى أنهم عكفوا على قشور العلم وتركوا مواهبهم، فترى الشافعية والحنفية والمالكية والحنبلية والإمامية والزيدية والشيعة وجميع فرق المسلمين أصبحوا أسرى التقليد لأقوال الأئمة رضوان الله عليهم، ولكنهم لا يتزحزحون عنها قيد أنملة.

فقال: أتريد أن يترك الناس المذاهب، إن هذا يناقض كل هذا التفسير.

قلت: كلا ثم كلا، بل أقول إن الأئمة رحمهم الله وكتب السلف بمثابة لبن الأم، فإذا ترعرع الطفل وبلغ سن الفطام حتم عليه أن يأكل من نبات الأرض وحيوانها. فما مثل المسلمين مع أئمتهم ومشايخ طرقهم إلاّ كمثل الأبناء مع أمهم، فإنهم يرضعون لسن معلومة، فإذا بلغ الطفل منهم سن الرضاع فعلى مربيته أن تمنعه الرضاعة، فإذا قرأ المسلمون المذاهب الشائعة في الإسلام، أو قرأ تلميذ الصوفي أوراد شيخه، اكتفى كل من هؤلاء بذلك، فهؤلاء أطفال رضع، وهل الأئمة حصروهم في هذه العلوم، وهل أحد منهم قال إن هذا هو دين الإسلام؟ كلا ثم كلا، إنَّما هي أحكام لأمور تقع بين الناس ولبعض الواجبات. أما بقية الدين فهو باق بحاله كالاعتبار بتاريخ الأمم والتذكير بأيام الله وجميع العلوم الفلكية والطبيعية والأخلاقية، فهذه هي الدين وهي متروكة، ألا ترى ما ذكرته لك من أن موسى نزل عليه الوحي بعد ما فارق شعيباً.

فقال: نعم، أنا كنت أريد أن أسألك عن هذا.

فقلت: إن هذه درس لنا، كأن الله يقول لنا: أيها المسلمون، هذا نبي أيدته بالوحي ولم أنزل الوحي عليه إلاّ لما انفرد في طور سيناء فليس تحت نظر شعيب. هكذا لا يجوز لشيوخ الطرق ولا لعلماء الدين أن يفهموا الطالب أنه دائماً محتاج إليهم، بل لا بد أن يطلقوا لهم الحرية فيرتقوا، وعلى ذلك يجب أن تؤلف كتب جديدة في كل جيل وقبيل، وأن تجعل الكتب القديمة لمجرد المراجعة، وعلى المسلمين في أقطار الإسلام أن يكون لهم مجلس عام يتبادلون فيه الآراء، وهذا المجلس يكون أهله مطلعين على سائر العلوم كرجال أوروبا، وبيدهم شهادات عالية، فهؤلاء هم الذين ينظرون في نفس المذاهب وفي طرق الصوفية وغيرها.

هذا هو الذي به تكسر الأغلال من أعناق المسلمين، وتفك الأصفاد عنهم، ويخرجون من نار الذل وعذاب الجهل. هذا ما فتح الله به، والحمد لله رب العالمين. انتهى.

الجوهرة الثالثة: في قوله تعالى:

﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾

يدعو إبراهيم الخليل ربه أن يجنبه الأصنام لأنها أضلت كثيراً من الناس، فعبادة الأصنام مبغضة، لماذا؟ لأنها تضل كثيراً من الناس. إذن الضلال هو الذي يجتنب وكل ما سبب الضلال فهو مبغض، إذن دين الله يجب أن يجتنب فيه كل ما يورث الضلال. إن الأصنام قد تقدم الكلام عليها في قوله تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾[يونس: ٩٢]، فقد جاء هناك ذكر الأهرام الثلاثة بمصر لأنها بنيت مقابر وعرة المسالك ضيقة الطرق، لتبقى الجثث وتكون آية للناس، فمن آيات الله في الأهرام أننا نلاحظ أنهم كانوا يرسمونها على الأحجار، ومعها نجم الشعرى المقدس عندهم للتبرك بها، ويضعون هذا وهذا مع الميت.

إن عادة الأصنام فيها الضلال من وجهين: وجه علمي ووجه اجتماعي. أما الوجه العلمي: فإن عابد الصنم يترك جمال الوجود ولا يرى كمالاً إلاّ في معبوده، وهذا حصر للفكر الذي خلق قابلاً لكل كمال.

فأما الوجه الاجتماعي: فإن السدنة والقائمة بأمر الصنم وما حوله يكون التقديس راجعاً إليهم محصوراً فيهم كأنهم خلفاؤه، وهذا يقعد بهمم الشعب عن المعالي، كما اتفق لقدماء المصريين الذين كان العلم غالباً محصوراً في كهنتهم، والشعب كان خاضعاً، وزمام الحكم بأيدي هؤلاء القادة، فالوجه الأول حصر العلم، والوجه الثاني حصر القيادة في طائفة خاصة.

أما الإسلام فقد جاء لشيوع العلم، ويكون القواد حسب الاستعداد، ولما كان ديننا دين علم كان أول ما نزل قوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾[العلق: ١] الخ، لذلك شرع صلى الله عليه وسلم يأمر بتعليم القراءة والكتابة بعد أيام الهجرة.

أيها المسلمون، لم تفعلوا ما فعل نبينا صلى الله عليه وسلم، هو أراد تعميم التعليم، ولكن أنتم لم تفعلوا، وهو أرسل رحمة للعالمين، ولذلك انتقلت الفكرة إلى أوروبا فأتموا ما ابتدأه المسلمون وعمموا التعليم إجبارياً.

أفليس من الضلال ترك الشعوب الإسلامية بلا تعميم تعليم؟. أليس أيها المسلمون ترك تعميم التعليم ضلالاً كالضلال الناتج من عبادة الأصنام. رحماك اللهم، ما عرف المسلمون قدر الإسلام ولا قدر القرآن.

أيها المسلمون، أيها الإمامية، أيها الزيدية، أيها الشيعة، أيها السنيون، إني أقرأ عليكم قوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٤ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠٥ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾[آل عمران: ١٠٤-١٠٦] إلى قوله: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾[آل عمران: ١١٠]، يأمرنا أن تكون منا أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ثم يقول: لا تكونوا كالأمم التي تفرقت، ثم يعدنا بقوله: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾، أمرنا الله بأن نتصف بهذا الكمال، وأمرنا بالاحتراس من التفرق، وبشرنا أننا سنكون متصفين بهذه الصفات التي هي صفات خير الأمم.

وهاأنا ذا أيها المسلمون أنظر في أمرنا، هاأنا ذا في البلاد المصرية وجدت في القرن الرابع عشر وآخر ما قبله، فوجدت الأمة متفرقة وإن تقاربت ديارها، متباعدة وإن اقترب دينها، متشاكسة غير متجانسة وإن اتحد دينها. يا ليت شعري، أما قرأتم هذه الآيات؟ أين الجماعة الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر فيكم؟.

أيها المسلمون، أوَليس من المؤلم لي ولكل عاقل أن هذه الأمة اختصت في أيامنا هذه أن علماءها يجهل بعضهم بعضاً، وكتب الشيعة مجهولة عند أهل السنة، والعكس بالعكس، أمة متقاطعة، كان للسابقين عذر في التقاطع لأمور حاصلة في زمانهم فأيّ عذر لنا الآن؟.

أيها المسلمون، إن الزمان قد استدار واستيقظ أهل الصين واليابان شرقاً واستيقظ أهل أوروبا غرباً، أمم ودول وممالك وأنتم بينهم، فوالله لئن لم يقم فيكم حكماء وعلماء يجمعون شمل التعليم والتربية بينكم ليحصدنكم الله من أرضه حصداً وليذيقنكم العذاب الهون بما كنتم تجهلون.

حكاية مع العلامة «ادوارد براون» الإنجليزي

حدثني العلاّمة «ادوارد براون» الإنجليزي المستشرق الشهير في أوائل القرن العشرين المسيحي قال: وكلت لي الحكومة الإنجليزية أمر البحث في أمة الإسلام أيمكن اتفاقهم أم هم محكوم عليهم بالتفرق والانحلال؟ قال: فتوجهت إلى بلاد الترك والفرس أيام السلطان عبد الحميد، وعاشرت طلبة الفرس وعلماءهم، فرأيتهم يكرهون أهل السنة كراهة شديدة، وسمعت تلميذاً متصوفاً يقول: لقد حاربت بسيفي مع الروس ضد الترك، وإني أفضل الروسي على التركي الكافر، لأنه من أهل السنة. قال محدثي: وأنا كنت موقناً أنه ما ذبح دجاجة مدة حياته، لأنه جبان، وإنما الذي أخذته من كلامهم جميعاً أن الاتحاد بين الأمتين مستحيل، وكتبت تقريراً للحكومة الإنجليزية بهذا، أما هؤلاء فإن الغباوة قد ملكتهم، وكيف يتذكرون حوادث مضى لها ١٣ قرناً كقتل الحسين وكأمر الخلافة، ويتركون الفرس يتغلغلون في بلادهم.

هذا ما قاله لي ذلك العلامة. وهاأنا ذا أنصحكم جميعاً، فأذكر الأمرين: طرق التعليم في بلاد الإسلام، وبيان الأمة التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

(١) ليكن التعليم في ديار الإسلام عاماً بين الرجال والنساء، والغني والفقير، إن سبب انتشار التعليم في العالم كله ديننا كما تقدم، فمن الغباوة والجبن أن ينعم به غيرنا ونعرى منه نحن.

(٢) ليكن مبدأ التعليم مماثلاً لسير القرآن، ومعنى هذا أن الرسول صلى الله عليه وسلم ابتدأ الدعوة بالسور المكية ١٣ سنة، وكلها حثّ على النظر في الشمس والقمر والشجر والنهر والسحاب والمطر والجبل والحجر والحيوان وهكذا، كان الصحابة رضوان الله عليهم حين يسمعون هذا النوع من العلم ينظرون هذه المخلوقات بأنفسهم لأنهم أقرب إلى الخلاء والجبال في أسفارهم وحضرهم، فلترسم أحاسن الصور الجميلة من نبات وحيوان وكوكب في الكتب لتكون مشوقة لهم، فلا تكون قراءة بعض آي القرآن حفظاً بلا عقل ولا فهم ولا هدى ولا نور، وبالجملة ليكن تعليم الناشئة شاملاً لجمال الطبيعة كلها إجمالاً؛ وللأخلاق بطريق القدوة الحسنة وقراءة الآيات، وفي القرآن من النوع الأول ٧٥٠ ومن الثاني مثله.

(٣) في ظني أن ٢٣ سنة كافية لتعليم المسلم كل ما يحتاج إليه، إن النبي صلى الله عليه وسلم دعا ٢٣ سنة، وكما كان يدعو أولاً للعلوم والأخلاق وآخراً بعد الهجرة للنظام والاجتماع وحفظ الدولة، وفي آخر التعليم الاختصاص بفن من الفنون لمنفعة الأمة كهندسة أو زراعة أو تجارة أو سياسة أو فقه وهكذا، فإذا أضيف إليها ٧ سنين التي هي مدة الطفولة كان تمام التعليم في سن ٣٠ سنة. بهذا نكون مماثلين للأمم حولنا، إنهم يقرؤون كل العوم التي أمر بالنظر فيها القرآن. إن تلك العلوم أساس لديننا خلافاً لما كان يقوله القدماء إنها ضد الدين، هذا خطأ اليوم لأن الذي هو ضد الدين العلوم المشحونة بالكفريات. أما علم الطبيعة والرياضة والفلك وما وراء الطبيعة، فهي علوم القرآن، فليتعلم المسلمون كما تعلمت الأمم التي أخذت العلوم عنا، فنحن أولى أن نقودهم لا أنهم يقودوننا.

(٤) ليدرس القرآن بطريق مشوق بحيث يعرف الطالب خلاصة السور وخلاصة القرآن كله مع السهولة، ثم سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ومجالسه وصور أحكامه وأعماله وأعمال أصحابه،

ثم ينظر الطالب علم الفقه نظراً عاماً مع ملاحظة خلاف الأئمة كيف اختلفوا في أهم المسائل ومن أيّ طرق اختلفوا ليكون ذلك نبراساً به يهتدون في درس الحياة التي نحن فيها.

(٥) هنالك يتخرج في بلاد الإسلام من الشيعة والسنية رجال متبحرون في العلوم وفي الدنيا، وهؤلاء يكونون مجتهدين.

(٦) ثم لينتخب كل قطر من أقطار الإسلام جماعة، وهؤلاء جميعهم يجتمعون بمكة لينظروا في شؤون الأمة كلها، فهؤلاء هم الأمة التي قال الله فيها: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾[آل عمران: ١٠٤]، وهم هم الذين يمنعون التفرق بعلمهم، وهم هم الذين تكون بهم الأمة خير أمة أخرجت للناس، أما اليوم فإننا لسنا الأمة التي هي خير أمة أخرجت للناس، والقرآن حق فلا بد من تحقيق مقصوده والعمل بأوامره ونواهيه.

(٧) بهذا أيها المسلمون تكونون خير أمة أخرجت للناس، أما الآن فإنكم متفرقون متشاكسون مختلفون متباعدون، أنتم اليوم طحين الرحى يكتفكم من الشرق الصين واليابان، ومن الغرب دول أوروبا، إن لم تقوموا بما ذكرته لكم فأنتم أول مضغة يمضغها الأوروبي والأسيوي.

(٨) إن المتعلم على الشريطة التي بينتها لا يكون متعصباً لمذهبه، بل يكون متعصباً لنفس الإسلام، الإسلام اليوم أكثر أهله جامدون، وبالجمود تفرقوا وانحصر همّ كل طائفة فيما قرأته من المذاهب، فأنتم إذن متفرقون، والله يقول: ﴿ وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾[آل عمران: ١٠٣]. أيها المسلمون، أنتم متفرقون إذن، أنتم مخالفون لكتاب الله، أنتم متقاطعون. إن أوروبا المسيحية متآلفون مع اختلافهم، متعاضدون مع تباعدهم، أما أنتم فالأمر بالعكس، فالطائفة التي أشرت لها هي التي تجمعكم بعد التفرق. نعم قام فينا الوهابية الذين يملكون الحجاز ونجداً الآن، وهي وإن أزالت الخرافات فقد وجب عليها أن تنظر في مثل ما نظرناه، ألا وهي مناظر هذه الدنيا وعجائبها. إن الوهابية برعوا في القسم السلبي من الإسلام، ولكنهم لم يراعوا القسم الإيجابي منه، أي إنهم حصروا همهم فيما ذكره العلامة ابن تيمية، وفاتهم أن العلم أوسع وأوسع. إن في القرآن ٧٥٠ آية تحث على النظر في علوم الأرض والسماء، وهذه العلوم لا يكفي النظر بالعين لها كما لم يكتف أحد من أمم الإسلام في أركان الإسلام الخمس بمجرد التلاوة، بل ألفوا جميعاً كتباً فيها، فلماذا يؤلف المسلمون في الفقهيات ولا يؤلفون في عجائب النباتات؟. هذا النقص لم يترك أمة من أمم الإسلام قديمها وحديثها، والوهابية وإن أصلحوا القسم السلبي فهم نائمون عن القسم الإيجابي، نجحوا في ترك الخرافات ولم يفكروا مطلقاً في معرفة جمال الله.

(٩) اللهم إني نصحت لأمتي وبذلت جهدي في النصيحة، ولم أكن في ذلك متكلفاً، وإنما أكتب بإعانتك وتسهيلك السبيل لي، وعلى القارئ لهذا الكتاب التبعة إذا قصر في النشر والتعليم والتربية. إن هذا المبدأ هو الذي به ترقى أمة الإسلام، هذه الأمة التي جعلها الله خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، هذه الأمة التي جاءت فكسرت الأصنام وأعطت العالم درسين: درس تعميم التعليم، ودرس عدم الاستبداد، بحيث يكون النوع الإنساني كله حراً، وتكون الرياسة تبع البسطة في العلم والجسم؛ لا بالنسب والحسب كما كان يفعل قدماء المصريين وغيرهم، والله هو الولي الحميد.

(١٠) فمن ذا الذي يقوم بهذا في الإسلام ؟ إن أول أمة تقوم بهذا في الإسلام ؛ وأول ملك أو رئيس جمهورية يقوم بهذا العمل هو المجدّد للإسلام ، وهو القائم مقام النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو الفاتح الأعظم . يا معاشر المسلمين إذا قامت فيكم أمة بهذا وسبقت غيرها ؛ وجب عليها أن تنصح إخوانها بهذا ، وإلاّ حاربتها على ذلك حتى تخضع . إن الزمان قد استدار ، وإن كان من قبلنا لا يهتمون بهذا فنحن نهتم به . إن المسلمين لم يكن هناك قديماً أمم تناوئهم ، أما الآن فالأمم شرقاً وغرباً تحيط بهم ، ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ۝٢٠ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴾ [البروج : ٢٠-٢٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : ١٠٥] اهـ.

(١١) يا الله ! إني قرأت آيتين في القرآن كتابك ؛ إحداهما للعموم وهي : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ [الحجرات : ١٣] ، وثانيتهما للمسلمين وهي قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠] ، ومثلها : ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ ﴾ [الأنفال : ٤٦] ، ومثلها : ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

وهاأنا ذا ألفت كتاب «أين الإنسان» لأجل أولاهما ، ونشر في الشرق والغرب ، هذا الكتاب لإصلاح نوع الإنسان كله وتعاونه ، كما نصحت في كتابك ، وإني أحمدك أن أهل أوروبا قابلوه بالقبول وكتب عنه علماؤها في إيطاليا وفرنسا وغيرها ، وستراه أيها القارئ في سورة «الحجرات» ملخصاً ، بأقلام علماء أوروبا مترجماً .

أما الأمم الإسلامية فهذا هو تفسير القرآن ، فهل من ممتثل ، وهل من مجيب لي ، يا أمة الإسلام أوروبا المسيحية قرأت دعوتي للاتحاد ولا ندري ماذا يصنع الله بها ، فماذا أنتم صانعون في دعوتي هذه إليكم للتعليم العام والنظام التام ، ولست أقول إلاّ ما قاله الله تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [التوبة : ١٢٩] اهـ.

الجوهرة الرابعة : في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾

آراء قدماء الهند في أدوار هذا العالم

إن هذه الآيات تفتح باباً لمجال الفكر والنظر ، وتذكرنا بما تقوله الأمم حولنا . إن هذه الأرض التي نعيش عليها مرت بها أمم وأجيال وعلماء لهم آراء في هذا الوجود ، فترى الإنسان متى فكر في هذه الدنيا يقول في نفسه متى خلقت؟ ومن أين خلقت؟ وماذا يكون بعد هذا الوجود؟ هذا سؤال يسأله الناس ولا مجيب ! .

أرض وسماء وأحياء وأموات ، إلى متى هذه الحال؟ وكيف خلق العالم؟ وبعد ذلك ماذا يكون؟ وهل للأرض آخر؟ وهل للكواكب نهاية؟ وما عددها؟ .

أما سؤال الأرض وهل لها آخر فقد أصبح معلوماً ، ولكنها أيضاً لا تزال لغزاً ، فترى الناس يسارعون إلى القطبين ليدرسوهما ، وإلى البحار والجبال ليكشفوهما .

إن الإنسان خلق مغرماً بالعلم والحكمة ؛ لا يفتأ يجدّ ولا يقف في السؤال عند حدّ ، ويظهر أن عقله قد صيغ من النور وخلق من الجمال ، فإننا لا نرى للنور آخراً ، وهكذا لا نرى لعقولنا نهاية ولا

لبحثها غاية، ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠] فهي فطرة نورية، الله لا نهاية له، وعقولنا تريد أن تسير إلى ما لا نهاية له، إذن هي من نور أشرف من ذلك الجمال الأكمل والجناب الأقدس، فهي تستوفز إلى كل جديد، وتفرح بكل رأي سديد وعمل شريف وحكم منيف، حتى إنك ترى رجال السياسة يكذبون ليكلموا الناس بما أحبته فطرهم؛ فيقولون: نحن نحب ترقية الشعوب والإنسانية، وهم يعلمون أنهم كاذبون، ولكن يريدون أن يسمعوا الناس النغمة التي تحبها فطرهم، فهو باطل أشبه بالحق. وملخص هذا أن عقولنا لا نهاية لمقاصدها، فهي تريد أن تعلم كل شيء ولا تقف عند حدّ.

ولما كان الله هو الذي خلقنا، وهو يعلم عقولنا، وأنها تسأل عن الماضي والمستقبل، أجاب نداء ضمائرنا، فقال مرة: ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقال هنا: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، فإذن هو يصنع في السماوات والأرض ما يصنع بالنبات والحيوان والإنسان، يموت الأبوان ويبقى الأبناء، كما تبدل سماء بسماء وأرض بأرض.

هذا هو الذي جاء في القرآن وأيده الكشف الحديث كما عرفت هنا، فأصبح الناس يدرسون النجوم من أنوارها، وبتحليل تلك الأنوار تراها تدل على عناصر كالتي في أرضنا، إذن هي مركبة، والمركب من شيء ينحل إليه، وهكذا رأوا شموساً ابتدأت تتكون، وأخرى قربت أن يتم تكوينها. هذا هو الكشف الحديث، وهو دل على ما كانت عليه أرضنا وكواكبنا قبل هذا الوجود.

إذن أصبح خلق العوالم في الدهور أشبه بخلق الليل والنهار؛ كل منهما يتبع صاحبه، فلولا هذه الغريزة فينا ما بحث أحد عن هذه العجائب، وسواء أكان هذا الاستنتاج من الإنسان صادقاً أم مشكوكاً فيه قد فعل ما يوافق طبعه على مقدار طاقته، ولا يكلف بغير ذلك في فطرته، هذا هو القرآن، وهذا هو العلم اليوم.

علماء الهند

ولما حامت هذه الآراء في عقول الأجيال القديمة؛ بحثوها وعرفوا منها ما لم تبق لنا الأيام إلاّ قليلاً منها. فانظر فيما سأقصه عليك: ذلك أنهم أسموا المعبود «برهما» وهو يدبر العالم مع آخر يسمى «فشنو» وآخر يسمى «سيفا». فـ«برهما» الخالق، و«فشنو» الحافظ، و«سيفا» الذي يفني ويعيد. ويظهر أن هذه الصفات كلها لواحد تعدّدت صفاته؛ فهو خالق وحافظ ومعيد بعد الفناء، ثم إنهم وصفوا الخالق بوصف جعلوه أشبه بالروايات التي يقرؤها الناس لحكمها، وهذه هي: «برهما وجد قبل الخلائق، ورفع الأرض عن الماء، وعمره مائة سنة، وكل سنة من سنيه تكون أيامها ولياليها من أزمان طويلة بحيث يكون كل نهار وكل ليلة (٤٣٢٠ ألف ألف) سنة من سنينا هذه، وفي آخر كل نهار ينتهي عالم من عوالمنا ويستريح الرب ليلة ثم ينشئ عالماً آخر، وهكذا».

ولست أقول لك إن هذا يناسب صفات الرب؛ كلا لأن ذكر الاستراحة وذكر عمره كل ذلك تعليم للجهال، وإلاّ فالله لا يتعب حتى يستريح، ولا أول له حتى يكون سنّه مائة سنة، ولكن المهم أن القوم في أثناء خيالهم؛ الذي هو في الحقيقة معبر عن الغريزة الإنسانية المغرمة بالوقوف على الحقائق على مقدار طاقتها؛ أدركوا إجمالاً ما في العلم الحديث وما أشار له القرآن.

إن علماء العصر الحاضر جعلوا لنفس الأرض عمراً قدره مئات آلاف آلاف، فهو يناسب تعبير قدماء الهند. هكذا جعلوا أن العالم يتكون ويبقى آلاف آلاف الآلاف، وهذا يناسب ما يقوله علماء العصر الحاضر، ثم تراهم يعبرون بمدة الراحة؛ وهي التي سموها ليلاً؛ من مدة بقاء العوالم في عالم الأثير بعد الخراب حتى تتكون ثانياً؛ وتستحق أن تدور وتجري، فهي أزمان متطاولة كأزمان دوراتها، فانظر إذا كان في خيالهم أن «برهما» مضت له مائة سنة، والسنة الواحدة مركبة من ٣٦٥ يوماً، واليوم الواحد مئات آلاف آلاف من سنينا، يحيش فيه عالم ثم ينطفئ في زمان يساوي الزمان الذي سموه نهاراً.

فيا ليت شعري كم من عوالم انطوت وعوالم ستأتي بعد عالمنا، إن العقل ليقف مكتوفاً أمام خيال الهند، وأمام ظنون علماء العصر الحاضر الموافق له، كل ذلك فتح من باب قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾، إن هذا يزهدنا في هذا الوجود إذ لا معنى لحب ما لا بقاء له. كواكب لا تدوم، وأرض لا تدوم، وشموس وأقمار لا تدوم، بل هي تطوى كطي السجل للكتب ولا يبقى إلاّ صانعها ومحركها ومنظمها ومبدعها. قال الشاعر:

وعلى تفنّن واصفيه بحسنه ... يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

تمَّ الجزء السابع من كتاب
الجواهر في تفسير القرآن الكريم
ويليه الجزء الثامن
وأوله تفسير سورة الحجر

فهرست الجزء السابع
من تفسير الجواهر